

المدينة العامة مكتبة الاسكندرية

رقم التصنيف : ٤٤٤٤٤٤

رقم التسجيل : ٤٩٢٥

المسائل في ملغز والافلاست

دكتور

محمد محمد زيتون

١٤١١هـ - ١٩٩٠م

بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله :

وبعد

فهذه دراسة أردت بها بيان حال المسلمين في المغرب والأندلس في الفترة المبكرة من تاريخهم المديد . وكيف استطاعوا أن يقيموا دولة للإسلام في هذه البلاد ويبلغوا دعوتهم وينشروا رسالتهم ويبينوا حضارتهم الزاهرة ؟ . مع توجيه جهد خاص لإلقاء الضوء على ما يثار حول بعض الشخصيات الإسلامية للتقليل من مكائنها أو النيل منها . ثم توضيح المواقف الفاصلة ومحاولة بيان الدوافع إليها والنتائج التي ترتبت عليها . حتى يتسنى لنا تلميح التاريخ الإسلامي في هذه الفترة من الترهات والأقاصيص والدهاوى الكاذبة التي ألصقت به مما يوجه إلى المسلمين عامة وإلى قوادهم العظام أو إلى الأهداف التي دفعتهم للوصول إلى هذه البلاد .

ثم إن هناك أمرا يتعلق بدراسة تاريخ المسلمين في الأندلس وذلك أن هذا التاريخ كان له جانب مضمئ وموثر في الحضارة الانسانية عامة وفي النهضة الأوربية الحاضرة بوجه خاص ، ومع ذلك لا يذكر من هذا الفضل إلا النذر اليسير .

والأمر الثاني : هو محاولة تقصي حقيقة الوضع الذي أدى إلى خروج المسلمين من الأندلس وعودتها إلى أحضان المسيحية وحل أهلها هل انتصر .

وذلك أيضا أمر مهم وخطير . ومن الواجب على المسلمين أن يعرفوا
الدوافع والأسباب التي أدت إلى هذه النتيجة المؤلمة لأنه مازال وسيظل
هناك أقطار أو أقليات إسلامية تتعرض أو قد تتعرض لمثل هذا الموقف
المحزن ، ومن الواجب على المسلمين تجاه أنفسهم وتجاه أبنائهم وأحفادهم
وأجيالهم القادمة أن يأخذوا حذرهم من مثل هذا المصير الحزين . وما ذلك
إلا بالوقوف على ما حدث في الأندلس حتى يأخذوا حذرهم ويحصنوا
أنفسهم ضد ما يحدث لبعض الأقليات المسلمة وربما يحدث في أقاليم أخرى ،
ثم عليهم أن يتخذوا الوسائل والمقومات المضادة للوقوف في وجه هذه
المحاولات ووأدها في مهدها . وسنقصر الحديث في هذا الجزء عن المغرب
على فتح أفريقية وعصر الولاة من بني أمية وبني العباس وعصر الأغالبة
وعن فتح الأندلس : على فتح الأندلس وعصر الولاة وقيام الدولة الأموية
إلى عهد عبد الرحمن الناصر .

والله الموفق والهادي إلى سواء الصراط

مدينة نصر رجب سنة ١٤٠٣ هـ مايو سنة ١٩٨٣ م

دكتور / محمد زيتون

تمهيد

معنى لفظ إفريقيا والمغرب وحدودهما

سمى الساحل الشمالى من قارة إفريقيا منذ القدم عدا مصر بأسماء مختلفة فكان هيرودوت يطلق لفظ إفريقيا على كل ما يلى مصر غربا من البلاد حتى المحيط الأطلسى . وعندما تغلب الرومان على الفينيقيين أطلقوا اسم إفريقيا على قرطاجنة وما حولها وهى (بلاد تونس الحالية) ثم أطلقوا على ما يليها غربا اسم نوميديا (الجزائر الحالية) وأطلقوا على ما يلى الجزائر غربا اسم مرطانية (وهى تشمل المغرب وموريتانية الحالية) ثم اتسع لفظ إفريقيا فشمئل مادخل تحت ساطة الروم من برقة إلى طنجة .

وعندما بدأ المسلمون فتوحهم للشمال الإفريقى أطلقوا لفظ إفريقيا على ما يلى طرابلس غربا ثم تحدد ذلك بعد الفتح فأصبح يشمل الإقليم الذى تتوسطه القيروان ويتسع من طرابلس حتى بجاية .

أما لفظ المغرب ، فهو عند الإصطخري يشمل كل ما يلى مصر غربا ويقسمه إلى قسمين : شرقى ، ويشمل برقة وإفريقية وتاهرت وطنجة والسوس وزويلة . وغربى وهو الأندلس (١) .

وإذا كان الإصطخري يدخل الأندلس فى المغرب فإننا نجد المقدس يدخل مصر كذلك فى المغرب . على اعتبار أن المغرب ما يقابل المشرق من البلاد (٢) فهو يشمل مع ذلك صقلية وكل بقعة حل فيها المسلمون فى أوروبا الغربية (٣) .

(١) الممالك والممالك الإصطخري ص ٣٣ .

(٢) أحسن التقاسيم للمقدسى ص ٢١٧ - ٢١٨ .

(٣) التعريف بالمغرب لمحمد القاسى ص ٧ .

ثم إذا أرادوا تحديد جزء من هذا الكل قالوا : رقة للقسم الشرقي من ليبيا الحالية وطرابلس للقسم الغربي منها . وقالوا : إفريقية لتونس الحالية مع الناحية الشرقية من القطر الجزائري وقالوا : المغرب لما يلي ذلك من إفريقية الشمالية ، وسموا أسبانيا والبرتغال الأندلس .

وعندما أخرج المسلمون من الأندلس صار لفظ المغرب يطلق على القطر التونسي ويسمى المغرب الأدنى وعلى القطر الجزائري ويسمى المغرب الأوسط وعلى القطر المغربي ويسمى المغرب الأقصى ثم صار المغرب الأدنى يسمى : تونس . والأوسط : الجزائر . والأقصى : المغرب بدون نعت ولا وصف (١) .

(١) أنظر : فتح العرب للمغرب د . حسين مؤنس ص ٤ ، المغرب الكبير د . عبد العزيز سالم ص ١٢٥ ، والمرجع السابق نفس الصفحة .

الفصل الأول

الفتح الاسلامى فى أفريقيا

فتح برقة (١) :

لم يذكر أحد من المؤرخين القدامى أو المحدثين سوى الواقدي استعانة حاكم الاسكندرية بحاكم برقة حين الفتح العربى فقد أرسل أرسطوبوليس (٢) هدية إلى الملك صاحب برقة وأرسل إليه يعلمه بما فعله العرب فى مدة قبضتهم وانهم قد أتونا . . . وأخذوا مصر منا وأخذوا ملكنا وحكموا فى بلادنا بعدنا ولا بد لهم منك ولا غنى لهم عنك والصواب أن تشمر لهم عن اللحم وتجدنا على من بغى وأجرم فمن جيرانك وكنسنا جندك وأهوانك والسلام ، (٣) .

ثم يصور الواقدي موقف صاحب برقة من هذه الهدية والرسالة بأنه عرض الأمر على أرباب دولته وقال لهم ماتزون فيما كاتبكم به صاحب مصر والاسكندرية ؟ فقالوا له أيها الملك ما زالت الملوك يستنصر بعضها ببعض والذى أشار به هو الحق وإن العرب إذا ملكت ملك القبط فلا بد لهم منا والعبور إلى بلادنا تابعك إليه بنجدة ونكون نحن وهو يدا واحدة فالسيح يعطى النصر لمن يشاء فأجابه إلى ذلك وأمر ابن أخيه اسطفانوس

-
- (١) - قة : كانت قبل الفتح العربى تسمى انطابلس وهى كلمة رومية ومعناها خمس مدن وأسمائها الآن طوكرة ، شعبات ، وبنغازى ، وسوسة ، والمرج وكانت لها أسماء أخرى يونانية أنظر الطاهر الزاوى تاريخ فتح العرب فى ليبيا ص ٣٢ .
- (٢) حاكم الإسكندرية وهو ابن المقوقس فتوح الشام - ٢ ص ٥٤ . الواقدي
- (٣) فتوح الشام الواقدي - ٢ ص ٥٢

أن يمضى في أربعة آلاف وأمره أن يسير لمعاونة صاحب الاسكندرية (١).
ومن هنا نرى أن إصرار عمرو بن العاص على مواصلة الفتح غربا بعد
فتح مصر والاسكندرية أمر كانت تدعو إليه ضرورة تأمين فتح مصر
لآسيا وقد ثبتت الاتصالات بين حاكم الاسكندرية وحاكم برقة وتعاونهما
لأجل صد جيش المسلمين ومدافعهم عن البلاد .

يضاف إلى ذلك رغبة عمرو بن العاص في مواصلة الفتح نشرا للدين
الذى يؤمن به وتبليغا للدعوة التى خرج من أجلها هو ومن معه من الجزيرة
العربية . ولم يسكن إصرار عمرو على مواصلة الفتح التماسا للبخارى التى تعود
عليه وعلى جنده من الغزو كما يردد ذلك بعض المستشرقين ومن يرى رأيهم
من المؤرخين (٢) فالخوف من احتمال مهاجمة الروم للمسلمين من الغرب
برأى ثبوت الاتصال بين الحاكمين ثم ما يتسم به عمرو من الحذر جعله يجعل
باستطلاع حالة الأقاليم المجاور لمصر والاسكندرية غربا وإرسال الطلائع
لمناقشته وجمع الأخبار والتقارير عنه فوجه عقبه (٣) بن نافع الفهرى
إلى زويلة (٤) وبرقة فافتتحهما ثم توجه عمرو بنفسه إلى برقة فصالح

(١) فتوح الشام للواقدي > ٢ ص ٥٢ .

(٢) أنظر المغرب الكبير > ٢ ص ١٤٢ .

(٣) ولد قبل الهجرة بسنة واحدة فتح المغرب لحسين مؤنس ص ١٣٠ هـ

أسد الغابة لابن الأثير > ٣ ص ٤٢٠ - ٤٢١ .

(٤) زويلة : مدينه من مدن فزان التمدية وتقع فى الجنوب الشرقى من مرزق

بنحو ١٥٠ كم وتبعد عن مدينة طرابلس إلى الجنوب الشرقى بنحو ٧٧٠ كم

طاهر الزاوى تاريخ الفتح ص ٣٥ .

أهلها (١)

وقد أقبل كثير منهم على الإسلام بل أسلم سكان برقة بقيادةهم للمسلمين مما جعل عمرو يرسل تقريراً إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يقول فيه « إنه قد ولي عقبة بن نافع الفهري المغرب فبلغ زويلة وأن ما بين زويلة وبرقة كلهم حسنة طاعتهم قد أدى مسلمهم الصدقة وأقر معاهدتهم بالجزية وأنه قد وضع على أهل زويلة ومن بينه وبينها ما رأى أنهم يطيقونه (٢) ، وبذلك صار ما بين برقة وزويلة سلم للمسلمين (٣) .

والذي يبدو لي أن أهل برقة التي كان « أكثر أهلها لواته البريرية » (٤) كانوا ساخطين على حكامهم البيزنطيين لعسفهم وظلمهم (٥) ورأوا في قدوم العرب إليهم ما يخلصهم من البيزنطيين كما أن منهم من قبل الإسلام وآمن به ولن نجد في تاريخ الفتح لأفريقية الذي استغرق أكثر من نصف قرن أن برقة قد انتقضت على المسلمين .

ورغم عسف البيزنطيين بهم فيبدو أن سلطتهم لم تكن قوية على أهل البلاد في ذلك الوقت فتراهم قد أرخرو عنايتهم لعقبة ثم قدم عمرو فعمد

(١) البيان المغرب لابن عذارى ج ١ ص ٨ وفي النسخة تخفيق لينيرو فنسال : توجه منها (أى مصر) عقبة بن نافع الفهري إلى لوبية وأفريقية فأنتتجما . ثم توجه عمرو بنفسه إلى برقة فصالح أهلها على الجزية .

(٢) البلاذري فتوح ص ٢٦٤ ، ٢٦٥ .

(٣) تاريخ الطبري ج ٤ ص ٣٥٠ .

(٤) كتاب العبر لابن خلدون ج ٢ ص ١٢٨ .

(٥) أنظر فتح العرب المغرب لحسين مؤنس ص ١٦ - ٢١ المغرب الكبير

السيد عبد العزيز سالم ص ١٤٣ ج ٢ ص ١٢٨ .

بنفسه الصالح مع أهل برقة حيث ، صالح أهلها على الجزية وهي ثلاثة عشر ألف دينار يديعون فيها من أبنائهم^(١) من أحبوا بيعه^(٢) .

وقد بدأ فتح برقة في سنة إحدى وعشرين هجرية كما يذكر ذلك اليعقوبي^(٣) والطبري^(٤) وتم خلال عام اثنين وعشرين وفقا لابن عبد الحكم^(٥) وابن الأثير^(٦) .

فتح طرابلس^(٧) :

بعد أن انتهى عمرو من عقد الصالح مع أهل برقة واصل السير غربا متجها نحو طرابلس ولما كان التزم الحذر فسار بالطريق الساحلي بمباشرة ليستولى على مافي طريقه مما بين برقة وطرابلس ثم أرسل عقبة إلى فزان^(٨) ففتحها ونجح في مهمته وأصبحت المنطقة الداخلية مأمونة المواقف لاخوف على الجيش الإسلامي أن يرقى من قبائها بعد أن استوثق من طاعة أهلها

(١) والظاهر أن هذه كانت هادتهم في أداء ما عليهم من ضرائب بالنسبة للروم فوافق عليها عمرو بالنسبة للجزية .

(٢) فتوح البلدان للبلاذري القسم الأول ص ٢٦٤ .

(٣) تاريخ اليعقوبي ص ١٧٩

(٤) تاريخ الطبري ص ٤٠٠ .

(٥) فتوح مصر لابن عبد الحكم ص ١٧١

(٦) تاريخ ابن الأثير ص ٣٠٠ .

(٧) مدينة قديمة فينيقية على أرجح الأقوال أو قرطاجنية . تاريخ الفتوح

العربي في ليبيا الطاهر الزاوي ص ٤٥ .

(٨) فزان : واحة من واحات طرابلس الجنوبية ومساحتها أكثر من ٢٠٠ ك

م ٢ أنظر الزاوي تاريخ الفتوح العربي ص ٨٩ .

وحياهم^(١) وقد استولى عمرو وهو متجه نحو طرابلس على سرت^(٢) ولبده^(٣) ثم انتهى إلى طرابلس وكانت حصينة مصورة فحضر الحصار عليها لامتناعها عليه . وبعد شهر من حصارها تمكن الجيش الإسلامي من فتحها بعد أن اقتحم بعض المسلمين المدينة من ناحية^(٤) البحر^(٥) .

وعندما تم فتح طرابلس أرسل عمرو حملة لتستولي على صبراته^(٦) وكان أهلها قد تحصنوا وأخذوا حذرهم عندما سمعوا بوصول جيش المسلمين إلى طرابلس ولكن عندما امتنعت طرابلس عليه وضرب عليها الحصار شعروا بالأمان ولم يعجبوا بجيش المسلمين ويبدو أن عمرا كان يتحسس أخبارهم أثناء الحصار فعندما انتهى من فتح طرابلس عاجلهم بجنده واتصر المسلمون

(١) فتح العرب للمغرب حسين مؤنس ص ٦٠ .

(٢) سرت : بضم السين مدينة قديمة تقع على الخليج المسمى بها الآن وهي تبعد عن البحر إلى الجنوب بنحو ٤ كم وتقع في الجنوب الشرقي من مدينة طرابلس بنحو ٥٥٤ كم وكانت محاطة بسور من القراب وهي غير سرت المعروفة الآن سرت الحالية انشئت في العهد التركي سنة ١٣٠٣ هـ الزاوي تاريخ الفتح العربي ص ٣٩ .

(٣) لندة : مدينة عظيمة أسسها الفينيقيون أوائل القرن العاشر قبل الميلاد . وتقع شرق مدينة طرابلس بنحو تسعين كم وقد أكل البحر جزءا كبيرا منها وبنيت مدينة الخمس في أوائل القرن التاسع عشر على جزء منها وبأفواضها . نفس المرجع السابق ص ٣٩ ، ٤٠ .

(٤) لم تكن مصورة من ناحية البحر . تاريخ الفتح العربي في ليبيا طاهر الزاوي ص ٤٧ .

(٥) كتاب العبر لابن خلدون ص ٢٠٨ وفتوح البلدان . البلاذري ص ٢٦٦ .

(٦) صبراته : مدينة قديمة ذات أثار تقع غربي مدينة طرابلس بنحو ٦٧ كم على ساحل البحر أنظر طاهر الزاوي تاريخ الفتح العربي ص ٥٢ .

عليهم وغنموا ما في بلدكم^(١). كما بعث عمرو أثناء حصاره لطرابلس قائده بسر ابن أرتاه إلى ودان^(٢) فافتتحها وبذلك يكون عمرو قد أمن جنوب طرابلس كما أمن جنوب بركة حين استولى على فزان وزويلة.

ولقد بعث عمرو بعد أن أتم فتح طرابلس إلى عمر بن الخطاب رضى عنه يستأذنه في فتح أفريقية ومواصلة الفتح غربا وكأنه كان يرى أن فتح بركة وطرابلس متمم لفتح مصر أو أن ذلك كان أمرا واجبا لأمن مصر لاسيما بعد أن ثبت استعانة حاكم الاسكندرية بحاكم بركة كما روى الواقدي.

ولذلك كتب عمرو إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يخبره بفتح طرابلس ثم يطلب منه إبداء الرأي في مواصلة الفتح إلى أفريقية يقول ابن عبد الحكم: أراد عمرو أن يوجه إلى المغرب فكتب إلى عمر بن الخطاب: إن الله قد فتح علينا طرابلس وليس بينها وبين أفريقية إلا تسعة أيام فإن رأى أمير المؤمنين أن يغزوها ويفتحها الله على يديه فعل^(٣). ولكن حديث ابن عذاري عن مضمون هذا الكتاب يضيف الكثير عن حالة أفريقية وحكامها وعدد سكانها ثم وسائل دفاعهم ومقدار استعدادهم وما يتصفون به من القوة وركوب الخيل فليس أمام عمرو إلا بلاد أفريقية وملوكها كثير وأهلها في عدد عظيم وأكثر ركوبهم الخيل^(٤).

وفي مضمون هذا الخطاب عن وصف استعداد أفريقية ما يوحى بأن

(١) ارجع إلى الكامل لابن الأثير ٣ ص ١٢.

(٢) ودان: مدينة قديمة من مدن البربر الجنوبية والجنوب الشرقي من مدينة طرابلس

بنحو ٧٦٩ كم وإلى جنوب سرت بنحو ٢٨٠ كم الزاوي تاريخ الفتح العربي ص ٦٠.

(٣) فتوح مصر لابن عبد الحكم. ص ١٧٢.

(٤) ابن عذاري البيان المغرب ج ١ ص ٨.

مواصلة الفتح يقتضى مددا جديدا لاسيما وأن أمامهم كثير من الملوك
الحاكمين لإعداد بشرية كثيرة ذات خبرة ودراية على ركوب الخيل . ولما
عمر بن الخطاب رضى الله عنه الذى قد طالت المسافة بينه وبين خط القتال
غربا فى فترة لا تتجاوز عشر سنوات استولت جيوش المسلمين خلالها على
الشام وفلسطين فحصرهم بركة فطرا بلس فى هذا الزمن الوجيز ، رأى التوقف
ولذلك لم يأذن لعمر بن العاص فى مواصلة الفتح إلى أفريقيا وكتب إليه إنهاء عنها
ويقول : ماهى بأفريقية ولاكنها مفرقة غادرة مغدور بها . وذلك أن أهلها
كانوا يؤدون إلى ملك الروم شيئا فكانوا يغدرون به كثيرا ، وكان ملك
الأندلس صالحهم ثم غدر بهم^(١) ويضيف ابن عبد الحكم بأن عمر ذكر فى
كتابه أنه سوف لا يسمح لأحد بغزوها مدة حياته ، ولا يغزوها أحد
ما بقيت ،^(٢) .

فأمر عمرو العسكر بالرحيل قافلا إلى مصر^(٣) ويضيف ابن عبد الحكم
سببا آخر حمل عمر على سرعة العودة إلى مصر وهذا السبب يقوى وجهة
نظر عمر بن الخطاب بعدم السرعة فى مواصلة الفتوح ومحاولة تثبيت الفتح فى
البلاد المفتوحة أولا : فقد أتى إلى عمرو بن العاص كتاب المقوقس يذكر له فيه
أن الروم يريدون نكث العهد ونقض ما كان بينهم وبينه وكان عمرو قد
عاهد المقوقس على أن لا يكتمه أمرا يحدث فانصرف عمرو راجعا مبادرا
لما أتاه^(٤) ، وإن كان ابن عبد الحكم يضيف إلى ذلك أن عمرا كان يواصل

(١) البلاذرى فتوح البلدان ص ٢٦٦ ولاشك أن ذلك يجعل لأهلها طبيعة
خاصة فى الحكم وفى سياستهم .

(٢) ابن عبد الحكم فتوح ص ١٧٢ .

(٣) ابن عذارى البيان المغرب ج ١ ص ٨ .

(٤) ابن عبد الحكم فتوح ص ١٧٣ .

استطلاع الأماكن المجاورة لطرابلس وسبراته فيقول ، وقد كان عمرو يبعث الجريدة من الخيل فصيبون الغنائم ثم يرجفون (١) .

ونستخلص من ذلك أن الأسباب التي حملت عمرا على الرجوع هي :

١ - عدم رغبة عمر بن الخطاب في التوسع في الفتح غربا بعد أن طالت المسافة وبعد خط القتال .

٢ - ما عرف عن أهل أفريقية من الغدر .

٣ - نقض الروم عهد عمرو بن العاص في مصر .

من أجل هذه العوامل مجتمعة عاد عمر إلى مصر بعد أن ترك عقبة بن نافع بركة يدعو إلى الإسلام حيث تمكن من كسب كثير من سكان البلاد من قبائل لواته ونفوسة ونفزاوة وهرأوة وزواغة فدخلوا في الإسلام وأصبحت بركة قاعدة لجيش المسلمين في غرب مصر (٢) .

فتح أفريقية : (٣)

غزوة عبد الله بن سعد بن أبي السرح :

عندما انصرف عمرو بن العاص عن طرابلس لم يهتم بشأن هذه البلاد ولم يهتف النظر عن الاتصال بأحوالها وإنما كان يبعث الجريدة من الخيل فيصيبون الغنائم ثم جمعون (٤) .

ولم يكن المقصد من هذه الطلائع هو الغنائم كما يعلل ذلك بعض

(١) نفس المرجع ص ١٧٣ .

(٢) السيد عبد العزيز سالم المغرب الكبير ص ٢ - ١٥٢ .

(٣) نعى بأفريقية هنا ما يسمى تونس .

(٤) ابن عبد الحكم فتوح ص ١٧٢ .

المؤرخين وإنما هو إشعار البلاد بقوة المسلمين ثم اسنطلاح الأخبار ومعرفة الأسرار حتى يتأتى أخذ الاستعداد الكامل لمواصلة الفتح .

ولكن بعد أن توفي أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى ذى الحجة سنة ثلاث وعشرين وبابح المسلمون أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه وفد عليه عمرو بن العاص وسأله عزل عبدالله بن سعد بن أبى السرح العامرى عن صعيد مصر وكان عمر ولاء الصعيد قبل موته فامتنع عثمان من ذلك وعقد لعبدالله بن سعد بن أبى السرح على مصر كلها (١) وقد تابع عبدالله بن أبى السرح خطة عمرو السابقة فكان يبعث المسلمين فى جرائد الخيل كما كانوا يفعلون فى أيام عمرو فيصيبون من أطراف أفريقيا ويغنمون (٢) .

ويزيد ابن خلدون أمر هذه الطلائع والجرائد توضيحاً فيذكر أنها كانت بأمر من عثمان وأن بعضها قد بلغ تعداده عشرة آلاف جندي ولكنها لم تقدر على التوغل فى أفريقيا لكثرة أهلها وأن نتائج ما حصلت عليه هذه الطلائع من معلومات توضح أن هذا الأمر فى حاجة إلى استعداد أكثر .
وهنا نلاحظ أن سياسة أمير المؤمنين عثمان بن عفان تختلف عن سياسة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فيما يتعلق بسير الفتوح نحو الغرب لأن عمر رضى الله عنه كان يرى الوقوف عند الحد الذى وصلت إليه الفتوح فى عهده وهو أفريقيا حتى تستقر الأمور .

ووجد عثمان أن ظروف الدولة تمسكته من مواصلة الفتوح فأمر باستئناف الفتوح من جديد وأصدر أوامره إلى عبدالله بن أبى السرح بزيادة نشاط

(١) السكندى القضاة والولاية ص ١٠ .

(٢) ابن عبيد الحسكفم فتوح ص ١٨٣ .

الطلائع على أفريقية فأرسل عبدالله بن أبي السرح عقبة بن نافع بن عبد القيس على جند وعبدالله بن الحارث على آخر وسرحهما فخرجوا إلى أفريقية في عشرة آلاف وصالحهم أهلها على مال يؤدونه ولم يقدرُوا على التوغل فيها لكثرة أهلها (١) ويتفق ابن خلدون مع ابن الأثير في إرسال الجرائد إلى أطراف أفريقية بأمر عثمان وإن كان يضيف إلى ذلك أن بعض هذه الجرائد كان على رأسها عبدالله بن أبي السرح وكان المسير له عمرو بأمر عثمان يقول دوفي سنة خمس وعشرين سير عمرو بن العاص عبدالله بن سعد بن أبي سرح إلى أطراف أفريقية غازيا بأمر عثمان وكان عبدالله من جند مصر فلما سار إليها أمده عمرو بالجنود فغنم هو وجنده فلما عاد عبدالله كتب إلى عثمان يستأذنه في غزو أفريقية (٢).

وبعد أن تأكد عبدالله من قدرته على فتح أفريقية بعد توفر وجود الجند الكافي لغزوها كتب إلى عثمان وأخبره بقرابهم من حزن المسلمين ويستأذنه في غزوها فندب عثمان الناس لغزوها بعد المشورة منه في ذلك (٣) ويصور صاحب رياض النفوس عزم عثمان على الغزو باستخارة عثمان لله وصلاته في المسجد بليل ثم استشارته للمسلمين فقد قال المسور، خرجت من منزلي بليل طويل أريد المسجد

(١) ابن خلدون كتاب العبر ج ٢ ص ١١٩ .

(٢) الكامل لابن الأثير ح ٣ ص ٤٢ ومن هنا نفهم أن عبدالله بن أبي السرح خرج في هذه الطلائع عندما كان أمر مصر إلى عمرو بن العاص وعندما هاد من هذه الطلائع وكان أمر مصر قد أسند إليه كتب إلى عثمان يحبذ له فتح أفريقية بعد أن كان يغزوا أطرافها .

(٣) ابن الحكم فوح ص ٢٨٣ .

فإذا عثمان رضى الله تعالى عنه في مصلى النبي صلى الله عليه وسلم يصلى فصليت خلفه ثم جلس فدعا ليلا طويلا حتى أذن المؤذن ثم قام منصرفا إلى بيته فقامت في وجهه فسلمت عليه فقال: يا ابن مخزومة واتكأ على يدي انى استخرت الله تعالى فى ليلتى هذه فى بعث الجيوش إلى افريقية وقد كتب إلى عبد الله بن سعد يخبر بخبره مع المشركين وغلهم وقرب حوزهم من المسلمين فعات خار الله لأمير المؤمنين قال فما رأيك يا ابن مخزومة؟ قلت اغزهم قال أجمع اليوم الأكبر من صحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم واستشيرهم فما اجمعوا عليه فعلته أو ما اجمع عليه أكثرهم فعلته

أبت عايبا وطلحة والزبير والعامر وذكر رجلا فخلا بكل واحد منهم فى المسجد . . . فلم يختلف أحد من شاوره (١) غير الأعور سعيد بن زيد .

وقد تحمس الخليفة لهذه الغزوة واعان المسلمين من ماله الخاصه بألف بعير يحمل عليها ضعفاء الناس وفتح بيوت السلاح التى كانت المسلمين فلما توافى الناس جدوا السير وذلك فى المحرم من هذه السنة (٢) سنة سبع وعشرين

ويصور أبو العرب سرعة استجابة كثير من الصحابة لنداء عثمان بأن عبد الله خرج إلى افريقية فى جيش أكثرهم أصحاب رسول الله ﷺ واستخلف على مصر عقبة بن عامر الجهنى (٣) .

(٣) المالسكى رباح النفوس ص ٩ .

(٤) ابن عذارى البيار العرب ص ٥ .

(١) أبو العرب تميم طبقات عذاه افريقية ونونس ص ٧٠ .

وعندما اجتمع المجاهدون في المدينة أمر عليهم عثمان الحارث بن الحكم إلى أن يقدموا على عبد الله بن سعد مصر فيكون إليه الأمر^(١).

سار الجيش من المدينة متوجها إلى مصر حيث انضم إليه جند مصر وأولى عبد الله بن أبي السرح قيادته وفي طريقه إلى أفريقية انضم إليهم ، عقبة بن نافع فيمن معه من المسلمين ببرقة ثم ساروا إلى طرابلس فتهبوا^(٢) الروم عندها ،^(٣).

وكانت طرابلس قد تقضت العمد بعد فتح عمرو بن العاص لها وتمحصنت فلم يقف عندها ابن أبي السرح لأنه يريد منازلة صاحب أفريقية والقضاء عليه وكان صاحب أفريقية آنذاك بطريق يسميه العرب جرجير ويصفون سعة مملكته بأنه يملك ما بين طرابلس إلى طنجة^(٤) ، ولكن المؤرخين اختلفوا في تبعية جرجير آنذاك لهرقل امبراطور الروم فإن عبد الحكم يذكر أنه خلع هرقل وضرب الدنانير على وجهه^(٥) وابن خلدون وابن الأثير يذكران أنه كان تحت ولاية هل قل ويحمل إليه الخراج كل سنة^(٦) ، ويزيد صاحب الخلاصة النقية أنه : كان يستند إلى صاحب القسطنطينية ويستنظر

(١) ابن عبد الحكم فتوح ص ١٨٣ .

(٢) لاشك أن ابن خلدون يقصد بذلك أنهم استولوا عليها وإذا علمنا أنهم كانوا قد طردوا الوالي الذي خلفه عليهم عمرو بن العاص أثناء فتحه طرابلس كما أنهم تحصنوا دور ابن أبي السرح فالمسلمون في حل من حروبهم والاستيلاء على متاعهم.

(٣) ابن خلدون العبر ج ٢ ص ١٢٩

(٤) ابن عبد الحكم فتوح ص ١٨٣ ، ابن خلدون العبر ج ٢ ص ١٢٩

(٥) ابن عبد الحكم فتوح ص ١٨٣ .

(٦) ابن خلدون العبر ج ٢ ص ١٢٩ ، ابن الأثير الكامل ج ٣ ص ٤٣

بقي حروبه بجيرانه من البربر^(١) ،

والذي تميل إليه النفس أن جرجير لم يخرج على هرقل وإنما كان انشغال الدولة الرومية بشأن المسلمين على الحدود الشرقية داعياً لانشغالهم عن شتون افريقية بدليل أنهم عندما قتل جرجير وعقد الصالح مع العرب على جزية كبيرة أرسل هرقل بطريقاً آخر لكي يحصل على مال يعادل ما تمهد بدفعه للعرب^(٢) .

ولاشك أن جرجير كان يستعد للقاء فاصل مع العرب منذ وصلت جيوش المسلمين إلى برقة وطرابلس وبري تتابع الطلائع العربية للأغارة على افريقية ولذلك عندما قدم المسلمون بقيادة عبد الله بن أبي السرح إلى افريقية سنة سبع وعشرين كان جرجير على أهبة الاستعداد حيث قد كون جيشاً من مائة وعشرين ألفاً من الفرنج والروم والبربر وملوكهم .

يقول ابن خلدون متفقاً مع ابن الأثير ويتابعهما صاحب الخلاصة النقية وصاحب تاريخ الجزائر في القديم والحديث : « لجمع لهم جرجير ملك الفرنجة يومئذ بأفريقية من كان بامصارها من الفرنج والروم ومن بضواحيها من جموع البربر وملوكهم وكان ملكه ما بين طرابلس وطنججة^(٣) وكانت دار ملكه سبيطلة فلقوا المسلمين في زهاء مائة وعشرين ألفاً والمسلمون يومئذ في عشرين ألفاً^(٤) .

(١) الخلاصة النقية للباغي ص ٣ .

(٢) ابن خلدون عبر ج ٢ ص ١٣٠ ، ابن الأثير ج ٣ ص ٤٤ .

(٣) طنججة : مرفأ على مضيق جبل طارق شمال المغرب . فتح المغرب شيث

خطاب ج ١ ص ٥٦ .

(٤) ابن خلدون عبر ج ٣ ص ١٠٧ ، ابن الأثير السكامل ج ٣ ص ٤٣ .

الخلاصة النقية للباغي ص ٣ ، تاريخ الجزائر في القديم والحديث لمبارك الميلي

أذنتي الجمعان في مكان يسمى عثوبة (١) على يوم وليلة من سبيطة (٢) وكانت دار ملكهم وكما هي عادة المسلمين عرضوا عليه الإسلام أو الجزية فأبى قبول أحدهما ونشب القتال ودارت المعركة واستمرت أياما كان ختامها في صالح المسلمين فقتل جرجير وهرب حبشه ومزق شر ممزق. وتبعهم خيول المسلمين إلى حصن سبيطة فنعمهم من دخوله وركبهم المسلمون يمينا وشمالا في السهل والوعر فقتلوا انجادهم وفرسائهم وأكثروا فيهم الاسارى (٣).

وبث عبد الله السرايا فبلغت قصور قفصة (٤) فسيبوا كثيرا وغنموا ويعلق ابن عذارى على نتيجة هذه الواقعة ويبين أثرها في الروم بأفريقية وكيف أن جموعهم السكثيرة لم تكن عنهم من دون سيوف المسلمين شيئا مما دعاهم آخر الأمر إلى طلب الصلح وقبول دفع جزية سنوية كبيرة المسلمين فقد أذلت هذه الواقعة الروم بأفريقية ورعبوا رعبا شديدا فلجأوا إلى الحصون والمعازل ثم طالبوا من عبد الله بن سعد أن يقبض منهم ثلاثمائة (٥) فنظروا من الذهب في السنة جزية على أن يكف عنهم ويخرج من بلادهم فقبل ذلك منهم وقبض المال وكان في شروط صلحهم أن ما صاب المسلمون

(١) البلاذري فتوح ص ٢٦٧ .

(٢) سبيطة : مدينة تبعد عن القيروان سبعمائة ميل وعن قفصة مائة واحدة وكانت عاصمة أفريقية القديمة عن قادة فتح المغرب العربي ج ١ ص ٨٠ اللواء شيت خطاب .

(٣) ابن عذارى البيان المغرب ص ١١ .

(٤) قفصة : بلد صغير في طرف أفريقية من ناحية المغرب بينها وبين القيروان

ثلاثة أيام أنظر معجم البلدان (١٣٨/٧) .

(٥) ثلاثمائة فنطار = ألف وخمسمائة ألف دينار أنظر للبلاذري فتوح

قبل الصلح فهو لهم وما أصابوه بعد الصلح ردوه عليهم^(١) .
أما ابن خلدون فيعقب على المركة بأن المسلمين قد جدوا كذلك في
آثر البربر الذين تصدوا لهم بعد قتل جرجير وحصل بينهم زحوف ثم أسر
لبعض ملوكهم الذين اشخصوا إلى الخليفة حيث أعلنوا اعتناق الإسلام
وأنه عقد لهم على قريتهم فقد حصل في أسرهم يومئذ من ملوكهم وزمان
ابن صقلاب جد بنى حزر وهو يومئذ أمير مغرارة وسائر زناته ورفقون
إلى عثمان بن عفاف فأسلم على يديه ومن عليه وأطلقه وعقد له على
قومه^(٢) .

هذه النتائج التي توصل إليها عبد الله من الانتصار على جرجير وفتح
سببيلة وقفصة وحسن الأجم^(٣) ثم اذلال الروم والبربر والأهم من ذلك
هو قبول بعض ملوك البربر للإسلام ووفوده على الخليفة وعقده له على
قومه : تعتبر من أهم النتائج لهذه الغزوة وكسب كبير بالنسبة للإسلام
والمسلمين . ولكن عبد الله بعد أن يوقع الصلح يعود إلى مصر فلماذا
يرجع عبد الله إلى مصر بدون أن يترك حامية ؟ أو أن يولى عليهم واليا
من المسلمين ؟

إن من ينظر إلى نتيجة الحرب بين ابن أبي السرح وجرجير ويرى أن
المسلمين قد انتصروا يقول لماذا لم يستغل عبد الله هذا النصر ويوطد أقدام
المسلمين في هذه البلاد ؟

(١) ابن عذارى البيان المغرب ص ١٢ والمنايع الذي ذكره يتفق مع ما ذكره

للبلاذري فتوح ص ٢٦٨ .

(٢) ابن خلدون عبر ج ٦ ص ١٠٧ .

(٣) الأجم العجم الأعجام وكانت مركزا حربيا طوال العهد البيزنطي ، انظر

مختصر العرب المغرب لمؤنس ص ٨٢ .

ولسكن من مهن النظر في هذا الرجوع يتجلى له أن عبداً قد أرك أن فتح أفريقية لا يتم بموقعة واحدة ولا بهذا العدد القليل من الجيش لاسيما وهو لا يلتقي بجيش دولة لها كل السلطه على البلاد فإذا ما قضى على الجيش قضى على كل شيء وإنما يلتقى بجيش الروم في الشمال ثم بقبائل البربر في الجنوب حيث لها تقاليد وطبائعها وماتتصف به من القوة والدفاع عن حماها وأن توطيد أقدام المسلمين يحتاج إلى إمدادات أخرى مع بعد خطوط هذه الإمدادات . ولذلك اكتفى بالانتصار في الموقعة التي خاضها ثم بفتح بعض الحصون والحصول على الصلح والجزية الكبيرة التي يعبر عنها البلاذري في رواية عبداً بن الزبير بثلاثمائة قنطار من ذهب على أن يكف عنهم ويخرج من بلادهم ، وفي رواية ابن كعب أن عبداً بن سعد بن أبي السرح صالح بطريق أفريقية على ألفي دينار وخمسمائة ألف دينار . ويزيد المازني أنه رجع إلى مصر ولم يول على أفريقيه أحدا ولم يكن لها يومئذ قيروان ولا مصر جامع (١) .

ولاشك أنه كان من الممكن أن يترك عبداً ولو حامية استطلاعية تحمل إليه أخبار البلاد التي تغلب عليها وإن كان واضحاً من قول البلاذري أنه قد اكتفى بالمعاهدة ولم يترك حامية استطلاعية وإعله اعتمد على ما بدا له من استعداد بعض قبائل البربر لقبول الإسلام والإيمان به .

ولذلك عاد إلى مقر ولايته في مصر بعد أن قضى خمسة عشر شهراً في هذه الغزوة فوصل إلى مصر في سنة ثمان وعشرين هجرية . غير أنه عاد لغزواً أفريقية سنة ثلاث وثلاثين هجرية مرة ثانية حين نقض أهل العهد (٢) .

(١) البلاذري فتوح ص ٢٦٨ .

(٢) ابن عذارى البيان المغرب ج ١ ص ١٤ .

بما يدل على أن ابن أبي السرح حاول أن يحتفظ بأفريقية تابعة للمسلمين عن طريق المعاهدة معها فلما نقضت العهد غزاها ثانيا ،

وإذا اعتمدنا هذه الرواية الثانية لابن عذارى لتبين لنا أن ابن أبي السرح حاول الاحتفاظ بالانتصار الذي حققه عن طريق المعاهدة . غير أن ماجد من حوادث في مركز الخلافة قد حالت بين المسلمين وبين الاحتفاظ بما فتحوه علاوة على مواصلة الفتح حيث قد فر قرن الفتنة التي أحاطت بعثمان رضى الله عنه . وتوقفت بسببها الفتوح كما استمر ذلك التوقف خلال فترة الخلاف بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان رضى الله عن الجميع .

غزوة معاوية بن حديج :

استقر الأمر لمعاوية بن أبي سفيان بعد عام الجماعة وجمع شمل المسلمين وابتدأ المسلمون يستعيدون توجيه نشاطهم ثانيا إلى الخارج وبدأت موجة جديدة للفتوحات في أفريقية حيث أسند الخليفة معاوية بن أبي سفيان في سنة خمس وأربعين هجرية إلى معاوية بن حديج السكوني أمر مواصلة الفتح في أفريقية وزوده بجيش مكون من عشرة آلاف جندي فيه بعض الصحابة والتابعين (١)

ويذكر المؤرخون أن بعض الظروف قد خدمت المسلمين ودفعتهم للإسراع باستئناف الفتح وذلك بسبب خلاف نشأ بين الحاكم الجديد الذي ولاه هرقل على أفريقية وبين رعاياه فيها حيث قد بالغ الحاكم الجديد في مطالبة رؤساء أفريقية بأن يقدموا إليه من الأموال مثل ما دفعوا لابن

(١) أنظر ابن عذارى البيان المغرب ج ١ ص ١٦ ، رياض النفوس للبالكي

أبي السرح في صلحهم معه مما أدى إلى تدمير أهل أفريقية وكثرة النزاع والخصام بينهم وبين الحاكم الجديد بما دعاه إلى حبسهم (١) ولذلك تذكر بعض الرويات أن الحاكم الذي أقامه أهل أفريقية بعد جرجير لجأ إلى معاوية بن أبي سفيان واصفا له أمر أفريقية وطالبا منه إرسال جيش لفتح أفريقية (٢).

وهكذا نرى أن أهل أفريقية قد ثاروا وغضبوا من حاكم هرقل الجديد كما نلاحظ أن الوالي السابق يذهب إلى دمشق لكي يستنجد بالخليفة معاوية .

واقدم حاول الخليفة أن يستفيد من هذه الفرصة السانحة فسارع بإرسال معاوية بن حديج لاستئناف فتح أفريقية .

وقدم سار معاوية بن حديج بالقوة التي أرسلها معه الخليفة حتى دخل بها أفريقية فنزل بجيشه على قونية وهي قيروان أفريقية (٣) وغادرها إلى مكان يقال له القرن (٤) حيث بعث إلى جلولاء (٥) عبد الملك بن مروان في ألف رجل . . فدخلها المسلمون وغنموا ما فيها (٦) .

(١) أنظر الطبري ج ٥ ص ٥١

(٢) أنظر الكامل لابن الأثير ج ٣ ص ٤٤ ، ابن عذاري البيان المغرب ج ١

ص ١٦ .

(٣) الدباغ معالم الإيمان ج ١ ص ٤٣ .

(٤) القرن جبل بأفريقية وهو المعروف الآن بجبل وسلات انظر قادة فتح

المغرب شيت خطاب ج ١ ص ٨٠ .

(٥) جلولاء قريبة من القيروان الحالية على بعد ٢٤ ميلا منها انظر ما كتبه

حسين مؤنس في فتح العرب للمغرب ص ١٢٣ هامش .

(٦) ابن عبد الحكم فتوح ص ١٩٣ .

ولقد وصلت أنباء حملة معاوية بن حديج إلى صاحب القسطنطينية فأرسل جيشا في البحر مكونا من ثلاثين ألف مقاتل لرد جيش المسلمين غير أن المسلمين تمكنوا من هزيمتهم قرب قصر الأجم^(١) ويقال إن الجيش الرومي قد انسحب من غير أن يقاتل جيش المسلمين الذي أرسله معاوية ابن حديج بقيادة عبدالله بن الزبير للتصدي لجيش الروم ثم تمكن ابن الزبير بعد ذلك من فتح سوسة^(٢) ويفيدنا المالكي ، أن معاوية غزا بوزن وغنم غنائم كثيرة من نواحيها ورجع قافلا إلى قونية وبني بناحية القرن مساكن وسماها (قيروان) وموضع القيروان غير مسكون ولا معمور^(٣) .

ومن هذا نرى أن معاوية بن حديج قد تمكن من فتح جلولاة وسوسة وبزونت وأن لم يخض معارك فاصلة ولعل ذلك يوضح لنا بعض آثار غزوة عبدالله بن أبي السرح وظهور ميل الأفريقيين لوجود المسلمين فيها كما بدأت تظهر فكرة إجماع مصر إسلامي في أفريقية يكون مستقرا للجيش الإسلامي وقاعدة ارتكاز له ينطلق منها لتحقيق أهدافه بدون أن تكون المسافات العاسمة قد استنفذت جهده وأضعفت من قوته . وإذا كانت فكرة إجماع مدينة ومعسكر ليستقر فيه المسلمون قد ابتدأها معاوية بن حديج إلا أن الذي تولى تنفيذ فكرة هذه المدينة وتأسيسها وإعطائها طابعها الحقيقي فأبما هو القائد الذي سيتولى أمر الفتوح من بعد معاوية بن حديج وهو عقبة بن نافع الذي سييسند إليه الخليفة في دمشق أمر أفريقية فاصلا بين

(١) الخلاصة البقية للياجي ص ٥٥٥ ، وتاريخ ابن خلدون ج ٢ ص ١٤
وابن الأثير تاريخ الكامل ج ٣ ص ٤٥ .

(٢) انظر ابن عذارى ج ١ ص ١٦ وسوسة ديناء على البحر وسار ديناء كبيرا
أيام الأغالبة .

(٣) رياض النفوس للمالكي ص ١٩ .

الإمارة في مصر والقيادة في أفريقيا^(١) وحيث استقر ابن حديج واليا على مصر وحدها :

عقبة بن نافع في أفريقية :

وعلاشك فيه أن اختيار عقبة بن نافع لقيادة الفتح في أفريقية كان اختيارا موفقا لرجل عاش قريبا من أفريقية أو فيها منذ توجه جند من المسلمين إلى المغرب وعاش كل هذه الفترة مشاركا في الفتح أو قريبا منه لقد عاش في برقة وتولى أمرها منذ فتحها المسلمون فكان خير داعية للإسلام وإسناد أمر أفريقية إليه معناه أن يجعل أفريقية أرضا إسلامية كما صارت برقة من قبل ولذلك ابتداء عقبة لإقامته في أفريقية بتأمين الأماكن الداخلية ثم ابتداء يؤسس القيروان لتكون القاعدة الإسلامية والمدينة الإسلامية التي يزود عنها المسلمون والتي تنطلق منها الحملات للقضاء على الروم الذين لازالوا يقيمون في شمالها ثم لنشر الإسلام بين السكان : في الداخل أو على الساحل .

فقد خرج عقبة إلى أفريقية بعد معاوية بن حديج وفاقبل حتى نزل بمغمداش^(٢) من سرت . . . خلفه عقبة جيشه هنالك واستخلف عليهم عمر بن علي القرشي وزهير بن قيس البلوي ثم سار بنفسه وبمن خف معه أربعماية فارس وأربعماية بعير وثمانماية قرية حتى قدم ودان فانتحما . . ثم فزان ففتح قصورها . . ثم انصرف راجعا فساد حتى نزل بموضع زويلة اليوم ثم ارتحل حتى قدم على عسكره بعد خمسة أشهر وقد جرت خيولهم وظهرهم فساد متوجها إلى المغرب وجانب الطريق الأعظم : أخذ

(١) انظر حركة الفتح الإسلامي لشكري فيصل ص ١٦٢ .

(٢) مغمداش : بلد قريب من سرت بلبيبا .

إلى أرض مزاةة فافتتح كل قصر بها . . . ثم بعث خيلا إلى غدامس (١)
فاقتحمت غدامس فلما انصرفت إليه خيله سار إلى قفصة (٢) فاقتحمها وفتح (٣)
قصطيلية (٤) .

وقد انضم إلى جيش عقبة المكون من عشرة آلاف جندي من أنسلم
من البربر (٥) في تملك البلاد مما يدل على أن أهل البلاد قد اعتنق كثير منهم

(١) غدامس : واحة من واحات طرابلس الصحراوية وتقع في الجنوب
الغربي من مدينة طرابلس على بعد ٥٠٠ كم ، تاريخ الفتح العربي في ليبيا للطاهر
الزاوي ص ٨٧ .

(٢) قفصة : بلدة بتونس وكان لها شأن كبير في عهد الرومان بينها وبين
القيروان ثلاثة أيام .

(٣) قصطيلية : إحدى بلاد الزاب على حدود الصحراء .

(٤) ابن عبد الحكم فتوح ص ١٩٥ ، ١٩٦ بتصرف .

(٥) البربر : قسم النسابة قبائل البربر إلى مجموعتين كبيرتين هما : البرانس ،

البر وقالوا أن الجماعة الأولى أبناء برنس بن بر ، وأن الجماعة الثانية أبناء مادغيس
ابن بر الذي لقب بالابتر .

(أ) البرانس :

من قبائلهم المشهورة عشر : ازداجة ، ومصمودة ، أوربة ، هجيسة ،
كتامة ، صنهاجة ، أوريفة ويضاف إليهم لمطة وهكسورة ، وجرولة . وهذه
الأصول تنقسم إلى فروع صغيرة فقبيلة هواة تنحدر من أوريفة وقبيلة مليلة
تنحدر من هواة وقبيلة غمارة تنحدر من مصمودة .

(ب) البستر :

من قبائلهم المشهورة أربعة : ادارسة ونفوسة وحريسة وبنولوا الأكبر ومن
قبيلة لوا قبيلتا نفزارة ولوانة ومن قبيلة نفزارة تنحدر قبيلة ولحاصة ومن

الإسلام وحسن إسلامه فانضم إلى الكتائب المدافعة عن الإسلام
ولكثرة ارتداد بعض البربر في مداخل أفريقية عن الإسلام حمل ذلك
عقبه على الشدة معهم فد وضع السيف في أهل البلاد لأنهم كانوا إذا دخل
إليهم أدير أطاعوا وأظهر بعضهم الإسلام فإذا عاد الأمير عنهم نكثوا
وارتد من أسلم^(١)

ولقد كان لهذه الغزوة أثر عميق في الروم والبربر حيث تمكن عقبة
من الاستيلاء على بعض الحصون والقلاع كما شعر الروم والبربر بقوة
المسلمين علاوة على تأسيس القيروان ويعبر الدهاغ عن ذلك بأنه «افتتح
كثيراً من حصونها - أي أفريقية - واثخن في قتل الروم والبربر واخطط
مدينة القيروان وتجول بها أياماً . ثم قدم أبو المهاجر دينار مولى مسلمة بن
محمد الأنصاري إلى أفريقية سنة خمس وخمسين فعزل عقبة وقيده وحبسها
وخرب ما كان اخططه وبناه بالقيرون»^(٢) .

ورغم أن عقبة لم يقم خلال هذه الفترة التي تولى فيها أمر أفريقية
إلا بتطهير الداخل ثم ش بعض الحملات خلال قيامه بتأسيس القيروان
إلا أن كارل بروكلمان يعده المؤسس الحقيقي للحكم العربي في أفريقية الشمالية
ويبالغ فيذكر أنه وفق للقضاء على الحكم النصراني في شمال أفريقيا جملة فهو
يعتبره «المؤسس الحقيقي للحكم العربي في أفريقية الشمالية . . . ووفق
بمعاونة البربر إلى القضاء على الحكم النصراني في شمال أفريقية جملة واحدة
ثم عزل بعد أن أنشأ مستعمرة عسكرية في القيروان»^(٣) .

— وخاصة تحدر قبيلة إيرغاش ومن إيرغاش تمحدر قبيلة ورفحومة انظر قادة

فتح المغرب شيت خطاب ج ١ ص ١٦ .

(١) الكامل لابن الأثير ج ٣ ص ٢٢٤ .

(٢) الدباغ معالم الإيمان ج ١ ص ١٦ ، ٤٧ .

(٣) تاريخ الشعوب الإسلامية - كارل بروكلمان ج ١ ص ١٥٢

ولاشك أن عقبة أثناء قيامه ببناء مدينة القيروان كان يواصل تحسس أخبار عدوه بإرسال الطلائع والحلات السريعة التي تثبت قوة المسلمين كما تقوم بالدور المهم الذي يملأ شغاف قلب عقبة وأصحابه وهو نشر الإسلام وتبينه للناس وبذلك تدخل كثير من البربر في الإسلام واتسعت خطة المسلمين وقوى جنان من هناك من الجنود بمدينة القيروان واطمأنوا على المقام فثبت الإسلام فيها (١) .

وبهذا يتبين لنا أن بناء القيروان كان ذا أثر عميق لتقوية جنان الجنود وبعث الاطمئنان إلى النفوس لترضى بالمقام ثم تثبتت بذور الإسلام في أفريقية .

وبعد أن مكث عقبة في ولايته هذه خمس سنوات قضى معظمها في تأسيس القيروان ونشر الإسلام في النواحي القريبة منها عزل عنها بأبي المهاجر دينار سنة خمس وخمسين هجرية (٢) .

أبو المهاجر دينار :

عندما أوشك عقبة على الانتهاء من تأسيس القيروان استكمل يواصل الفتح فيزبل سلطان الروم من الشمال ثم يستمر في نشر الإسلام بين البربر حسب خطته فوجيء بعزله بأبي المهاجر دينار في سنة خمس وخمسين هجرية والبلاذري يشير إلى ولاية أبي المهاجر دون أى ذكر لأعماله فقد عزل معاوية بن أنى سفيان معاوية بن ابن حديج وولى مصر والمغرب مسلمة بن مخلد الأناضري فولى المغرب أبا المهاجر دينار وولاه فلما ولى يزيد بن معاوية رد عقبة

(١) ابن الأثير اسد الغنابة ج ٣ ص ١٨٤ عن فتح العرب للمغرب حسين

مؤنس ص ١٤٦ .

(٢) الكامل لاسر الأثير ج ٣ ص ٢٣٤ .

بن نافع على عمله (١) . وهكذا لا يسند إليه البلاذري أى عمل قام به سوى الإشارة إلى ولايته وعزله . أما ابن عبد الحكم فيسند إليه أنه أقام بأفريقية واتخذها منزلا لا يمارقها إلى الفسطاط وإن كان قد كره أن ينزل في القيروان عقبه ، ومضى حتى خلفه بميلين فابتنى ونزل . وكان الناس قبل أبي المهاجر يغزون أفريقية ثم يقفلون منها إلى الفسطاط . وأول من أقام بها حين غزاها أبو المهاجر مولى الأنصار أقام بها الشتاء والصيف واتخذها منزلا (٢) .

والكننا نعلم أن عقبه قد أقام في أفريقية أربع أو خمس سنوات حين كان بين القيروان فكيف يرى ابن عبد الحكم أن أبا المهاجر هو أول من أقام بأفريقية فترة الشتاء والصيف ؟

ولعله يقصد بذلك الفترة التي قضها أبو المهاجر في حملته على المغرب الأوسط التي انتهى فيها إلى العيون المعروفة بأبي المهاجر نحو تلمسان (٣) ولبث فيها هنا نحو عامين أو ثلاثة (٤) وفي خروجه هذا افتتح أبو المهاجر المذكور ميلا (٥) (مدينة صغيرة بينها وبين بجاية (٦) ثلاثة أيام) وكانت

(١) البلاذري فتوح ص ٢٧٠ .

(٢) ابن عبد الحكم فتوح ص ١٩٧ .

(٣) تلمسان : مدينة بالمغرب اسمها القديم أفادير على بعد مرحلة من وهران .

انظر التفاصيل معجم البلدان (٤٠٩/٢)

(٤) المالسكى رياض النعموس ص ٢١ .

(٥) ميلا : مدينة صغيرة بينها وبين بجاية ثلاثة أيام .

(٦) بجاية : مدينة على ساحل البحر بين أفريقية والمغرب . التفاصيل في معجم

البلدان (٦٢/٢) .

اقامته في هذه الغزوة نحواً من سنتين (١) .

ويحدثنا المالكى عن الجند الذى صحب ابا المهاجرين بأنهم من أهل الشام ومصر وأنه حارب بهم قرطاجنة ثم يشير اشارة مهمة إلى أنه قد وجه حسين بن عبد الله الصنهاجى بجيش إلى الجزيرة (٢) فافتتحها . ومن هنا يظهر لنا أن بعض القيادات من البربر من صنهاجة قد ظهر منذ زمن مبكر . ذلك أن ابا المهاجر قد نزل بفحص تونس ويقال إنه نزل بسبخة وبنيها ومنها حارب أهل قرطاجنة ووجه حسين بن عبد الله الصنهاجى بجيش إلى الجزيرة فافتتحها وكتب إلى ابي المهاجر بذلك فرحل إليه واجتمع معه وقسم التي . هنالك بين جميع الجيش ثم انصرف فنزل بذكرور مدينة البربر بالقرب من موضع القيروان ووجه بالخمس إلى مصر (٣) ، ويقال : أن ابا المهاجر عقد صلحا مع أهل قرطاجنة أن يخلو جزيرة شريك (٤) .

ومن هنا نرى أن ابا المهاجر قد قاتل الروم في قرطاجنة واستطاع أن يستخلص جزيرة شريك منهم ويعقد صلحا معهم ليتوجه بجيوشه إلى البربر متوغلا إلى المغرب الأوسط حيث يفاضل البربر في عقور دارهم ويتغلط عليهم ثم هو يتألفهم حتى يعتنقوا الإسلام ويكون ذلك نصرا لنشر الإسلام في أماكن لم ينشر فيها من قبل ويشير إلى ذلك ابن حذارى ضمن حديثه عن عقبة وموقفه من كسيلة ابن لمزم الأوربي . بأن ابا المهاجر في ولايته

(١) أبو المحاسن النجوم الزاهرة ج ١ ص ١٥٧

(٢) جزيرة شريك .

(٣) المالكى رياض التنوس ص ٢٠ .

(٤) انظر قادة فتح المغرب شيت خطاط ج ١ ص ١٣٩ .

لأفريقية كان نهض إلى المغرب فنزل عيوننا عند تلمسان تعرف الآن بعيون
أبي المهاجر فزحف منها إلى كسيلة وهو في عدة من قبائل البرانس فظفر به
أبو المهاجر وعرض عليه الإسلام فأسلم وأحسن إليه أبو المهاجر
واستبقاه (١).

وزيد بن خلدون الأمر وضوحاً بأن كسيلة كان على دين النصرانية
وأمه كان رئيساً لأوربة التي كانت تزعم البربر آنذاك وقد اجتمع إليه
البرانس فزحف إليهم أبو المهاجر وانتصر عليهم و فظفر بكسيلة فأسلم
واستبقاه (٢) ، وبذلك استطاع أبو المهاجر خلال فترة ولايته أن يتعمق
في الداخل بين البربر إلى أن وصل إلى تلمسان في المغرب الأوسط وإذا كان
لم يستطع أن يتغلب على قرطاجنة فقد استولى على جزيرة شريك ووصل
من ناحية الساحل إلى ميلة ثم عاد إلى المكان الذي بناه ليجد أن الخليفة يزيد
ابن معاوية قد أعاد عقبة لكي يتولى أمر أفريقية مرة أخرى

عقبة بن نافع في أفريقية ثانياً :

نقد قضى عقبة وقتاً طويلاً في برقة وعندما أسند إليه أمر أفريقية
اختط القيروان لتكون قاعدة للمسلمين لكي يواصل تبليغ الدعوة إلى
الشماء الأفريقي كله ولكنه بعد أن تم بناء القيروان عزل عن إمارة أفريقية
ولذلك ذهب إلى دمشق لكي يوضح للخليفة خطته ويبين ما يرى إليه من
نشر الإسلام وفتح البلاد كما يوضح ما قد تم في فترة ولايته السابقة
ويورد ابن الحكم أن عقبة قدم على معاوية بن أبي سفيان فقال له ففتح
البلاد وبنيت المنازل ومسجد الجماعة ودانت لي ثم أرسلت عبد النصر

(١) ابن عرابي البيان المغرب ج ١ ص ٢٨٠ - ٢٩٠ .

(٢) ابن خلدون عبر ج ٦ ص ١٠٧ .

فأساء عزلى فاعتذر إليه معاوية (١) .
بينما يذكر المالكي : أنه قدم على معاوية بن أبي سفيان فوجده قد تولى
إلى رحمة الله وتولى بعده يزيد فدخل عليه فأخبره بما صنع أبو المهاجر
وما دخل عليه منه وقال له : لما افتتحتم أفريقية بنيت مسجد الجماعة ثم
يعثم عبد الأنصار فأهانني وأساء عزلى فغضب يزيد وقال : ادركوها قبل
أن يخرجها ، ورد عقبة ، وأزال مسلمة عنها وأقره بمصر وذلك سنة اثنين
وستين و قدم عقبة إلى القيروان بعشرة آلاف فارس (٢) ، ورأى المالكي
هذا يتفق مع رواية ابن عبد الحكم الثانية في أنه قدم على يزيد لأعلى
معاوية .

ابتدأ عقبة عمله من حيث تركه فبدأ بتعمير القيروان واعادتها إلى سابق
عهدا وجعلها موطننا ومقرا للمسلمين ، فجدد بناء القيروان وشيدها ونقل
الناس إليها فعمرت وعظم شأنها (٣) .

وهادر عقبة عقب ذلك بحملة كبرى على المغرب وهي حملة طويلة وسريعة وصل
فيها إلى المحيط وقاتل فيها الروم والبربر وانتصر على كل من لاقاه وفضهم
حيث استفتح حصون الفرنجة مثل باغاية (٤) وليس و لقيه ملوك البربر

(١) ابن عبد الحكم فتوح ص ١٩٧ .

(٢) المالكي رياض النفوس ص ٢٢ . ويذكر الدباغ كذلك أن جند عقبة
كان عشرة آلاف وسكن الدكتور حسين مؤنس يقول نقلا عن الدباغ أنهم كانوا
خمسة عشر ألفا . فتح العرب المغرب ص ١٨١ ويتابعه د / سيد عد العزيز سالم
المغرب الكبير ص ٢٢٢ .

(٣) رياض النفوس المالكي ص ٢٢ .

(٤) باغاية : مدينة كبيرة في أقصى أفريقية بين بجاية وقسنطينة وهي حصن
بربري قديم وكان سكانها من البربر والروم شييت خطب قادة فتح المغرب
ج ١ ص ٩١ .

بالزاب^(١) و تاهرت^(٢) ففضضهم جمعا بعد جمع ودخل المغرب الأقصى واطاعته غمارة ثم اجاز إلى بلاد السوس لقتال من بها من صنهاجة أهل اللثام وهم يومئذ على دين المجوسية ولم يدينوا بالنصرانية فأئخذ فيهم وابتهى إلى تارودانت وهزم جموع البربر وقاتل مسوفة من وراء السوس وساسهم وقفل راجعا^(٣) .

وبعض المؤرخين يذكران أنه ترك بالقيروان جندا واستخلف عليها زهير بن قيس البلوى كما أنه عندما هزم الروم عند باغاية كره المقام عليها فسار إلى الزاب وقتل النصارى في مدينتها أربعة^(٤) وقد استعان الروم بالبربر في تاهرت ولكنه تغلب عليهم وضم المسلمون المال والسلاح كما نزل بطريق طنجة على حكمة فاستفهم منه عن حالة الأندلس وهنا نرى أن عقبة كان يتطلع إلى فتح الأندلس ولكن البطريق عظم الأمر عليه فسار

(١) بلاد الزاب : بلاد واسعة من مدينا بسكرة وقسنطينة وقفصة وهي كورة عظيمة ونهر جرار بأرض المغرب على البر الاعظم عليه بلاد واسعة وقرى متواطئة بين تلسان وسجلمان والنهر متسلط عليها . وفي تاريخ المغرب الكبير (٤٢/٢) أن بلاد الزاب يطلق عليها اليوم ولاية قسنطينة المرجع السابق ص ٩١ .

(٢) تاهرت : اسم لمدينتين متقابلتين بأقصى المغرب يقال لاحدهما : تاهرت القديمة وللأخرى : تاهرت المهدنة المرجع السابق ص ٩١ .

(٣) ابن خلدون عبر ج ٦ ص ١٠٧ .

(٤) أربعة : مدينة بالمغرب من أعمال الزاب وهي أكبر مدينة بالزاب شيت خطاب قادة فتح المغرب ج ١ ص ١٠٨ .

إلى السوس (١) الأذنى ثم السوس (٢) الأقصى فقتل في البربر قتلا ذريعا
وسار حتى بلغ ماليان (٣) ورأى البحر المحيط فقال « يارب لولا هذا البحر
لمضيت في البلاد مجاهدا في سبيلك ثم عاد فنفر الروم والبربر عن طريقه
خوفا منه (٤) .

ويذكر ابن عذارى « أن صاحب سبته سأل عقبة المسالمة وأن ينزل
على حكمه فقبل منه واجتمع به » (٥) حيث صالحه وأقره على بلاده (٦) .

ويعلق الرقيق القيرواني على موقعة من المواقع التي خاضها عقبة في حملته
على المغرب وهي موقعة أدنة (٧) بقوله « فانهزم القوم وقتل فيها أكبر
فرسان البربر فذهب عزم من الزاب وذلوا آخر الدهر (٨) كما كان لهذه

(١) السوس الأذنى : كورة كبيرة بالمغرب مدينتها طنجة والسوس مدينة
بالمغرب كانت الروم تسميها : قونية وبين السوس الأذنى والسوس الأقصى مسيرة
شهرين المرجع السابق ص ٩١ .

(٢) السوس الأقصى : أقصى بلاد البربر على المحيط والسوس الأقصى اسم
مدينة ألا أنها كورة عظيمة ذات مدن وقرى وسعة ونخصب يختلف بها طوائف
من البربر نفس المرجع ص ٩١ .

(٣) ماليان : بلد في أقصى بلاد المغرب ليس وراءه غير البحر المحيط . مجمع
البلدان (٣٦٧/٧) .

(٤) الكامل لابن الأثير بتصرف ج ٤ ص ٥٣ .

(٥) ابن عذارى البيان المغرب ج ١ ص ٢٦ .

(٦) تاريخ أفريقية والمغرب للرقيق القيرواني ص ٤٣ .

(٧) أدنة : بلد كثيرة الأنهار والعيون العذبة تبعد عن المسيلة بأربعة مراحل

الظاهر الرقيق تاريخ إفريقية ص ٤٢ .

(٨) المؤنس لابن ديفار ص ٣٠٠ .

الموقعة اثر كبير بالنسبة للروم حيث ذهب عز الروم من الزاب وذلوا؛
وتحصنوا (١).

ومن هنا يتبين لنا أن عقبة قد نجح في التغلب على كل الجموع التي تصدت له إلى أن قفل راجعاً ولو لم ينته إلى الغاية التي سينتس إليها من الاستشهاد لكان لتلك الغزوة اثر كبير في عدم انتفاض الشمال الأفريقي كله بعد استشهاد .
ولكن الدكتور حسين مؤنس يعلق على نتيجة هذه الغزوة بقوله : ثم انقلب بعد ذلك عائداً ادراجة ليعود إلى القيروان دون أن يترك بأى ناحية مر بها اثرًا يذكر (٢) ثم يقول : بل لم يكن نشر الإسلام غاية واضحة في ذهن عقبة إذ لو كان يطلب هذا فليس تلك هي السبيل التي تؤدي إلى إدراك هذه الغاية إنما تدرك بالوقوف بكل قوم وبلد وعرض الإسلام وتخيير الناس بينه وبين الحرب والجزية فإن أبو اكانت الحرب هكذا كان الفاتحون في الشام ومصر يفعلون ، بل هكذا فعل عبد الله بن سعد مع جرير . أما عقبة فكان ينتفض على المدائن محاربا مقاتلا ويلبث على ذلك فترة ثم ينصرف دون أن ينتهي مع أهل البلد إلى شيء معلوم بل لو كان يرجو نشر الإسلام لخلف فيما مر به من البلاد نفرا يعلم أهله الإسلام (٣) .

ولا شك أن هذا فيه تجن كبير على عقبة رضى الله عنه فلقد كان عقبة يعرض الإسلام قبل الحرب شأن كل قادة المسلمين كما أقام المساجد في كثير من الأماكن التي مازالت تنطق بأثر عقبة وتعطينا الدليل الباقى شاهداً على ما كان لهذه الغزوة من تأثير مازال مستمراً إلى الآن حيث أن أهل البلاد مازالوا يعظمون تلك المساجد انشأها عقبة أثناء غزوته التي وصل فيها

(١) المالكي رصاص النفوس ص ٢٣ .

(٢) فتح العرب للمغرب حسين مؤنس ص ١٩٥ .

(٣) فتح العرب للمغرب حسين مؤنس ص ٢٠٢ ، ٢٠٣ .

إلى مائة بمكان من السوس الأقصى فبنى بها مسجداً (١) .

كما يذكر ابن عذارى أنه « سار حتى نزل إيجلى بالسوس وبنى فيه مسجداً . وأنه لم يصح عنده أن عقبته رضى الله عنه حضر ببيان شيء من المساجد بالمغرب إلا مسجد القيروان ، ومسجداً بدرعة ومسجداً بالسوس الأقصى . وأما غير ذلك من المساجد المسماة باسمه فإن الناس والله أعلم بنوها بموضع نزوله » (٢) .

وهكذا نرى أن عقبته حتى في أثناء قيامه بالغزوة كان يبنى المساجد وهذا يعطى دليلاً على أنه كان هناك من يدخل في الإسلام من أهل هذه النواحي وأنه كان يهتم بالدعوة إلى الله ونشر الإسلام قبل أى شيء آخر . وأن المساجد الكثيرة التي تحمل اسمه والتي بناها الناس بعد ذلك بالمواقع التي كان ينزل فيها . يعطى الدليل الواضح على الأثر الذي تركه عقبته في المغرب ثم يزيد ابن عذارى موضحاً أنه ترك في المغرب صاحبه شاكرًا . وبين أنه كان يعرض الإسلام ويدعو إليه قبل أن يشهر السيف . يقول : « ثم رجع عقبته قافلاً إلى المغرب الأوسط وسلك على إيجيران يطوف ثم إلى تارنا ثم إلى موضع شاكر وترك به صاحبه شاكرًا فسمى بأسمه . ثم رحل منه إلى بلاد دكالة فوجد فيها قوماً فدعاهم إلى الإسلام فامتنعوا فقاتلهم فقتلوا جملة من أصحابه فسمى ذلك الموضع مقبرة الشهداء إلى الآن . ثم رجع من دكالة إلى بلاد هسكورة إلى موضع يقال له إطار فوجد فيه أقواماً فدعاهم إلى الإسلام فامتنعوا فقتلهم فمهم حتى فروا أمامه فلم يقاتله بعد ذلك أحد من أهل المغرب » (٣) . كما يعبر ابن عذارى في مكان آخر بأنه

(١) المالكي رياض النفوس ص ٢٦ .

(٢) ابن عذارى البيان المغرب ج ١ ص ٢٧ .

(٣) البيان المغرب لابن عذارى ج ١ ص ٢٧ ، ٢٨ .

ترك في المغرب الأقصى أكثر من معلم غير شاكر كما يذكر أن كثيرا من المصامدة أسلموا على يديه يقول، وقد كان عقبة بن نافع ترك فيهم بعض أصحابه يعلمونهم القرآن والإسلام ومنهم شاكر صاحب الرباط وغيره ولم يدخل المغرب الأقصى أحد من ولادة خلفاء بني أمية بالشرق إلا عقبة بن نافع الفهري ولم يعرف المصامدة غيره وقيل أن أكثرهم أسلموا طوعا على يديه، (١).

ولذلك يعود الدكتور حسين مؤنس بعد إنكاره لآثار عقبة في تلك الغزوة إلى الاعتراف ببعض آثاره فيقول: «لهذا لم يكن موت عقبة وأصحابه بقاض على كل أثر المسلمين فيما فتحوه من البلاد ولما كان قاضيا على بعض الأثر السياسي لأن عمل عقبة لم يكن سياسيا وإنما كان دينيا» (٢) «وقفل عقبة بعد وصوله إلى البحر المحيط قاصدا القيروان فلما انتهى إلى نجر أفرريقية إذن لمن معه من أصحابه أن يفرقوا ويقدموها فوجا فوجا وعند طنبجة (٣) إذن لمن بقي معه بالانصراف إلى القيروان ومال في خيل يسير يريد» (٤) «تهودة» (٥) وكان عقبة بن نافع قد أساء إلى كسيلة بن لزم الزعيم البربري ولم يحفل به عندما تولى إمارة أفرريقية للمرة الثانية وتبالغ المصادر في هذه الإساءة التي وجهها إلى كسيلة غير أن الشيء الذي لا شك فيه أن كثيرا من

(١) البيان المغرب لابن عذارى ج ١ ص ٤٢ .

(٢) فتح العرب للمغرب حسين مؤنس ص ٢٠١ ، ٢٠٢ .

(٣) طنبجة : بلدة في طرف أفرريقية مما يلي المغرب على ضفة الزاب انظر معجم

البلدان (٢٨/٦) .

(٤) تهودة : مدينة في جنوب جبال أوراس وفي الجنوب الشرق لمدينة

طنبجة وتبعد عنها ٣٧٥ ميلا . شيت خطاب فتح المغرب ج ١ ص ١١١ .

(٥) المالكى رياض النفوس ص ٢٥ .

البربر والروم كانوا يتحينون الفرصة التي يتمكنون فيها من القضاء على عقبة بعد فل جموعهم وشتت شملهم وانصر عليهم في كل المواقع التي غاصها جندهم فما زالوا يتربصون به حتى واتتهم الفرصة عندما انفرد بعيدا عن جيشه فتمكنوا من القضاء عليه .

فقد عرض له كسيلة بن لمزم في جمع كثير من الروم والبربر وقد كان بلغه افتراق الناس عن عقبة فاقتتلوا قتالا شديدا فقتل عقبة ومن معه (١) .

وهكذا كان عدم الحذر حتى بعد الانتصار هو السبب الذي مكن الروم والبربر للتجمع واغتنام الفرصة للقضاء على عقبة وحمل الجيش الإسلامي على مغادرة أفريقية وترك القيروان حيث حاول كسيلة اغتنام كل أبعاد الفرصة التي واثته فجمع أهل المغرب وزحف إلى القيروان . فانقلبت أفريقية نارا وعظم البلاء على المسلمين فخرجوا هاربين لعظم ما اجتمع من البربر والروم مع كسيلة (٢) ويعمل الرقيق القيرواني خروج جيوش المسلمين من القيروان وعدم تصديهم لكسيلة والدفاع عن القيروان . بعدم القدرة على مواجهته مع جموعه الغفيرة واعتقادهم بأن الهزيمة ستحل بهم حيث لم يكن لهم بقتاله طاقة لعظم ما اجتمع معه من البربر والروم وأسلموا القيروان وبقي بها أصحاب الذاردي والأثقال فأرسلوا إلى كسيلة يسألونه الأمان فأمنهم وأجابهم وأقام كسيلة حتى نزل القيروان وأقام أميرا على أفريقية وقد بقي من بقي من المسلمين تحت يده (٣) .

وبذلك تحقق لكسيلة بعد أن تمكن من اغتيال عقبة من أن يكون

(١) ابن عبد الحكم فتوح ص ١٩٨ .

(٢) رياض النفوس للبالكي ص ٢٨ .

(٣) تاريخ أفريقية والمغرب للرقيق القيرواني ص ٤٦ .

أميرا على كل أفريقية حيث أمن كسيلة من بقى بالقيروان من المسلمين وأقام بالقيروان أميرا على سائر أفريقية والمغرب وعلى من فيه من المسلمين إلى أن ولى الخلافة عبد الملك بن مروان . ولقد حاول خليفة عقبة على القيروان زهير ابن قيس البلوى أن يقاتل كسيلة بمن بقى من الجيش مع الحامية التي تركها عقبة عند مغادرته القيروان وأن يدافع عن القيروان ذير أن أثر قتل عقبة وما اجتمع حول كسيلة من الأعداد السكثيرة من الروم والبربر حمل حنش الصنعاني^(١) أن يجاهر بتفضيل الانسحاب من القيروان على لقاء كسيلة بمجموعه ولاعمل أفضل من النجاة بهذا العصابة من المسلمين إلى مشرقهم^(٢) . واضطر زهير خليفة عقبة إلى مغادرة القيروان تحت هذه الظروف القهرية الخارجة عن إرادته بالنسبة للعدو وللحامية التي معه حيث خالفه حنش^(٣) الصنعاني وعاد إلى مصر فتيبمه أكثر الناس فاضطر زهير إلى العودة معهم فساد إلى رقة وأقام بها^(٤) .

ولاشك أن قتل عقبة في تهودة كان مأساة حقيقية كما يقول الدكتور

(١) حنش الصنعاني : هو حنش بن عبد الله بن عمرو بن حنظلة تابعي كبير ثقة روى عن رويغ بن ثابت ، وأبي هريرة غزا المغرب وسكن أفريقية وهو أول من ولي عشور أفريقية في الإسلام ، غزا الأندلس مع موسى بن نصير توفي سنة ١٠٠ هـ شيت خطاب قادة فتح المغرب ج ١ ص ١٥٢ .

(٢) ابن عذارى البيان المغرب ج ١ ص ٣١ .

(٣) يذكر اللوام محمود شيت خطاب في قادة فتح العرب المغرب أن الصحيح هو حنش لاجيش ج ١ ص ١٥٢ وهو حنش في البيان المغرب لابن عذارى ج ١ ص ٣١ .

(٤) ابن الأثير الكامل ج ٤ ص ٥٤ .

شكري فيصل^(١) وإن كان لم يكن الجيش كله في تهودة وإنما استشهد عقبة والعدد القليل الذي كان معه ثلاثمائة مقاتل . ولقد قتل النعمان بن مقرن في موقعة نهاوند ولكن كان النصر في المعركة .

ولذلك فإنني ألقى بعض المشاورة في خروج البلاد من طنجة إلى القيروان على بقية قوات الجيش التي آثرت الانسحاب ولم تمل إلى رأى زهير في مقاومة كسيلة ولو حدث وانصتت القوات المقاتلة إلى حديث زهير وهو يناديهم ، يامعشر المسلمين إن أصحابكم قد دخلوا الجنة وقد من الله عليهم بالعبادة فاسلكوا سبيلهم ويفتح الله لكم دون ذلك^(٢) ، لكان لهم النصر على هذه القوات التي انتصروا عليها من قبل وسيتم تصرون عليها بعد ذلك ولم يفضلوا الانسحاب على المواجهة .

زهير بن قيس البلوي : يسترد القيروان :

لاشك أن مدينة القيروان قد أسست لتكون مدينة إسلامية على هلى المسلمين أن يقطنوها ويدافعوا عنها ويضطلعوا بحمايتها ، ولقد كان تغلب كسيلة واضطراره الجيش الإسلامى إلى الرحيل عنها مخلفا . أصحاب العمال وكل مثل من النجار وأهل الذمة^(٣) ، دافعا للمسلمين لاستردادها ثم بعد ذلك متابعة الفتح ، وهكذا نرى مركز القيروان ومكانتها تطالب المسلمين جميعها بأن يدافعوا عنها فيتحدث بشأنها أكابر المسلمين إلى الخليفة مطالبين باستردادها فيستشير الخليفة وزراءه فيجتمع الرأى على تعيين زهير بن قيس البلوي ليتولى استخلاص القيروان واسترجاع هيبة المسلمين والأند

(١) حركة الفتح الإسلامى ص ١٧٠ .

(٢) ابن عذارى البيان المغرب ج ١ ص ٣١ .

(٣) الدباغ معالم الايمان ج ١ ص ٥٥ .

بشار عقبة بن نافع و فني سنة ٦٥ من الهجرة ولى عبد الملك ابن مروان فلما اشتد سلطانة واجتمع اكابر المسلمين عليه سألوه تخليص أفريقيا ومن بها من المسلمين من يدكسيلة اللعين فقال : لا يصلح للطلب بدم عقبة من الروم والبربر الا من هو مثله دينار وعقلا ، فاستشار وزراءه فاجتمع رأيهم على تقديم زهير بن قيس البلوى وقالوا : هذا صاحب عقبة وأعلم الناس بسيرته وتديبره وأولاهم بطلب دمه فوجه عبد الملك إلى زهير ببرقة فأمره بالخروج على أعنة الخيل إلى أفريقيا ليستنقذ من القيروان فمكتب إليه زهير يعرفه بكثرة من اجتمع على كسيلة من البربر والروم فأمدد عبد الملك ابن مروان بالخيل والرجال والأموال وحشد إليه وجوه العرب وبعثهم إليه فوفدت الجيوش على زهير وتسرع الناس معه إلى أفريقيا ،^(١)

ولقد كان لكل من الشام ومصر أثر واضح في هذا البحث الذي أسند إليه استرداد القيروان حيث قامت مصر بتقديم الأموال والشام بتقديم الرجال فقد أرسل عبد الملك إلى أشراف العرب ليحشدوا إليه الناس من الشام وأفرغ عليهم أموال مصر فسارع الناس إلى الجهاد ،^(٢)

أما زهير فقد قضى هذه الفترة — منذ غادر القيروان بعد قتل عقبة إلى أن وجهه الخليفة عبد الملك بن مروان لاستنقاذ القيروان — مرابطا في برقة يذود عنها من يريد بها سوءا وخاض كثيرا من المواقع هو ومن معه من الجيش الأفريقي^(٣) . فكانت له بها وقائع كبيرة .^(٤)

(١) البيان المغرب لابن عذاري ج ١ ص ٣١ .

(٢) رياض النفوس للبالكي ص ٢٩ ، ٣٠ .

(٣) تاريخ أفريقيا والمغرب الرقيق القيرواني ص ٤٧ .

(٤) رياض النفوس للبالكي ص ٣٠ .

واقدم استمر حكم كسيلة للقيروان خمس سنين اتسع فيها سلطانه واعطى الامان للعرب الذين تخلفوا عن اللحاق بالجيش من اهل الذراري والاقبال وعظم خلالها سلطانه على البربر (١).

وكان اسناد عبد الملك ولاية افريقية الى زهير الكمي يستنقذها من يد كسيلة سنة ٦٩ ووجه اليه جيشا كبيرا قدره صاحب تاريخ المغرب الكبير بعشرة آلاف جندي (٢). وعندما احس كسيلة بقدوم جيش المسلمين احضر اشراف اصحابه وعرض عليهم اختيار ممس (٣) مكانا للمعركة بحيث يكون آمننا من عدد المسلمين في القيروان ثم اذا هزم العرب تقبمهم وقطع اترم من افريقية كلها واذا هزمه العرب لجأ الى الجبال ونجا من قبضة المسلمين فأجابه اصحابه الى رايه فغادر القيروان متجها الى ممس ليتمسكن من الفرار من وجه العرب عند الهزيمة (٤).

وكان استعداد كسيلة لخوض المعرض المعركة استعدادا تاما فقد تمسكن من عدد عظيم من البربر والروم تحت لوائه بلغ اضعاف جند المسلمين كما استشار رؤساء الجند واشرافهم وكل ذلك اعطى لجنوده روحا معنوية جعلتهم لا يهابون المسلمين (٥).

وكما استعد كسيلة للمعركة وحدد مكانها في ممس فإن زهير احدد زمانها فلم يلتق بكسيلة فور وصوله الى القيروان بعد أن قطع جيشه مئات الأميال

(١) العبر لابن خلدون ج ٦ ص ١٠٧ .

(٢) تاريخ المغرب الكبير لمحمد علي دبور ج ٢ ص ٦٢ .

(٣) ممس / مدينة بيزنطية قديمة وتقع في جنوبي القيروان المالكي رياض

هامش ص ٢٨ .

(٤) الكامل لابن الاثير ج ٤ ص ٥٥ .

(٥) انظر الرقيق تاريخ افريقيا ص ٤٩ . البيان المغرب لابن عذراي ج ١

بل نزل قريبا من القيروان ولم يدخلها ومكث بها ليستريح جيشه ويأخذ حظه من الاستعداد لخوض المعركة الفاصلة التي يأخذ بها النار لعقبة ويحمي القيروان ويستنقذها من كسيلة وبعد ثلاثة أيام من الراحة زحف في اليوم الرابع فوق على كسيلة وعسكره آخر النهار . فلم ينازله ولكن الجيش اتى على مصافه طوال الليل فلما أصبح صلى مغلسا ثم تراخف الجيشان والتحموا في قتال عنيف ونزل الصبر وكثر القتل في الفريقين حتى ينس الناس من الحياة فلم يزالوا كذلك حتى انهزم كسيلة وقتل بممس ولم يجاوزها^(١) وكتب الله النصر للمسلمين فتتبعموا فلول الجيش المنهزم ولم يمكنهم من اللحاق بالجبال التي كانوا يريدون الاحتماء بها وقد قتل في هذه الواقعة كثير من ملوك البربر وأشرفهم وفرسانهم كما قتل من الروم أعداد كثيرة بما أدخل الرعب والفرع في قلوب الروم والبربر ثم انصرف زهير إلى القيروان فأوطنها^(٢) . لقد كان لموقعة ممس في أفريقية أثر كبير في إعادة هيبة المسلمين لما كانت عليه قبل مقتل عقبة كما أعادت للمسلمين ما اتسموا به من عدم الخوف من عدوهم مهما كان في كثرة كائنة وكان له من الأثر الكبير في نفوس العرب الذين كانوا يقاومون المسلمين مثل الذي كان لامرأة تهودة في نفوس المسلمين من أثر قبل ، فنا في العضد وإثارة الرعب^(٣) وتقوية للروح المعنوية بين المسلمين .

وهكذا استطاع زهير أن يخلص القيروان وأن يسترد للمسلمين هيبتهم في أفريقية ولسكنه بعد أن يستقر له الأمر ويطمئن إلى أن المسلمين قد أصبحوا في أمان من أعدائهم يترك بالقيروان عسكرا كثيرا من أصحابه ويرحل في جمع آخر قاصدا المشرق غير مصغ إلى طلب رؤساء أصحابه بالمقام في القيروان .

(١) الرقيق تاريخ أفريقيا ص ٥٠ ، ٥١

(٢) المالكي رياض ص ٣٠ ، ابن عذارى البيان ج ١ ص ٣٢ .

(٣) حركة الفتح الإسلامي في القرن الأول وشكري فيصل ص ١٧٢ .

وعند وصوله إلى برقة يلتقى بالروم المغيرين عاينها حيث ياتى ربه شهيدا
في سبيل انقاذ امرى المسلمين في برقة .

فقد استغل الروم خروجه من برقة قاصدا أفريقيا لقتال كسيلة واعدوا
حملة بحرية كبيرة للاغارة على برقة خرجت إليها من صقلية وتمكنوا من سبي
كثير المسلمين وقتلوا ونهبوا ووافق ذلك عودة زهير من القيروان وشاهد مع
رجال طليعته ما فعلته تلك الحملة ضد المسلمين فخاض المعركة ضد المغيرين
استنقاذا لسبي المسلمين الذين استغاثوا به عند رؤيته غير ماق بالآ إلى تفوق
الجيش المغير على من معه وبأشر القتال واشتد الأمر وعظم الخطب فتكاثرت
الروم عليه فقتلوا زهيرا ومن معه ولم ينج منهم أحد وعاد الروم بما غنموا
إلى القسطنطينية (١)

لقد اقتصر زهير من البربر لمقتل عقبة ولكنه يعود ليستشهد في برقة
بقوة مغيرة من الروم مما سيوجه نظر حسان بن النعمان الذى سيتولى أمر
أفريقية بعده إلى محاولة القضاء على النفوذ الرومى في شمال أفريقيا حتى
يقضى على كل أمل للقسطنطينية في الشمال الأفريقى كله .

واكن لماذا عاد زهير من القيروان إلى برقة أو المشرق ؟

يشير ابن عذارى وابن الأثير إلى أسباب العودة بأن زهيرا رأى
أفريقية ماسكا عظيما فأبى أن يقيم بها وقال : إني ما قدمت إلا للجهاد
وأخاف أن نميل في الدنيا فأهلك (٢) ويتمق معهم الممالىكى والديباغ بعبارة

(١) أنظر الممالىكى رياض ص ٣٠ ، ابن الأثير الكامل ج ٤ ص ٥٥٠ اس

عذارى البيان ج ١ ص ٣٣ .

(٢) ابن عذارى البيان المغرب ج ١ ص ٣٢ ، الكامل لابن الأثير ج ٤ ص ٥٥٥ .

أخرى قريبة من ذلك ، إنما قدمت للجهاد ولم أفدم لحب الدنيا،^(١) .

ويعمل ابن خلدون عودة زهير بقوله : ثم ترهب^(٢) زهير بعدها
وقفل إلى المشرق فاستشهد^(٣) بركة ، أما الرقيق القيرواني . فيذكر ما هو
قريب من ذلك من رفض زهير ملك الدنيا ورغد عيشها ، إني قدمت إلى
الجهاد وأخاف أن تميل بي الدنيا فأهلك ولست أَرْضَى بملككم ورغد
عيشها^(٤) .

هذا ما يعال به المؤرخون القدامى عودة زهير ولم يظنوا إلى ذلك الدكتور
حسين مؤنس ويقول عنه : « تعليل ضعيف لأن الزاهد الورع الذي يخاف
على نفسه فتنة الدنيا هو الذي يقيم على الشغور ويرابط على دار الحرب ...
تم يقول يبدو أن زهير اعتبر مهمته انتهت بعد قتل كسيلة وتخليص من
بأفريقية من المسلمين ويبدو كذلك أن الرجل كان مسناحين هم بحملته
تلك وأنه لم يقيم بها إلا طلبا لثأر صاحبه فلما فرغ منه عجل بالعودة^(٥) ،

أما صاحب قادة فتح العرب للمغرب فيرى ، أن السبب الحقيقي هو
وصول معلومات أكيدة إليه عن تحركات جيوش الروم باتجاه بركة لذلك
سارع إلى العودة حتى لا يقطع الروم خطوط مواصلاته أولا ، وحتى
يحرمهم انتماءك حرمة المدن الإسلامية ثانيا خاصة أنه يعرف أن منطقة بركة

(١) رياض النفوس للملكي ص ٣٠ ، ومعالم الإيمان للدباغ ج ١

ص ٥٩ .

(٢) لعله يفصد زهد في الإمارة .

(٣) العبر لابن خلدون ج ٦ ص ١٠٨ .

(٤) تاريخ أفريقيا والمغرب للرقيق النهرواني ص ٥٢ .

(٥) فتح العرب للمغرب حسين مؤنس ص ٢٢٧ ، ٢٢٨ .

كانت حينذاك منطقة مكشوفة تقريبا (١) .

ويوجز صاحب حركة الفتح الإسلامي في القرن الأول رآيه بقوله :
« وعاد زهير ادراجه إلى برقة مكثفيا بما حقق من نصر (٢) » ، ويقول صاحب
المغرب الكبير « ولكن لسبب ما لا يمكننا تعليله قرر زهير القفول إلى
برقة (٣) » .

وهكذا نرى أن المحدثين من المؤرخين لا يميلون إلى الأخذ برأى قدامى
المؤرخين .

ويبدو لي أن زهيرا ربما كان لا يزال متأثرا بما حدث عقب مقتل عقبة
من اختلاف الناس عليه وأنه رأى ذلك طعنا في قيادته فأثبت حداثته
وانتصر لمقتل عقبة وبعده أقل من جند عدوه واسترجع القيروان وأمنها
وأقام عليها من يقوم بأمرها ثم بداله أنه قد اتهم ما تطامن إليه نفسه فترك
ولاية أفريقيا وعاد . بضاف إلى ذلك أنه كان يزهد في الأمانة ويرى أن
أمارته كانت لمهمة قد قام بها ور بما يشير إلى ذلك ما عبر عنه الدباغ بعد
اختيار عبد الملك له بقوله « فلما اتصل ذلك زهير سره ذلك وسارع إلى
الجهاد وكتب إلى عبد الملك يخبره بقلته من معه من الرجال وقلة الأموال (٤) .
ومع ذلك فاني أقول مع الدكتور حسين مؤنس : « ذلك قصارى ما يمكن
افقراضه لتعليل تلك العودة وعلى الرغم من ذلك يبدو أن الأمر لازال

(١) قادة فتح العرب المغرب شيت خطاب ج ص ١٦٠ .

(٢) حركة الفتح الإسلامي في القرن الأول شكري فبصل ص ١٧٢

(٣) المغرب الكبير سيد عبد العزيز سالم ج ٢ ص ٢٢٧ .

(٤) معالم الايمان للدباغ ج ١ ص ٥٧ .

غامضا يحتاج إلى كثير من الايضاح (١) ،

حسان بن النعمان الغساني (٢) يثبت اقدام المسلمين في افريقية ويقضى

على مقاومة الروم والبربر:

لقد استطاع زهيران ينتصر على كسيلة وبذلك تحقق الانتصار على بربر الشمال أو البرانس وبقى بربر الجنوب البتر الذي يسكنون الأوراس ، كما بقى الروم الذين يسكنون معقلهم الحصين قرطاجنة وما يليها من مدن الساحل .

ولقد كان استشهاد زهير محمدا ان يأتي بعده للأخذ بشأره العدو الذي يجب أن يقضى عليه حتى يصير المسلمون في مأمن من مثل هذه الهجمات وينفروا للمهمة التي يضطلعون بها من نشر الإسلام وتعاليمه في تلك البقاع ثم حمله إلى غيرها من البقاع أن استطاعوا إلى ذلك سبيلا .

لقد استاء عبد الملك بن مروان الخليفة لاستشهاد زهير ، وكانت مصيبتة مثل مصيبة عقبة ، (٣) .

وكان لقتله اثره البعيد في افريقية فقد اضطرت افريقية ناراً وافترق أمر البربر وتعدد سلطانهم في رؤسائهم (٤) مما دعا اشراف المسلمين واصحاب الرأي بأن يطلبون من الخليفة أن يوجه إلى افريقية من يستطيع أن يقوم بأمرها حتى تثبت اقدام المسلمين فيها فكان اختيار الخليفة لحسان بن النعمان

(١) فتح العرب المغرب حسين مؤنس ص ٢٢٨ .

(٢) انظر شيبه خطاب قادة فتح العرب المغرب ج ١ ص ١٧٢ .

(٣) البيان المغرب لابن تداري ج ١ ص ٣٣ ، المؤنس لابن ابي ديار ص ٢٣ .

(٤) الأمر لابن خلدون ج ٦ ص ١٠٨ .

ليتولى أمرها أفريقية وزكاه بأنه لا يصاح لأفريقية أحد سواه ويعبر المالكي عن ذلك بأن أشراف المسلمين سألوا عبد الملك أن ينظر إلى أهل أفريقية ويؤمنهم من عدوهم ويبعث الجيوش إليهم فقال عبد الملك « ما أعلم أحدا أكفأ بأفريقية من حسان بن النعمان الغساني (١) » .

واختلف المؤرخون في تحديد السنة التي توجه فيها حسان إلى أفريقية اختلافا كثيرا فهو يتردد بين « سنة تسع وستين الدباغ (٢) » والمالكي وسنة ثلاث وسبعين ابن عبد الحكم (٣) وأربع وسبعين ابن الأثير (٤) وست وسبعين وثمان وسبعين ابن أبي دينار (٥) وتسع وسبعين الباجي (٦) ، ولعل السبب في ذلك يعود إلى أن الأمر صدر بتعيين حسان ثم أمر بالبقاء في مصر لما قد يجد من أمر آخر بالنسبة للدولة . يضاف إلى ذلك أن حسان عندما توجه بحملته الأولى فقاتل الروم في قرطاجنة ثم قاتل الكاهنة فانهزم إلى قصور حسان ببرقة وعكث هناك إلى أن وصلت له الأمداد مرة أخرى ليقود حملته الثانية التي قضى بها على الكاهنة ثم طهر قرطاجنة للمرة الثانية : كل ذلك قد جعل المؤرخين يظنون أنه سار إلى أفريقية منذ اختياره وجعلهم يخالطون بين حملته الأولى والثانية يقول ابن عذارى « قدم حسان ابن النعمان أفريقية اختاره لها عبد الملك بن مروان وقدمه على عسكر فيه أربعون ألفا : أقامه أولا في مصر بالعسكر عدة لما يحدث . ثم كتب إليه

(١) رباض النفوس للمالكي ص ٣١ . الرقيق القيرواني تاريخ أفريقيا والمغرب ص ٥٣ ، ٥٤ .

(٢) معالم الإيمان ص ١٥٠ ، رباض النفوس ص ٣١ .

(٣) فتوح مصر ص ٢٠٠ . (٤) الكامل ص ٥٥ .

(٥) المؤنس ص ٧٣ . (٦) الخلاصة البقية ص ١٠ .

بأمره بالنهوض إلى أفريقية ويقول له : إنني أطلقت يدك في أموال مصر
فأعط من معك ومن ورد عليك وأعط الناس واخرج إلى بلاد أفريقية على
بركة الله وعونه ،^(١) .

وهكذا نرى ثانيا أن أموال مصر توجه لأجل إتمام الفتح في أفريقية
ويكون إعداد الجيش صادرا من مصر ثم ينضم إلى الجيش من أقام من
العرب في برقة ومن أسلم من البربر في برقة أيضا بحيث نرى في الجيش قيادات
من بين هؤلاء البربر الذين شرح الله صدرهم للإسلام وقد استفاد حسان
بخبرة تلك القوات فيوجدها في المقدمة حيث مضى وفي جيش كبير حتى
نزل أطرابلس واجتمع إليه بها من كان خرج من أفريقية وأطرابلس
فوجه على مقدمته محمد بن بكير وهلال بن ثروان اللواتي ،^(٢) وسار الجيش
إلى أن وصل إلى القيروان فسأل حسان أهلها عن أعظم الملوك بأفريقية
قدرا فقالوا : صاحب قرطاجنة دار ملك أفريقية ،^(٣) ولم يكن أحد من
القواد السابقين قد تمكن من التغلب عليها فسار حسان إليها وخرجت إليه
قواتها مع رئيسهم فقاتلهم حسان حتى هزمهم وقتل معظمهم ثم حاصرها

(١) ابن عذارى البيان المغرب ج ١ ص ٣٤ ويتفق معه في أن عدد الجيش
أربعون ألف كل من صاحب المؤنس ص ٣٣ وصاحب الخلاصة النقية ص ١٠
ويقول عنه ابن الأثير في الكامل لم يدخل أفريقية بجيش مثله ج ٤ ص ١٧٩
والمالكي في الرياض ص ٣١ والديباغ في معالم الإيمان ج ١ ص ٦ يذكر أن عدد
الجيش ستة آلاف وأن ذلك سنة تسع وستين .

(٢) فتوح مصر لابن عبد الحكم ص ٢٠٠

(٣) ابن عذارى البيان المغرب ج ١ ص ٣٤ ، ويزيد صاحب الخلاصة قوله
هي المدينة العظمى قريبة رومة وضررتها واحدى عجائب الدنيا ص ١٠

حتى افتتحها و دكانت دار الملك بأفريقية^(١) ويوضح ابن الأثير كيفية الاستيلاء عليها وبين ما حدث للمدينة وسكانها وأنهم عندما أدركوا تصميم حسان على الاستيلاء عليها وعدم نجاتهم منه قرروا الحرب منها . ثم هدم حسان بعض أجزائها فقد قاتلهم وحصروهم وقتل منهم كثيرا فلما رأوا ذلك اجتمع رأيهم على الحرب فركبوا في سراكهم وسار بعضهم إلى صقلية وبعضهم إلى الأندلس ودخلها حسان بالسيف فسبي ونهب وقتلهم قتلا ذريعا وأرسل الجيوش فيها حرقها فأسرعوا إليه خوفا فأمرهم فهدموا من قرطاجنة ما قدروا عليه^(٢) ، و د قطع القناة عنها^(٣) .

ولقد حاول الروم أن يلتقموا من المسلمين لاستيلائهم على قرطاجنة فجمعوا عسكريا عظيما بموضع يسمى صطفورة^(٤) وحاولوا الاستعانة بالبربر ليتمكنوا من الانتصار على حسان ولكن الجيش الإسلامي استطاع بعد قتال عنيف قدم فيه كثيرا من الشهداء أن يتغلب عليهم وأن يتبع آثارهم فينحاز الروم إلى باجة^(٥) والبربر إلى بونة^(٦) فقد واجتمع عليه - أي

(١) ابن عذاري البيان المغرب ج ١ ص ٣٤

(٢) الكامل لابن الأثير ج ٤ ص ١٨٠

(٣) المالكي رياض النفوس ص ٣٢

(٤) صطفورة : بلدة من نواحي أفريقية : انظر معجم البلدان د ٣٥٦/٥ ،

نقلا عن قادة فتح المغرب ج ١ ص ١٨٠

(٥) باجة : بلدة بأفريقية تعرف بباجة التمح ، لكثرة حصولاتها من القمح انظر التفاصيل في معجم البلدان د ٢٥/٢ ، نقلا عن شيت خطاب قادة فتح المغرب ج ١ ص ١٨٠ .

(٦) بونة : مدينة حصينة بأفريقية تقع على البحر نفس المرجع السابق

ونفس الصفحة د ٢ : ٣٠٩ ،

حسان - الروم وغدوا عليه عسكريا عظيما لا يعلمه إلا الله تعالى وأمدهم البربر وذلك في بلد تسمى صطفورة فزحف إليهم فقاتلهم قتالا عظيما وأصيب من أصحابه رجال كثيرون رضى الله تعالى عنا وعنهم ثم إن الله تبارك وتعالى ضرب في وجوه الذين كفروا من الروم والبربر فانهزموا بعد بلاء عظيم فقتلهم حسان قتلا عظيما واستأصلهم وحمل بأعنة الخيل عليهم فأنزل في بلادهم موضعا الأوطمة بخيله ولجأ الروم خائفين هاربين إلى مدينة باجة فتحصنوا بها وهرب البربر إلى إقليم بونة . . . ثم انصرف أى حسان إلى مدينة القيروان فأقام بها حتى برئت جراح أصحابه (١) .

بهذا انتهى حسان من القضاء على عقبة كأداء كانت تقف في وجهه من سبقة وهم الروم في الشمال من أفريقية حيث لم يسبق أن تغلب عليهم أحد من المسلمين قبله وتمسك من فتح قرطاجنة وتطهيرها من سلطان الروم عليها وبقى عليه أن يتغلب على داخل البلاد على الأوراس ولذلك بعد أن اطمأن إلى أخذ الجيش لقسط من الراحة وبره جراح جنوده ولى وجهه نحو داخل البلاد لكي يقضى على أية مقاومة تعترض سبيله أو تقف دون تبليغ دعوة الله . ويعبر ابن عذارى عن ذلك بأنه «سأل أهلها - أى القيروان - عن بقى من أعظم ملوك أفريقية ليسيروا إليه فيبيده أو يسلم» (٢) ومن هنا نرى أنه لم يكن القصد من الحرب هو التغلب وإنما الحرب عند الوقوف في وجه تبليغ كلمة الله فإن قبلت فلهم مالنا وعليهم ما هلبينا وإلا فامتشاق الحسام . فكافت الإجابة بإخباره عن الكاهنة التي صار إليها رياسة البربر وقيادة بربر الداخل ابن ويضيف ابن خلدون أنه قد سارت إليها

(١) رياض النفوس للباسكى ص ٣٢ والنظر ابن عذارى ج ١ ص ٣٥ .

(٢) البيان المغرب لابن عذارى ج ١ ص ٣٥ .

رياسة البربر بعد قتل كسيلة وانضمام قبائل بني يفرن وغيرهم إليها ، فلما انقضى جميع البربر وقتل كسيلة ، رجعوا إلى هذه الكاهنة بمعتصمها من جبل أوراس^(١) وقد ضوى إليها بنو يفرن ومن كان يأفريقية من قبائل زناتة وسائر البربر ،^(٢) فإذا ما تمكن حسان من التغلب عليها فقد دان له المغرب كله وسقطت فيه آخر قاعدة ضخمة للمقاومة ولذلك توجه إليها حسان بجيوشه والتقى معها على نهر نيني^(٣) ولكنه لقي هزيمة منكرة أدت إلى ضياع كل أفريقية بعد قتال عنيف وشاق كأنه الفناء ، وفقد عددا كبيرا من الشهداء وقد تتبعته الكاهنة بعد الهزيمة حتى خرج من قابس ويعبر المالكي عن اللقاء بين حسان والكاهنة في تلك الموقعة بأنهم « اقتتلوا قتالا شديدا فعظم البلاء وظن المسلمون أنه الفناء وأنهزم حسان بعد بلاء عظيم فاتبعته الكاهنة بمن معها حتى خرج من حد قابس^(٤) فأسلم أفريقية ومضى على وجهه وأسرت من أصحابه ثمانية رجال وقيل ثمانين رجلا منهم خالد بن يزيد العبسي وكان رجلا مذكورا ،^(٥) .

وهكذا يتخلى الجيش الإسلامي عن أفريقية إثر هذه الهزيمة وإن كان المسلمون ما زالوا في طاعتهم لم تتعرض لهم الكاهنة . ولكن الروم حاولوا استرداد عاصمتهم في أفريقية قرطاجنة بعد أن أرغموا تحت ضغط جيش

(١) أوراس جبل بأفريقية فيه عدة بلاد وقبائل من البربر ويقع بالجزائر

(٢) العبر لابن خلدون ج ٧ ص ٩٠ .

(٣) ندي : نهر مشهور بأفريقية معجم البلدان (٣٦٩/٨) عن شيت خطاب

قادة المتح العرفي ج ١ ص ١٨٣ .

(٤) قابس : مدينة طرابلس وسفاس على ساحل البحر نفس المرجع

السابق ١٨٣ .

(٥) رياض النفوس للمالكي ص ٣٢ ، ٤٣ .

المسلمين على الفرار منها وكان استردادهم لها من المسلمين متسا بالقسوة والعنف فاعدوا أسطولا كبيرا بقيادة البطريق يوحنا د وظهر الأسطول البيزنطي في مياه قرطاجنة في سنة ٦٩٧ م (٥٧٨) وتمكن من الاستيلاء على المدينة في يسر وطرده المسلمين الذين كانوا فيها وقتنا في معاملة من وقع تحت يده من المسلمين قسوة زائدة حتى إنه كان ليقتل الكفار بيده كما يقول ثيوفانس وتقهورا^(١).

وكتب حسان يخبر الخليفة بهذه الهزيمة وما ترتب عليها ويقول :
د إن أمم المغرب ليس لها غاية ولا يقف أحد منها على نهاية كلها بادت أمة خلفتها أمم وهي من الجهل والسكثرة كسائمة النعم د فعاد له جواب أمير المؤمنين يأمره أن يقيم حينما وافاه الجواب ، فورد عليه في عمل برقة فأقام بها وبني هناك قصورا تسمى إلى الآن بقصور حسان^(٢) ، ولقد تأخر ورود المدد من الخليفة لمدة طويلة جعلت السكاهنة صاحبة الشاؤ في أفريقية وفي تصريف شئونها حيث د ملكت أفريقية خمس سنين منذ هزمت حسان^(٣) ، والمالكي والديباغ يحددان المدة التي ملكت فيها السكاهنة أفريقية بثلاث سنين ويعبران عن ذلك بأن حسان قد لقيه كتاب أمير المؤمنين د وهو نازل بمكان يقال له اليوم قصور حسان فبنى هناك قصرا لنفسه وأقام بذلك الموضع هو ومن معه ثلاث سنين وملك السكاهنة

(١) فتح العرب للمغرب الدكتور حسين مؤنس ص ٢٥٤ هن دليل .

(٢) البيان المغرب لابن عذارى ج ١ ص ٣٦ ، قصور حسان : قصور بناها

حسان في منطقة برقة .

(٣) أنظر الرقيق القيرواني تاريخ أفريقية والمغرب ص ٦١ ، البيان المغرب

إفريقية كلها، (١).

وسواء ما سكت الكاهنة ثلاث سنوات أو خمس سنوات فإذا فعلت خلال هذه المدة وماذا فعل حسان بن النعمان ؟ .

أما بالنسبة للكاهنة : فقد أخطأت الغرض من قدوم المسلمين إلى إفريقية وظنت انهم انما يقدمون للسلب والنهب للاستيلاء على المدن والذهب والفضة كما كان يفعل الغزاة سابقا وهداها تفكيرها إلى أنها إذا اتلفت ذلك فقد استطاعت أن تقطع أمل المسلمين في العودة إلى إفريقية حيث لا يوجد بها ذهب أو مدن . واقد كان ذلك خطأ كبيرا من الكاهنة مما عجل بالقضاء عليها وجعل أهل البلاد خارج الأوراس يتقلبون عليها بل دعا بعضهم إلى اللجوء إلى حسان يستغيثون به من الكاهنة وسياستها المخربة ومالحقهم منها خلال انسحاب القيادة الإسلامية إلى برقة . ويعبر الرقيق القيرواني عن ذلك بأن الكاهنة لما دأبها العرب عنها قالت للبربر : إن العرب انما يطلبون من إفريقية المدائن والذهب والفضة ونحن انما نطلب منها المزارع والمراعى فانزى لكم ألا خراب إفريقية حتى يأسوا منها ويقل طمعهم فيها فوجهت قوما إلى ناحية يقطعون الشجر ويهدمون الحصون ، (٢) كما يعبر أيضا عن استغاثة أهل إفريقية بحسان لينقذهم من الكاهنة ويصور حسن استقبالهم له بأنه قد دلفيه من النصراني في طريقه لثلاثمائة رجل يستغيثون إليه من الكاهنة فيما نزل بهم من خراب ومضى أى حسان حتى وصل إلى قابس ، فخرج إليه أهلها وكانوا قبل ذلك يتحصنون من كل أمير مر بهم فأستأمنوا إليه وأدخلو عامله فأممهم على مال معلوم فاستطال طريق القيروان فال إلى

(١) رياض النفوس للماسكي ص ٣٣ ، الدواغ معالم الإيمان ج ١ ص ٦٣ .

(٢) تاريخ إفريقية والمغرب للرقيق القيرواني ص ٦١ .

طريق قنصة (١) وقسطيلية (٢) ونفزاوة (٣) وبعثوا إليه أيضا يستغيثون به من أمر الكاهنة فمره ذلك (٤). وهكذا ادرك السكان الفرق البعيد بين سياسة المسلمين وسياسة الكاهنة البربرية مما جعلهم يفضلون حكم المسلمين ويستغيثون بحسان ليخلصهم من الكاهنة.

أما بالنسبة لحسان : فقد قضى هذه المدة يستعد لخوض المعركة الفاصلة ويأخذ لها الأهمية كاملة ومن أهم ما قام به في ذلك بعد طلب المدد من الخليفة هو استطلاع أحوال العدو والتمسك من معرفة مواطن القوة والضعف حتى يستطيع أن يوجه إليه الضربة القاضية . ولقد استعان في ذلك بأحد الأسرى المسلمين الذي لقي من الكاهنة تقديرا عظيما وصل إلى أن تبنته على عادة البربر (٥) فأرسل إليه حسان رسولا لكي يستطلع حالة الكاهنة

(١) قنصة : بلدة صغيرة في طرف أفريقية من ناحية المغرب من سهل الزاب الكبير بالجريد بينها وبين القيروان ثلاثة أيام أنظر التفاصيل في معجم البلدان (١٣٨/٧) شيد خطاب قادة فتح المغرب ج ١ ص ١٩٧ .

(٢) قسطيلية : بلد بالمغرب من أرض الزاب الكبير معجم البلدان (٨٨/٧) نفس المرجع السابق والصفحة .

(٣) نفزاوة : مدينة بالمغرب بينها وبين القيروان ستة أيام تسير من القيروان نحو الغرب معجم البلدان (٣٠٣/٨) المرجع السابق نفس الصفحة .

(٤) تاريخ أفريقية للرقيق ص ٦١ ، ٦٢ .

(٥) وذلك كما يقول ابن عذارى ج ١ ص ٣٧ وحبست عندها خالد بن يزيد . فقالت له يوما : د مارأيت في الرجال أجل منك ولا أشجع وأنا أريد أن أرضعك فتكون أخا لولدي وكان لها إبنان أحدهما بربري والآخر يوناني وقالت له : نحن جماعة البربر لنا رضاع إذا فعلناه نتوارث به فعمدت إل دقيق الشمير فلمتته بزيت وجعلته على تديها ودعت ولديها وقالت : كلا معه على تدي ففعلنا فقالت : قد صرتم أخوة .

وحالة البربر فأجابه بوصف كامل عن حالة جندهم ومقدار تماسكهم في الرأي والمشورة وحث حسان على سرعة القدوم لأن الفرصة سانحة ويصور الدباغ كيفية هذه المخبرات ووسائلها بأن يزيد أرسل كتابا د إلى حسان مع رسوله وجعله في خبزة ملة قد انضجها ثم دفعها إلى الرسول ليخفي الكتاب ليظن من رأى الخبزة أنه زاد للرجل . . . وفيه — أى الكتاب — كل ما يحتاج إليه من خبر الكاهنة يقول فيه د ان البربر يعقدون عساكرهم بالنهار ويفترقون بالليل وليس لهم حزم في الرأي وانما ابتلينا بأمر قدره الله واكرم به من أراد منا بدرجة الشهادة فإذا نظرت في كتابي هذا فاطو المراحل وجد السير فإن الأمر إليك ولست أسلك إن شاء الله ولا حول ولا قوة إلا باقة العلي العظيم ، (١) .

وعندما أتم حسان الاستعداد للقاء الكاهنة ووصلته الأمداد من جنود العرب وفرسانهم ومن انضم إليهم ممن أسلم من البربر سار إلى الكاهنة وألقى بها مع جيشها وتمكن من هزيمتها وقتلها . ورغم كثرة جمعها وضرارة المعركة فقد تمكن من دفض جموعهم وأوقع بهم وقتل الكاهنة واقتحم جبل أوراس عنوة واستلحم فيه زهاء مائة ألف ، (٢) .

وهكذا تمكن حسان من القضاء على الكاهنة واقتحام الأوراس وقدم إليه البربر يطلبون الأمان وبعلمون الاسلام والطاعة ولكن لما يعرفه حسان من كثرة ارتداد البربر أحب أن يشركهم معه في الحرب وسكروا من جنود الدولة يذودون عن حياضها . ثم بعد التفقه في الدين يكون لهم نصيب كبير وحث عظيم بالمشاركة في الفتوح القادمة . ذلك أن البربر

(١) الدباغ معالم الإيمان ج ١ ص ٦٣ ، ٦٤ .

(٢) العبر لابن خلدون ج ٧ ص ٩ .

قد استأمنوا إلى حسان فلم يقبل أمانهم إلا أن يعطوه من جميع قبائلهم
أثني عشر ألفا يكونون مع العرب مجاهدين فأجابوه واسلموا على يديه
فعد لواثني لولدى الكاهن لكل واحد منهما على ستة آلاف فارس وأخرجهم
مع العرب يحولون في أفريقيا يقاتلون الروم ومن كفر من البربر وحسن
اسلام البربر وطاعتهم وانصرف حسان إلى مدينة القيروان (١) .

وبذلك قضى حسان على البربر في الداخل ولم يبق إلا أن يسترجع
قرطاجنة من الروم الذين تمكنوا من طرد المسلمين منها أثناء إقامة حسان
في برقة فتوجه بقواته إلى قرطاجنة حيث قاتل أهلها قتالا شديدا شعر منه
أهلها بأنهم لا طاقة لهم به مما جعلهم يصانعونه بأنهم يريدون الصلح . وكان
ذلك خديعة منهم حتى يلبس رقباء حسان وعيونه ليتمكنوا من مغابلتهم ،
فلما كان الليل ركبوا سفنهم فادين إلى صقلية والأندلس ظانين أنهم سوف
يعودون ثانيا عندما تتيح لهم الظروف ذلك ولكنه كان خروجا ابديا
ودخل حسان المدينة وأزال منها ما كان يعتصم به الروم وأقام بها مسجدا
فكان الهداية المشعة لمن يقيم بها من شرح الله صدره للاسلام . والمالكي
والدباغ من مؤرخي المغرب القدامى ينفردان بالحديث عن فتح قرطاجنة
بعد تمكن حسان من القضاء على البربر في الجنوب وانقيادهم للاسلام وأن
كان يشاركهما بإشارة موجزة صاحب المؤنس فقد سار حسان يريد
قرطاجنة . . . فخرج إليه أهل قرطاجنة فخاربه حربا شديدة فهزمهم الله
وملك حسان لخص تونس وقرطاجنة فلما رأته الروم قهرته لهم وعلموها
أنهم لا قوام لهم به سألوه الصلح وأن يضع عليهم الخراج فأجابهم إلى ذلك
وأدخلوا ثقلهم في مراكب كانت عندهم معدة في البحر وهربوا من باب

(١) تاريخ أفريقيا والمغرب الرقيق القيرواني ص ٦٤ .

يقال له باب النساء في الليل وحسان لا علم عنده بذلك وتركوا المدينة خالية لا أحد فيها ونزلوا بجزيرة صقلية وبعضهم بالاندلس فدخلها حسان فأخربها وأحرقها وبني بها مسجداً (١).

وبذلك تمكن حسان من القضاء على مقاومة البربر في الداخل ثم القضاء على الروم في الساحل وتوج أعماله بالشروع في إقامة مدينة ساحلية تكون عيناً للقيروان على شاطئ البحر ومحرساً ترقب تحركات الروم وترد طامياتهم ، كما تحتل المركز الممتاز الذي كان لقرطاجنة من قبل وتمكون مدينة وميناء اسلامياً عوضاً عنها اقيم بها المسلمون وبنوا بجوارها دار صناعتهم فتنحول إلى ميناء حربي وتجاري يشرف على حوض البحر المتوسط . وحسان هو الذي فرق البحر إليها — أمى تونس — وجعلها دار صناعة فأخرج إليها الماء وأجراه من البحر إليها (٢) ، وبذلك تحقق للمسلمين في أفريقيا الأمن من البحر كما تحقق لهم الأمن من الصحراء .

وقد كان لانعشاء دار الصناعة وتعميرها وجلب الخبراء إليها من مصر بأسرهم هو الاستعداد الحقيقي للدور الكبير الذي ستقوم به القيروان بأسطولها القوي من الإغارة على شواطئ الروم في عقر دارهم وشغلهم عن بلاد الاسلام في المشرق (٣) وبذلك توج حسان أعماله الحربية بالتوجه إلى الأعمال الادارية والانشائية المعمارية والصناعية التي كان لها الأثر البعيد في إفريقية وتثبيت الإسلام فيها إلى الأبد أن شاء الله . فقد واستقامت

(١) رياض النفوس للبائسكي ص ٣٧ ، أنظر الدباغ معالم الإيمان ج ١ ص

٦٨ ، ٦٩ ، ابن دينار المؤنس ص ٣٥

(٢) للدباغ معالم الإيمان ج ١ ص ٦٨ .

(٣) الرقيق القيرواني ص ٦٥ ، ٦٦ تاريخ إفريقية والمغرب .

بلاد إفريقية لحسان بن النعمان فدون الدواوين وصالح على الخراج وكتبه على عجم أفريقية وعلى من أقام معهم على دين النصرانية^(١) ، كما جدد بناء مسجد القيروان وأحسن بنائه وأقام حسان في مدينة القيروان مقر الولاية الأفريقية يوجه منها شئونها ويدير أحوالها وقد عمرها المسلمون واطمأنوا إلى سكناها .

وانتشروا وكثروا فيها وأمنوا وولى حسان على صدقات الناس والسعى عليهم حنش بن عبد الله الصنعاني التابعي رضي الله تعالى عنه^(٢) .

وعندما تمهدت إفريقية وأمن أهلها رحل حسان عنها قادما على الخليفة في دمشق بعد أن أدى واجبه عسكريا وإداريا واطمأنت نفسه إلى ما قام به من أعمال .

ذلك أن عبد العزيز بن مروان والي مصر قد عزاه عن أفريقية ، ليولى عليها أحد أتباعه وأرسل إليه أربعين رجلا من أشرف أصحابه ليتحفظوا على ما معه من الغنائم^(٣) فلما قدم حسان بن النعمان على عبد العزيز بن مروان أهدى إليه مائتي جارية من خيار ما معه . . . فتخير ما أحب وأخذ منه خيلا كثيرة ورحل حسان بمن معه بن السبي والجمال والأنعام حتى قدم على الوليد بن عبد الملك فشكى إليه ما صنع به عبد العزيز فغضب الوليد لذلك وانكره فقال حسان لمن معه ، ايتوني بالقرب فأتي بها ففرغت بين يدي الوليد مما فيها من الجواهر والذهب والفضة فاستعظمت

(١) ابن عذاري البيان المغرب ج ٣ ص ٣٨ .

(٢) رياض النفوس للماسكي ص ٣٨ .

(٣) الرقيق القيرواني تاريخ إفريقية المغرب ص ٦٦ ، البيان المغرب لابن

وبهتة فقال له : يا أمير المؤمنين إنما خرجت مجاهدا في سبيل الله وايس
مثلي خان الله ولا الخليفة ، فقال له الوليد أردك إلى عمك وأحسن إليك
و خلف حسان : أنه لاولى لبني أمية ولاية أبدا فلما رأى ذلك الوليد
غضب على عبد العزيز وكان يسمى حسان الشيخ الأمين - رحمه الله (١)

لقد أدى حسان واجبه بصدق واخلاص جعله خليفقا بلقب الشيخ
الأمين فعلى يديه تم فتح أفريقية وصارت القيروان عاصمة لها لا يحكمها غير
المسلمين واستقامت أفريقية كلها وأمن أهلها وقطع الله عز وجل مدة
أهل الكفر ، وصارت القيروان دار اسلام وجميع مدن أفريقية إلى يومنا
هذا وإلى آخر الدهر أن شاء الله تعالى ، (٢) ، وقد كان لهذا الفتح أثر كبير
في الناحية العسكرية التي قام بها القواد والجنود من الصجاية والتابعين الذين
تشرف بهم الشمال الأفريقي حيث تمكن سكان هذه البلاد أن يفقهوا
حقائق الإسلام : ويكون لهم دور كبير في الحفاظ على الإسلام ونشر
تعاليمه السمحة .

(١) الرقيس القيرواني تاريخ أفريقية والمغرب ص ٦٦ ، ٦٧ .
(٢) رياض النفوس للماسكي ص ٣٨ ، الدباغ معالم الإيمان ج ١ ص ٦٩ .

الفصل الثاني

الحالة السياسية في أفريقية بعد أن تم فتحها

عصر الولاية من بنى أمية وبنى العباس:

بعد أن تم فتح أفريقية على يد حسان بن النعمان وثبتت أقدام المسلمين فيها توافد الولاية على القيروان من قبل خلفاء بنى أمية ثم من قبل خلفاء بنى العباس لإدارة شئون ولاية أفريقية التي كان مقرها القيروان .

وقد اتسع نطاق هذه الولاية حتى وصل إلى المغرب الأقصى وعبر المضيق إلى الأندلس التي انضوت تحت سلطان المسلمين . فكان وإلى القيروان هو المسئول عن إدارة هذه الأقاليم الشاسعة . ثم عاد سلطان وإلى القيروان فأنكمش ثانيا بحيث اقتصر على إفريقية وحدها بعد أن استقل الأمويون بالأندلس والرسثميون بتاهرت والمداداريون بسجلماسة والادارسة بفاس وبذلك انفصل الأندلس والمغرب الأقصى وبعض أقاليم المغرب الأوسط عن التبعية للسلطة الحاكمة في القيروان .

وقد عانت السلطة الحاكمة في القيروان خلال عصر الولاية كثيرا من الثورات العاتية وتعرضت في بعضها للحصار بل تمكن الثوار في بعض الأحيان من طردها من مقرها والاستيلاء على القيروان نفسها وإتهك حرمتها ومقدساتها إلى أن قامت دولة الأغالبة سنة ١٨٤ هـ .

١ - ولاية موسى بن نصير :

وقد تولى أمر أفريقية بعد حسان بن النعمان موسى بن نصير

سنة ٨٨ هـ (١) حيث قام بكثير من الفتوح كان أولها فتح قلعة زغوان ونواحيها وبينها وبين القيروان مسيرة يوم (٢) كامل ثم تابع فتوحه فتوجه غربا إلى المغرب الأقصى ففتح طنجة وانتهت خيـلـة إلى السوس الأدنى (٣) ودان له أهل المغرب بعد حروب كثيرة خاضها ضدهم وأسر فيها كثيرا منهم فانقادوا له ودانوا بالطاعة فولى على السوس الأدنى واليبا واستعمل مولاة طارقا على طنجة وما والاها في سبعة عشر ألفا من العرب واثني عشر ألفا من البربر وأمر العرب أن يعلموا البرابر القرآن وأن يفقهوهم في الدين ثم انصرف إلى قيروان أفريقية ولم يبق في أفريقيا من ينازعه (٤).

وفي سنة ٩٢ هـ استطاع طارق بن زياد واليه على طنجة أن يغزو الأندلس وينتصر على حاكمها في المعارك الأولى حيث لحق به موسى بن نصير سنة ٩٣ هـ الذي تابع فتوح الأندلس (٥) وبذلك صارت الأندلس تابعة للقيروان ثم عاد موسى إلى القيروان بعد أن ترك ابنه عبد العزيز واليبا على

(١) ابن عذاري البيان المغرب ج ١ ص ٤٦ ويذكر البلاذري فتوح البلدان أنها سنة ٨٩ ص ٢٧٢ ويذكر ابن عبد الحكم فتوحها سنة ٧٨ هـ ويحيل إلى أنها سنة ٨٧ وأن النارينغ في ابن عبد الحكم قد عكس العدد وهذا ما يذكره المقرئ في الفتح الطيب ج ١ ص ٢٢٣ .

(٢) انظر ابن عذاري ج ١ ص ٤٠ .

(٣) البلاذري فتوح البلدان ص ٢٧٢ .

(٤) انظر البلاذري فتوح البلدان ص ٢٨٢ ، ابن عذاري البيان المغرب ج ١ ص ٤٣ ، ابن الأثير الكامل ج ٤ ص ٢٠٩ .

(٥) انظر البلاذري فتوح البلدان ص ٢٧٣ ، ابن عذاري البيان المغرب ج ١ ص ٤٣ ، ابن عبد الحكم فتوح ص ٢٠٧ .

الأندلس^(١) ليجد كتاب الخليفة الوليد بن عبد الملك يأمره بالقدوم عليه فاستخلف على أفريقية^(٢) أكبر بنيه عبد الله وعلى طنجة ابنه عبد الملك ثم توجه إلى دمشق ليصل إليها قبل وفاة الوليد بن عبد الملك بأيام قليلة^(٣).

٢ — ولاية محمد بن يزيد :

تولى الخلافة بعد الوليد اخوه سليمان بن عبد الملك فأسند أمر أفريقية والمغرب كله إلى محمد بن يزيد مولى قريش وأوصاه بقوله « يا محمد بن يزيد اتق الله وحده لا شريك له وقم فيمن وليتك بالحق والعدل اللهم اشهد عليه فخرج وهو يقول « مالي عذر إن لم اعدل »^(٤) . وقد وصل محمد بن يزيد إلى مقرر ولايته سنة ٩٧ هـ ، ويتحدث المؤرخون عنه بأنه كان حسن السيرة عادلا كما قام ببعث السرايا إلى ثغور أفريقية وقد أسند أمر الأندلس إلى الحر بن عبد الرحمن الثقفي^(٥) وقام بمصادرة أملاك أسرة موسى بن نصير في القيروان وقد استمرت ولايته سنتين وأشهرًا .

٣ — ولاية اسماعيل بن عبيد الله :

وعندما توفي سليمان بن عبد الملك وولى الخلافة عمر بن عبد العزيز ولى على أفريقية اسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر مولى بني مخزوم

(١) تاريخ فتوح أفريقية للرقبي ص ٨٥ .

(٢) يقصد بأفريقية هنا القيروان .

(٣) انظر فتوح مصر لابن عبد الحكم ص ٢١٠ ، الرقبى تاريخ أفريقية ص ٨٨ تولى الوليد بن عبد الملك صالح جمادى الآخرة سنة ٩٦ هـ المرجع السابق ص ٩١ .

(٤) المرجع السابق ص ٢٣ .

(٥) انظر ابن عذارى البيان المغرب ج ١ ص ٤٧ ، الرقبى تاريخ أفريقية

ص ٩٣ ، ويدكر الرقبى أن اسمه الحسن بن عبد الرحمن القيسي .

سنة ١٠٠ هـ الذي بذل جهودا مخلصا لأجل اقرار العدل والسلام كما اهتم بنشر الإسلام والتعريف به بين البربر مما أدى إلى اعتناق كثير من البربر للإسلام ويذكر ابن عذارى « أنه مازال حريصا على دعوة البربر إلى الإسلام حتى اسلم بقية البربر بأفريقية على يديه (١) . كما بعث معه الخليفة بعشرة من التابعين لتعليم أهل أفريقية الحلال والحرام وقد ولى اسماعيل ابن أبي المهاجر على الأندلس السمع بن مالك الخولاني ويحمل المؤرخون الحالة السياسية في أيام اسماعيل بقولهم « أنه كان خير أمير وخير ولى » (٢).

٤ - ولاية يزيد بن أبي مسلم :

وعندما آلت الخلافة إلى يزيد بن عبد الملك أسند ولاية المغرب إلى يزيد بن أبي مسلم مولى الحجاج بن يوسف فقدم إليها سنة ١٠٢ هـ وكان يتمم بالقسوة والظلم سواء بالنسبة للرعية حيث حاول أن يضع الجزية على من أسلم (٣) من أهل الذمة أو بالنسبة لحرسه حيث أراد أن يسهم على أيديهم حتى يعرفوا بذلك مما أدى إلى تأمرهم عليه وقتله بعد شهر من ولايته .

٥ - ولاية بشر بن صفوان الكلابي :

واختار أهل القيروان محمد بن أوس الأنصاري والبسا عليهم . وكان

(١) البيان المغرب لابن عذارى ج ١ ص ٤٨ ، والرقيق تاريخ أفريقية ص ٩٧ .

(٢) البيان المغرب لابن عذارى ج ١ ص ٤٨ ، الرقيق تاريخ أفريقية ص ٩٧ ،

وابن عبد الحكم فتوح ص ٣٨ يصفه بأنه كان حسن السيرة

(٣) العبر لابن خلدون ج ٤ ص ١٨٨ .

(٤) انظر الرقيق تاريخ أفريقية والمغرب ص ٩٩ ، ١٠٠ .

في غزو صقلية فبعد عودته قام بالأمر وكتب إلى يزيد بن عبد الملك يخبره بما حدث من قتل يزيد بن أبي مسلم واختيار أهل القيروان له (١) . فولى يزيد على أفريقية بشر بن صفوان الكلابي الذي قدم إلى القيروان سنة ١٠٣ هـ فقام بتصفية آل موسى بن نصير كما ولى على الأندلس عنبسة بن سحيم السكبي وفي سنة ١٠٧ هـ ولى على الأندلس ثانيا يحيى بن سلمة الكلابي كما أن بشرا مهدأمود أفريقية وغزا صقلية بنفسه فأصاب سبيا كثيرا وعند عودته إلى القيروان أدركه الوفاة في سنة ١٠٩ هـ (٢) .

ونلاحظ هنا سرعة تغيير والي أفريقية في القيروان الذي كان يغير بالتالي الولاة التابعين له وخاصة في الأندلس . وقد أدت سرعة هذا التغيير إلى عدم القيام بأعمال هامة سوى ما قام به اسماعيل بن أبي المهاجر من نشر للإسلام بين البربر وكذلك نلح روح الثورة في قتل والي القيروان يزيد بن أبي مسلم لعدم قيامه بالعدل في الرعية والقسوة التي أبدتها في معاملة حرسه الخاص مما أدى إلى قتله .

٦ - ولاية عبيدة بن عبد الرحمن السلمي :

وفي سنة ١١٠ هـ قدم إلى القيروان عبيدة بن عبد الرحمن السلمي ليقوم بحكم أفريقية خلفا لبشر بن صفوان من قبل الخليفة هشام بن عبد الملك فبعث عبيدة من قبله إلى الأندلس مدة حكمه أربعة ولاة كان آخرهم عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي ، الذي غزا فرنسا حيث استشهد سنة ١١٥ هـ

(١) انظر المرجعين السابقين البيان ص ٤٩ والرقيق ص ١٠٠ .

(٢) انظر ابن خلدون العبر ج ٤ ص ١٨٨ ، وابن عسذارى البيان

بموضع يعرف ببلاط الشهداء^(١) كما وجه عبيدة المنستير بن الحبجباب الحرشى غازيا إلى مصقاية فغرقت السفن ولم تصل إلى الهدف المنشود^(٢).

وقد طامل عبيدة عمال الوالى السابق بقسوة وعنف وفرض عليهم بعض الغرامات فشكوه إلى الخليفة مما أدى إلى عزله عن أفريقيا^(٣).

(٧) ولاية عبيدة الله بن الحبجباب :

وأرسل الخليفة هشام بن عبد الملك عبيدة الله بن الحبجباب واليا على أفريقيا والمغرب سنة ١١٦ هـ وكان كاتباً بليغاً يقول الشعر وكان والياً على مصر قبل إسناد ولاية أفريقيا إليه^(٤) فقدم القيروان ونظم شئونها وقام فى تونس ببناء المسجد الجامع والزيادة فى دار الصناعة^(٥) كما أرسل الولاية إلى أطراف الولاية فبعث إلى الأندلس عقبه بن الحجاج وولى على طنجة

(١) ابن عذارى البيان ج ١ ص ٥٠ ولعل ابن عذارى يقصد أنه فى أيامه كان يسمى بذلك . ويدكر سيد أمير على أن المعركة التى استشهد فيها دارت فى نقطة وافعة بين تور وبواتيه واستمرت عشرة أيام . وسمى الميدان الذى جرت فيه تلك المعركة فى التاريخ العربى « بلاط الشهداء » بالنظر إلى كثرة من استشهد فيها من مشاهير الرجال مع عبد الرحمن . وما يزال الاتقياء يعتقدون أن ملائكة السماء يمكن أن تسمع هناك وهم تدعو المؤمنين لصلاة العروب . مختصر تاريخ العرب ص ١٤٩ — ١٥١ .

(٢) ابن عبد الحكم فتوح مصر والمغرب ص ٢١٦ .

(٣) ابن عذارى البيان ج ١ ص ٥١ . دبور تاريخ المغرب الكبير ج ٢ ص ٢١١ .

(٤) ابن عبد الحكم فتوح ص ٢١٧ . الرقيق تاريخ أفريقيا والمغرب ص ١٠٧ .

(٥) ابن عذارى البيان المغرب ج ١ ص ٥١ .

وما والاها ابنه اسماعيل ثم ولى بعده عمر بن عبدالله المرادي وأرسل جيشا بقيادة حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع إلى المغرب الأقصى ولم يقابله أحد إلا ظهر عليه وفي سنة ١٢٢ هـ أرسل حبيب بن أبي عبيدة غازيا إلى صقلية فتمسكن من فرض الجزية عليها^(١).

وكان عامله على طنجة والمغرب الأقصى عامل الرعية معاملة سيئة وأراد تخميس البربر وزعم أنهم فيء للمسلمين مما أدى إلى قيام ثورة عنيفة تزعمها ميسرة المدغرى الذي تمسكن من قتل اسماعيل بن عبيدالله الذي كان يلى أمر السوس^(٢) وذر قرن الفتنة في المغرب فقد كان ميسرة المدغرى ممن يدين بمذهب الخوارج الصفرية وادعى الخلافة وتسمى بها وكثر جمعه وأعلن استقلاله عن والى القيروان فأرسل إليه ابن الحبحاب جيشا بقيادة خالد بن حبيب فالتقى بالبربر الذين ولوا عليهم خالد بن حميد الزناتي خليفة ميسرة ودارت معركة عنيفة أنف العرب فيها من الفرار مما أدى إلى استشهاد خالد بن حبيب وأصحابه حيث قتل في تلك الواقعة حماة العرب وفرسانها فسميت لذلك غزوة الأشراف^(٣) وانتفض المغرب الأقصى ضد حكم القيروان. وبلغ استشهاد كافة العرب وانتفاض المغرب على والى القيروان إلى اسمع همام بن عبد الملك فقال: والله لأغضبن لهم غضبة عربية ولا بعثن لهم جيشا أوله عندهم وآخره عندي ثم لا تركت حصن بربرى إلا جعلت إلى

(١) ابن عذارى البيان المغرب ١ - ص ٥١ ، الرقيق تاريخ أفريقيا والمغرب

ص ١٠٨ ، ١٠٩ .

(٢) انظر ابن عبد الحكم فتوح ٠٠٠٠ ص ٢١٧ ، ابن عذارى البيان المغرب

ص ٥٢ ، ٥٣ ، الرقيق تاريخ أفريقيا ص ١٠٩ وربما كان مذهب الخوارج هو سبب الفتنة لا ظلم الولاة كما يذكر المؤرخون .

(٣) المراجع السابقة فتوح ص ٢١٧ ، الرقيق ص ١١٠ ، ١١١ ؛ البيان المغرب

جانبه خيمة قيسى أو تميمي و ثم كتب إلى ابن الحبشاب بقدومه عليه فخرج في جمادى الأولى سنة ثلاث وعشرين ومائة^(١) . متوجها إلى دمشق .

(٨) ولاية كلثوم بن عياض القشيري :

وأسد هشام بن عبد الملك القيام بأمر أفريقية والقضاء على الثورة فيها إلى كلثوم بن عياض القشيري وأرسل معه اثني عشر ألفا من أهل الشام وأمر حكام مصر وبرقة وطرابلس بإرسال الجنود معه فوصل إلى أفريقية في رمضان سنة ١٢٣ هـ فاستخلف على القيروان عبد الرحمن بن عقبة الغفاري قاضي أفريقية وسار كلثوم بن عياض في جيشه الذي بلغ ثلاثين ألفا^(٢) بعد أن انضم إليه جند أفريقية بقيادة حبيب بن أبي هبيدة والتقوا مع نوار البربر بقيادة خالد بن حميد الزناتي فدارت المعركة بينهما على وادي سبو بمجنوب طنجة حيث انجلت عن قتل كلثوم بن عياض وحبيب بن أبي هبيدة وهزيمة العرب وقتل كثير من قادتهم وفرسانهم فانسحب بقية الجيش ولجأ بعضهم إلى الأندلس والبعض الآخر إلى القيروان^(٣) . وبعد هذه المعركة انفصل المغرب الأقصى والأوسط^(٤) عن سيطرة القيروان وأصبح

(١) انظر الرقيق تاريخ أفريقية ص ١١١ ، ابن عذارى البيان المغرب

ص ١٤٤ .

(٢) انظر ابن عذارى البيان ص ١٤٥ نقله عن ابن القطان .

(٣) انظر ابن عبد الحكم فتوح ص ٢١٧ ، ابن عذارى البيان ص ١٤٥ .

حبيب الجنجاني القيروان عبر عصور الأزد ص ٤٧ ، دبور تاريخ المغرب الكبير ص ٢٦٩ .

(٤) أقسام المغرب : قسم العرب المغرب بحسب قرابة وبعده هن مصر التي

يسمرون منها لفتحها إلى ثلاثة أقسام :

هم الولاية بعد ذلك هو المحافظة على أفريقية التي هي المغرب الأدنى وفيه مقر الولاية ومدينة القيروان .

(٩) ولاية حنظلة بن صفوان السكلي :

بعد استشهاد كاثوم بن عياض ولي هشام بن عبد الملك على أفريقية حنظلة بن صفوان السكلي فوصل إلى القيروان في شهر ربيع الأول سنة أربع وعشرين ومائة وطلب منه أهل الأندلس أن يرسل إليهم واليا فأرسل إليهم أبا الخطاب بن ضرار السكلي الذي ركب البحر من تونس إلى الأندلس واليا عليها فأدوا إليه الطاعة^(١) ، ولم يمض على إقامة حنظلة بالقيروان وقت طويل حتى زحف إليه الخوارج الصفرية فالتقى بمكاشة بن أيوب الفزاري بالقرن قريبا من القيروان ودارت معركة حامية كان النصر فيها لحنظلة وفر مكاشة ثم قبض عليه فقتله حنظلة . وبعد ذلك أقبل عبد الواحد بن يزيد الهواري فنزل على ثلاثة أميال من القيروان بموضع يعرف بالأصنام وكان في جمع عظيم من البربر بلغ ثلاثمائة ألف قاصدا القضاء على السلطة في القيروان فخرج إليه حنظلة بأهل القيروان بعد أن جهزهم بكل الأسلحة العسكرية الموجودة لديه وقد بذل صفوان الأموال للمجاهدين فخرج أهل القيروان للدفاع عن مدينتهم وهم مستحيون لحماية مدينتهم . وشارك في هذه

== أ - الأدنى : من السلوم في غرب مصر إلى بجاية ويشتمل على برقة وطرابلس وتونس وعمالقة قسنطينية .

ب - وإلى مغرب أوسط : وهو من بجاية شرقا إلى وادي ملوية ويهتمل على جبال القبائل وعمالقة الجزائر ووهران إلى ملوية .

ج - وإلى مغرب أقصى : من وادي ملوية إلى المحيط الأطلسي . انظر دبور

تاريخ المغرب الكبير ٢٥ ص ٢٣٨ .

(١) الرقيق تاريخ أفريقية والمغرب ص ٢١٥ .

المعركة العلماء والقراء لتقوية الروح المعنوية كما شارك نساء القيروان حيث عقدن الألوية وخرجن بالأسلح عازمات على القتال ومعدن الرجال في ميادين القتال وحلفن لأزواجهن أنهن لن يترنم أحد منهم مولياهن العدو ليقتلنه وبذلك أقبل أهل القيروان بقيادة حنظلة على قتال العدو بروح مستميتة في طلب النصر أو الشهادة ودارت المعركة واشتد القتال وأنزل الله نصره وهزم الصفريه وولوا منهزمين وقتل عبد الواحد بن يزيد الهواري وحملت رأسه إلى حنظلة فخر الله ساجدا وبذلك حفظت القيروان من هذه الثورة العاتية . ولقد كان لهاتين المواقعتين وقع حسن في دمشق عندما علم الخليفة بالانتصار فيهما وحماية القيروان من شر الثائرين وكان اللبث بن سعد يقول : « ما غزوة كنت أحب أن أشهدا بعد غزوة بدر أحب إلى من غزوة القرن والأصنام » (١) لما كان لهما من أثر في تاريخ الإسلام في المغرب .

ولاشك أن حنظلة قد حفظ بحسن قيادته القيروان من هذه الثورة العاتية وتلك الأعداد الهائلة التي كانت تريد اجتياحها والقضاء على أي سلطة للأمويين فيها . ولسكن في سنة سبع وعشرين ومائة ثار بته نس عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة ابن عقبة بن نافع ودعا الناس إلى نفسه فأجابوه فأقبل بمجموعه إلى القيروان طالبا من حنظلة مغادرتها وكره حنظلة سفك دماء المسلمين فغادر القيروان متجها إلى المشرق في جمادى الآخرة سنة سبع وعشرين ومائة (٢) .

(١) انظر : الرقيق تاريخ أفريقية ص ١١٩ ، ١٢٠ ابن الأثير الكامل ج ٥ ص ٩٠ ، ٩١ ؛ ابن عداري البيان ج ١ ص ٥٨ ، ٥٩ ، ابن تغري - برد النجوم الزاهرة ج ١ ص ٢٩٤ .

(٢) ابن عبد الحكم فتوح ص ٢٢٤ ، ابن الأبار الحلة السيرة ج ٢ ص ٣٤٢ ، مبارك المبلى الجزائر في القديم والحديث ص ٤٠ .

(١٠) ولاية عبد الرحمن بن حبيب الفهرى :

ودخل عبد الرحمن القيروان وتولى الأمر فيها وصاد هو الحاكم لأفريقية ويبدو أن الذى ساعد للفهرى فى حركته هو اضطراب أمر الخلافة فى المشرق الذى كان فرصة مكنت لعبد الرحمن من أن يظفر بربشبه استقلال فى الحكم وإن كان لم يعلن انفصاله عن الخلافة فى المشرق فقد أرسل عبد الرحمن إلى مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية هدايا وعلل خروجه على حنظلة بأشياء تقولها عليه فكتب إليه مروان بولايته على أفريقية (١) وقد استمر عبد الرحمن يحكم أفريقية عشر سنوات استطاع خلالها أن يقضى على كل الثورات التى قامت ضده وهزم كل ثائر حاول الانتقاض عليه ؛ وعندما اجتمع بتلمسان جمع كبير من البربر ساء إليهم وفض جموعهم وظفر بهم وخافه المغرب ولم ينهزم له عسكر ولا ردت له راية وقد بعث جيشا إلى صقلية وآخر إلى سردانية فانتصر على أهلها ثم صالحوه على الجزية، (٢).

ولما قامت دولة بنى العباس أرسل عبد الرحمن كتابا إلى أبى العباس السفاح أول خلفاء بنى العباس يعلن فيه طاعته فأقره السفاح على أفريقية فلما توفى السفاح وخلفه أبو جعفر المنصور أرسل إليه عبد الرحمن بهدية ومعها كتاب بين فيه قلة دخل أفريقية وإنها قد أصبحت إسلامية ويطلب ألا يسأله ماليس عنده فاستاء لذلك أبو جعفر وكتب إليه يتوعده بما حمل

(١) الرقيق تاريخ أفريقية ص ١٢٩ ، ابن عسذارى البيان ج ١ ص ٦١ ، السلاوى الاستقصا ص ٥٢ .

(٢) ابن عسذارى البيان ج ١ ص ٦١ ، ابن الأثير الكامل ج ٥ ص ١٤٨ ، ابن خلدون العبر ج ٤ ص ١٨٩ ، مبارك الميلى الجزائر فى القديم والحديث ص ٤٠ .

عبد الرحمن على خلع أبي جعفر وإعلان عدم تبعيته له ، وانتهاز أخوه
إلياس ذلك فثار عليه وقتله وتولى أمر أفريقية بعده وبعث بطاعته إلى
للنصور مع وفد فية عبد الرحمن بن زياد بن أنعم. قاضي أفريقية^(١) ،
ولسكن أفريقية لم تسكن لإلياس إذ ثار عليه حبيب بن عبد الرحمن وتمسك
من القضاء عليه بعد سنة ونصف من توليه الأمر ودخل حبيب القيروان
وقام بأمر أفريقية وذلك في سنة ثمان وثلاثين ومائة هجرية . إلا أن أفريقية
لم تسلس قيادها له إذ أقبل عاصم بن جميل^(٢) أمير ورجومة من نفزة فهزم
حبيبا ثم التقى عاصم مع خليفة حبيب على القيروان القاضي أبو كريب فقتل
أبو كريب بعد أن قاتل ومن معه من أهل القيروان بكل بسالة وجرأة ودخلت
ورجومة القيروان فاستحلوا المحارم وانتكروا الحرمات وولى عاصم على القيروان
عبد الملك بن أبي الجعد الوريثي الذي سام أهل القيروان سوء العذاب
وربطوا دوابهم في المسجد الجامع ، ثم التقى حبيب مع عاصم مرة أخرى
فتمسك من قتل عاصم وأصحابه إلا أن عبد الملك بن أبي الجعد تمسك بقيبائنة
ورجومة من قتل حبيب في شهر المحرم سنة مائة وأربعين هجرية وبذلك
قضى على أسرة عبد الرحمن بن حبيب . وعانت ورجومة في القيروان فسادا
وفر كثير من أهل القيروان إلى المدن المجاورة وشاع ما حل بالقيروان

(١) الرقيق تاريخ ص ١٣٤ ، ١٣٦ ، ابن عذارى البيان ج ١ ص ٦٨ ، ابن
الانير السكامل ح ٥ ص ١٤٩ .

(٢) عاصم بن جميل الوريثي : رئيس قبيلة ورجومة البهرية من نفزة .
ادهى النبوة والسكاهنة فبدل الدين وزاد في الصلاة واسقط ذكر النبي ﷺ من
الاذان وقد قتله حبيب بن عبد الرحمن فقام بأمر ورجومة من بعده عبد الملك
ابن أبي الجعد وهو من الخوارج الصنبرية . انظر السكامل لابن الانير ج ٥
ص ١٤٩ وابن عذارى البيان المنخر ب ج ١ ص ٧٠ .

بالأفاق . فأقبل أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري الإباضي من طرابلس قاصدا القيروان لقتال ورجومة فالتقى معهم سنة ١٤١ هـ وهزمهم وشتت شملهم وتبعهم حتى أخرجهم من القيروان وترك على القيروان نائبا عنه عبد الرحمن بن رستم وذلك في صفر سنة إحدى وأربعين ومائة من الهجرة (١) .

وبذلك خرجت القيروان قاعدة أفريقية عن التبعية للخلافة المركزية في المشرق وصارت في يد الإباضية .

(١١) ولاية محمد بن الأشعث الخزاعي:

ولذلك أرسل أبو جعفر المنصور محمد بن الأشعث الخزاعي سنة ١٤٤ هـ ليسترد القيروان من الإباضية واتسكون تابعة لمركز الخلافة خاصة بعد أن وفد على أبي جعفر المنصور رجال من أفريقية يشكون إليه ما نزل بهم من ورجومة ويستصرخونه لإنقاذ أفريقية . واتقد جهز المنصور محمد بن الأشعث بجيش بلغت عدته أربعين ألفا حيث التقى مع أبي الخطاب الإباضي الذي كان يعاضده قرابة مائتي ألف جندي عسكو بهم في سرت منتظرا ابن الأشعث وعندما التقى الجيشان دارت معركة حامية قتل فيها أبو الخطاب وشتت جيشه وتوجه بعدها ابن الأشعث إلى القيروان التي فر منها عبد الرحمن بن رستم خليفة أبي الخطاب فدخولها ابن الأشعث في صفر سنة ١٤٤ هـ وأقر فيها الأمن والهدوء ونشر الأمن في أفريقية كلها وطهر ودان وزويلة من الإباضية كما قام بإحاطة القيروان بسور أتمه سنة ١٤٦ هـ وذلك

(١) انظر الرقيق تاريخ أفريقية سنة ١٤١ ، ١٤٢ ، ابن الأثير الكامل

ج ٥ ص ١٥٠ ، ١٥١ ، ابن عذارى البيان ج ١ ص ٧٠ ، ٧١ ابن خلدون المعبر

ج ٤ ص ١٩٠ .

لتأمين القيروان من الأعداء ولكن بعض الجنود ثار عليه فغادر القيروان متوجها إلى المشرق في ربيع الأول سنة ١٤٨ هـ (١).

(١٢) ولاية الأغلب بن سالم التميمي :

وأسند أبو جعفر المنصور ولاية أفريقية إلى الأغلب بن سالم التميمي فوصله العهد في جمادى الآخرة سنة ١٤٨ واستقامت له الأمور وهذا الجنود يذكر ابن عذارى أن المنصور أوصاه وبالعدل في الرعية وحسن السيرة في الجنود وتحصين مدينة القيروان وخندقها وترتيب حرسها ومن يترك فيها إذا رحل إلى عدوه وغير ذلك من أموره (٢).

وقد استقرت أمور أفريقية على يديه غير أن أبا قررة البربري من الخوارج الصفرية جمع جيشا كثيفا من البربر لقتال الأغلب فلم ينتظره الأغلب بل سار إليه يريد فض جمعه وعندما قاربه (٣) الأغلب فر أبو قررة وتفرق جمعه وأراد الأغلب مواصلة زحفه إلى تلمسان وطنجة إلا أن بعض قادة الجنود كرهوا ذلك وجعلوا يتسألون إلى القيروان فاستغل الحسن بن حرب السكندى (٤) ذلك وثار على الأغلب ودخل القيروان أثناء غياب

(١) انظر تاريخ اليعقوبي ص ٤٦٤ ، ابن الأثير الكامل ج ٥ ص ١٥١ ، ابن عذارى البيان ج ١ ص ٧٢ ، ٧٣ ، ابن خلدون العبر ج ٤ ص ١٩١ ، السلاوي الاستقصا ص ٥٥ ، ٥٧ .

(٢) ابن عذارى البيان المغرب ج ١ ص ٧٤ .

(٣) لم يذكر أحد من المؤرخين الذين رجعت إليهم أين اجتمع أبو قررة ومن معه .

(٤) كان الحسن بن حرب بتونس فسكاتب جميع القواد فلحق به بعضهم وأقبل معهم إلى القيروان فدخلها . انظر البيان ابن عذارى ج ١ ص ٧٤ .

الأغلب عنها إلا أن الأغلب رجع إلى القيروان وتمكن من إخراجه منها والانتصار عليه فعاد الحسن جمع الجند وقدم إلى القيروان فخرج إليه الأغلب فقاتله وأثناء المعركة أصابه سهم فقتله وسمى الشهيد وتابع جنده المعركة حتى انتصروا على الحسن وقتلوه فولى الثائرون معه من هزمين^(١).

(١٣) ولاية عمر بن حفص :

وبعد استشهاد الأغلب ولى المنصور على أفريقية عمر بن حفص من ولد قبيصة بن أبي صفرة أخى المهلب فقدم القيروان سنة ١٥١ هـ فسكك في ولايته ثلاث سنين والأمور مستقيمة والأحوال هادئة وعندما شرع في تسوير مدينة طنبنة^(٢) ثار عليه البربر في جموع غفيرة وأعداد كثيرة يذكر المؤرخون أن منهم أباقرة في أدهمين الفامن الصفرية ، وعبد الرحمن بن رستم في خمسة عشر ألفا من الإباضية والمسور الزناتى في عشرة آلاف من الإباضية وغيرهم من خوارج صنهاجة وزناتة وهوارة في أعداد لا تحصى وحاصروه في طنبنة فحاول عمر صرف أباقرة بتقديم الأموال إلى بعض أنصاره الذين تخلوا عنه مما اضطر أباقرة إلى لجأه بأنصاره الذين تخلوا عنه ، ثم أرسل عمر جيشا إلى ابن رستم فمزمه حتى لحق بتيهرت ، وعاد عمر بن حفص إلى القيروان فاجتمعت عليه جموع البربر بقيادة أبى حاتم^(٣) الإباضى وضربوا الحصار حول القيروان فكان عمر يقاتلهم في كل يوم إلى

(١) النظر ابن الأثير ج ٥ ص ٢٧٨ ابن عذارى البيان ج ١ ص ٧٥، السلاوى

الاستقصا ص ٥٧ .

(٢) طنبنة : بلدة في طرف أفريقية مما يلي المغرب على ضفة الواب . شيت

خطاب قادة فتح المغرب ج ١ ص ١١١ :

(٣) هو يعقوب بن ليث الملقب بالملزوز الهوارى وكنيته أبو حاتم : تاريخ الفتح

للعربى في ليبيا طاهر الزاوى ص ١٤٣ .

أن أجده ومن معه الحصار ونفذت المؤن فخرج للقتال فلم يزل يطعن ويضرب حتى استشهد لمنتصف من ذي القعدة سنة ١٥٤ هـ ودخلها أبو حاتم فأحرق أبواب القيروان وثلم سورها وأخرج أكثر الجند إلى الزاب^(١). وبذلك تمكن الإباضية من أن يكون لهم حكم القيروان.

(١٤) ولاية يزيد بن حاتم :

وفي سنة ١٥٥ هـ أسند أبو جعفر المنصور ولاية أفريقية إلى يزيد بن حاتم وأمدّه بجيش بلغ ستين ألفا لإعادة السلام إلى أفريقية والقضاء على الثورات فيها وطرد الإباضية من القيروان فقدمها يزيد والتقى مع أبي حاتم الإباضي في ربيع الأول سنة ١٥٥ هـ فتمسك من قتله والقضاء على جنده الثأرين معه. ويقال: «إنه كان بين الجند - أي جند العرب - والبربر من لندن قاتلهم عمر بن حفص إلى انقضاء أمرهم ثلاثمائة وخمس وسبعون وقمة» وبعد أن قضى يزيد على أبي حاتم توجه إلى القيروان فدخلها ونشر الأمن والسكينة في أفريقية وقضى على الفتن بها كما جدد بناء المسجد الجامع بالقيروان ورتب أسواقها وجعل لكل صناعة مكانا خاصا بها ومكث في ولايته خمسة عشر عاما إلى أن أدركته الوفاة في رمضان سنة سبعين ومائة هجرية في خلافة هارون الرشيد^(٢).

(١) انظر الرقيق تاريخ فتح أفريقية والمغرب ص ١٤٢ - ١٤٧، ابن عذارى البيان ج ١ ص ٧٥ - ٧٨ ابن الأثير الكامل ج ٥ ص ٢٨٣، ٢٨٤، ابن خلدون المغرب ج ٤ ص ١٩٢، ومنتصف ذي القعدة ذكره الرقيق وابن الأثير وابن عذارى يذكران أنه منتصف ذي الحجة.

(٢) انظر الرقيق تاريخ أفريقية ص ١٥٩ - ١٦٢، ابن الأثير الكامل ج ٥ ص ٢٨٤، ٢٨٥، ابن خلدون المغرب ج ٤ ص ١٩٣، ابن عذارى البيان =

وقام بأمر أفريقية بعد وفاة يزيد بن حاتم ابنه داود الذي استخلفه
أبوه في مرضه فقام بأمر أفريقية ورد الثوار الذين حاولوا الخروج عليه
من الإباضية في جبال باجة وغيرها .

(١٥) ولاية روح بن حاتم :

ثم قدم روح بن حاتم من قبيلة بن المهلب واليا على أفريقية من قبل
الرشيد سنة ١٧١ هـ ويذكر الرقيق أنه رغب في موادة عبد الوهاب بن
رستم الإباضي صاحب تهرت فوادعه (١) . وكانت البلاد هادئة في أيامه
والأمن منتشرا في ربوعها والطرق آمنة وظل واليا على إفريقية مقبلا في
القيروان عاصمتها إلى أن أدركته الوفاة في رمضان سنة ١٧٤ حيث دفن إلى
جوار أخيه يزيد بن حاتم (٢) .

(٦) ولاية نصر بن حبيب المهلبى :

وأُسند الرشيد أمر أفريقية بعد روح بن حاتم إلى نصر بن حبيب
المهلبى الذى تولى أمرها في آخر رمضان سنة ١٧٤ هـ فقام بتسيير شئون
أفريقية خير قيام وذلك لحسن سيرته وعدله في أحكامه ولم تقم بأفريقية
فمن في أيام حكمه . إلا أن الرشيد عزله في بداية سنة ١٧٧ هـ

== ج ١ ص ٨٠ ، ٨١ ويذكر ابن عدارى أنه توفي سنة ١٧١ هـ ، الاستقصا للسلاوى
ص ٥٨ ، تاريخ اليعقوبى ص ٤٦٥ .

(١) ويعتبر هذا عمل سياسى هام من روح وأن كان فيه الاعتراف بانفصال
تاهرت الإباضية عن سلطنة الخلافة .

(٢) انظر الرقيق تاريخ أفريقية والمغرب ص ١٧١ - ١٧٣ ، الكامل
لابن الأثير ج ١ ص ٤٦ ، ابن خلدون العبر ح ٤ ص ١٩٣ ؛ ابن عدارى البيان
المغرب ج ١ ص ٨٤ .

(١٧) ولاية الفضل بن روح :

وقد ولي الرشيد الفضل بن روح بن حاتم أمير أفريقية فقدم القيروان في محرم سنة ٧٧ هـ وقد استبشر الناس بقدوم الفضل ونصبت له القباب من مسجد أم الأمير إلى دار الإمارة كما يقول الرقيق . إلا أن واليه على تونس - وكان ابن أخيه - أساء إلى الجند فيها مما جعلهم ينقمون عليه بالإضافة إلى ما كان يتسم به الفضل من استبداد برأيه دون أخذ رأى قادة الجند ، مما دعا . الجند في تونس إلى الثورة على واليه وإخراجه من تونس وقدم الجند الثائرون بعد ذلك إلى القيروان فاستولوا عليها بقيادة عبدالله بن الجارود - ويعرف بعبدويه الأنباري - الذي قتل الفضل بن روح في شعبان سنة ١٧٨ هـ

(١٨) ولاية هرثمة بن أعين :

وقد غضب الرشيد لقتل الفضل وأرسل هرثمة بن أعين واليا على أفريقية ليقوم بإصلاح أمرها فدخل القيروان في ربيع الأول سنة ١٧٩ هـ وتمسك من القضاء على الفتنة ونشر الأمن والسكينة بين الناس وأعطى جند طرابلس أرزاقهم المتأخر إعطافها لهم ، وأرسل ابن الجارود الخارج على الفضل إلى الرشيد ، وينسب إلى هرثمة بن أعين أنه بنى القصر الكبير بالمستير لسنة من قدومه إلى القيروان ، وبنى كذلك السور على طرابلس مما يلي البحر . وقد ثار عليه عياض ابن وهب الهواري وكليب بن جميع الكلبي^(١) فتمسك من القضاء عليهما بقيادة يحيى بن موسى . وقد أدرك هرثمة كثرة الثورات بأفريقية وشدة الخلاف فيها مما عاه إلى أن يطلب من الرشيد إعفائه من حكم ولاية إفريقية فاستعفاه الرشيد فخرج من أفريقية في رمضان سنة ١٨١ هـ فكانت ولايته سنتين ونصفا .

(١) ابن خلدون عبر ج ٤ ص ١٩٤ .

(١٩) ولاية محمد بن مقاتل للمكس :

وقد ولي الرشيد مكانه محمد بن مقاتل العمكي الذي قدم القيروان في شهر رمضان سنة ١٨١ هـ ويقول المؤرخون عنه إنه كان سيء السيرة ضعيف الرأي مما أدى إلى اضطراب الأمور واختلاف الجند عليه . وقد ارتكب خطأ واضحا بضربه البهلول بن راشد عابد زمانه ظلما وعدوانا وحبس له مما تسبب عنه موت البهلول . كما اقتطع من أرزاق الجند واساء معاملتهم ومعاملة الرعية ،^(١) وقد أدى ذلك إلى قيام بعض الجند بثورة ضده تزعمها تمام بن تميم التميمي عامله على تونس الذي التقى بابن العمكي خارج القيروان فانهزم ابن العمكي ولجأ إلى القيروان . وتمكن تمام من دخول القيروان وأمن ابن العمكي الذي خرج إلى طرابلس ولكن ابراهيم بن الأغلب العامل على الزاب غضب لاجراج ابن العمكي وقدم إلى القيروان مما جعل تماما يغادرها فدخل ابراهيم القيروان واستدعى ابن العمكي ليكون الحاكم فيها حسب عهد أمير المؤمنين إلا أن الرعية والجند كرهوا عودة ابن العمكي ويذكر الرقيق أن الرجل كان يقوم في الجماعة فيقول قد كنا استرحنا من ابن العمكي نجاء ابراهيم ، فغلب على الثغر ورده فالموت خير من الحياة في سلطان ابن العمكي ،^(٢) مما جعل كثيرا من الناس يلجأ إلى تمام الذي حاول أن يزيل الوتام بين ابراهيم وابن العمكي إلا أن هذه الوقيعة لم تلق أذنا صاغية . فأقبل تمام من تونس فالتقى معه ابراهيم بن الأغلب فهزمه ففضى تمام إلى تونس حيث لحق به ابراهيم بن الأغلب مستهل المحرم سنة ١٨٤ فاستأمن له تمام فأمنه وأقبل به إلى القيروان يوم الجمعة لثمان خلون من

(١) الرقيق تاريخ أفريقية ص ٢٠٥ .

(٢) الرقيق تاريخ أفريقية ص ٢٠٧ .

المحرم سنة ١٨٤ هـ . وقد استشار الرشيد خاصته — بعد أن بلغه سوء تصرف ابن العملي — فيمن يصلح لولاية إفريقية فأشير عليه بتولية ابراهيم ابن الأغب فكتب إليه عمده في جمادى الآخرة سنة ١٨٤ هـ ليقوم بأمر إفريقية (١).

وبولاية ابراهيم بن الأغب إفريقية تبدأ صفحة جديدة في حياة إفريقية وازدهارها حيث يبدأ حكم الأسرة الأغلبية التي استمرت في الحكم أكثر من قرن من الزمن .

تلك هي الصورة التي نرى عليها الوضع السياسي في إفريقية في هذه الفترة من حكم ولاية بني أمية وبني العباس ونلاحظ فيها كثرة الولاة وعزل بعضهم عند اسناد الخلافة إلى خليفة جديد . مما أدى إلى عدم الاستقرار . يضاف إلى ذلك كثرة الثورات التي قام بها الخوارج من الصفرية والاباضية أو الزعماء الثائرون من العرب وقد تمكن بعضهم أحيانا من فرض سلطته على إفريقية إلا أن سلطانهم كان لايدوم طويلا ليقظة الخلافة وحرصها على تبعية إفريقية لها . فكانت الخلافة في دمشق وبعناد تتاح إرسال الجيوش إليها لتقضى على الثائرين وتسترد إفريقية من قبضتهم .

والذي يبدو لي أن الثورات التي كان يتزعمها قواد من العرب إنما كان يقوم بها الوصول إلى مركز السلطة والجلوس على كرسي الأمانة . أما الثورات التي كان يقوم بها البربر وخاصة الصفرية فيظهر فيها ميلهم إلى أن

(١) انظر تاريخ إفريقية للرفيق ص ١٨٢ — ٢٠٩ ، ابن الأثير الكامل ج ٢ ص ٥٤ — ٥٦ ، المبر لابن خلدون ج ٤ ص ١٩٣ — ١٩٥ ، ابن هنادي البيان المغرب ج ١ ص ٨٥ — ٩١ ، تاريخ اليعقوبي ص ٤٩٦ : الهجوم الزهري لابن تغري بردي ج ٢ ص ٨٨ — ٩٠ ، ١١٠ ، الاستقصا للسلاوي ص ٥٩ ، ٦٠٠ .

يكون لهم الاستقلال عن مركز الخلافة وتسيير أمور بلادهم . واقد كان
الصفريه يقسون في معاملتهم المسلمين ويشتمون في مذهبهم . . . أما الإباضية
فإن ما يظهر من معاملتهم لأهل القيروان أثناء تغلبهم عليها يدل على انقيادهم
اتعاليم الدين وعدم انتهاك الحرمات وإن كانوا خارجين على سلطان الخليفة
ولا يعرفون به .

ولاشك أن هذه الثورات السكيرة ذات الأهداف المتعددة كان لها
تأثير قوى في الحياة العسكرية في القيروان ، سوف يظهر جليا عند دراستنا
للحياة العسكرية خاصة من الناحية العقائدية . كما يبدو جليا لنا اهتمام العباسيين
باسترجاع القيروان وذلك بارسال كبار رجال دولتهم ذوى الخبرة السياسية
والقدرة العسكرية والحنكة الإدارية ليقوموا بحكم امارة افريقية من أمثال
محمد بن الأشعث وعمر بن حفص ويزيد بن حاتم وروح بن حاتم . وذلك
خشية أن تنفصل امارة افريقية عن التبعية للخلافة ، كما أنهم لم يولوا عليها
أحدا من أهلها خشية محاولته الاستقلال بها . ولقد حدث هذا الاستقلال
عند تولية إبراهيم بن الأغلب رأس أسرة الأغالبة . ولاشك أن كثرة
تعداد الجيوش التى جاءت مع الولاة من المشرق كانت عبئا ثقيلا على ولاية
افريقية مما جعلنا نقرأ فى المصادر عن الأمانة المالية من ولاية مصر إلى
افريقية وإن كان تتابع هذه الجيوش على افريقية قد ساعد على تعريب
البلاد وسيادة اللغة العربية فيها .



الفصل الثالث

عصر الأغالبة

١ - قيام دولة الأغالبة

نحاول هنا الإجابة على هذا السؤال وهو كيف تم قيام هذه الدولة ومن هو مؤسسها ؟ .

وللإجابة على هذا السؤال علينا أن نغوص في أحماق المراجع لنرى كيف استطاع مؤسس هذه الدولة أن يظهر على مسرح الحوادث لكي يصل إلى أن يؤسس هذه الإمارة وينفرد بأمارتها وأن يورثها لبيه من بعده لاسيما وهو لم ينتسب إلى بيت ملك يطالب به ولا إلى مذهب ديني مخالف يدعو إليه أو يتوسل به إلى الإمارة حتى يستطيع أن يظفر بالولاية على تونس. والبلاذري يروي لنا طرفا من حياة ابراهيم بن الأغلبي قبل ظهوره على مسرح الحوادث في المغرب بما يوضح بعض جوانب شخصية هذا الرجل بقول^(١) :

وكان ابراهيم بن الأغلبي من وجوه جند مصر . فوثب واثنا عشر رجلا معه فأخذوا من بيت المال مقدار أرزاقهم لم يزدادوا على ذلك شيئا وهربوا فاحقوا بموضع يقال له الزاب وهو من القيروان على مسيرة أكثر من عشرة أيام وحامل الشجر يومئذ من قبل الرشيد هارون هرثمة بن أعين ، واعتقد ابراهيم ابن الأغلبي على من كان من تلك الناحية من الجند

(١) فتوح البلدان للبلاذري ص ٢٧٦ .

وغيرهم الرياسة واقبل يهدى إلى هزيمة ويلاطفه ويكتب إليه يعلمه أنه لم يهرج يدا من طاعة ولا اشتمل على معصية وأنه إنما دعاه إلى ما كان منه الأحواج والضرورة ، فولاه هرثمة ناحيته واستكفاه أمرها ، فلما صرف هرثمة من الثغر وليه بعده ابن العمى .

ومن هذا النص نستطيع أن نفهم عدة أمور من شخصية هذا الرجل منها أنه كان من وجوه جند مصر ، وأنه لم يستكن لقطع رزقه أوراتبه مع وجود المال في خزانة الولاية في مصر ، كما أنه عندما عدا على بيت المال لم يأخذ إلا بمقدار حقه فقط ولم يسلب حق الدولة أو حق غيره مع استطاعته أن يفعل ذلك . ثم هروبه إلى الزاب مع رفاقه العشرة واستطاعته أن يصل إلى الرياسة على رفاقه وغيرهم من الجنود والمواطنين في تلك الناحية ، ثم ميله إلى الدبلوماسية السياسية مع الوالى على تونس بتقديم الهدايا إليه وملاحظته وإخباره بأنه مازال يقدم فرض الطاعة للخلافة ويعتذر عن أخذ حقه بالقوة بأنها الحاجة والضرورة ، ولاشك أن هذا تصوير رائع يكشف عن الشخصية القيادية والسياسية لهذا الرجل وعمما يتمتع به من ذكاء وحكمة .

ولذلك كانت النتيجة أن ولاء هرثمة ناحيته واستكفاه أمرها . وذلك هو قدره الذى سوف تلقىه عليه الحوادث ليقوم به في مستقبل أيامه .

وقد ذكر ابن عذارى^(١) صفات ابراهيم ورأى عالم من علماء عصره فيه فقال كان ابراهيم بن الأغلب فقيها أديبا شاعرا خطيبا ذارأى وفهمدة وبأس وحزم وعلم بالحروب ومكاندها جرى الجنان طويل اللسان لم تر أفريقية أحسن سيرة ولا سياسة ولا أدف بالرعية ولا أوفى بعهد ولا أدعى بجمرة منه فطاهت له قبائل البربر وتمهدت أفريقية في أيامه وعزل

(١) البيان المغرب في أخبار المغرب ص ٨٣ ، ٨٤ ج ١

للحكى عنها واستقامت الأحوال فيها ، وكان إبراهيم قد سمع من الليث بن سعد ووهب له جلاجل أم ولد ؛ لمكانه منه ولقد قال الليث يوما ليكونن لهذا الفقى شأن .

ومن هذا النص أيضا نلاحظ ثقافة إبراهيم الدينية والأدبية وخبراته الحربية والعسكرية وتجاربه الإدارية والسياسية وقدرته على قيادة الجماهير الشعبية أو الفرق العسكرية فهو رب سيف وقلم وصاحب علم بالدين والدنيا وقدرة على اجتذاب من حوله إليه .

وأنا لا أحب المبالغة في الصفات الشخصية لفرد من الأفراد ولكن لا نستطيع إلا أن نفهم ذلك من تحليل النصوص التى أمامنا .

كما يؤيد ذلك ما سبق أن ذكرته من أنه لم يكن يطالب بحق مخصوب أو ملك مفقود أو داعية لمذهب من المذاهب وإنما هى الكفاية الشخصية والامتياز الذاتى وقديما هتف الشاعر :

نفس عصام سودت عصاما وعلمته الكرم والأفدام
ومع ذلك فانا آخذ عليه ما ذكره ابن خلدون (١) من أنه كان يتخذ
الدمس والخديعة والأغتيال وسيلة للقضاء على انصار الدولة المجاورة له وهى
دولة الأدارسة إلا إذا عددنا ذلك من المكاييد السياسية وذلك ربما تبيحه
السياسة التى لا تستند إلى دين ولكن فى رجل دين كما يصفه المؤرخون
فلا شك أن ذلك بما يؤخذ عليه .

هذا هو إبراهيم كما تتصوره فكيف استطاع أن يصل إلى تولى إمارة
الولاية والامتقلال بها وتأسيس إمارة وراثية ؟ .

(١) كتاب المبر وديوان المبتدأ والخبر لابن خلدون ص ١٩٦ ج ٤

فقد تم ذلك عندما كان إبراهيم بن الأغلب تاملا على الزاب وطبنة فلما قدم هرثمة بن أعين إلى القيروان سنة سبع وسبعين ومائة هاداه إبراهيم ولاطفه فعمد له على عمله فقام بأمره وحسن أثره . ثم لما تولى محمد بن مقاتل أمر أفريقيا من قبل هارون الرشيد بعد هرثمة سنة إحدى وثمانين ومائة خرج عليه تمام بن تميم التميمي سنة ثلاث وثمانين واجتمع إليه الناس وسار إلى القيروان فخرج إليه محمد بن مقاتل ولقيه فأنزله امامه وسار محمد إلى طرابلس وبلغ الخبر إلى إبراهيم ابن اغلب بمكانه من الزاب فانتفض لمحمد وسار بمجموعة إلى القيروان واستقدم محمد بن مقاتل من طرابلس واعاده إلى امارته بالقيروان آخر سنة ثلاث وثمانين ومائة وزحف تمام لقاتلهم فخرج إليه إبراهيم بن الأغلب باصحابه فمزقه وسار في اتباعه إلى تونس واستأمن له تمام فامنه وجاء به إلى القيروان وبعث به إلى بغداد فاعتقله الرشيد .

يقول ابن الأثير^(١) ولما استقر الأمر لمحمد بن مقاتل ببلاد أفريقية واطاعه تمام كره أهل البلاد ذلك وحملوا إبراهيم بن الأغلب على أن كتب إلى الرشيد يطلب منه ولاية أفريقية فسكتب إليه في ذلك وكان على ديار مصر كل سنة مائة ألف دينار تحمل إلى أفريقية معونة فنزل إبراهيم عن ذلك وبذل أن يحمل كل سنة أربعين ألف دينار فاحضر الرشيد ثقاته واستشارهم فيمن يوليه أفريقية وذكر لهم كراهة أهلها ولاية محمد بن مقاتل فأشار هرثمة بإبراهيم ابن الأغلب وذكر للرشيد ما آراه من عقله ودينه وكفايته وأنه قام بحفظ أفريقية على ابن مقاتل فولاه الرشيد في المحرم سنة أربع وثمانين ومائة فانقمع الشر وخصبط الأمر وسير تماما وكل من يتوثب على الولاية إلى الرشيد فسكنت البلاد .

(١) الكامل لابن الأثير ج ٦ ص ٥٦

وهنا نلاحظ عدة ملاحظات منها ١ - كراهية أهل البلاد لمحمد بن مقاتل وحلمهم لإبراهيم على أن يكتب إلى الرشيد يطلب ولاية أفريقية .

٢ - تنازل إبراهيم عن المعونة التي تحمل إلى إفريقية ودفعه هو لأربعين ألف دينار .

٣ - ذكر هرثمة لصفات إبراهيم ثم ما قام به في حفظ الولاية على محمد ابن مقاتل .

٤ - صدر مرسوم الولاية في المحرم سنة أربع وثمانين ومائة .

٥ - سيادة الأمن والسكينة .

هذا ما ذكره ابن الأثير نتيجة لتولى إبراهيم أمر أفريقية لأننا نرى يحيى الدين التميمي المراكشي (١) يذكر أن الأغلبية هم الذين استبدوا بملك أفريقية وكأنه لم يصدر لهم مرسوم بولاية أفريقية يقول (٢) « وهي كانت أعنى القيروان دار ملك المسلمين بأفريقية منذ الفتح لم يزل الخلفاء من بني أمية وبني العباس يولون عليها الأمراء من قبلهم إلى أن اضطرب أمر بني العباس واستبد الأغلبية بملك أفريقية بعض الاستبداد وهم بنو أغلب بن محمد بن إبراهيم ابن أغلب التميميون فاتخذوا القيروان دار مملكتهم فلم يزالوا يهاجمون إلى أن أخرجهم عنها بنو عبيد ومملكوها .

بينما يذكر الدكتور سليمان محمود شروطا تتفق مع ابن الأثير في بيان رغبة الأهالي في تولية إبراهيم وتختلف في بيان المال المدفوع ويزيد عليها ذكره لجعل الولاية وراثية في ابنائه يقول :

(١) المعجب في تلخيص أخبار المغرب لحبي الدين التميمي المراكشي ص ٢٠٠

(٢) المعجب في تلخيص أخبار المغرب لحبي الدين التميمي المراكشي ص ٢٠٠

ولى^(١) الخليفة هارون الرشيد إبراهيم بن الأغلب على أفريقية بناء على رغبة الأهالي وكان إبراهيم في هذا الوقت واليا على الزاب من قبل الرشيد ولكن إبراهيم قبل هذا التعيين بعد أن أقر الرشيد شروطه وهي تلخص فيما يلي .

١ - أن يستقل بإدارة شؤون أفريقية الداخلية عن الخليفة .
٢ - أن يتولى إمارة أفريقية ذريته من بعده أى أن تكون وراثية في بيته .

٣ - ألا يدفع - أى الرشيد - الأمانة السنوية التي كانت تدفعها مصر لإفريقية وقدرها مائة ألف دينار وإنما يدفع إبراهيم بدلا منها أربعين ألف دينار للخليفة .

ويتفق الدكتور حسن إبراهيم حسن مع ابن الأثير في طلب إبراهيم للولاية وفي مقدار المال المدفوع والمتنازل عنه وكذلك في تاريخ توليته على أفريقية يقول^(٢) وقد طلب إبراهيم بن الأغلب وكان يلى بعض نواحي الزاب إلى الرشيد أن يولية أفريقية على أن ينزل عن المطالبة بما كانت ترسله إليها مصر من الأموال التي اعتادت أن ترساما إليها في كل سنة ومقدارها مائة الف دينار كما تعهد بأن يرسل إلى بيت المال في بغداد أربعين ديناراً وأشار هرثمة بن اعين على الرشيد بتولية إبراهيم ابن الأغلب هذه البلاد لما رآه من عقله وكفايته فولاه الرشيد إليها في شهر المحرم سنة ١٨٤ هـ وما ذكره ابن خلدون يؤيدهم في طلب الولاية ومقدار المال يقول^(٣) فكتب إبراهيم إلى الرشيد في ذلك على أن يترك المائة الف دينار التي كانت

(١) ليبيا بين الماضي والحاضر ص ١٣٢ الألف كتاب .

(٢) تاريخ الإسلام السياسي ج ٢ ص ١٧٧ - ١٧٨

(٣) كتاب أمير لابن خلدون ج ٤ ص ١٨٨

من مصر إلى أفريقية وعلى أن يحمل هو من أفريقية أربعين ألفا وباغ الرشيد غناؤه في ذلك واستشار فيه أصحابه فأشار هرثمة بولايته فسكتب إليه بالعهود إلى أفريقية منتصف أربع وثمانين .

وابن أبي (١) دينار يتردد في تاريخ تعيينه حين يقول : ومنهم إبراهيم ابن الأغب كان سنة أربع وثمانين ومائة من قبل هارون الرشيد وقبل خمس وثمانين .

ويقول ابن عذارى (٢) وصلة عهد الرشيد في العشر الوسط لجده الأخرى من سنة أربع وثمانين ومائة .

ومن هذا العرض لأقوال المؤرخين نرى أن :

١ - ابن الأثير وابن خلدون وحسن إبراهيم يتفقون على طلب إبراهيم الولاية ويزيد ابن الأثير وحسن سليمان محمود أن ذلك بناء على رغبة الأهالي .

٢ - يتفق ابن الأثير وابن خلدون وحسن إبراهيم على مقدار المال المدفوع والمتنازل منه بينما يخطفه فيما يدفع من المال حسن سليمان محمود .

٣ - يتفق ابن الأثير وحسن إبراهيم على شهر المحرم سنة ١٨٤ هـ بداية لتوليته الإمارة ويتردد ابن أبي دينار بين أربع وثمانين وخمس وثمانين ومائة .

أما ابن عذارى فيظهر في روايته الدقة حيث يقول وصلة عهد الرشيد

(١) المؤنس في أخبار أفريقية ومؤنس لابن أبي دينار .

(٢) البيان المغرب في أخبار المغرب لابن عذارى ج ٢ ص ١٧٧ - ١٧٨ .

في العشر الأوسط لجمادى الآخرة من سنة ١٨٤ هـ وابن خلدون يقول
فكتب إليه بالهدى إلى أفريقية منتصف أربع وثمانين .

٤ - ينفرد حسن سليمان محمود بذكر أن تكون الولاية وراثية في
أسرته هذا ما يتفق ويختلف فيه المؤرخون القدامى والمحدثون والذي يظهر
لنا أن مسألة المال قد تجاوز الصواب فيما حسن سليمان محمود حيث لم يرافقه
أحد من القدامى والمحدثين من المؤرخين وإن كان قد انفرد بذكر
وراثة الولاية .

أما تاريخ التولية فالذي تستنتجه أن الولاية أسندت إليه في المحرم
سنة ١٨٤ هـ أما وصول المرسوم إليه فكان في جمادى الآخرة سنة ١٨٤ هـ
كما حدده ابن عذارى .

وهذه الأقوال المختلفة تبين كيف تم لإبراهيم الوصول إلى الإمارة
لكن يستقل بإمارة أفريقية بعد ذلك .
ولكن لماذا تم ذلك ؟

وبهذه الصورة هل نفهم من ذلك أن إبراهيم قد اشترى ولاية بالمال
الذي كان بارعا في عرضه حين أخذ يفرى الخليفة بالمال من ناحيتين :
الأولى أنه يتنازل عما كان يأخذه الوالى على أفريقية من مصر وقدره
مائة ألف دينار الثانية أنه سوف يدفع للخليفة أربعين ألفا وبذلك يكون
الخليفة قد كسب بتولية إبراهيم بن الأهلبي على أفريقية مائة وأربعين ألفا
دينار ، ويبدولى أن هناك أسبابا عدة لتولية إبراهيم بن الأغلب نذكرها
فيما يلي :

(أ) فلاحظك أن المال كان أحد الدوافع إلى قبول الخليفة أن يوليه
الإمارة إلا أننا لا نستطيع أن نهمل العوامل الأخرى .

(ب) فالشهادة والنجدة وسيرته الحسنة واهتمامه بأن يقاتل من خرج على آوى الخليفة حتى يعود الأمر إلى الوالى من قبـل الخليفة من المرشحات لتوايته .

(ج) كذلك كراهية أهل البلاد لمحمد بن مقاتل وحبهم لإبراهيم ويبدو لى أنهم مع طلبهم من إبراهيم أن يكتب إلى الخليفة فى ذلك فقد كتبوا هم أيضا إلى الخليفة وإن لم يذكر أحد من المؤرخين ذلك إلا أن ابن خلدون يروى حادثة ذات مغزى وهى أنهم كانوا يحاولون أن يكون لهم شأن فيمن يولى عليهم وذلك فى مطلع القرن الثانى فقد ذكر (١) أنهم قتلوا واليهم يزيد بن أبى مسلم مولى الحجاج . . . ثم رجوعهم إلى محمد بن يزيد مولى من الأنصار الذى كان عليهم قبل اسماعيل بن المهاجر وكتبوا إلى يزيد بن عبد الملك بالطاعة والعذر عن قتل ابن أبى مسلم فأجابهم بالرضاء وأقر محمد بن يزيد على عمله ، وهذا يؤيد ما أذهب إليه من أنهم كتبوا إلى الخليفة يقترحون ترشيح أو تولى إبراهيم ابن الأغلـب عليهم .

(د) كذلك لانستطيع أن نهمل حالة البلاد وانتشار الفتن والثورات فيها وعجز الوالى السابق عن التغلب عليها ثم كفاءة إبراهيم وما أظهره من نشاط فى التغلب على المصاعب وذلك بدون أن يكلف الدولة أن يتحرك جيشها المركزى مسيرة سبعة أشهر ، وفى ذلك إرغماق للجيش وكثرة للنفقات .

(هـ) كما نلاحظ أنه أراد أن يجعل إبراهيم بن الأغلـب بصمته واليا مستقلا وبما يتمتع به من كفاية قادرا على أن يحافظ على إمارته من أعداء

(١) كتاب الأمير لابن خلدون ج ٤ ص ١٨٨

الدولة المحيطين به والذين يتمثلون في دولة الأدارسة والرسميين والأمويين في الأندلس .

(و) كما أن بعد المغرب عن مركز الخلافة في المشرق الذي يتكون منه الجيش الخاص للدولة وما يتكلفه إرسال الجيش من النفقات والمشقات التي تقابله والتي قد تكون سببا في هزيمته كانت أيضا من العوامل التي مهدت لإبراهيم لسكى يظفر بأن يعطى استقلالاً عن مركز الخلافة .

بعد ذلك اسأل لماذا أعطى له حق الوراثة ؟

ولاشك أن إعطاء حق الوراثة بهذه الصهولة سابقة خطيرة أقل نتائجها أن يطلب بعمل كل وال الاستقلال بعد ذلك وأن تكون الولاية وراثية في أبنائه أو أن يعمل هو على الاستقلال وجعل الولاية وراثية . إلا أنه يبدو لي أن الرشيد بعد أن رأى استقلال الأطراف في الأندلس والمغرب الأقصى رأى أن يجرب هذا النوع من الاستقلال الذي يكون تابعا للخلافة ومقرابها ويرفع عليها ويدعى فيه لمركز الخلافة وتداول فيه مراسيمها كما أنه يحفظ جسم الخلافة من الانقسام التام الذي لا يعترف فيه بأى تبعية لمركز الخلافة كما أن هذه الدولة المستقلة التابعة لمركز الخلافة تكون حاجزا وحصنا بين الأجزاء المنفصلة انفصالا تاما وبين جسم الخلافة التابع تبعية كاملة لمركزها .

أقول ذلك مع أنني لم أر من المؤرخين الأندلسيين من تحدث عن طاب إبراهيم أن يكون الحكم وراثيا في أسرته ولم يشر إليه إلا الدكتور حسن سليمان محمود في كتابه^(١) وبين أن ذلك كان من شروط إبراهيم لقبول

(١) ليبيا بن الماضي والحاضر دكتور حسن سليمان محمود ص ١٣٢

الإمارة كما يقول ابن خلدون و تورائها بنوه خالفا عن سالفه^(١) .

وإذا كانت الوراثة جاءت تابعة لأخذه الإمار وأنه هو الذي عمل على أن تكون الإمارة لأسرته فيظهر هنا شخصية البطل في جعلها وراثية كما أنه من الممكن أنه بدأ مركز الخلافة بعد أن رأت تهيئة إبراهيم الأمن والسكينة ونشاطه في رفع شأن إمارته مع قيامه بالدور الذي كانت ترجوه منه من الوقوف في وجه الإمارات المنفصلة . قد جعلها تميل إلى أن تجعلها وراثية في أسرته لكي تستفيد من خبرة هذه الأسرة القوية التي ظهرت على مسرح الحوادث .

يقول دكتور السيد عبد العزيز سالم^(٢) : ولما توفي إبراهيم بن الأغاب بالقيروان سنة ١٩٦ هـ ٨١٢ م خلفه ابنه أبو العباس عبد الله بن إبراهيم وكان عابدا وقت وفاة أبيه بمدينة طرابلس فقام له أخوه زيادة الله بالأمر وأخذ له البيعة على نفسه وعلى أهل بيته وجميع رجاله وبعث إليه بذلك وهكذا استحدث مبدأ الوراثة في هذه الولاية لأول مرة . . . ولما قتل الخليفة الأمين بن الرشيد سنة ١٩٨ هـ على يد ابن طاهر عامل المأمون واستخلف أخوه المأمون أقر عبد الله بن الأغاب على أفريقية . .

ويفهم من قوله وهكذا استحدث مبدأ الوراثة أن هذا المبدأ لم ينص عليه عند تولية إبراهيم بينما يذكر آخرون أنه نص عليه . ويسكت عن ذلك بعض المؤرخين والذي يظهر - بناء على طلب إبراهيم الولاية ثم هرضه التنازل عن المال المدفوع لولايته ودفعة أربعين ألفا زيادة على ذلك

(١) العبر لابن خلدون ج ٦ ص ١١٣

(٢) المغرب الإسلامي دكتور السيد عبد العزيز سالم ج ١ ص ٩٣

ولعدم ذكر المؤرخين الأقدمين شيئا عن وراثة الحكم كما أن وضع إبراهيم لم يكن موضع من يفرض شروطا للوراثة وإنما يطلب الولاية فقط - أن الوراثة لم ينص عليها في تولية إبراهيم ولكنها جاءت نتيجة الترتيب إبراهيم بعد ذلك أمور ولايته وإسناده الأمر من بعده لأحد أبنائه .

إبراهيم يثيت أركان دولته :

لاشك أن ما امتاز به إبراهيم بن الأغلب من الشجاعة ورجاحة العقل قد أدى إلى رقى في حالة البلاد وانتشار للأمن وزيادة في دخل الدولة مما ساعد على بناء عاصمة جديدة لإمارته بجوار القيروان والانتقال إليها يقول ابن خلدون^(١) «فقام إبراهيم بالولاية وضبط الأمور وسكنت البلاد بولاية ابن الأغلب وابتقى مدينة العباسية قرب القيروان وانتقل إليها بجملته ، وكذلك أدى زيادة دخل الدولة إلى مساعدته للانفاق على الحروب التي قام بها ضد الخارجين على ولايته ولثبيت أركان دولته وكان يتألف جند الخارجين عليه بالمال مما يدل على غنى الدولة في عهده يقول ابن خلدون فيمن خرج على ابنه الذي ولاه على طرابلس^(٢) وبذل العطاء وأتماه البربر من كل ناحية وزحف إلى طرابلس فهزم جندها ودخل المدينة ، ويقول حسن إبراهيم^(٣) ولما آلت إلى إبراهيم مقاليد الحكم في أفريقية ضبط أمورها وبني في سنة ١٨٥ هـ مدينة على بعد ثلاثة أميال من القيروان سماها العباسية ونقل إليها أهله وعبيده وأهل

(١) كتاب المغر ج ٤ ص ١٩٦ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) تاريخ الإسلام السياسي ج ٢ ص ١٧٨

ثقتة ويظهر أنه اتخذ هذه التسمية لإظهار ولائته للخليفة العباسي والاعتراف
بسلطان الدولة العباسية عليه .

ورغم اهتمام إبراهيم بحالة البلاد والعمل على رقيها ونسكين الأمن
فيها ونشر السلام بين ريوها إلا أنه قامت بالبلاد ثورات في تونس وفي
طرابلس ثم محاولته هو الوقوف وجهه توسع دولة الأدارسة في المغرب
وخوفه من الانتقاص من ولايته .

ففي تونس سنة ١٨٦ خرج عليه حمديس وهو من العرب النازلين
بمدينة تونس^(١) أو نزع السواد كما يسميه ابن خلدون^(٢) فأرسل إليه ابن
الأغلب جيشا بقيادة عمران بن مخلدا كما يقول د . حسن إبراهيم أو بجالد
كما يقول ابن خلدون فانتصر عليه وقتل عشرة آلاف من الخارجين معه .

وفي سنة ١٩٥ هـ خرج عليه بتونس أيضا عمران بن بجالد الربيعي
ووافقته على الخروج قريش بن التونس وكثرت جموعهما وسار عمران إلى
القيروان فلما كانا وقدم عليه قريش من تونس فاعتصم إبراهيم بالعباسية
وحصر خندقا حولها فأصروه سنة كاملة وكانت بينه وبينهم حروب ظفر
إبراهيم بن الأغلب في نهايتها وقد ساعد الرشيد ابن الأغلب في حصاره
بالمال الذي استطاع به أن يجذب إليه جنود عمران مما أدى إلى أن يترك
عمران حصاره ويلحق بالزاب يقول ابن خلدون ثم بعث الرشيد إلى
إبراهيم بالمال فنادى في الناس بالعطاء ولحق به أصحاب عمران وانهتقض أمره
ولحق بالزاب فأقام به إلى أن توفي بن الأغلب^(٣) أما في طرابلس فقد

(١) - حسن إبراهيم الإسلام السياسي ج ٢ ص ١٧٨

(٢) ابن خلدون الديبر ج ٤ ص ١٩٦

(٣) المرجع السابق .

حدث فيها فتنة سنة ١٨٩ فأخرج أهلها عامل بن الأغلبن سفبان بن المهاجر من داره وطار دوه إلى المسجد وقتلوا أصحابه فيه ثم آمنوه على أن يخرج من طرابلس نخرج سفبان لشهر من ولايته وولوا عليهم إبراهيم بن سفبان التميمي فأرسل إليهم ابن الأغلبن جيشا هزمهم ودخل طرابلس وقبض على مشيرى الفتنة وأرسلهم إليه ولكنه عفا عنهم .

واستقرت الأمور في طرابلس إلى سنة ١٩٦ هـ فنارت من جديد يقول ابن خلدون^(١) بعث إبراهيم على طرابلس ابنه عبدالله سنة ست وتسعين فنار عليه الجند وحاصروه بداره ثم آمنوه على أن يخرج عنهم فخرج واجتمع إليه الناس وبذل العطاء وأتاه البربر من كل ناحية وزحف إلى طرابلس فهزم جندها ودخل المدينة ثم عزله أبوه وولى سفبان بن المضاه فثارت هواراة بطرابلس وهجموا على الجند فلاحقوا بإبراهيم ابن الأغلبن وأعاد معهم ابنه عبدالله في ثلاثة عشر ألفا من العساكر ففتك بهواراة وأئمن فيهم وجدد سور طرابلس وبلغ الخبر إلى عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم فجمع البربر وجاء إلى طرابلس فحاصرها وسد عبد الوهاب باب زناتة وكان يقاتل من باب هواراة ثم جاءه (أمى عبدالله) الخبر بوفاة أبيه فصالحهم على أن يكون البلد والبحر لعبدالله وأعمالها لعبد الوهاب وسار إلى القيروان وكانت وفاة إبراهيم في شوال سنة ست وتسعين .

تلك هى الحروب التى استعمل فيها السيف وجيش فيها الجيوش أما بالنسبة لدولة الأدارسة فى المغرب فقد ملك فيها طريقة أخرى غور الجيوش الظاهرة والسيوف المسلوقة بل سلك إلى التغلب عليها طريق الدس

(١) العبر لابن خلدون ج ٤ ص ١٩٧

والأموال والهدايا يبعث بها إلى أنصار الأدارسة فيجول بعضهم عن دعوة الأدارسة إلى دعوة العباسيين وبعضهم يعمل أن يأتي برأسه إليه يقول ابن خلدون في موقعة من دعوة الأدارسة (١) ثم صرف همه إلى تمهيد المغرب الأقصى وقد ظهر فيه دعوة العلوية بإدريس ابن عبد الله وتوفي ونصب البرابرة ابنه الأصغر وقام مولاه راشد بكفالاته وكبر إدريس واستفحل أمره راشد فلم يزل إبراهيم يدس إلى العرب ويسير فيهم الأموال حتى قتل راشد وسبق رأسه ثم قام بأمر إدريس بعده بهلول بن عبد الرحمن المظفر من رموس العرب فاستفحل أمره فلم يزل إبراهيم يتلطفه ويستميله بالكتب والهدايا إلى أن انحرف عن دعوة الأدارسة إلى دعوة العباسية فصالحه إدريس وكتب إليه يستعطفه بقرابته من رسول الله ﷺ فكف عنه . .

فابن خلدون هنا يوضح الطرق التي لجأ إليها إبراهيم بن الأغلب في موقفه من دولة الأدارسة وأنه اتخذ المال والهدايا والدرس وسيلة إلى القضاء على بعض أنصار دولة الأدارسة أو استمالة بعضهم إليه حتى تركوا دعوة الأدارسة وتحولوا إلى الدعوة العباسية .

وإذا كنا قد تحدثنا عن أسباب قيام هذه الدولة وعمما قام به مؤسسها منذ قيامها إلى وفاته ، فمن الممكن أن نسأل ثانيا .

هل تحقق في عهد إبراهيم ابن الأغلب الأغراض التي ذكرناها في أسباب قيامها ؟

وفي عرضنا الموجز السابق ما يدل على أن إبراهيم قد أدى الدور المطلوب منه خير أداء نفول ذلك بدون محاباة . فتمد استطاع أن يسكن

(١) المرجع السابق ج ٤ ص ١٩٦

الفتن ويقضى على الثورات كما منع الإدارة من الإغارة على دولته وأدى لمركز الخلافة المال الذي تعهد بحمله إلى بغداد ثم كفى الدولة مؤنة إرسال جيش وتحمل نفقاته كما يتحدث المؤرخون عن ازدهار الحياة الاقتصادية والثقافية والعمرانية في أيامه مما يدل عليه بناؤه لمدينة جديدة وتكوينه لجيش يحمى به أمارته . ولا نتكلم هنا عن توسع رقعة الدولة مما لم يكن يحلم به الرشيد عندما أسند الإمارة إلى إبراهيم والذي قد تحقق بعد ذلك على يد ابنه زياد الله واستمر أحفاده يوسعون رقعة دولته مما سوف نعرض له بعد حين .

٢ - أمراء دولة الأغالبة

١	١٨٤ هـ	٨٠٠ م	١ - إبراهيم الأول
٢	١٩٦ هـ	٨١١ م	٢ - عبد الله الأول
٣	٢٠١ هـ	٨١٦ م	٣ - زيادة الله الأول
٤	٢٢٣ هـ	٨٢٧ م	٤ - أبو عقاب الأغلب
٥	٢٢٦ هـ	٨٤٠ م	٥ - محمد الأول أبو العباس
٦	٢٤٢ هـ	٨٥٦ م	٦ - أحمد
٧	٢٤٩ هـ	٨٦٣ م	٧ - زيادة الله الثاني
٨	٢٥٠ هـ	٨٦٤ م	٨ - محمد الثاني
٩	٢٦١ هـ	٨٧٤ م	٩ - إبراهيم الثاني
١٠	٢٨٩ هـ	٩٠٢ م	١٠ - عبد الله الثاني
١١	٢٩٠ هـ	٩٠٣ م	١١ - زيادة الله الثالث
	٢٩٦ هـ	٩٠٩ م ^(١)	

إذا ألقينا نظرة على فترة حكم ولاية هذه الدولة التي بلغ عدد حكمها أحد عشر أميراً نجد أن اثنين منهم حكم كل منهما سنة واحدة بينما أربعة آخرون حكم كل منهم فترة أقل من عشر سنوات واثنان حكم أحدهما إحدى عشرة سنة ومؤسسها حكم اثنا عشرة سنة بينما حكم محمد الأول ست عشرة سنة وزيادة الله الأول قرابة اثنتين وعشرين سنة وإبراهيم الثاني ثمانية وعشرين سنة .

(١) تاريخ الإسلام السياسي حسن إبراهيم حسن ج ٢ ص ١٧٦

ومع اننى لا انظر إلى الحاكم بمقدار السنوات التى يعيشها وإنما بمقدار ما انجزه من أعمال إلا اننى أرى أن طول فترة حكم الحاكم لا بد أن تحدث تغيرات خاصة فى الشعب وفى الدولة .

ولذلك أوتر بعد أن تحدثت عن مؤسس الدولة أن أتحدث عن زيادة الله الأول ومحمد الأول وإبراهيم الثانى ، أما بقية الأمراء فسوف أشير إليهم عرضاً أما زيادة الله الأخير الذى ختمت به الدولة وانتهت به حياتها فسوف أتحدث عنه فى سقوط هذه الدولة كما تحدثت عن المؤسس فى قيامها .

١ - زيادة الله الأول :

بعد وفاة إبراهيم بن الأغلب مؤسس الدولة تولى بعده ابنه عبد الله الذى استمر فى الحكم خمسة أعوام ولم يحدث فى أيامه فتن لأن أباه قد مهد له الأمر ولما تولى عبد الله الأمر بعده أخوه زيادة الله وقد استطاع زيادة الله أن يظهر استقلال الدولة عن مركز الخلافة وأن كانت تابعة لها ولكن لا ترغم على شىء لا ترضاه فقد اراد المأمون أن تدعو الدولة لعبد الله بن طاهر على منابرها ولكن ذلك لم يرق للأغلبة وعرضوا للمأمون بالتحويل عن العباسيين إلى دعوة الادارسة يقول ابن خلدون (١) وجاءه (أى زيادة الله) التقليد من قبل المأمون وكتب إليه يأمره بالدعاء لعبد الله بن طاهر على منابر فغضب من ذلك وبعث مع الرسول بدنانير من مكة الادارسة يعرض له بتحويل الدعوة ، وكان زيادة الله من أطول الأغلبة عهداً بالحاكم كما حدث فى عهده قيام بعض الثورات ومحاولة فتح جزيرة سردينية وفتح جزيرة صقلية فى البحر المتوسط وسوف نعرض لذلك فى فتوح هذه الدولة . وقد قضى زيادة الله الست سنوات الأولى من عهده

(١) كتاب العبر لابن خلدون ج ٤ ص ١٩٧

آمننا مطمئنا حتى وقعت بين زيادة الله وبين الجند الحروب واستوزر اخاه
الأغلب وهاجت الفتن واستولى كل رئيس بالناحية التي يحكمها حتى كادت
افريقية ان تخرج عن طاعته .

وقد قام في عمده ثورات كادت تودي بالدولة حتى لم يبق معه من افريقية
سنة ٢٠٩ هـ إلا قابس والساحل ونفزاوة وطرابلس (١) .

واول هذه الثورات كان سنة ٢٠٧ هـ حيث ثار زيادة بن سهل بن الصقلية
على زيادة الله بن الاغلب وزحف إلى باجة فحاصرها اياما فخرج إليه زيادة
الله العساكر فمزموها ابن الصقلية وقتلوا من وجدوا معه على الخلاف
وخنصوا الاموال .

وبعد ذلك بعام ثار عليه احد عماله عمرو بن معاوية القيسي فارسل
إليه جيشا كثيرا استطاع ان يحصره إلى ان سلم وكان ذلك سنة ٢٠٨ هـ (٢) .

وفي سنة ٢٠٩ انتفض عليه منصور الطنبيذ بطبنة وسار إلى تونس
فملكها وكان العامل عليها اسماعيل بن سفيان وسفيان اخو الاغلب فقتله
لتستخلص له طاعة الجند وسرح زيادة الله العساكر من القيروان مع غلبون
ابن عمه ووزيره وتهدهم بالقتل ان انزموها فمزموهم منصور وخشوا على
أنفسهم ففارقوا الوزير غلبون وافترقوا على افريقية واستولوا على باجة
والجزيرة وصطفورة والاريس وغيرها واضطربت افريقية ثم اجتمعوا
إلى منصور وسار بهم إلى القيروان فملكها وحاصر زيادة الله في العباسية
اربعين يوما وعمر سور القيروان الذي خربه ابراهيم بن الاغلب فكانت

(١) تاريخ الإسلام السياسي دكتور حسن إبراهيم حسن ج ٢ ص ١٨١

(٢) البيان المشرى في أخبار المغرب لابن عذارى ج ٢ ص ١٨٠ .

بينه وبين زيادة الله وقائع كثيرة ودامت الحرب بين منصور وبين زيادة الله أربعين يوماً ثم التقت الفتنان فاقتتلوا قتالاً شديداً فانهمزم منصور وولى هاربا منتصف جمادى الآخرة وانتهى زيادة الله إلى القيروان فأمر برفع القتال وتمادى منصور في هزيمته إلى أن دخل قصره بتونس والناس لا يشعرون وعفا زيادة الله عن أهل القيروان وصفح عن جميعهم غير أنه جعل عقوبتهم هدم سور القيروان حتى الصقعة بالأرض^(١).

ولم تنته هذه الفتن بهزيمة منصور الطنبزى وانشغال الدولة بفتح صقلية كما سيأتى بل انتفض فضل بن أبي العين بجزيرة شريك سنة ثمان عشرة ومائتين فسار إليه عبد السلام بن المفرج الربيعى وجاءت عساكر زيادة الله فقاتلوهما وقتل عبد السلام وانهمزم فضل إلى مدينة تونس وامتنع بها وحاصرتة العساكر حتى اقتحموها عليه وقتلوا كثيرا من أهلها وهرب آخرون حتى امنهم زيادة الله وهكذا مكنت يقظة زيادة الله واحكامه لسياسته من أن يقضى على من خولت له نفسه أن ينشق على الدولة! ويحاول الانتفاض عليها وان يبسط سلطان الدولة في كل أرجائها مع عدم اغفاله للجوانب الأخرى العمرانية والاجتماعية والقضائية وكذلك الحربية بتعبئة الجيش والاسطول اغزو صقلية يقول ابن عذارى مصورا عناية زيادة الله بالشئون العمرانية والتحصين الحربى^(٢) وكان زيادة الله يقول ما ابالى ما قدمت عليه يوم القيامه وفي صحيفتى اربع حسنات بنيانى المسجد الجامع بالقيروان وبنيانى قنطرة ابى الربيع وبنيانى حصن مدينة سوسة وتوليتى احمد بن ابى محرز قاضى أفريقية . .

(١) ١ - أنظر كتاب العبد لابن خلدون ج ٤ ص ١٩٧ ، ١٩٨ .

ب - البيان المغرب فى أخبار المغرب لابن عذارى ج ١ ص ٧٠ - ٩٣

(٢) البيان المغرب فى أخبار المغرب ص ٩٩ ج ١

واستمر زيادة الله في القيام بواجبات الدولة حتى أدركته الوفاة منتصف سنة ثلاث وعشرين ومائتين لأحدى وعشرين سنة ونصف من ولايته .

خلف زيادة الله أخوه الأغلبي الذي حكم ثلاث سنين احسن فيها السيرة واجزل العطاء للعامل كما قبض ايديهم عن الرعية وقطع النبيذ من القيروان وعاقب على بيعه وشربه وقضى على فتنة قامت بها قبائل لواتة ومكناسة وزواغة من البربر .

٢ - محمد الأول :

ثم ولي بعد الأغلبي ابنه أبو العباس محمد الأول ٢٢٦ - ٢٤٢ الهجري استمر في الحكم حوالي ستة عشر عاما ودانت له أفريقية وشيد مدينة بقرب تاهرت سماها العباسية وذلك سنة سبع وعشرين ومائتين (١) .

هذا ما يذكر ابن خلدون في اسم المدينة وتاريخ بنائها ولكن البلاذري يذكر لتاريخ بنائها سنة تسع وثلاثين ومائتين كما يوضح أنها غير العباسية التي بناها إبراهيم ابن الأغلبي جده فيقول (٢) وكان محمد بن الأغلبي بن إبراهيم بن الأغلبي أحدث في سنة تسع وثلاثين ومائتين مدينة بقرب تاهرت سماها العباسية أيضا فآخربها افلح بن عبد الوهاب الأباضي وكتب إلى الأموي صاحب الأندلس يعلمه ذلك تقريبا إليه به فبعث إليه الأموي مائة ألف درهم .

ومع ذلك فقد قامت ثورة لأغتصاب الأمانة منه ولكنه تمكن من أن يقضى عليها وأن يمسك بمقاليد الحكم . كما نشر الأمن والسكينة وقضى

(١) كتاب العبر لابن خلدون ج ٤ ص ٢٠٠

(٢) فتوح البلدان التمام الأول ص ٢٧٨

على من حاول أن يبيت في الأرض فساداً وبذلك تمكن من استمرار حركة الفتح والجهاد في صقلية وأن يمد الجيش الإسلامي فيها بما يحتاجه من عدة وسلاح .

وفي سنة ٢٤٢ هـ توفي أبو العباسي محمد بن الأغلّب صاحب أفريقية لليلتين خلتا من المحرم فسكانت ولايته ١٥ سنة ٨ أشهر ١٢ يوماً ومات وعمره ٢٩ سنة (١) .

٣ - ومن سنة ٢٤٢ إلى سنة ٢٦١ تولى الحكم ثلاثة أمراء (٢) .

(١) أحمد بن محمد بن الأغلّب واستمر في الحكم ست سنوات وكان حسن السيرة كثير العطاء للجند مولعاً بالعمارة فقد بنى بأفريقية نحو عشرة آلاف حصن بالحجارة واتخذ العبيد جنداً وفي أيامه فتحت قصر يانه من مدن صقلية في شوال سنة ٢٤٤ هـ . يقول ابن عذارى وفي سنة ٢٤٥ هـ أخرج صاحب أفريقية أبو إبراهيم بن الأغلّب مالا كثيراً لحفر المراجيل وبنيان المساجد والقناطر كما كمل بناء ماجل باب تونس الكبير وتمت الزيادة في جامع القيروان وكمل إصلاح قنطرة باب أبي الربيع .

(ب) ثم ولي بعده ابنه زيادة الله الأصغر وكان حسن السيرة جميل الأفعال ذارياً ونجده وجود وشجاعة ولم تطل مدة ولايته فسكانت سنة واحدة وسبعة أيام .

(ج) ولما توفي زيادة الله تولى بعده أخوه محمد بن أحمد بن محمد بن

(١) البيان المغرب في أخبار المغرب لابن عذارى ج ١ ص ١٠١

(٢) أنظر ١ - كتاب العبر لابن خلدون ج ٤ ص ٢٠٠ - ٢٠٢

ب - البيان المغرب في أخبار المغرب لابن عذارى ج ١ ص ١٠٥ - ١٠٨

الأغلب ويلقب بأبي الغرائيق لأنه كان يهوى صيدها حتى بنى قصراً يخرج إليه لاصيدها أنفق عليه ثلاثين ألفاً مثقال من الذهب وكان مسرفاً في العطاء مع حسن سيرة في الرعية ثم غلب عليه اللهو والشراب ولم تسكن له همة في جمع المال فلما مات لم يجد أخوه في بيت المال شيئاً يذكر وفي عهده فتحت جزيرة مالطة سنة خمس وخمسين ومائتين وتغلب الروم على مواضع من جزيرة صقلية وبنى حصوناً ومخارص على ساحل البحر بالمغرب على مسيرة خمسة عشر يوماً من برقة إلى جهة المغرب وفي سنة ٢٦٠ هـ كانت المجاعة بالمشرق والمغرب والوباء والطاعون وتوفي سنة ٢٦١ هـ فكانت ولايته عشر سنين وخمسة أشهر .

٤ - إبراهيم بن أحمد بن محمد بن الأغلب ٢٦١ - ٢٨٩ هـ (١) .

قبل أن يتوفى أبو الغرائيق عقد لابنه أبي عقاب العمدة وكان صغيراً واستخلف أخاه إبراهيم بن أحمد وكان والياً على القيروان إلا ينازعه في ملكه - بخمسين يمينا - وأشهد عليه آل الأغلب ومشايخ القيروان وأمره أن يتولى الأمر ويكون نائباً عنه إلى أن يكبر ولده فلما مات أبو الغرائيق أتى أهل القيروان إلى إبراهيم وهو الوالي على القيروان وقالوا له قم فأدخل القصر فأنت الأمير وكان إبراهيم قد أحسن السيرة فيهم فقال لهم قد علمتم أن أخى قد عقد البيعة لابنه واستخلفني خمسين يمينا إلا أنازع ولده ولا أدخل قصره فقالوا له تكون أميراً في دارك بالقصر القديم ولا تنازع ولده فنحن كارهون لولايته ومبايعون لك وليس في أعناقنا له بيعة فركب

(١) أنظر ١ - الكامل لابن الأثير ج ٧ ص ١٠١

ب - البيان المغرب لابن عذارى ص ١٠٩ - ١٢٥

ج - كتاب الدهر لابن خلدون ج ٤ ص ٢٠٣

من القيروان ومعه أكثر أهلها فحاربوا أهل القصر حتى دخل إبراهيم داره فبايعه مشايخ أهل أفريقية ووجوهها وبايعه جماعة بني الأغلب وباشر الأمور وأقام فيها قياماً مرضياً وكان عادلاً حازماً في أموره فنشر الأمن في البلاد وقتل أهل البغي والفساد وكان يجلس للعدل في جامع القيروان يوم الخميس والإثنين يسمع شكوى الخصوم ويصبر عليهم وينصف بينهم .

ومن هنا ندرك أن إبراهيم كان متمسكاً بوعدته لأخيه ولكن أهل القيروان ووجوهها حملوه على تولي الإمارة لما لمسوه من صلاحه لها ، كما نلاحظ تدخل أهل القيروان ومشايخها وأهل الرأي من سكانها في تنصيب الوالي وإن كان إختياره من بين أفراد الأسرة الحاكمة .

وقد اهتم إبراهيم بالناحية التجارية والعمراية فكان تجار القوافل يسهرون في الطرق آمنين كما بنى الحصون والمحارس على ساحل البحر حتى كانت النار توقد في ساحل سبته للندير بالعدو فيصل لإيقادها إلى الإسكندرية في الليلة الواحدة وبني على موسسة سوراً وفي سنة ٢٦٣ هـ إبتدأ إبراهيم بن أحمد بن الأغلب ببناء مدينة رقادة وفي السنة التالية كمل بناء القصر المعروف بالفتح وانتقل إليه وقد غير مقر الإمارة في سنة ٢٨١ حيث انتقل إلى تونس وأقام بها القصور واستوطنها .

ورغم هذه الإصلاحات الاقتصادية والعمراية وما اتصف به إبراهيم من عدالة وإنصاف فقد قامت بعض الفتن والثورات في عهده ففي عهده خالفت وزداجة ومنعوا الرهن وفعلت مثل ذلك هوارة ثم لواتة وقتلت ابن قمر بن في حروبهم فمرح اليهم إبراهيم ابنه عبيد الله في العساكر سنة تسع وستين فأئتمن فيهم وفي سنة ثمانين كثر الخزارج وفرق العساكر اليهم فاستقاموا .

كما حدثت فتنة في صقلية سنة ٢٨٥ بين عربها وبربرها فأرسل ابن الأغب^(١) كتابا يدعوهم فيه إلى الطاعة ويؤمنهم أجمعين ماعدا أربعة رجال ويختلف المؤرخون في الحكم على إبراهيم فنجده ابن خلدون راويا عن ابن الرقيق يقول^(٢) « وفي سنة ثمان وثمانين جاء رسول المعتضد بعزل الأمير إبراهيم لشكوى أهل تونس له فاستقدم - أي إبراهيم - ابنه أبا العباس من صقلية وارتحل هو إليها مظهر لغربة الانتجاع هكذا قال ابن الرقيق وذكر أنه كان جائرا ظلوما سفاكا للدماء وأنه أصابه آخر عمره ما ليخوليا أسرف بسببها في القتل فقتل من خدمه ونسائه وبناته ما لا يحصى وقتل ابنه أبا الأغب لظن ظنه به وافتقد ذات يوم منديلا لشربه فقتل بسببه ثلثائة خادم » .

ويقول ابن عذارى في نهاية حكمه^(٣) أنه في سنة ٢٨٩ أظمر صاحب أفريقية إبراهيم بن أحمد التوبة لما استقام أمر أبي عبدالله الداعي بكتابة فأراد إبراهيم بن أحمد أن يرضى العامة ويستميل قلوب الخاصة بفعله فرد المظالم وأسقط القيالات وأخذ العشر ضعافا وترك لأهل الضياع خراج سنة وسماها سنة العدل واعتق مالميسكة وأعطى فقهاء القيروان ووجوه أهلها أموالا عظيمة لتفرق في الأضعفاء والمساكين فاستوكلت وأعطيت لمن لا يستحقها وأنفقت في اللذات وصرفت في الشهوات وقدم ولده أبو العباس من صقلية مستدعى فأسلم إليه أبوه الملك فولى أبو العباس على الكور من أحب أما ابن الأثير فيذكر شيئا آخر يقول^(٤) « وعزم - أي إبراهيم -

(١) البيان المغرب في أخبار المغرب لابن عذارى ج ١ ص ١٢٤

(٢) ابن خلدون العبر ج ٤ ص ٢٠٣

(٣) البيان المغرب في أخبار المغرب لابن عذارى ج ٢ ص ١٢٥

(٤) الكامل لابن الأثير ج ٧ ص ١٠١

على الحج فرد المظالم وأظهر الزهد والنسك وعلم أنه إن جعل طريقه إلى مكة على مصر منعه صاحبها ابن طولون فتجرى بينهم ما حرب فيقتل المسلمون فجعل طريقه على جزيرة صقلية ليجمع بين الحج والجهاد ويفتح ما بقي من حصونها فأخرج جميع ما ادخره من المال والسلاح وغير ذلك وسار إلى سوسة فدخلها وعليه فرو مرقع في زى الزهاد أول سنة تسع وثمانين ومائتين وسار منها في الأسطول إلى صقلية وسار إلى مدينة رطنون فلما كان سلخ رجب وأظهر العدل وأحسن إلى الرعية وسار إلى طبرمين فاستعد أهلها لقاتله فلما وصل خرجوا إليه والتقوا فقرأ الأقرىء إنا فتحنا لك فتحا مبينا فقال الأمير اقرأ هذان خصمان اختصموا في رهم فقرأ فقال اللهم إني اختصم أنا والكفار إليك في هذا اليوم وحمل معه أهل البصائر فهزم الكفار وقتلهم المسلمون كيف شاءوا ودخلوا معهم المدينة عنوة فركب بعض من بها من الروم مراكب فهربوا فيها والتجأ بعضهم إلى الحصن وأحاط بهم المسلمون وقتلوهم فاستنزلوهم قهرا وغنموا أموالهم وسبوا ذراريهم وذلك لسبع بقين من شعبان وأمر بقتل المقاتلة وبيع السبي والغنيمة ولما اتصل الخبر بفتح طبرمين إلى ملك الروم عظم عليه وبقي سبعة أيام لا يلبس التاج وقال لا يلبس التاج محزون وتحركت الروم وعزموا على المسير إلى صقلية لمنعها من المسلمين فبلغهم أنه سائر إلى القسطنطينية فترك الملك بها عسكرا عظيما وسير جيشا كبيرا إلى صقلية أما الأمير إبراهيم فإنه لما ملك طبرمين بث السرايا في مدن صقلية التي بيد الروم وبعث سرية إلى ميقش وسرية إلى دمنش فوجدوا أهلها قد أجلموا عنها فغنموا ما وجدوا بها وبعث طائفة إلى رمطة وطائفة إلى الباج فأذعن القوم جميعا إلى أداء الجزية فلم يجبههم إلى ذلك ولم يقبل منهم غير تسليم الحصون فعملوا فهدمها وسار إلى كسنته في ربه الرسل منها يطلبون الأمان فلم يجبههم وكان قد ابتدأ به المرض وهو علة الذوب هزات العساكر على المدينة فلم يجدوا في قتالها

لقبيلة الأمير عنهم وإنه نزل منفردا لشدة مرضه وامتنع منه النوم وحدث به الفواق وتوفي ليلة السبت ١٤ ذي عشرة ليلة بقت من ذي العقدة سنة تسع وثمانين ومائتين ، وكان عاقلا حسن السيرة عجا للخير تصدق بجميع ما يملك ويرقب املاكه جميعها وكان له فضة عظيمة باظهار خفايا العملات .

هذه هي آراء المؤرخين القدامى في نهاية إبراهيم ولاشك أن ما رويه ابن خلدون عن ابن الرقيق فيه كثير من التجني على إبراهيم ومجاوزه للحد في وصفه بالهلوسة وفي امرافه في سفك الدماء فان خلدون يروي ذلك بما يدل على عدم تصديقه لهذه الأحداث التي يذكرها فيقول هكذا ذكر ابن الرقيق مع موافقتهم جميعا على حروجه إلى صقلية وابلائه بلاه حسنا في القتال إلى آخر أيامه

وإن كان ابن عذارى يشير إلى عر دته إلى الاستقامة بعد ظهور أبي عبد الله الشيعي واستفحال امره بكتامة ولكنه لم يتوجه بالحرب إلى عبد الله ايقانله وإنما يذهب إلى صقلية لكي يقود الجهاد والفتح ثم يهلل ابن الأثير ذلك بأنه كان قد أزمع على الحج ولكن حجج لا تراق فيه دماء المسلمين وذلك حين يصطدم بان طولون في مصر فجعل طريقه يجمع ثوابين ثواب الحج وثواب الجهاد ولست أدري ماذا كان سيحدث ، لو طالت حياة إبراهيم هل كان سيذهب إلى مكة للحج عن طريق صقلية كما فعل ذلك ابن جبير أم أنه كان سيكتفي بالجهاد والمرابطة في سبيل الله ؟ على أنني لا أستطيع كتاب المعتضد بعزل الأمير إبراهيم مع قيام الدولة الطولونية بينة وبين إبراهيم وما كان المعتضد يتقار على عزله وأن كان يستطيع أن يحدث له بعض المشاكل كما يشي عليه ابن الأثير بكال العقل وحسن السيرة وحبه للخير ليس هذا فقط بل يذكر حذقه في معرفة النقود وتمييزه بين المغشوش منها والناقي .

وقد توفي إبراهيم في صقلية سنة تسع وثمانين اثنان وعشرين سنة من
امارته وكان عمره تسعا وخمسين سنة واتفق ابن خلدون وابن عذارى على
دفنه بصقلية ولسكن ابن الأثير يقول إنه حمل إلى القيروان فدفن بها .

وقد قام بالأمر بعد إبراهيم ابنه أبو العباسي عبد الله بن إبراهيم ابن
أحمد (١) وعظم أمره وكتب إلى العمال ليأخذوا له البيعة وبشرهم بالعدل
والرفق والجهاد وجالس أهل العلم وشاورهم وكان لا يركب إلا إلى الجامع
واعتقل ابنه زيادة الله لما بلغه من اعتكافه على اللذات واللهو وأنه يروم
التوثب عليه وكان أبو العباس حسن السيرة عادلا بصيرا بالحروب وكانت
أيامه صالحة وكان نزوله بتونس ، وقد صانع زيادة الله بعض الخديم على قتل
أبيه فقتل نائما بعد سنة من ولايته في شعبان سنة تسعين ومائتين .

ولما قتل عبد الله أطلق زيادة الله من الاعتقال واجتمع أهل الدولة
وبأيمواله فقتل الذين قتلوا أباه وأقبل على اللذات واللهو ومعاشرة المضحكين
وأهمل أمور الملاح .

وقوى أمر ابن عبد الله الشيعي فانتقل زيادة الله إلى رقادة ليلا وأخذ
عبد الله الشيعي القائم يدعوة الفاطميين يستولى على المدن واحدة بعد أخرى
وكثر الإرجاف بالقيروان ففتح زيادة الله ديوان المعطاء وأجمع الخروج
فخرج إلى الأربس سنة خمس وتسعين ثم أخذ عبد الله الشيعي يوالى الاستيلاء
على المدن حتى وصل إلى قودة . فحمل زيادة الله أمواله وانقاله وخلق

(١) أنظر ١ - السكامل لابن الأثير ج ٨ ص ٧

ب - كتاب الأمير لابن خلدون ج ٤ ص ٢٠٥

ج - البيان المغرب في أخبار المغرب لابن عذارى ج ١ ص ١٢٨ - ١٢٩

هبط ابلس معتما على الشرق وأقام بطرابلس سبعة عشر يوما انصرف بعدها إلى مصر فمنعه عاملها النوشري من دخولها فأقام بظاهر البلد ثمانية أيام وانصرف إلى ان القمراة وزير المقتدر يستأذن له في الدخول فاتاه كتاب المقتدر بالرجوع إلى أفريقية وأمر النوشري بامداده بالرجال والمال لاسترجاع الدعوى بأفريقية ووصل إلى مصر فأصاحته بها عدة مزمنة وسقط شعره ويقال إنه سم وخرج إلى بيت المقدس فتوفي بالملة سنة ٣٠٣ هـ ودفن بها وانتهت بحرته دولة الاغالبية بعد أن حكمت مائة واثنى عشرة سنة .

٣ - فتوحات دولة الاغالبية

بعد أن ثبتت أركان دولة الاغالبية واستقر سلطانها انجمرت إلى توسيع رقعتها ولكنها لم تتجه إلى داخل أفريقية حيث تحدها الصحراء من الجنوب ولا إلى الشرق أو الغرب حيث تقوم أمادات أو ولايات مسلمة وإن كانت قد حصنت نفسها من هؤلاء الجيران غير أن الشمال كان يغير عليها ويقلق بالها وكان في ذلك فرصة لها لكي توسع أملاكها .

أهمية مواقع صقلية :

والذي تقع في شمال دولة الاغالبية هو البحر المتوسط وأقرب الشواطئ فيه هي جزيرة صقلية وإيطاليا التابئين للروم . وإيطاليا وصقلية وشمال تونس تقسم البحر المتوسط إلى حوضين / الحوض الشرقي وهو ما بين هذه الأقاليم الثلاثة ومواحل الشام وآسيا الصغرى والحوض الغربي وهو ما بين تلك الثلاثة وشبه جزيرة أيبيريا - أسبانيا

والحوض الغربي بابان : الأول مضيق جبل طارق ويفصل أوروبا - أسبانيا - عن أفريقية بمقدار ٢٩ كيلو مترا والباب الثاني مضيق صقلية

الذى يفصلها عن شمال تونس ويبلغ اتساعه ١٣١ كيلو مترا ومن خصائص هذين البابين أن الدولة التي تسيطر على الضفة أحدهما لا بد أن تحاول الاستيلاء على الضفة الأخرى .

وقد فطن الفينيقيون إلى ذلك فاستولوا على مضيق جبل طارق في القرن الحادى عشر قبل الميلاد واستولى الرومان على أسبانيا نحو سنة ٢٠٢ ق م ثم أخذوا جزءا من بلاد المغرب في عهد أغسطس قيصر (٣٠ ق م) وبلغ من شدة ارتباط الضفتين أن كانت ممتلكاتهم في أسبانيا وفي المغرب بمثابة مستعمرة واحدة ، ولما ملك الوندال أسبانيا بعد الرومان أمتد نفوذهم منها إلى شمال المغرب وبلغ حتى تونس فتخطوا منها إلى صقلية وإيطاليا وأصبحوا سادة الحوض الغربى تقريبا ، ولما جاء القوط عن طريق جنوب فرنسا وغزوا أسبانيا اضطخوا على الوندال جنوبا ثم جاءت دولة الروم الشرقية — فيما بعد — فانتزعوا المغرب من الوندال كما أملاكوا ما لهم في جنوب أسبانيا غير أن نفوذهم تقلص بعد ذلك فد القوط سيادتهم على باقى أسبانيا وتخطوا المضيق واستولوا من جانبه الآخر على مدينة سبتة .

وأما مضيق صقلية ، فقد ملكته دولة قرطاجنة بالسيطرة على صقلية وهى دولة فينيقية الأصل نشأت في ما يعرف الآن بتونس وانشأت مدينة قرطاجنة عاصمة لها وسيطرت على صقلية والمغرب وشواطئ أسبانيا . وانشأوا في أسبانيا أيضا مدينة قرطاجنة الجديدة ، واستمرت على ذلك حتى ظهرت الدولة الرومانية في روما وشملت أملاكها إيطاليا ثم تطلعت إلى صقلية وتمال إفريقيا فاخذت تنارع قرطاجنة على أملاكها وكانت بين الفريقين حروب تعرف بالحروب البونية ، وكانت أولى هذه الحروب سنة ٢٤٠ ق م وفيها انتزعت منها صقلية وآخر هذه الحروب كان سنة ١٤٦ م وفيها نصى الأرومان على دولة قرطاجنة واستمدت جزيرة صقلية بفضل هذا الموقع

كل معونة من الولايات البيزنطية الأخرى البعيدة عن متناول المسلمين في
الفترة المبكرة من فتوحاتهم وغدت المعقل الذي يمكنه الصمود تماماً أمام
الزحف الإسلامي كما مكنت الروم من سهولة إستعادة إفريقيا من العرب
أثناء الفتح. (١)

حالة المجتمع الصقلي

إن جذور المجتمع الصقلي تستمد من العصر البيزنطي الذي بدأ في
الجزيرة حينما استولى بلزاريه سر قائد جستنيان على الجزيرة من يد القوط
سنة ٥٣٥ م ليخلصها من حكم القوط وظلت تخضع للبيزنطيين حتى كانت
أحداث الفتح الإسلامي .

وأول ما يلاحظ في طبيعة تكوين المجتمع الصقلي قبل الفتح أن للجزيرة
بحكم موقعها الجغرافي كانت في مهب الهجرات والإغارات فلم تكنسب
طابعاً عنصرياً متحداً إنما كانت تعاني من البعثة العنصرية والتفكك
الإجتماعي ولم يستطع الحكم البيزنطي أن يعطي الجزيرة إستقرارها
الإجتماعي المنشود رغم أن هذا الحكم إستمر نحو ثلاثة قرون بل ضاعفوا
عوامل التفكك فيها فقد إعتدوا على جلب البرابرة وإشراكهم في
الجيش وفتحوا باب الهجرة أمام المغامرين من السوريين واليهود يتدفقون
إليها ويقيمون فيها .

(١) انظر ١ - الأمويون ، والبيزنطيون د . إبراهيم أحمد نعمة ص ٩٧

ب - تاريخ الأندلس السياسي والعمراني والاجتماعي د . علي محمد حودة

وثمة ملاحظة أخرى على المجتمع الصقلي قبل الفتح وهي أن البيزنطيين اعتمدوا في الإنتاج الاقتصادي على جماعات من العبيد يستقدمون للجزيرة بأعداد وفيرة كما أن كثيرين من الفلاحين الأحرار كانوا يختارون حياة العبيد بسبب فداحة الضرائب وثقل الأعباء الاقتصادية ، هذا فضلاً عن الظروف الاقتصادية الصعبة التي عاشتها الجزيرة في ظل السيادة البيزنطية فقد كانوا يفرضون الضرائب الفادحة لخزينة الدولة وعين جستنيان برايتورا Praetor ينفذ هذه السياسة الاقتصادية وخضعت صقلية للأنظمة البيزنطية الجائزة التي جرت عليها التعاسة والشقاء ويرى بروكوبيوس في تاريخه السري أن البلاد إفقرت من سكانها ورزحت تحت عبء ثقيل من الضرائب والأضطهاد الديني والثورات العسكرية .

كانت صقلية تدفع ضرائب على الأملاك والرؤس وأتاوات على التجارة والصناعة وضرائب للجند وأخرى للبحارة وأموالاً يبتزها الموظفون بل إن أحد الجبابرة في نهاية القرن السادس أجبر الرعايا العاجزين عن الدفع إلى تقديم أبنائهم وكانت الكنيسة تشارك الدولة النفوذ والسلطان .

ولم تنج الجزيرة من الفتن الدينية والصراع المذهبي ففي النصف الثاني من القرن الثامن أذاع ليبو في الناس منشوراً يحرم به الصور في الكنائس ويأمر بنزها ودخلت الدولة في نزاع مع الكنيسة في روما بسبب هذه السياسة .

وجملة القول أن صقلية البيزنطية فقدت كما يرى الأستاذ إماري شخصيتها ومقوماتها العمرانية ولم ينعم المجتمع الصقلي بالاستقرار إنما كان مجتمعاً محموماً كأنه المعسكر الحربي المسلح .

ورغم ذلك فإن هذه الجزيرة كانت في العهد البيزنطي مركزاً قوياً

لثقافة الإغريقية الجديدة هذا الثقافة التي ستترك أثراً في تكوين الدولة الصقلية ليكون لها لونها الخاص واتجاهها الخاص .

من هذا كله نخلص إلى أن جميع هذه البلاد كانت مهينة تماماً لتقبل الفتوح العربية (١) .

محاولات المسلمين غزو صقلية وما حولها :

١ - كانت أولى المحاولات لغزو صقلية في أيام معاوية بن أبي سفيان وقد كان مهتماً بالجزر والإستيلاء عليها قال ابن خلدون (٢) غزا معاوية ابن حديج السكندى أيام معاوية بن أبي سفيان (صقلية) وكان أول من غزاها .

وبعد ذلك تتابعت الحملات التي كانت تغير على صقلية فقد عقد موسى ابن نصير اعمياشي بن أخبل على مراكب إفريقية فسار في البحر إلى صقلية فأصاب مدينة يقال لها سرقوسة فغنمها وجميع ما بها وقفل سالماً غانماً (٣)

ثم غزا (٤) بشير بن صفوان السكبي صقلية بنفسه في أيام هشام بن عبد الملك سنة تسع ومائة فأصاب سببها كثير ورجع إلى القيروان منهزوراً كما أغزى عبد الله بن الحبحاب وإلى إفريقية سنة ١١٤ هـ حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع الفهري جزيرة صقلية فركب البحر إليها سنة

(١) الحضارة الإسلامية في بلاد المغرب والأندلس د . حسن أحمد محمود

ص ٢٨ - ٣٠

(٢) كتاب العبر لابن خلدون ج ٤ ص ٢٧٨

(٣) البيان المغرب لابن عسار ج ١ ص ٢٧

(٤) الاستقصا في أخبار المغرب الأقصى للسلاوي ص ٤٧ ، ٤٨ ، ٥٣

إثنتين وعشرين ومائة ومعه ابنه عبد الرحمن بن حبيب فهازل سرقوسة
أعظم مدن صقلية وضرب على أهلها الجزية وأثنى في سائر الجزيرة . كما
أرسل عبد الرحمن بن حبيب الفهري سنة خمس وثلاثين ومائة جيشاً في
البحر إلى صقلية وأخر إلى سردينيه فأثخنوا في أمم الأفرنج حتى أذعنوا
للجزية ويذكر ابن عذارى^(١) أن المسلمين غزوا جزيرة سردينية وعاليهم
محمد بن عبد الله التميمي فأصابوا وأصيب منهم ثم قفلوا .

وكانت هذه المحاولات بمثابة تمرين يجرى لأجل حملة الفتح كما أنه كان
فرصة لبناء الأسطول البحري العربي وتدريب بحارة مكافئين لا يخشون
البحر ويستطيعون القتال على لجمه وإن كان كل ذلك قد استغرق فترة
طويلة منذ بدء المحاولات الأولى إلا أنه كان نمواً طبيعياً حسب مالا قام
من معاكسات واضطرابات .

أسباب فتح صقلية :

يذكر ابن الأثير^(٢) أن سبب إنفاذ زيادة الله جيشاً إلى صقلية أن
ملك الروم بالقسطنطينية استعمل على جزيرة صقلية بطريقاً اسمه قسطنطين
سنة إحدى عشرة ومائتين فلما وصل إليها استعمل على جيش الأسطول
إنساناً رومياً اسمه فيمى كان حازماً شجاعاً فغزا إفريقيا وأخذ من سواحلها
تجاراً ونهب وبقى هناك مديدة ثم أن ملك الروم كتب إلى قسطنطين
بأمره بالقبض على فيمى مقدم الأسطول وتهذيبه فبلغ الخبر إلى فيمى
فأعلم أصحابه فغضبوا له وأعانوه على المخالفة فسار في مراكبه إلى صقلية
واستولى على مدينة سرقوسة فسار إليه قسطنطين فالتقوا واقتتلوا فانهمز

(١) البيان المغرب في أخبار المغرب لابن عذارى ج ١ ص ٤٩

(٢) الكامل لابن الأثير ج ٦ ص ١٢١

قسطنطين إلى مدينة ططانية فسير إليه فيمى جيشاً فهرب منهم فأخذ وقتل
وخو طب فيمى بالملك واستعمل على ناحية من الجزيرة رجلاً اسمه بلاطة
فخالف على فيمى وعصى واتفق هو وابن عم له اسمه ميخائيل وهو والى
مدينة الرم وجمعاً عسكرياً كثيراً فقاتلا فيمى وانحزم فاستولى بلاطة على
مدينة سراقوسة وركب فيمى ومن معه فى مراكبهم إلى إفريقية وأرسل إلى
الأمير زيادة الله يستنجده ويعدده بمالك جزيرة صقلية ويزيد اللواتى الركن
محمود خطاب^(١) أن أوفيموس Euphemios الذى يسميه العرب فيمى
وكان مقدما من بطارقة القيصر على مايقوله مؤرخو العرب أو (طورمارخا
Tormarxha) أى قائد فرقة فى جيش صقلية المحلى برتبة فريق على
ماتقوله المراجع الإيطالية والبيزنطية

كانت قد وقعت عداوة بينه وبين والى صقلية العام لأسباب شخصية
لأن والى العام قد خطف منه مخطوبته على ما يذكره أحد المراجع الإيطالية
أو لأن فيمى قد خطف راهبة من ديرها فعاقبه والى بالعزل فلجأ إلى بنى
الأغلب يطلب منهم المعونة وقدم نفسه لزيادة الله دليلاً وعوناً على فتح
صقلية

وهكذا يذكر ابن الأثير ويؤيده ابن خلدون^(٢) وتتفق معهما المراجع
الإيطالية والبيزنطية أن سبب حملة فتح صقلية هى قدوم هذا القائد
واستنجاده بزيادة الله وهذا التعليل للحملة يبدو لى أنه يمكن أن يكون
سليماً مباشراً .

(١) مجلة المشرق مقال أسد بن الفرات ص ١٠٦ عدد ١٠٤

(٢) أنظر كتاب المير لابن خلدون ج ٤ ص ١٩٨ - ٢٠٠

ولكني أرى أن هناك أسباباً أبعد من ذلك ترجع إلى فرض السيادة البحرية على البحر المتوسط وإلى تأمين الساحل الإفريقي لا سيما وقد خرجت الإغارات البحرية على جزيرة صقلية وأثبتت تلك الإغارات المتكررة مدى إدراك المسلمين لخطورة قاعدة الروم البحرية في جزيرة صقلية وضرورة إنتزاعها من أيديهم ولم يبق أمام العرب غير انتهاز الفرصة المواتية لتحقيق حلمهم البحري القديم بالاستيلاء على صقلية واتخاذها قاعدة لأسطولهم .

وابن الأثير نفسه يذكر أن فيمى هذا غزا إفريقيا سنة إحدى عشرة ومائتين وأخذ من سواحلها تجاراً ونهب وبقي هناك مديده . فحالة الحرب كانت قائمة في السنة السابقة على حلة زيادة الله لفتح صقلية كما أنه ما زال هناك أسرى من المسلمين في صقلية أنكروهم الصقليون على خلاف شروط الهدنة كما يوضح ذلك اللواء الركن محمود خطاب^(١) وكانت بين صقلية وإفريقية هدنة لم تنقض مدتها فعرض زيادة الله أمرها على أبي محرز وأسد أما أبو محرز فأمر التريث وأما أسد فأمر أن يسأل الصقليين ليعرف هل لديهم في صقلية أسرى من المسلمين قال أبو محرز كيف تقبل قول الرسول عليهم أو دفعهم عنهم فقال أسد بالوسل هادناهم وبالوسل نجعلهم ناقضين قال عز وجل (فلا تمنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون) فكذلك لا تتماسك به ونحن الأعلون .

وحلت العقدة وتحلل زيادة الله من الهدنة بعد أن أقر الوسل بوجود الأسرى من المسلمين في صقلية وكانت الهدنة تنص على د أنه من دخل

(١) مجلة العربي مقال أسد بن الفرات ص ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٤ ، ١٠٤

اليهم من المسلمين وأراد أن يردوه إلى المسلمين كان ذلك عليهم وقد ثبت
باعتراف رسل (صقلية) أن أسرى المسلمين في صقلية خلافاً لشروط
الهدنة .

ومن هنا ندرك أن حالة الحرب التي أوقفها الهدنة ثم نقضهم لها
بالاحتفاظ بأسرى المسلمين بالإضافة إلى استعانة فيمى بزيادة الله كانت
من الأسباب المباشرة لحملة الفتح .

حملة الفتح

جمع زيادة الله مجلسه الحربى المؤلف من وجوه أهل القيروان وفقهائهم
ومنهم أسد بن الفرات وأبو محرز القاضيان وسحنون بن سعيد واستشارهم
في أمر فتح صقلية وبعد أخذ ورد استقر رأى على إرسال الحملة وما كان
لهم إلا يفعلوا وقد واتهم الفرصة لتوسيع رقعة الدولة وبسط نفوذها على
مواقع إستراتيجية وهامة وإيجاد قواعد لأسطولهم في البحر المتوسط ثم
القضاء على القوة البحرية للروم التي كانت تثير عليهم بين آونة وأخرى .

وتحرك الأسطول الأغلبى حاملاً للقوات البرية والبحرية بقيادة أسد
ابن الفرات القاضى وشيخ الفتيا ومؤلف الأسدية وكان جيش الفتح مؤلفاً
من عشرة آلاف رجل منهم ألف فارس حملتهم مائة سفينة .

وخرج لتوديع الجيش وجوه أهل العلم والشعب وعلى رأسهم زيادة
الله وصحلت النخيل وضربت الطبول وحنفت البنود وكان الإبحار من
سوسة يوم السبت النصف من شهر ربيع الأول سنة إثنى
عشرة ومائتين .

وردت سفن الأسطول الإسلامى على ساحل صقلية في ميناء مازر على

ساحل صقلية الغربى وهو أقرب ثغور صقلية إلى افريقية وهناك جرى إنزال قوات المسلمين حيث لم يجدوا مقاومة فى ذلك الثغر وسار أسد على رأس جيشه إلى شرق الجزيرة لمقابلة الروم الذين اجتمعوا حول صاحب صقلية بلاطه حتى بلغ جيشه مائة وخمسين ألفاً واجتمع إلى أسد فيسمى - القائد الرومانى وأنصاره - ليقاتلوا معه فأبى أسد وطلب إليهم أن يعتزلوهم واشتد القتال بين المسلمين والروم فانهزمت الروم وغنم المسلمون أموالهم ودوابهم وهرب البلاطه إلى قلورية فقتل بها واستولى المسلمون على عدة حصون من الجزيرة ووصلوا إلى قلعة الكراث وبعد انتصار المسلمين فر الروم نحو الجبهة الشرقية وحشدوا جموعهم حول مدينة سرقوسة فرأى أسدان يستثمر الفوز فساد بجيشه يقتفى أثر المنهزمين قاطعاً مسافة مائتى كيلو متر وهى المسافة الفاصلة بين رأس الجسر الذى نزل فيه المسلمون فى مدينة مازر وبين سرقوسة .

وكان هناك عدة من المدن والحصون فى شمال صقلية لا تزال بيد الروم وكان خط القتال الناشب بين المسلمين والروم ممتداً فى الحقيقة من سرقوسة فى شرق الجزيرة إلى بلم فى شمالها الغربى .

وحاصر أسد سرقوسة براً وحاصرتها سفن المسلمين بحراً ووصلت الامداد من افريقية فبعث أسد إلى بلم الجند والسفن لحصارها .

وفى ذلك الحين وصل إلى ميساه سرقوسة أسطول بيزنطى بعثه الإمبراطور من القسطنطينية لإنجساد الجزيرة فاشتدت مقاومة الروم للمسلمين وارتفعت معنوياتهم فلشدت بينهم وبين المسلمين معارك طاحنة فى البحر والبر .

وتخرج موقف المسلمين لتكأثر الروم عليهم من جهة إذ أصبحوا يصاولوا جيش الأمبراطورية لاجيش صقلية المحلي كما انتشر الوباء في معسكرهم من جهة أخرى وذلك سنة ثلاث عشرة ومائتين فهلك منهم خلق كثير ولكن أسد دأب على القتال فتوفي وهو محاصر لسرقوسة في ربيع الآخر سنة ثلاث عشرة ومائتين وتولى القيادة بعد أسد محمد بن أبي الجوارى فلما رأى تفاقم الأمر على المسلمين حاول الإنسحاب في السفن إلى أفريقيا ولكن السفن البيزنطية منعتهم من ذلك فأمر عندئذ بحرق السفن .

وامتنع المسلمون بداخل الجزيرة وتفرقوا فيها سرايا بغزون بسائطها ويحاصرون قلاعها يقول ابن الأثير (١) ودخلوا إلى مدينة ميناو فحاصروها ثلاثة أيام وتسلموا الحصن فسارت طائفة منهم إلى جرجنت فقاتلوا أهلهم وملسكوه وسكنوا فيه واشتدت نفوس المسلمين بهذا الفتح وفرحوا ثم ساروا إلى مدينة قصر يانة ووصل جيش كبير من القسطنطينية مدد لمن في الجزيرة فتصافروا والمسلمون فانهزم الروم وقتل منهم خلق كثير ودخل من سلم قصر يانته وتوفي محمد بن أبي الجوارى أمير المسلمين وولى بعده زهير ابن غوث وصار القتال بين الروم والمسلمين سجالا ولكن كفة الروم كانت راجحة وضيقوا الخناق على بعض المسلمين فدخلوا ميناو ودام الحصار عليهم حتى أكلوا الدواب والكلاب فلما سمع من في مدينة جرجنت من المسلمين ما عم عليه هدموا المدينة وساروا إلى مايزر ولم يقدروا على تعمره أخوانهم ودام الحال كذلك إلى أن دخلت سنة أربع عشرة ومائتين وقد أشرف المسلمون على الهلاك .

(١) أنظر ١ - الكامل لابن الأثير ج ٦ ، ١٢٤ ، ١٢٥

٢ - كتاب العبر لابن خلدون ج ٤ ص ١٩٩ ، ٢٠٠

وفي سنة ٢١٤ هـ وصل مدد من أفريقية لجيش الفتح ولما كان المؤرخين يجمعون على مشاركة أسطول من الأندلس بقيادة فرغلوش مساعد المسلمين المحاصرين في محنتهم وذلك بعد أن استغاث بهم المسلمون في صقلية وبلغت هذة أسطول الأندلس بقيادة أصبغ ابن وكيل المعروف بفوغلوش والمدد القادم من أفريقية ثلاثمائة مركب فنزل الجنود إلى الجزيرة فاهزم الروم عن حصار المسلمين وسار المسلمون إلى مدينة بلرم فحاصروها وضيقوا على من بها فطلب صاحبها الأمان لنفسه ولأهله ولماله فاجيب إلى ذلك وسار في البحر إلى بلاد الروم ودخل المسلمون البلد في رجب سنة ستة عشرة ومائتين .

وكان فتح بلرم خطوة كبيرة في قصة الفتح فقد كانت هذه المدينة ميناء سهل على المسلمين الاتصال الدائم بأفريقية وأصبح في استطاعتهم أن يعتمدوا على أمدادات ومؤمن لاتنقطع وكانت المنطقة المحيطة بها تزود الجنود بحاجتهم من المؤمن وتحولت إلى قاعدة إسلامية تخرج منها الغارات إلى كافة أرجاء الجزيرة وأخذت السرايا تخرج منها كل يوم فتغير في أنحاء الجزيرة ثم تعود محملة بالغنائم .

وكانت المقاومة الشديدة لفتح الإسلام في صقلية تنبع من بطريق صقلية الذي كان يقود القوات البرية والبحرية ويواجه المسلمين بحرب عصابات شديدة الوظأة ثم الأسطول البيزنطي فكانت الغارات السريعة الخاطفة هي خير ما خلاص المسلمين من قوات البيطريق ومن حرب العصابات هذه (١) .

والمصادر عندما تذكر هذه المشاركة من الأندلسيين لاتذكر أن الفاتحين طلبوا المعونة من الأندلس بقوتهم البحرية وإنما يذكر ابن خلدون أنهم

(١) أنظر الحضارة الإسلامية في بلاد المغرب والأندلس د. حسن أحمد

خرجوا للجهاد وابن الأثير أنهم خرجوا غزاة أما ابن عذارى فيسكت عن ذلك وكأنه كان مصادفة .

ويمكن لنا أن نفترض فرضين :

١ - أنه ربما كان الأندلسيون قد قصدوا بحملتهم صقلية فوجدوا الأغالبة فسبقوهم إليها وطلب جيش الأغالبة منهم المعونة فأعانوهم وحملوا على إنقاذهم من حصارهم وبذلك تمكنوا من الاستيلاء على بعض المدن والحصون ومن يروى هذا يشير إلى المنافسة والفراع بين الأندلسيين والفاطميين من إفريقية .

٢ - ويمكن أن نقول إن الأسطول الأندلسي كان يجرى مناورات أو يتجول في البحر المتوسط بقصد التدريب والاستكشاف . فاستعان بهم قائد حملة الفتيح فأعانوه .

استمرار الجهاد

رحل الأسطول الأندلسي وثبتت أقدام المسلمين في صقلية ولكن ليس معنى ذلك أنهم تغلبوا على كل صقلية وتم فتحها وتبعيتها للأغالبة وإنما بقيت جيوب ومدن وحصون لم تسلم وصارت الحرب سجالا بين الروم والمسلمين إلى أن تم الإستيلاء عليها بعد حوالي قرن من بداية حملة أسد بن الفرات وكان تمام الاستيلاء عليها في نهاية حكم الأغالبة .

ولنا عندما نتتبع سير الحرب والجهاد والسرايا والغزوات إلى أن تم الاستيلاء على صقلية سوف نسرف في القول ويطول بنا الحديث وإن كان ذلك مهما إلا أن طبيعة هذا البحث لا تشمل مثل ذلك .

ويمكن أن نشير بإيجاز إلى أن أهم المدن والحصون التي استولى عليها في غضون تلك المدة وبعض السرايا البرية والبحرية التي تحللتها مع شرح الاستيلاء على مدينتين مهمتين مديدة قصر يانة ومدينة سرقوسة مع إشارة موجزة إلى القواد ويمكن تقسيم هذه الفترة إلى ثلاثة أقسام .

١ - من رجوع الأسطول الأندلسي إلى سقوط قصر يانة من سنة

٢١٦ - ٢٤٤ هـ .

٢ - من سقوط قصر يانة إلى سقوط سرقوسة من سنة ٢٤٤ - ٢٦٤ هـ

٣ - من سقوط سرقوسة إلى إنتهاء دولة الأغلبة من سنة ٢٦٤ - ٢٩٦ هـ

فقد توجه إلى صقلية في سنة ٢١٦ هـ أو ٢١٧ هـ^(١) محمد بن عبد الله بن الأغلب التميمي لولايتها بأمر زيادة الله بن الأغلب ونجح في الاستيلاء على بلرم التي اتخذها عاصمة لولاية صقلية .

وكان فتح بلرم خطوة كبيرة في سبيل إفتتاح صقلية كلها إذ كانت ميناء بحريا سهل تلقى المؤن والإمدادات من أفريقية عن طريق الأسطول الإسلامي .

ثم استمرت الحملات والسرايا إلى وقت وفاته في سنة ٢٢٦ هـ ففي سنة ٢٢٢ هـ نجح المسلمون في فتح حصن مد نار ومعامل كثيرة في حملة قام بها الفضل بن يعقوب^(٢) .

كما سير أبو الأغلب سرية إلى قسطنطينية وقصريانه فانحصرت الأولى

(١) المغرب الإسلامي د . السيد محمود عبد العزيز سالم

(٢) البيان المغرب لابن عدي ح ١ ص ٤٩

وهزمت الثانية ثم كانت وقعة أخرى بين الروم والمسلمين فاهزم الروم وغنم المسلمون منهم تسعة مراكب برجالها وشيلندي (١) ومن سنة ٢٢٥ إلى ٢٣٢ هـ استأمن عدة حصون من جزيرة صقلية إلى المسلمين منها حصن البلوط وإبلاطين وقرلون ومرو وسار أسطول المسلمين إلى قلودية ففتحها ولقوا أسطول صاحب القسطنطينية فهزموه بعد قتال فماد أسطول الروم إلى القسطنطينية مهزوما فكان فتحاً عظيماً كما سارت سرية إلى حصن الغيران وهو أربعون غاراً فغنمت جميعها ثم خرجت سرية فبلغت شزة فقاتله أهلها قتالاً شديداً وكانت الهزيمة على الروم وقتل منهم خلق كثير (٢).

وفي سنة ٢٣٣ هـ حصر الفضل بن جعفر مدينة مسيني فأنفتح الطريق أمامهم إلى جنوبي إيطاليا وقد أرسل الروم عشر شلنديات أرسلت بمرسی الطين ولسكنهم لم يتمكنوا من الإغارة على المسلمين كما تصالح أهل رغوس وحامية المدينة مع المسلمين .

وبعد هذه الغارات والمرايا المتوالية التي كان يرسلها محمد بن عبد الله ابن الأغلب توفي في سنة ست وثلاثين ومائتين بعد أن استمر والياً على صقلية قرابة عشرين سنة فتولى إمارة صقلية العباس بن الفضل بن يعقوب فأخذ يخرج قائداً للسرايا والغزوات المتتالية ويرد حملات الروم التي ترسلها القسطنطينية على أعقابها خاسرة فاشلة وأخذ يحاربهم حرباً إقتصادية يغير عليهم فيأخذ ما يستطيع ويتلف ما لا يستطيع أخذه . يقول ابن عذارى (٣) في سنة ٢٣٧ هـ أغزى العباس بصقلية أرض الروم فغنم غنائم

(١) السكامل لابن الأثير ج ٦ ص ١٢٤ - ١٢٦

(٢) السكامل لابن الأثير بتصرف ج ٦ ص ١٧٢ - ١٨٢

(٣) البيان المغرب في أخبار المغرب لابن عذارى ج ١ ص ١٠٤ - ١٠٦

كثيرة وسبى سببها كثيرا وأدخ بلادهم وفي سنة ٢٣٨ اغزى العباس بن الفضل صاحب صقلية الروم فقتل اقله المشركين وبعث برؤسهم إلى مدينة بلرم وأقام ينتسف زرعهم ويظأ أرضهم ويسبى من ظفر به منهم ثم قفل إلى صقلية وفي سنة ٢٣٩ هـ كان الجهاد بصقلية في غزوة العباس بن الفضل في الصانفة فأفسد زرع النصارى وبت السرايا في كل موضع وغنم قصر ياناه وقطانية وسرقوسة وغيرها وحاصر مدينه بشيرة ستة اشهر حتى صالحوه على ستة آلاف رأس قبضها منهم وقفل إلى حضرة بلرم وفتح مدينة سمرنته وهكذا كان العباس يخرج في الصانفة والشمانية ليغير على الحصون ويدت السرايا ويحاصر المدن والحصون حتى تسلم إليه أو تصالحه فقد صالحه أهل قصر الحديد بعد أن حاصرهم شهرين بخمسة عشر ألف دينار وصالحه أهل حصن شلفودة على أن يخرجوا منه ويهدمه ففعل .

ولقد ساعدت هذه الغزوات والسرايا المتكررة والمستمرة صيفا وشتاء والتي تدل على سرعة حركة الجيش الإسلامى في بلاد كانت تستعمل فيها حرب العصابات والحرب الاقتصادية التى لجأ إليه العباس أن يتمكن من الاقلال من فائدة حملات الروم المتتابعة لمساعدة بطريق صقلية الذى كان يقيم في قصر ياناه حتى تمكن المسلمون أخيرا من الاستيلاء على قصر ياناه عاصمة البطريق بعد قتال عنيف وجهد شاق يذكره ابن الأثير حين يتحدث عن فتح قصر ياناه فيقول (١) د في سنة أربع وأربعين ومائتين فتح المسلمون قصر ياناه وهى المدينة التى بها دار الملك بصقلية وكان الملك قبلها بسكن سرقوسة فلما ملك المسلمون بعض الجزيرة نقل الملك إلى قصر ياناه لحصانتها وسبب فتحها أن أبا العباس سار في جيوش المسلمين إلى مدينة قصر ياناه وسرقوسة وسير جيشا في البحر فلقبهم أربعون شلندى للروم فأفتلوا أشد

(١) الكامل لابن الأثير ج ٧ ص ٢١ ، ٢٢ .

قتال فانهزم الروم وأخذ منهم المسلمون عشر شلنديات برجالها وعاد العباس إلى مدينته فلما كان الشتاء سير سرية فبلغت قصر ياناه فتهجروا وخرجوا وعادوا ومعهم رجل كان له عند الروم قدر ومنزلة فأمر العباس بقتله فقال استبقني ولك عندي نصيحة قال ما هي قال أملكك قصر ياناه .

والطريق في ذلك أن القوم في هذا الشتاء وهذه الثلوج آمنون من قصدكم إليهم فهم غير محترسين ترسل معي طائفة من عسكركم حتى أدخلكم المدينة فانتخب العباس ألف فارس انجماد أبطال وصار إلى أن قاربها وكن هناك مستترا وسير عمه رباحا في شجاعتهم فساروا مستخفين في الليل والرومي معهم مقيد بين يدي رباح فأراهم الموضع الذي ينبغي أن يملك منه فنصبوا السلايم وصعدوا الجبل ثم وصلوا إلى سور المدينة قريبا من الصبح والحرس نيام فدخلوا من نحو باب صغير فيه يدخل منه الماء وتلقى فيه الأقدار فدخل المسلمون كلهم فوضعوا السيف في الروم وفتحوا الأبواب وجاء العباس في باقي العسكر فدخلوا المدينة وصلوا الصبح يوم الخميس منتصف شوال وبنى فيها في الحال مسجدا ونصب فيه منبرا وخطب فيه يوم الجمعة وقتل من وجد فيها من المقاتلة وأخذوا ما فيها من بنات البطارقة بحلمين وبنات الملوك وأصابوا فيها ما يعجز الوصف عنه وذل الشرك يومئذ بصقلية ذلا عظيما ولما سمع الروم بذلك أرسل ملكهم بطريقا من القسطنطينية في ثلثمائة شلندي وعسكر كثير فوصلوا إلى سرقروسة نخرج إليهم العباس من المدينة ولاقى الروم وقاتلهم فهزمهم فركبوا في مراكبهم هاربين وغنم المسلمون منهم مائة شلندي وكثر القتل فيهم ولم يصب من المسلمين ذلك اليوم غير ثلاثة نفر بالنشاب وفي سنة ست وأربعين ومائتين نكث كثير من فلاحى صقلية وهي سطر وابل وابلطانوا وقلعة عبد المؤمن وقلعة البلوط وقلعة أبو ثور وغيرها من القلاع نخرج العباس إليهم فلقبهم عساكر الروم فاقتلوا

فانهزم الروم وقتل منهم كثير وسار إلى قلعة عبد المؤمن وقلعة ابلاطنوا فحصرها فانه الخبر بأن كثيرا من عساكر الروم قد وصلت فرحل إليهم فاتقروا بجفلودي وجرى بينهم قتال شديد فانهزمت الروم وعادوا إلى سرقوسة وعاد العباس إلى المدينة وعمر قصر يانه وحصنها وشحنها بالعساكر .

٢ - من سقوط قصر يانه إلى سقوط سرقوسة من سنة ٢٤٤ - ٢٦٤ هـ

بعد فتح قصر يانه أرسل والى صقلية حملاته وسراياه تغير على القلاع والحصون ففتح قلاعا متعددة منها جبل أبي مالك وقلعة الأرمين وقلعة المشاركة وفي جمادى الأولى سنة ٢٤٨ هـ والى الأغالبة خفاجة بن سفيان أميراً على صقلية فتابع حملاته وغزواته وبث سراياه وفي أيامه فتحت مدينة تونس كما شدد حملاته على سرقوسة وافتتح حصونا كثيرة وفي سنة ٢٥٤ (١) بلغه أن بطريقا قد سار من القسطنطينية في جمع كثير فوصل إلى صقلية فلقية بجمع من المسلمين فاقتلوا قتالا شديدا فانهزم الروم وقتل منهم خلق كثير وغنم المسلمون منهم غنائم كثيرة كما والى مناوشاته على سرقوسة فأفسد زرعها ويذكر بن خلدون (٢) فتح جزيرة مالطه سنة خمس وخمسين ومائتين وتغلب الروم على مواضع من جزيرة صقلية .

ثم كان الامتلاء على سرقوسة في سنة أربع وستين ومائتين في الرابع عشر من رمضان وهي من أعظم مدن صقلية وأكثرها حصانة فسار إليها جعفر بن محمد أمير صقلية فأفسد زرعها وزرع قطانيه وطبرمين ودمطه وغيرها من بلاد صقلية التي بيد الروم ونازل سرقوسة وحصرها را وبحرا ومملك بعض أرباضها ووصلت مراكب من الروم نجدة لها فسير إليها

(١) انظر الكامل لابن الأثير البيان المغرب لابن عذاري .

(٢) كتاب العبر لابن خلدون = ٤ ص ٢٠٠

أسطولا فأصابوها وبذلك تمكن من إحكام حصارها وكانت معركة سرقوسة هذه المرة من أعظم المعارك أهمية في قصة النضال الطويل بين العرب والروم فقد بذل الروم كل المحاولات لانقاذها وظل المسلمون يحاصرون المدينة تسعة أشهر ثم سقطت المدينة آخر الأمر وكان سقوطها نهاية محاولات استمرت أكثر من خمسين سنة منذ حملة أسد بن الفرات الأولى وإن استمرت بعض الجيوب تقاوم في المنطقة الشرقية من صقلية^(١)

٣ - من الاستيلاء على سرقوسة إلى سقوط دولة الأغالبية ٢٦٤-٢٩٦ هـ

لم يكن سقوط سرقوسة دليلا على أن الروم قد فقدوا قواتهم البحرية. وأصبحوا عاجزين عن المقاومة وأن المسلمين ملكوا ناصية البحار وإنما ظل الروم محتفظين بقوتهم البحرية يناوشون بها المسلمين أو يردون بها غاراتهم ففي سنة ٢٦٦ كما يقول ابن عذارى^(٢) أغزى صاحب صقلية الروم فالتقى في البحر بمراكبهم وهم في نحو مائة وأربعين مركبا فدارت بينهم حرب شديدة حتى أسس- لم المسلمون مراكبهم وأخذها الروم وانصرف من كان في تلك المراكب إلى بلرم فأقاموا بها شهورا يبشون سرايا ويغنمون أرض الروم المجاورين لهم .

ولكن في سنة ٢٦٨^(٣) ولي على صقلية محمد بن الفضل فبث السرايا في

(١) أنظر أ - الحضارة الإسلامية في بلاد المغرب الأندلسي دحسن أحد

مخود ٥٢ ، ٥٣

ب - الكامل لابن الأثير ج ٧ ص ١١٤

ج - البيان المغرب في أخبار المغرب لابن عذارى ج ١ ص ١١٠

(٢) البيان للمغرب في أخبار المغرب ج ١ ص ١١١

(٣) الكامل لابن الأثير بتصريف ج ٣ ص ١٢٢

كل ناحية من صقلية وخرج في جمع عظيم إلى مدينة قطنانية فأهلك زرعها ثم رحل إلى أصحاب الشلندية فقاتلهم وأكثر القتل فيهم ثم رحل إلى طبرمين فأفسد زرعها كما تلاقى مع جند الروم فهزم الروم وقتل منهم ثلاثة آلاف قتيل وتوجه بعد الواقعة إلى قلعة كان الروم بنوها وسموها مدينة الملك فلما حكمها المسلمون عنوة وقتلوا مقاتليها وسبوا من فيها .

كما أرسل المسلمون سرية سنة ٢٧١ إلى رمطة فخربت وغنمت وسببت وأسرت كثيرا من أهلها كما غزا سواده بن محمد بن خفاجة التميمي قطنانية وطبرمين فأرسل بطريق الروم يطلب الهدنة والمقاداة فهادنه ثلاثة أشهر وفاداه ثلثمائة أسير من المسلمين ورجع سواده إلى بلرم .

ويذكر بن خلدون^(١) أن إبراهيم بن أحمد بعث ابنه أبا العباس عبد الله على صقلية سنة سبع وثمانين ومائتين فوصل إليها في مائة وستين مركباً وحصر طرانة وأحبط فتنة كانت هناك ضد الدولة وفي سنة ٢٨٨ هـ تجهز للغزو فغزا دمشق ثم مسيني ثم جاز في البحر إلى ريو ففتحها عنوة وشحن مراكبه بعنائها ورجع إلى مسيني فهدم سورها وجاء مدد القسطنطينية في المراكب فهزمهم وأخذ لهم ثلاثين مركباً ثم أجاز إلى عدوة الروم وأوقع بهم الفرنجة من وراء البحر ورجع إلى صقلية .

ويستمر ابن خلدون ذاكرة قدوم الأمير إبراهيم بن أحمد من أفريقيا إلى صقلية وأنه نزل طرانية ثم تحول عنها إلى بلرم ثم فتح مسيني وهدم سورها وفتح طرميس آخر شعبان من سنة تسع وثمانين ثم بعث حفيده زيادة الله ابن ابنه أبي العباس عبد الله إلى قلعة بيقش فافتتحها وابنه أبا محرز

(١) كتاب الأمير لابن خلدون ج ٤ ص ٢٠٠

إلى رمطة فأعطوه الجزية ثم عبر إلى عدوة البحر وسار في بر الفرنج ودخل فلورية عنوة وقتل وسبي ورهب منه الفريجة ثم رجع إلى صقلية وسار إلى كنيسة فحاصرها واستأمنوا إليه فلم يقبل ثم هلك وهو محاصر لها ، وفي سنة ٢٩٠ هـ سقطت طبرن آخر الحصون الساحلية الهامة في جزيرة صقلية . يتم للأغالبة السيادة التامة على تلك الجزيرة العظمى بعد أن استغرق فتحها نحو من مائة سنة كانت صفحة حافلة بالأعمال الجليلة التي قام بها الأسطول الإسلامي في غرب البحر المتوسط

وهكذا ظل الأغالبة يكافحون لبسط نفوذهم على صقلية إلى أن سقطت دولتهم وما زال هناك بعض الجيوب يقاوم في المنطقة الشرقية حتى عام ٣٥١ هـ (١) .

ومع ذلك فلا يمكن الفتح موجها إلى صقلية وحدها بل تعداها إلى غيرها من الجزر والشواطئ الأوربية الغربية يقول د غستاف لويون (٢) ولم يقتصر العرب في أثناء مقاتلتهم للروم على غزو صقلية فقد استولوا على جنوب إيطاليا وبلغوا في تقدمهم ضواحي رومة وحرقوا كنيسة القديس بطرس وكنيسة القديس بولس اللتين كانتا قائمتين خارج أسوار رومة ولم يرجعوا عنها إلا بعد أن وعدهم البابا يوحنا الثامن بدفع جزية لهم وقد استولوا على مدينة برند بزي الواقعة على شاطئ البحر الإدرياتي ومدينة نارانت وأغاروا على دوكية بليغنت وقد صاروا يفتحهم صقلية وأهم جزر إيطاليا وكورسيكا وكندية ومالطة وجميع جزر البحر الأبيض المتوسط سادة البحر المطلقين ولم يسع البندقية إزاء ذلك إلا أن تعدل عن محاربتهم .

(١) الحضارة الإسلامية في بلاد المغرب والأندلس د حسن أحمد محمود ص ٢٥٠

(٢) حضارة العرب د غستاف لويون ص ٣٢٤ - ٣٢٥

نتائج فتح صقلية

ويعتبر فتح صقلية من المعالم الهامة في تاريخ البحرية الإسلامية فإن سيطرة الأغالبة عليها جعل مفتاح حوض البحر المتوسط الغربي في أيديهم وصار الأسطول الإسلامي ينعم بقاعدة هامة جعلت له السيادة في البحر التيراني الذي تطل عليه إيطاليا وقد تدخل أسطول الأغالبة فعلا في شئون البلاد الإيطالية بعد أن سيطر على الشطر الأعظم من جزيرة صقلية ذلك أنه بعد سقوط بلرم بمدة قليلة صار أمراء البحار الأغالبة يتدخلون في المنازعات المحلية التي قامت بين القوى المتنافسة في جنوب إيطاليا ولا سيما في الإيمام الجنوبي الغربي المعروف باسم قلورية .

ومن أمثلة تدخل الأغالبة البحري في شئون إيطاليا ما حدث سنة ٨٣٧ م حين استنجدت نابل وهي (نابلي) بالقوات الإسلامية في صقلية ضد جيراسا المعادين لها إذ شجع هذا النزاع المحلي الأغالبة على إرسال أساطيلهم للاغارة على سائر شواطئ إيطاليا شمالي نابل وبعد عدة سنوات من دخول الأغالبة نابل وقف أسطولهم أمام أوستيا ميناء روما على حين اقتحمت قواته البرية أسوار تلك المدينة الرومانية العتيقة وتكرر هجوم أسطول الأغالبة على تلك الميناء الهامة حتى أن البابا يوحنا الثامن ٨٧٢ - ٨٨٢ م رأى إنقاذ روما بدفع الجزية مدة عامين للأغالبة .

ودخل أسطول الأغالبة كذلك البحر الإدراتي واستولى على مدينه بارا (أي باري الآن) سنة ٨٤١ م واتخذها قاعدة له مدة ثلاثين عاما وكانت تلك المدينة ذات موقع هام في شبه جزيرة إيطاليا وتعتبر منفذها الرئيسي للاتصال بشرق البحر المتوسط وكان أهالي إيطاليا وتجارها يقدون على باري

في طريقهم إلى اليونان أو آسيا الصغرى وكذلك الذهاب إلى إقليم الشام طلباً للحج في فلسطين حيث الأماكن المسيحية المقدسة .

وتعتبر الحقيقة السالفة مثالا لسمو رجال البحرية الإسلامية في تلك الفترة الحاسمة من نشاطهم ذلك أن أفراد البحار المسلمين سمحوا للمسيحيين بركوب البحر المتوسط في سفنهم لأداء فريضة الحج إلى بيت المقدس وكان الطريق البحري إذ ذاك يبدأ من باري إلى صقلية ومنها إلى مصر حيث يتابع الحجاج بعد ذلك برأ إلى فلسطين وقد خلف لنا أحد الحجاج المسيحيين وهو برنارد رشيد صورة عن ذلك الطريق البحري منذ خروجه من مدينة باري قادماً للحج إلى بيت المقدس وعن التسهيلات التي قدمها البحرية الإسلامية للحجاج المسيحيين :

ولم يقف نشاط الأسطول الأغلبي عند جنوب إيطاليا فحسب وإنما اتجهت سفنه إلى تدعيم أقدام المسلمين في بعض جزر البحر المتوسط التوسيطي لسفن الإسلامية الاكتفاء بالإغارة عليها سريعاً والعودة بعد ذلك إلى قواعدها سواء في مصر أو الشام ومن ذلك فتح الأسطول الأغلبي لجزيرة مالطة التي تتمتع بموقع استراتيجي عظيم في الخوض الأوسط للبحر المتوسط وساعد الأغالبة على تحقيق هذا الهدف الهام إقتراب قواعدهم البحرية من مالطة ولا سيما بعد فتحهم لجزيرة صقلية .

ويعتبر الأغالبة بذلك أصحاب سياسة بحرية ثابتة الأركان تهدف إلى الاستيلاء على الجزر ذات المواقع الاستراتيجية في البحر المتوسط والتي تتحكم في ممرات مياهه وكان وضع دولتهم الجغرافي يساعدهم على إدراك أهمية تلك الجزر الصغيرة التي امتلأت بها مياه البحر المتوسط والتي تعد مفتاح السيطرة على جبهة الوسطى والقرية ومن ذلك أن جزيرة مالطة ما تزال إلى اليوم تحتفظ بمكانتها الاستراتيجية وأهميتها الحربية .

وقد اتسمت أعمال الأغالبة إزاء جزر البحر المتوسط التي خضعت لهم. بالتمير ونشر أسباب الرقضية بين سكانها ذلك أن بعض تلك الجزر كانت نائمة أو صغيرة ويميش أهلها عيشة متواضعة بسبب قلة إصكانيتهم الاقتصادية فعمد الأغالبة إلى نقلهم السكان من تونس إلى تلك الجزر مثل جزيرة فوحرة ومالطة وتركوا آثاراً إسلامية كثيرة بها مازالت مظاهرها ملموسة إلى اليوم في لغة أهالي تلك الجزر وعاداتهم (١).

كما فتحت الجزيرة أمام هجرة واسعة من جميع الشعوب الساكنة في الامبراطورية الإسلامية من عرب عدنانيين وقحطانيين وخراسانيين وفرس ودخل الجزيرة جماعات كبيرة من البربر سكنوا التواحي الشمالية من مازر وكانت مدينة جرنجت عاصمة للجماعات البربرية (المغربية) ذكر الراهب بتودوسيوس في حديثه عن بلرم أنها كانت حافلة بالناس من أهلها والغرباء حتى كأنه قد اجتمع فيها كل المسلمين من شرق إلى غرب ومن شمال إلى جنوب وبين أهلها من صقلية وإفريق ولبارديين ويهود تری الغربي والبربري والقبازسي والتتاري والونجي (٢)

وهكذا يتبين لنا بعد أن عرضنا لجهود هذه الدولة في توسيع رقعتها في جزر البحر المتوسط أن هذا الفتح لم يتم في معركة واحدة أو في عام واحد أو عشرة أعوام وإنما تولى الحرب متصلة منذ استقر جند المسلمين في صقلية بقيادة أسد بن الفرات ووطأتها أقدامهم بقصد الاستيلاء عليها ثم استمر الحرب والقتال طيلة مدة حكم دولة الأغالبة ونرى الحملات تتتابع

(١) قوات البحرية العربية لإبراهيم اللعدي ص ٩٠ - ٩٥

(٢) الحضارة الإسلامية في بلاد المغرب والأندلس د. حسن أحمد محمود

واحدة بعد الأخرى سواء من أفريقيا أو من الجند المقيم في جزيرة صقلية وهذا يوضح لنا المشقة التي بذلها الأغالبة لكي يسيطروا نفوذهم على هذه الجزيرة ويحتفظوا بالبقاء فيها ثابتي الأقدام ويبدشوا الحضارة الإسلامية وينشروا تعاليمها التي ما زال بعض تأثيرها إلى الآن .

٤ — علاقتها بجيرانها وسقوطها

كان ميلاد دولة الأغالبة ميلاً شريعياً صدر به مرسوم من الخلافة في بغداد وقد سبق أن بينا أن دولة الأغالبة كانت تعتبر نهاية الحدود من الغرب بالنسبة للبلاد التابعة للخلافة العباسية في المغرب بعد أن انفصلت الأندلس وقام فيها الأمويين والمغرب الأقصى وقام فسيه الأداة والروستميون أما الشمال ففيه الروم في صقلية والشمال الغربي فيه الأمويون في الأندلس .

أما جيرانها من الشرق عند قيامها فكانت مصر وهي ولاية تابعة للخلافة قبل أن يستقل بها أحمد بن طولون وفي الجنوب كانت الصحراء الكبرى حيث لا خطر منها ولا علاقة تقوم بالنسبة لها .

وقد بينا أن من أسباب قيام دولة الأغالبة أن تكون سياجا لحماية دولة الخلافة ومعنى ذلك أن ترد كيبس من أراد أن يقطع جزءاً من كيانها وتحاول بسط سلطانها على هذه الأجزاء المنفصلة فإن عجزت عن ذلك فلا أقل من أن تحافظ على كيانها هي على أسوأ الفروض .

جيرانها من الغرب والشمال :

ولذلك نرى إبراهيم بن الأغلبي مؤسس الدولة يحاول أن يسط نفوذه من ناحية الغرب ويعمل على أن يقوض دولة الإدارة ويضعها إلى دولته

ويتخذ إلى ذلك كل الأسباب التي يستطيع بها أن يضعفها لكي يستولي عليها
فيرسل إلى وجوهها الاموال والهدايا لكي يميلوا إليه كما يلجأ إلى طريقة
الاغتيالات عندما لا تجدى الاموال وقد حاول أن يمتشق الحسام ويحارب
الادارسة ولكن اصحاب ابراهيم مؤسس الدولة نصحوه الى بالعدول عن
رأيه وقالوا له اتركه ماتركك كما أن ادريس كتب إليه يستعطفه ويسأله أن
يعدل عن مناصبته العداة وتفريق انصاره ويذكر له قرابته من الرسول ﷺ
فكف عنه (١).

يقول ابن خلدون (٢) ثم صرف ابراهيم بن الاغلب همه إلى تمهيد
المغرب الاقصى وقد ظهر فيه دعوة العلوية بادريس بن عبد الله وتوفى فنصب
البن ابرة ابنه الاصغر وقام مولاه راشد بكفالتة وكبر ادريس واستفحل
أمره براشد فلم يزل ابراهيم يدس إلى البربر ويسرب فيهم الاموال حتى قتل
راشد وسبق رأسه إليه ثم قام بأمر ادريس بعده مهلول بن الرحمن المظفر
من رؤس البربر فاستفحل أمره فلم يزل ابراهيم يتلطفه . ويستميله بالكتب
والهدايا إلى أن انحرف عن دعوة الادارسة إلى دعوة العباسية فصالحه (أي
ابن الاغلب) ادريس وكتب إليه يستعطفه بقرابته من رسول الله ﷺ
فكف عنه .

وكانت علاقة الدولة بالرستميين في تاهرت وبالامويين في الاندلس
علاقة عداة وصلت إلى حد الاغارة على املاكها وتخريب مدنها .
يقول دكتور السيد محمود (٣) ثم توفى عبد الرحمن بن رستم بتاهرت

(١) تاريخ الإسلام السياسي د حسن ابراهيم حسن ج ٢ ص ١٧٩ .

(٢) الامبر لابن خلدون ج ٤ ص ٢٠٣ .

(٣) المغرب الاسلامي . السيد محمود عبد العزيز سالم ص ٩١

في سنة ثمان ومائتين فبويغ ابنه ميمون أبو سعيد أفاح بالإمامة من بعدهم فتابع سياسة أبيه وكان لا يقل دهاء عنه فصادق الأمير عبد الرحمن الأوسط بالأندلس لاشتراكهما في معاداة العباسيين والأغالبة فحرب مدينة العباسية وكافأه أمير الأندلس على ذلك

وإن كنا مع ذلك نذكر مساعدة أسطول الأندلس للأغالبة في فتح صقلية وفك الحصار عن المسلمين هناك كما سبق أن ذكرنا في فتح صقلية .

وقد كانت هناك علاقة لأعداء فيها مع شاملان في بلاد الغال يذكر الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب^(١) أن إبراهيم بن الأغب استقبل سفراء شاملان في العباسية حاضرة ولايته ويظهر أن إبراهيم قد علت منزلته واشتهرت ولايته حتى إن شاملان لجأ إليه مباشرة دون الرجوع إلى الخليفة العباسي .

أما صقلية وإيطاليا أو الروم فقد كانت الحرب مستمرة بينهما منذ الإغارة على شمال أفريقية كما ذكرنا في فتوحات دولة الأغالبة .

جيرانها من الشرق

في أثناء حكم الأغالبة قامت دولة الطولونيين في مصر ولكنها كانت تخضع للخلافة العباسية وتقر بسطانها وتدفع لها قدراً من المال وهي في ذلك تشبه دولة الأغالبة ويفهم من ذلك ألا تقوم بينهما عداوة أو خصومة ولكن الخصومة والحرب جاءت عفواً وبدون تخطيط من أحمد بن طولون

(١) خلاصة تاريخ تونس حسنى عبد الوهاب ص ٦٩

نفسه ، ففي سنة ٢٦٥ هـ خرج أحمد بن طولون إلى الشام واستخلف ابنه العباس على مصر فلما أبعد أبوه عن مصر حسن للعباس جماعة كانوا عنده أخذ الأموال والأموال والذهاب إلى برقة ففعل وبلغ الخبر أباه فعاد إلى مصر وأرسل إلى ابنه ولاطفه واستعطفه فلم يرجع إليه وخاف من معه فأشاروا عليه بقصد أفريقية فساد إليها وكانت وجوه البربر فأتاه بعضهم وكتب إلى إبراهيم بن الأغلبي يقول أن أمير المؤمنين قد قلدني أمر أفريقية وأمر أعمالها (٢)

وهكذا يخرج العباس على أبيه ثم يحاول أن يمويه على ابن الأغلبي بأن أمير المؤمنين ولاء أفريقية وهذه السهولة يظن أن الأغلبي سيعتدون له حكم أفريقية كما يذكر ابن الأثير في روايته بدون أن تنشب الحرب حمايه الدولة وتترك ابن دنانير يروي هذه المقامرة عن العباس بن أحمد بن طولون يقول (٣) .

وفي سنة ٢٦٧ كانت فتنة ولد ابن طولون حين أراد التغلب على أفريقية وها أنا أذكر قصته إلى أن هزم وذلك أن العباس بن أحمد بن طولون ولد صاحب مصر قدم في هذه السنة في ثمانمائة فارس وعشرة آلاف رجل من سودان أبيه على خمسة آلاف رجل إلى مدينة برقة في ربيع الآخر يريد أفريقية والتغلب عليها وإخراج بني الأغلبي منها وحمل مع نفسه من بيت مال مصر ثمانمائة حمل دنانير ذهباً فأعطى أصحابه الأرزاق بها وقيل أن مبلغ ما حمل من المال ألف دينار ومائتي ألف دينار ومعه أبو عبد الله أحمد بن محمد الكاتب مكبلاً لأنه أظهر الامتناع عن الخروج معه وكان أشار عليه بأن يؤخر التقدم إلى طرابلس حتى يصانع البربر فقال أخشى

(١) انظر الكامل لابن الأثير ج ٧ ص ١١٥ ، ١١٦

(٢) البيان المغرب في أخبار المغرب ج ١ ص ١١١

أن تقدم العساكر من الشام قبل احكام هذا الأمر يعني عساكر أبيه لأنه كان ثائراً على أبيه ويكون أيضاً في ذلك فسحة لإبراهيم بن أحمد فيتمهل في الاستعداد ولكن أمضى على فوري هذا فأتى لينة وطرابلس فجأة ثم أخذ في استعماله الجبر بعد ذلك بالمطاء والأفضال وأبعد من مصر فلا يقوم لأحمد بن طولون يعني أباه أمل في مطالبتي لبعدي عنه وخرج يريد لينة فاتصل خبره بإبراهيم بن أحمد فأخرج إليه أحمد بن قهر بن ألف وستمائة فارس خيلاً مجردة لا رجل فيها بأعداد السير والسرى بالليل حتى دخل أطرابلس قبل وصول العباس بن أحمد ابن طولون إلى لينة ثم حشد بن قهر بن ألف من أممكته من جنود أطرابلس وبربرها ثم يلد إلى لينة ودخلها وأقبل العباس بن طولون فوضع له ببرقة خمسة آلاف بند فحمل له على كل حمل راجلاً بينده وزحف بثمانمائة فارس وخمسة آلاف راجل فالتقى به أحمد بن قهر بن ألف على خمسة عشر ميلاً من لينة وقد تأخرت الجمال بالرجال أصحاب البنود فلم يكن بينهم إلا مناوشة يسيرة حتى انهزم أحمد بن قهر بن ألف وهو يظن أن من ناوشة القتال من أصحاب بن طولون كانوا مقدمة للجيش ووصل أحمد بن قهر بن ألف إلى طرابلس منهزماً وركب العباس بن أحمد بن طولون أثره حتى نزل طرابلس ونصب عليها المجانيق وناصرهم الحرب وأقام محاصراً لهم ثلاثة وأربعين يوماً فتعدى سودانه على بعض حرم البوادي وهتكوا الحج فاستغاث أهل طرابلس بأبي منصور صاحب نفوسة فقام محتسباً وناصر جيرانه المسلمين وزحف في إحدى عشر ألفاً من نفوسة إلى العباس بن أحمد بن طولون فناصره الحرب وألح أهل نفوسة في محاربة بن طولون فانهمزم وخرج إلى برقة بعد انتهاب أهل طرابلس لجميع عسكره .

وهكذا انتهت هذه المغامرة بالفشل وحفظت حدود دولة الأغالبة من

المشرق .

والسكن يذكر بن خلدون أن إبراهيم - أي بن الأغلب - أراد أن يغير على ابن طولون في مصر في سنة ٣٨٣ هـ وكأنه أراد أن يرد على جراءة ابنه وإن كان لم يوفق في حملته أيضاً يقول (١) ثم تحرك إبراهيم بن أحمد أخو أبي الغرائيق إلى مصر سنة ثلاث وثمانين لمخاربة ابن طولون واعترضته نفوسه فهنهم وأنحن فيهم ثم التهي إلى مروت فانفضت عنه الحشود فرجع .

سقوط دولة الأغالبة

إن عوامل الفناء لأي بنية حية إنما يكون بأحد سببين سبب داخلي أو سبب خارجي أو هما معاً يتعاوننا فيقتضيان على الحياة لأي كائن حي .
ودولة الأغالبة إجتمع عليها العاملان الداخلي والخارجي قاديا إلى سقوطها .

(١) الأسباب الداخلية :

عندما نبحث عن الأسباب الداخلية التي أدت إلى انهيار هذه الدولة وكانت من العوامل التي أدت إلى زوالها نستطيع أن نرجعها إلى ثلاثة عوامل .

١ - قتل أنصار الدولة والمدافعين عنها ضد أعدائها .

٢ - قتل أعضاء الأسرة الحاكمة .

٣ - الميل إلى اللغو والفساد وإهمال شئون الدولة .

وربما ينفرد ابن عذاري عن بقية المؤرخين القدامى في الحديث بإسباب وضرت الأمثال عن هذه الأمور .

(١) كتاب العبر لابن خلدون ج ٤ ص ٢٠٣ .

١ - قتل انصار الدولة :

فمما يتحدث عن قتل انصار الدولة فيقول^(١) « في سنة ٢٨٠ كان الإيقاع
برجال بلزمة وقصتهم أن إبراهيم بن أحمد بن الأغلب كان قد حاربهم واستقدم
منهم إلى مدينة رقادة نحوًا من سبعمائة رجل من أبطالهم فانزلهم ووسع
وبذل لهم دارا كبيرا تشتمل على دور ترجع إلى باب واحد واسكنهم فيها
فلما سكنوا واضمأنوا جمع ثقاته رجاله لأخذ أرزاقهم ثم أمرهم بمصاحبة ابنه
عبد الله لما أمره به فلما اجتمعوا إليه ركب إلى دار البلزميين في الجند فقتلهم
عن آخرهم بعد أن دافعوا عن أنفسهم إلى وقت العصر وكان ذلك من أسباب
انقطاع دولة بني الأغلب إذ كان أهل بلزمة نحو ألف رجل من أبناء العرب
والجند الداخلين إلى أفريقية عند افتتاحها وبعده وكان أكثرهم من قيس
وكانوا يدبون كتامة فلما قتلهم إبراهيم استطالت كتامة ووجدت السبيل
للقيام مع الشيعي على بني الأغلب .

٢ - قتل أعضاء الأسرة الحاكمة :

رغم ما يرويه ابن الأثير عن كفاح إبراهيم بن الأغلب الثاني ودفاعه
عن الدولة إلى أن ذهب بنفسه إلى صقلية ومات وهو يجاهد في سبيل الله
إلا أن ابن عذارى يروي عنه أفعالا فيها كثير من الغرابة من قتل أصحابه
وحجابه ثم تعداهم إلى قتل إخوته وبناته وأحد ابناته يقول^(٢) « وبعد سنة
أعوام من ولاية إبراهيم بن الأغلب (الثاني) تغيرت أحواله وأخذ في جمع
الأموال ثم هو في كل سنة يزداد تغيرا وسوء حال ثم اشتد زكوره فأخذ

(١) البيان المغرب في أخبار المغرب لابن عذارى ج ١ ص ١١٦

(٢) البيان المغرب في أخبار المغرب لابن عذارى ج ١ ص ١٢٦ يتصرف

في قتل أصحابه وحجابه حتى قتل ابنه المسكني باني الأغب و قتل بناته
وأتى بأور لم يأتها أحد غيره وكان كثير المال شديد الحسد غلب عليه خلط
سوداوى فتغير وسمات اخلاقه قيل انه افتقد مندبلا صغيرا كان يسمح به فمه
وكان سقط من يد بعض جواريه فاصابه خادم له فقتل بسببه ثلاثمائة خادم
وكان سبب قتله لولده ظنا منه به فضربت عنقه بين يديه و قتل اخوته ثمانية
ضربت أعناقهم بين يديه وكانت أمه إذا ولدت له ابنة أخفها وربتها اثلا
يقتلها حتى اجتمع عندها ممنعت ست عشرة جارية كأنهن البدور فقالت
له يوما وقد رأت منه رقة ياسيدي قد ربيت لك وصانف ملاحا وأحب أن
تراهن قال نعم فلما رآهن قالت له هذه بنتك من فلانة وهذه بنتك من فلانة
حتى عدتهن فلما خرج من عند أمه قال لخادم له أمض اليهن وحنى رؤوسهن
فوقف استعظاما لذلك فقال له أمض وإلا قدمتك قبلهن فلما دخل على أمه
كبر ذلك عليها وعظم في قلبها وقالت له راجعه فقال لها لاسبيل إلى ذلك
فقتلن وأخذ رؤوسهن وجاء بها إليه معلقة بشعورهن فطرحها بين يديه
وأدخل كثيرا من فتيانه الحمام وأغلق عليهم باب البيت السخن فاتوا جميعا
واخباره كثيرة في هذا المعنى ذكرها الرقيق وغيره .

وقد سار على هذا المنوال حفيده زيادة الله آخر امراء الأغالبة فقد
عمل على قتل أبيه وتولى الحكم بعده . وجمع أعمامه ووجوه الناس والجنود
وأخذ عليهم البيعة وأعطاهم الصلات ومطل عمومة ثم كبلهم أجمعين وأدخلهم
في شبنى ووكل بهم ثقاته وأمرهم أن يمشوا بهم إلى جزيرة السكرات وهى
على اثني عشر ميلا من مدينة تونس فضربت هناك رقابهم وقتل أيضا عمه
أبا الأغب الزاهد لما كن بسوسة وقتل أخاه أبا عبد الله الأحول بعد أن
استقدمه من طينة^(١).

(١) انظر (أ) البيان المغرب في اخبار المغرب لابن عذارى ج ١ ص ١٢٨ =

٣ - الميل إلى اللهو والفساد وإهمال شئون الدولة:

يؤن شاسع بين إبراهيم بن الأغلِب مؤسس الدولة وبين زيادة الله الثالث آخر أمراء دولة الأغالبة فالأول حازم عاقل حكيم ذا علم بأمور الدنيا والدين خبير بالسيف والقلم بينما الثاني عابث لاه غافل عن شئون أمارته وأحوال رعيتة غارق في لذاته وشهوته فكان ذلك من بعض الأسباب في نزع الملك منه .

يقول ابن عذارى في ميله إلى اللهو والشراب والكلف بالفلمان وفي سنة ٢٩٤ بنى زيادة الله سور مدينة رقادة بالطوب والطوايى والتزم التنزه على البحر وغبره واتباع اللذات ومنادمة العيارين والشطارد والزمامرة والطراطين وكان إذا فكر في زوال ملكه وغاية عدوه على أكثر مواضع عمله يقول لندمائه أملاً واستقى واشتد كلفه بغلام يدعى خطاب فمكتب اسمه في سكة الدنانير والدراهم ثم وجد عليه خبسه وقيده فغنت له جارية تستعطفه على خطاب .

يا أيها الملك الميمون طأره رفقاً فإن يد المعشوق فوق يدك
كم ذا التجلد والأحشاء خافقة اعيدك فك أن تسطو على كبدك

فرضى عن خطاب وإعاده إلى منزلته :

وهكذا نرى هذه العوامل الداخلية الثلاثة قد تضافرت على الدولة حتى تخرت عظامها وعملت على ضعفها ثم سقطت .

(ب) الأسباب الخارجية :

استطاعت دولة الأغالبة أن تقف في وجه الإدارة والأمويين

== (ب) المؤنس في أخبار أفريقية وتونس لابن أبي ديار ص ٥٠

(ج) الكامل لابن الأثير ج ٨ ص ٧

والرستميين وأن ترد حملة الطولونيين وتمكن من قطع دابر الروم بل استوات على صقلية منهم .

ولسكنها مع وقوفها في وجه الأدارسة لم تستطع أن تمنع الدعوة الشيعية من أن تتسرب إلى داخل الدولة وأن تتمكن أخيرا من محاربتها واسقاطها والاستيلاء عليها .

فقد ظهر أبو عبد الله الشيعي بكتامة يدعو للرضا من آل محمد وببطن الدعوة لعبيد الله المهدي من أبناء اسماعيل الأمام واتبعته كتامة فنظمهم عسكريا وزحف بهم على أفريقية واستولى على مدنها الواحدة بعد الأخرى إلى أن حلت الهزيمة الكبرى على الجيش الأغلبى وصفا للجو للداعي فاستولى على القيروان ثم استولى على بقية أفريقية .

وكان وصول عبد الله الشيعي إلى أفريقية في أيام إبراهيم ابن أحمد (إبراهيم الثاني) ، يقول ابن خلدون (١) وبعث إبراهيم رسوله إلى الشيعي بانكحان يهدده ويحذره فلم يقبل واجابه بما يكره .

ويقول د / حسن إبراهيم : إن إبراهيم حاول أن يجذب الشيعي إليه أول الأمر وأرسل إليه رسالة يعده ويتوعده فيها فلم يجبه أبو عبد الله إلى ما طلب ورد عليه بكتاب يدل على جرأته واستصغازه شأن الأغالبة ومن ثم أخذ الأغالبة يرسلون حملاتهم لمحاربة الاسماعيلية وكانت أولى هذه الحملات في سنة ٢٨٧ هـ أي قبل وفاة إبراهيم الأغلبى بسنتين وكان النصر فيها حليف أبي عبد الله ولكن إبراهيم الأغلبى عول على مواصلة القتال فأرسل جيشا آخر لكنه لم يلبث أن حلت به الهزيمة (٢) .

(١) كتاب العبر لابن خلدون ج ٤ ص ٢٠٤

(٢) انظر تاريخ الدولة الفاطمية د / حسن إبراهيم ص ٥٠ .

ولما ولي زيادة الله وأخذ في قتل أعمامه وأخوته اشتدت شوكة أبي
عبدالله الشيعي وقوى أمره وأخذ زيادة الله يرسل الحملات فتبوء بالهزيمة
أمام أبي عبدالله الذي انتزع منه البلاد واحدة بعد أخرى ففي سنة ٢٩٢ هـ
أرسل زيادة الله جيشا بقيادة إبراهيم بن حبشى فالتقى بجيش عبدالله بكمبوتة
فكانت بينهما وقعة عظيمة فانهزم إبراهيم ووقع في القتل أصحابه فذهب
كثير منهم وتجا الباقى فى ظلمة الليل واشتغلت عنهم كتابة بالغنيمة وبالادوال
والسلاح والسروج واللجم وضروب الأمتعة وهى أول غنيمة أصابها الشيعي
فكثرت عندهم السلاح وقويت روحهم المعنوية وتحققت آمالهم وادى ذلك
إلى ضعف الروح المعنوية بين جند زيادة الله .

وجوز زيادة الله بعد ذلك جيشا يتكون من أربعين ألفا انتهى إلى
قسطنطينة فأقام بها ولسكن عبدالله الشيعي تمكن من التغلب عليه واستولى
على طبنة ومدينة ينجيت وشاع عن الشيعي وفاؤه بالأمان فأتمته الناس
وكثر الأرجاف بزيادة الله فجوز زيادة الله جيشا آخر سار إلى الأربس بقيادة
إبراهيم بن أبي الأغب سنة ٢٩٦ هـ فزحف إليه عبدالله الشيعي فى مائى
ألف من العساكر فاقتتلوا أياما فانهزم إبراهيم وفر إلى القيروان ودخل
الشيعي الأربس فاستباحها^(١) فلما رأى زيادة الله تتابع الهزائم على جيوشه
استعد للخروج من رقاده وجمع ماخف من الجواهر والمال وحرك خاصته
للخروج معه فلما كان وقت صلاة العتمة من ليلة الإثنين لأربع بقيت من
جمادى الآخرة ركب فرسه وتقلد سيفه وقدم الجمال تمر بين يديه وخرج
متوجها إلى مصر وأغذ السير حتى وصل إلى طرابلس ونابغ السير إلى مصر .

(١) أنظر (أ) كتاب العبر لابن خلدون - ٤ ص ٣٥

(ب) الكامل لابن الأثير - ٨ - ١٥

(ج) البيان المغرب لابن عدارى - ١ - ١٤٢

وأصبح الناس من ليلة خروج زيادة الله هاربا من رقادة فانتبهوها وأخذوا من بقايا أموال بني الأغلب ومتاعهم وصنوف الآنية من الذهب والفضة .

محاولة لإنقاذ الدولة :

ولما وصل إلى القيروان إبراهيم بن الأغلب المنهزم من الأربس ومن بقي معه من القواد نزل بدار الإمارة وبعث في وجوه الناس وجعل يظهر لهم تقصير زيادة الله وإهماله في إسناد شئون المسلمين إلى من كان يسمى في زوال ملكه وبين لهم فساد كتامة وأبي عبدالله وطلب منهم أن يمدوه بالرجال والمال حتى يتمكن من رد كتامة والتغلب على أبي عبدالله الشيعي وحضر صلاة الظهر فسلم على رأسه بالإمارة فاجتمع إليه الناس وقالوا له بلدنا لا يعرف الفتن ونحن لانقوم بالحرب وأنت لم تستطع دفع كتامة بالمساكر والسلاح والمال فكيف نقوى نحن على دفعهم بأموال الرعية ثم صاح الناس به لاطاعة لك علينا ولا تبعه في أعناقنا فأخرج عنا فركب فرسة وشهر سيفه ودفعت الفرس ونجا هاربا ولحق بزيادة الله .

استيلاء أبي عبدالله الشيعي على رقادة والقيروان

وبلغ هروب زيادة الله أبا عبدالله الشيعي فتحرك من الأربس يريد القيروان وقدم بين يديه غروية بن يوسف وحسن بن أبي خنزير في ألف فارس إلى رقادة فوجدوا الناس ينهبون ما بقى من الأمتعة والأثاث فأمنوهم ولم يتعرضوا لأحد وتركوا لكل واحد ماحله فأتى الناس إلى القيروان فأخبروهم بالخبر ووصل أبو عبدالله يوم السبت غرة رجب فخرج إليه أهل القيروان من الفقهاء والوجوه وجملة التجار فالتقوا به على ساقية عس وسلوا عليه وأظهروا له الرغبة في دولته وسألوه الأمان فأمنهم وصوب فعلمهم ووعد بالإحسان والمعدل فيهم وكان قد وعد قبل ذلك قواد كتامة

ورجالها بأن يوكلهم القيروان ويبسط أيديهم فيها ويقطعهم جميع أموال أهلها فلما سمعوا بأمنته للقوم ساءهم ذلك وكلوه فيه وذكروا ما كان وعدهم به فتلا عليهم ، وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط بها^(١) ، وقال لهم هي القيروان فقبلوا قوله وسلموا لأمره تم تقدم بإزالة عساكره حول مدينة رقادة ودخلها وقارىء يقرأ بين يديه هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر . ويقرأ ، كم تركوا من جنات وهيون^(٢) ، إلى آخر السورة ونزل بالقصر المعروف بقصر الصحن .

وفرق دورها على كتامة ولم يكن بقي أحد من أهلها فيها وأمر فنودى بالأمان فرجع الناس إلى أوطانهم وأخرج العمال إلى البلاد وطلب أهل الشر فقتلهم وأمر أن يجمع ما كان لزيادة الله من الأموال والسلاح وغير ذلك فاجتمع كثير منه وفيه كثير من الجوارى لمن مقدار وحظ من الجمال فسأل عن يكفلمن فذكر له امرأة صالحة كانت لزيادة الله فأحضرها وأحسن إليها وأمرها بحفظهن وأمر لمن بما يصلحهن ولم ينظر إلى واحدة منهن ولما حضرت الجمعة أمر الخطباء بالقيروان ورقادة فخطبوا ولم يذكروا واحدا وأمر بضرب السكة وأن لا ينقش عليها اسم واسكنه جعل مكان الاسم من وجهه ، بلغت حجة الله ، ومن الوجه الآخر ، تفرق أعداء الله ، ونقش على السلاح ، عدة فى سبيل الله ، ووسم الخيل على اتخاذها ، الملك لله ، وأقام على ما كان عليه من لبس الدون الحشن والقليل من الطعام الغليظ^(٣) .

أما زيادة الله فوصل إلى مصر ومها التوشرى عاملا عليها وكتب إلى

(١) سورة العنق آية ٢١

(٢) سورة المدخان آية ٢٥ الخ

(٣) أنظر (أ) السكامل لابن الأثير ج ٨ ص ١٦١٤ .

(ب) البيان المغرب لابن عذارى ج ١ ص ١٤٢ - ١٤٦ بنصرف .

المقتدر يخبره بزيادة الله ثم سار زيادة الله إلى أن بلغ الرقة فوافاه كتاب أمير المؤمنين يأمره بالعودة إلى بلاده لقتال الشيعي ويأمر عامله على مصر أن يمهده بما يحتاج إليه من المال والرجال ، فرجع إلى مصر فمأطله العامل بها طال وزيادة الله في أثناء ذلك منعكف على لذاته واستماع الملاهي وشرب الخمر فلما مقامه تفرق جمعه وتخلي عنه أصحابه وتتابعت عليه الأمراض فتوجه إلى بيت المقدس لقصد الإقامة بها فمات بالرمة ودفن بها ولم يبق بالمغرب من بني الأغلب أحد وكانت فترة ملكهم مائة واثنى عشرة سنة تقريباً^(١) .

وهكذا انتهت دون الأغالبة بسبب تفريط أواخر حكامها وميلهم إلى اللهو والفساد وقتلهم لأنصارهم وأقاربهم وإهمالهم في المحافظة على شئون الدولة ولم يقدمهم أثناء كفاحهم مع أبي عبد الله الشيعي تأييد العباسيين بالقول لهم شيئاً فقد ورد كتاب المكتفي بالله يحث أهل أفريقيا على نصرة زيادة الله ومحاربة الشيعي وقرىء كتابه على الناس^(٢) لأن الناس قد كرهوا أسرة الأغالبة لسوء فعال حكامهم في نهاية أيامهم وعدم معاملتهم الرعية معاملة حسنة ولذلك لم تتحرك الرعية للدفاع عن الأغالبة أو تأييد إبراهيم عندما حاول أن يتولى الأمر بعد زيادة الله ويقوم بحفظ الدولة والدفاع عنها .

(١) المؤلف في أخبار أفريقية نوانس لابن أبي دينار ص ٥٠ .

(٢) البيان المغرب لابن عذارى .

الفصل الرابع فتح الأندلس

حالة الأندلس قبل الفتح الإسلامي :

كانت الأندلس التي تشمل شبه جزيرة أسبانيا تابعة لروما القديمة ، إلى أن تمكن القوط^(١) الذين أتوا إليها في شكل هجرات متتالية من الاستيلاء عليها . وقد أطلق على الجماعة الأولى اسم الوندال وسميت البلاد في عهدهم فاندولوسيا أي بلد الوندال وسمها العرب بلاد الأندلس .

ظل الوندال يحكمون الأندلس إلى أن هاجمهم القوط ، الغربيون ، وتمكنوا من طردهم إلى أفريقية سنة ٤٥٦ م واستطاعوا بسط سلطانهم على الأندلس كلها في نهاية القرن الخامس الميلادي .

وقد اتخذ القوط طليطلة عاصمة لملكهم^(٢) . وتأثروا بالحضارة والأنظمة الرومانية في قوانينهم ونظمهم . واعتنقوا المسيحية ، وظلوا يحكمون الأندلس إلى أن قام المسلمون وتغلبوا عليهم سنة ٩٢ هـ / ٧١١ م .

وقد ساد البلاد خلال حكم القوط وضع شاذ من الناحية الاجتماعية والاقتصادية حيث كان المجتمع مقسما إلى طبقات يتحكم بعضها في البعض الآخر بمنف وقسوة .

(١) القوط : هم إحدى هذه القبائل أو الشعوب البربرية التي هبطت من شمالي أوروبا وتوضت صروح الإمبراطورية الرومانية . دولة الإسلام في الأندلس ، محمد عبدالله عمان : القسم الأول ط نائفة مكتبة الخانجي .

(٢) تاريخ ابن خلدون ج ٤ ص ١١٧ منشورات مؤسسة الأعلوي .

فكان هناك طبقة النبلاء ورجال الدين والأعيان الذين يتمتعون بخيرات البلاد ويمسكون الإقطاعات الشاسعة المعفاة من الضرائب ولا هم لهم إلا التفتن في حباية الأموال وزيادة ثروتهم حتى استحوذوا على ثلثي الأرض الزراعية بدون ضرائب^(١). لينفقوا دخلها في لهوم وامتعمهم وبناء القصور الشاهخة التي ينعمون فيها بأطيب الحياة.

أما بقية الشعب فتوجد فية الطبقة الوسطى من التجار وصغار الملاك والحرفيين وعليهم يقع كل العبء في دفع الضرائب الفادحة التي تني بحاجات الدول وتحصل منهم بقسوة وعنف ثم طبقة شبه الأرقاء الذين يعملون بالزراعة وبياعون ويشترن مع الأرض التي يعملون فيها ولا حرية لهم ولا كرامة.

ومع ذنه المغارم الفادحة التي كانت تاقى على كاهل طبقات الشعب السكادحة والفقيرة التي ألقى عليها كذلك مهمة الحرب والدفاع عن الوطن وخاصة بعد أن فقد القوط - لانغماسهم في الترف والنعيم - صفاتهم الحربية القوية. وبذلك صار معظم الجيش المدافع عن الأندلس يتسكون من هذه الطبقات التي تعاني من الظلم والإرهاق ولا تشعر بعزة قومية أو كرامة وطنية وإنما تعاني الدل في وقت السلم ووقت الحرب على حد سواد.

وكان بجوار الطبقات السابقة المسيحية طبقة أخرى تختلف عنها من ناحية الدين وهم اليهود الذين بلغوا عددا كبيرا في أسبانيا حيث بسطوا نفوذهم في المجال الاقتصادي ولكنهم عانوا كثيرا من عسف الملوك

(١) (أ) أنظر مختصر تاريخ العرب ، سيد أمير على ، ص ١١٢ دار

العلم للدلايين .

(ب) الجمل في تاريخ الأندلس ، عبد الحميد الصياد ، ص ٤٤ مكتبة النهضة .

والسكينة والنبلا. وذاقوا شتى ألوان الجور والاضطهاد ودفنهم ذلك إلى التآمر وتدير ثورة على الحكيم القائم ولسكن مؤامراتهم اكتشفت قبل القيام بها سنة ٦٩٤ م في عهد الملك أجيكال الذي وافقه الأحيار في طليطلة على الشدة في معاقبة اليهود فنكل بهم وصادر أملاكهم وقضى على من بقي منهم حيا بالرق الأبدى للنصارى ووزعهم شيئا وشيانا ذكورا وإناثا على المسيحيين ، فأما للشيوخ فقد سمح لهم بالبقاء على دينهم القديم . وأما الشبان والأطفال فقد لقنوا العقيدة المسيحية ونشروا عليها وصادر لايتزوج عبد يهودى إلا بجارية نصرانية ولا يتزوج يهودية إلا بنصرانى^(١) . وبذلك ذاق اليهود مرارة الذل والاضطهاد مع بقية طوائف الشعب التي صارت تنتظر الخلاص مما تعانيه دون أن تجد إلى ذلك سبيلا . ويجوار هذا الوضع الاجتماعى والاقتصادى الظالم كان الوضع السياسى مماؤا بالإضطرابات والانقلابات السياسية .

ففي بداية القرن الثامن الميلادى كان على عرش الأندلس الملك جوتيزا الذى يسميه العرب غبطشة والروايات الأسبانية تختلف في أمره فيصفه البعض بحسن السيرة وبالحكمة وبالعامل على رد المظالم وإقامة العدل ، بينما يصفه آخرون بالظلم والجور والبغى على كل من يخالفه أو يقف في سبيل أطماعه . وقد تمسكن غبطشة من كبت الثورات التي قامت صده وقضى عليها جميعا سوى الثورات التي تزعمها رديك د لزيق ، الذى انضم إليه رجال الدين والأشراف وأعلن نفسه ملكا وتمسكن من القضاء على غبطشة بعد خوص حرب أهلية عنيفة كما يذكر الأستاذ عبدالله عنان^(٢) .

(١) مختصر تاريخ العرب ، سيد أمير على ص ١١٣ ، عنان : دولة الإسلام
قسم ١ ص ٣٢ تاريخ غزوات العرب : شكيب أرسلان ، مطبعة الحلبي .
(٢) أنظر : دولة الإسلام ، عنان قسم ١ ص ٣٣ ، ٣٤ .

هذا ما تذكره الرواية الأسبانية التي يأخذها الأستاذ عنان بينما يقول ابن حيان في المقتبس « أن لذريق إنما نال الملك عن طريق الغصب والتسور عندما مات غيطشة الذي كان قبله وكان أثيرا لديه مكينا فاستصغر أولاده لمساكنه واستمال طائفة من الرجال مالوا معه فانزع الملك من أولاد غيطشة واستبقاهم^(١) . ومن هنا نرى أن لذريق غصب الملك من أبناء غيطشة بدون ثورة على غيطشة وبدون حرب أهلية ويذكر في الكتاب الخزائي وغيره : أن أهل الأندلس الذين ولوا لذريق الملك لعدم رضاهم عن أولاد غيطشة ليمسكن - أي لذريق - من إقرار الأمن بعد أن اضطرب في الأندلس ، وكان لذريق شجاعا بطلا ليس من أهل الملك إلا أنه من قوادم وفرسانهم^(٢) . ولعل مما يؤيد الرواية العربية في أن لذريق لم يقتل غيطشة أننا سوف نرى لذريق يستند إلى أبناء غيطشة قيادة بعض فرق الجيش أثناء قتال المسلمين ، ولو كان لذريق قد ثار على أبيهم وقتله كما تذكر الرواية الأسبانية ما أسند إليهم قيادة الجيش أخذا بالخيط والحند . وإنما شعوره بأن الأشراف والنبلاء هم الذين أسندوا إليه الملك جملة يستند إلى أبناء غيطشة قيادة بعض الفرق في المعركة :

وأيا كان الأمر فإن تولى لذريق الملك لم يقض على الاضطراب السياسي في الأندلس مما حل لذريق على كبت الثورات التي قامت ضده وخاصة في الشمال عدا المؤامرات التي كان يديرها أبناء الملك غيطشة في سر وكنان .

وبينما كانت الأندلس تعيش في هذا الوضع المضطرب سياسيا واجتماعيا واقتصاديا - يضيق معظم سكانها بالذل والهوان الذي يلقونه من حكامهم فهم يعملون ولكن لا ينالون من نتيجة عملهم شيئا لا يعرفون للحرية طعما

(١) نقل عن نفتح الطبيب ج ١ ص ٢٢٣ - دار الكتاب العربي - بيروت .

(٢) المرجع السابق ص ٢٢٥ .

ولا للكرامة الإنسانية مذاقا - نجد السكان على الشاطئ الأفريقي المقابل يعيشون في حرية وعزة وكرامة في ظل الهداية الإسلامية التي ارتفعت راياتها على أرض يسودها الإخاء والمحبة والعدل الاجتماعي الذي سوى بين البربر والعربي ويرنون بأبصارهم إلى الأندلس هادفين إلى غرس بذور الهداية وإقامة مشاعلها التي ستنقذه مما تردي وتجعله المنبع لبعث الحضارة الأوربية الحديثة .

فما العوامل التي دفعت المسلمين إلى فتح الأندلس ؟

وما العوامل التي ساعدت على هذا الفتح ومهدت له ؟

ثم كيف تم الفتح ؟

وماذا نرى بالنسبة لأمور يتحدث عنها المؤرخون وقعت أثناء الفتح ؟

وأخير ما هي النتائج التي ترتبت على فتح الأندلس ؟

المسلمون يفتتحون الأندلس

١ - أسباب فتح الأندلس .

يختلف المؤرخون حول الأسباب التي دفعت المسلمين إلى فتح الأندلس ، ويرى كل منهم أن السبب الذي ذكره هو الذي حمل المسلمين على هذا الفتح . فيذكر البعض أسبابا أخلاقية تتعلق باعتداء لذريق على ابنة يوليان حاكم سبته ، واسمها فلورندا واغتصبها مما أثار حفيظة أبيها ودعاها إلى أن يستعدي المسلمين ويحتمهم على فتح الأندلس انتقاما من لذريق^(١) .

ويذكر البعض أسبابا تتعلق بالوضع السياسي الذي نشأ عن اعتلاء لذريق العرش مغتصبا له من أبناء الملك السابق عليه غيطشة واستنجد أبناء غيطشة بالمسلمين بمساعدة يوليان حتى يتمكنوا من استرداد عرشهم وكان المسلمين لم يقدموا إلى الأندلس إلا لإرجاع الحق إلى أصحابه^(٢) .

ويذكر المقرئ أن حديث يوليان إلى موسى بن نصير - عن بلاد الأندلس وحسنها وفضلها وما جمعت من أشات المنافع وأنواع المرافق وطيب المزارع وكثرة الثمار وحرارة المياه وعذوبتها مع ضعف أهلها وقلة بأسهم شوق موسى بن نصير ، إلى فتح الأندلس وكان الأاطماع الإقليمية والغنائم هي التي دفعت المسلمون إلى الفتح^(٣) .

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١١٧ ، البيان المقرب ابن عذارى ج ٢ ص ٧ ،
نفتح الطيب ج ٢ ص ٢٣٦ .
(٢) البيان ، ابن عذارى ، ج ٢ ص ٥٦ ؛ المجلد في تاريخ الأندلس للعبادي ،
ص ٤٨ .
(٣) نفتح الطيب ج ١ ص ٢٣٧ ، درة الإسلام ؛ عفان قسم ١ ص ٣٩ .

ويرى البعض أن الحرب كانت مستعرة بين المسلمين والبيزنطيين الذين يهاجمون الشواطئ الأفريقية من الجزر القريبة مثل منورقة وميورقة وصقلية وسردانية وجزر البليار (الجزائر الشرقية) وأن أسطول القوط انضم إلى أسطول الروم في مراقبة سواحل أفريقيا (١)، مما حمل المسلمين إلى الاستيلاء على جزائر منورقة وميورقة وأيقية فتوجه المسلمون لفتح الأندلس إنما هو مواصلة لهذه الحرب التي كانت دائرة بينها، هذه بعض الأسباب التي أشار إليها المؤرخون لفتح الأندلس.

ومن الممكن أن يسكون ما ذكره المؤرخون أسبابا مباشرة حدثت قريبا من زمن الفتح فظن البعض أنها هي التي حملت المسلمين على فتح الأندلس ولكن الحقيقة في رأينا أن امتداد الفتح إلى الأندلس كان أمرا طبيعيا يتمشى مع حقيقة الدعوة الإسلامية وطبيعته القائمين بها وقد تم ذلك بعد أن تهيأت الظروف الملائمة وحين وقته.

واعلم ما يؤيد هذا نظرة عقبة بن نافع قبل أكثر من ربع قرن إلى شواطئ الأندلس عندما وصل في غزوة إلى سبتة وسأل صاحبها عن العبور إلى الأندلس ولكن الأهوار لم تسكن مهيممة بعد للقيام: مثل هذا الفتح، فتأجل ذلك إلى عهد الوايد وقيادة موسى. حيث خبر المسلمون ركوب البحر واستولوا على الجزر فيه وأوطدت أقدامهم في أفريقيا المسلمة فإذا بأفريقية المسلمة عربا وبربرا تتوجه إلى الأندلس لتواصل تبليغ وبسط سلطان الإسلام.

وبما يؤيد ذلك أيضاً متابعة المسلمين بعد فتح الأندلس تنفيذ الخطة العامة للفتح الإسلامي بالتوجه إلى فرنسا تدفعهم نفس الأسباب والدوافع

(١) مختصر تاريخ العرب، أمير على ص ١١١، تاريخ العرب العام،

التي حملتهم على الخروج من جزيرتهم دون أن يكون هناك سبب من الأسباب التي ظن بعض المؤرخين أنها هي التي حملت المسلمين على فتح الأندلس^(١) ولولا العوامل المضادة التي قابلت المسلمين في فرنسا ثم بعض الأسباب التي طرأت على المسلمين أنفسهم لما توقف المد الإسلامي ولا استمر لكي يشمل أوروبا والبسيطة كلها تنفيذا لقول الله تعالى :

« وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا » .

ومن ذلك نرى أننا لانميل أبدا إلى هذه التعلات التي تذكر بحسن نية أو بسوء نية في كثير من الأمور التي قام بها المسلمون اتهمون من شأن الفتح الإسلامي وتبين أن المسلمين ما انطلقوا إلى القيام بعمل ما إلا بتأثير خارجي حملهم على القيام به .

٢ - العوامل المساعدة والممهدة للفتح :

وقد ساعد المسلمين على تحقيق فتح الأندلس أمور منها :

١ - استقرار أقدام المسلمين في أفريقية واعتناق الجبر للإسلام وحماسهم لحل دعوته وبذلهم أرواحهم بسخاء في سبيل ذلك وحبهم في أن يكون لهم من اليهود في سبيل دعوة الإسلام مثل ما للعرب المسلمين .

٢ - اليقظة والحذر اللذين اتصف بهما المسلمون بمحاولة التعرف على حال البلاد عمليا بتوجيه بعض الحملات الخفيفة السريعة التي تعرف بها طبيعة البلاد وحالة أهلها وتعجم عودها وتعطى للمسلمين جسارة على مواجهة عدوهم .

٣ - تعريف مقر الخلافة بخطة الفتح وإحاطتها علما بمجريات الأمور

(١) انظر : الخلفاء الراشدون للدؤلف بالاشتر ك ص ٣٤ - ٣٨ .

لتسكون على أهبة للمعاونة وإرسال المدد إذا لم تنجح خطة الفتح وذلك بعضى للحملة صفة الشرعية المستمدة من مقر الخلافة الساهرة على حياة الإسلام وتعاليمه وتباينها للعالمين .

٤ - وذل المسلمين جهدهم لتسكون دار صناعة (ترسانة بحرية) وأسطول بحرى فى الشمال الأفريقى ابتداءً حسان بن النعمان ، وواصل موسى ابن نصير التوسع فى تسكون الأسطول ، فقد أخذ فى عمل السفن حتى صار عنده منها عدة كثيرة ،^(١) .

٥ - حالة بلاد الأندلس التى سبق الحديث عنها فى الفصل السابق من اضطراب من الناحية السياسية واغتصاب للعرش ، وفروق شاسعة بين الطبقات فى الناحية الإجتماعية ، ثم الظلم الصارخ فى توزيع الثروات مما يفقد غالبية الشعب روح الدفاع عن البلاد عند المهاجمة .

٦ - ثم أخيراً ما يذكر عن يوليان حاكم سبته ورجاله حيث كان يدل المسلمين على الموارد ويتجسس لهم الأخبار^(٢) .

كل ذلك وغيره من الأمور التى ساعدت على الفتح الإسلامى الأندلس .

٣ - كيف تم فتح الأندلس ؟

عندما اطمأن موسى بن نصير على قدرة المسلمين لىكى يعبروا إلى الأندلس بعد أن تثبتت أقدامهم فى أفريقيا كتب إلى أمير المؤمنين الوليد ابن عبد الملك يخبره بذلك - ويستأذنه فى اقتحام الأندلس . فكتب إليه الوليد . د أن حضنها باسرايا حتى ترى وتختبر شأنها ولا تغرر بالمسلمين فى

(١) نفتح للطيب المقرئ ج ١ ص ٢٤١ .

(٢) نفتح للطيب المقرئ ج ١ ص ٢٤١ .

بحر شديد الأهوال (١).

لذلك أرسل موسى حملة حربية صغيرة مكونة من مائة فارس وأربعمائة راجل بقيادة طريف بن مالك في أربع سفن سنة ٩١ هـ فنزلت في المكان الذي يحمل إلى اليوم إسم طريف وكان هدف هذه الحملة الصغيرة الممارسة العملية لمعرفة طبيعة البلاد ومحاولة استكشاف ومعرفة أحسن الأماكن التي يمكن أنزال الجيش فيها، ولذلك نجد الحملة للكبرى بعد ذلك وهي حملة طارق بن زياد لا تنزل في مكان طريف وإنما تنزل في مكان آخر وهو جبل طارق مما يدل على أنهم وجدوا ذلك المكان أنسب وأسلم من مكان طريف، كما عادت الحملة بالغنائم والأثقال وأعطت صورة حقيقية قدمتها إلى القائد العام وإلى شمال أفريقية موسى بن نصير .

ومن هنا لارى موسى بن نصير يأخذ بكلام يوليان على فرض صحة ما يسند إليه من أنه هو السبب في فتح الأندلس وإنما يطبق أسلوب المسلمين العملي في الاستكشاف بأنفسهم حتى يستطيعوا تقدير الأمور على حقيقتها .

ومن ثم أخذ موسى يعد الحملة التي ستكون مقدمة للاستيلاء على الأندلس فجد في بناء السفن وتجهيزها ولاشك أنه استعان مع هذا بكل السفن التي كانت تتردد بين أفريقيا والأندلس سواء كانت ليوايان أو غيره حتى يتمكن من نقل الجيش الذي بلغ تعداده سبعة آلاف معظمهم من البربر، وقد اهتم بالحصول على خمير في معرفة شهور السريان والعجم ليستفيد منه في معرفة الطقس الملائم للحملة وأسند (٢) قيادة الجيش إلى مولاه طارق بن زياد الذي لمس فيه موسى الكفاءة لقيادة هذه الحملة .

(١) نفس المرجع ج ١ ص ٢٣٧ .

(٢) الامامة والسياسة للديفري ج ٢ ص ٧٣ .

وتمكن طارق والمسلمون معه من النزول في جبل طارق في شعبان سنة ٩٢ هـ بعد أن قضوا على المقاومة التي تصدت لهم وفتحوا حصن قرطاجنة الذي كان في سفح هذا الجبل^(١). وبدأ طارق يبسط سلطانه على الأماكن المجاورة لجبل طارق. وهنا أخرج حكام الأقليم لذريق الذي كان مشغولا باخماد ثورة قامت ضده في الشمال بما يحدث في الجنوب فأدرك مدى الخطر الذي يهدد ملكه بالزوال وباحتلال البلاد فأسرع وأرسل جيشا إلى طارق كي يتصدى له ويوقف تقدمه وكان الجيش يصل تباعا في فرق كبيرة فكان طارق يلتقي بها. ويقضى عليها. وكان على أحد هذه الفرق ينج ابن أخت لذريق وأكبر رجال لذريق وقد تمكن المسلمون من هزيمة كل هذه الفرق التي بعثها إليهم لذريق وتمزيق شملها، وقد زاد ذلك من حماس المسلمين وقوى روحهم المعنوية كما كان له تأثير مضاد في نفوس القوط^(٢).

لم تغن هذه البعوث التي أرسلها لذريق لايقاف المسلمين أو ردهم على أعقابهم شيئا وتبين له أن المسلمين مع قلتهم في حاجة إلى حشد كبير من القوط وإلى أن يقود بنفسه المعركة. وكان لذريق معروفا بالشجاعة والعزم والقسوة والجبروت وكان ذلك يثير خوف من حوله. وقد استطاع أن يضم إلى هذا الجيش كثيرا من الأمراء والأشراف والاساقفة الذين حشروا كل رجالهم وأتباعهم فتسكون منهم جيش ضخم اختلفت الروايات في تقدره بين مائة ألف وتسعين ألفا ويذكر ابن خلدون أنه كان أربعين ألفا^(٣). وقد توجه بهم لذريق جنوبا صوب المسلمين للقائهم.

(١) ابن عذارى ج ٢ ص ٩ ، دراسات في تاريخ المغرب والاندلس ، أحمد

العبادي ص ٢١ .

(٢) ابن عذارى ج ٢ ص ٨٢ .

(٣) تاريخ ابن خلدون ج ٤ ص ١١٧ ، ودولة الاسلام ، عمان ، ص ٤٢ .

علم طارق بهذا الجيش الضخم فأرسل إلى موسى يصف له الوضع ويستتمده فأرسل إليه خمسة آلاف فبلغ المسلمون اثني عشر ألفاً يملأوهم الإيمان حماساً وثقة في نصر الله وتمكينهم من رقاب أعدائهم وتبليغ دعوتهم . وتقدموا نحو الشمال حيث التقوا بجيش القوط الكبير في الثامن والعشرين من رمضان سنة ٩٢ هـ في سهل (الفلنتيره) حيث دارت المعركة الفاعلة بين المسلمين والقوط والإسلام والنصرانية واستمرت ثمانية أيام قاسية خاضها المسلمون بعددهم القليل المتعاسك المؤمن بالنصر أو الشهادة ، والقوط بأعدادهم الكبيرة وبأهوائهم المختلفة التي تجلي فيها التفتت السياسي والاجتماعي الذي سبق أن تحدثنا عنه فتحقق فيهم وفي المسلمين قول الله تعالى « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين » ، فمزم الجيش القوطي وتشيت في أنحاء البلاد وقتل الملك لذريق أو غرق في بعض الروايات وتحقق للمسلمين النصر .

وقد سميت هذه المعركة بأسماء عدة فهي معركة وادي لسكة أو بكة ومعركة شذوته والبحيرة .

وربما كان استمرار المعركة ثمانية أيام متتالية وقع فيها كروفر وإعادة ترتيب وتخطيط وتجرى كل جيش لاختيار المكان المناسب له يوماً بعد يوم حسب المد والجزر في أرض المعركة قد جعل رحي المعركة تدور في هذه الأماكن التي تقع في وادي الفلنتيره وأدى إلى اختلاف الرواة في المكان الذي تم فيه فصل المعركة وكان جديراً بحمل اسمها فأخذ كل منهم يذكر المكان الذي اقتنع به^(٢) .

(١) تاريخ ابن حلدون ج ٤ ص ١١٧ ، ودولة الإسلام ، عنان ، ص ٤٢ .

(٢) أنظر : البيان لابن عداري ج ٢ ص ٨ ، دراسات للعبادي ص ٣٣ - ٣٥ .

عنان : دولة الإسلام ص ٤٢ ، ٤٥ . نفع الطيب ج ٢ ص ٢٤٢ :

ونحب أن نذكر هنا أن المؤرخين يشيرون كثيرا إلى قلة الجيش الإسلامي وكثرة جيش القوط ثم يثنون بالحديث عن الخيانة التي كانت تحيط بجيش القوط فقائدا جناحي جيش القوط من أبناء غيطشة الذي قتله لذريق واغتصب العرش من أبنائه والخيانة منتشرة بين قواد الجيش فالسكل يريد السلامة . ثم يقولون أن يوليان وأوراس أسقف طليطلة في صفوف المسلمين ويعملون على تثبيت القوط ، وكل هذا يجعل الهزيمة نحل بالقوط ، وعلاوة على ذلك يقول أن لذريق حضر المعركة وهو متوج بالآلى . متشح بالحرير والذهب مضطجع في هودج من العاج ويعيون عليه ذلك .

وهنا نذكر بالنسبة للأمر الأول : أن جيش المسلمين في كل المواقع الفاصلة التي خاضها ضد أعدائه في اليرموك والقادسية وناهوند وعين شمس وسيبلة وغيرها من المواقع الفاصلة في تاريخ المسلمين كان دائما قليل العدد بالنسبة لعدوه ولكنه كان ينتصر في النهاية . لا بالعدد وإنما بالاستعداد ، وبالمبادئ التي يؤمن بها ويدعو إليها فكانت هي التي تجعله يتغلب على أعدائه الكثيرين .

أما الخيانة التي يتحدثون عنها فلو حدثت منذ البداية وكانت مدبرة لما استمرت المعركة ثمانية أيام . وإنما قوة المسلمين وبأسهم وطول أيام القتال وشدها جعلت القوط يفرون ولا يثبتون مثل ثبات المسلمين بعد أن لاقوا العناء في القتال .

ومع ذلك فقد يكون هناك تخاذل في القتال وخاصة من الجنود نتيجة لوضعهم الاجتماعي المنهار وابن عبد الحكم يذكر ، تخاف يوليان ومن كان معه من التجار بالحصراء (١) ليسكون أطيب لأنفس أصحابه وأهل بلده ، (٢) .

(١) الحضر : مدينة على الحجاز إلى الأندلس بما يلي طنجة .

(٢) فتح مصر ، المغرب لابن عبد الحكم ، ص ٢٧٧ .

ولذلك نجد ابن عذارى يروى حضور بوليان بعد انتصار المسلمين في المعركة فقد قدم بوليان ، على طارق في الخضراء مستقرة فقال له : لقد فتحت الأندلس فخذ من أصحابي أدلاء ففرق معهم جيوشك وسر أنت إلى المدينة طليطلة (١) ، وذلك يدل على عدم شهوده القتال .

أما بالنسبة للحلية التي كان يتحلى بها لذريق أثناء المعركة فإنني أعجب كيف يذكرون ذلك مع حديثهم عنه بأنه كان بطلا شجاعا وفارسا مقداما فلم تخلى عن شجاعته وفروسيته أثناء هذه المعركة التي يتوقف عليها ثبات أركان عرشه ؟

ثم كيف يقال ذلك مع أن هذه المعركة قد استمرت ثمانية أيام قاسية ولذريق يقودها بقوة وشجاعة والمسلمون يشددون الحملة ويقدمون الشهداء ؟

فلاشك أن المعركة كانت حامية الوطيس شديدة الوطأة بذل فيها كل من الطرفين كل طاقتهما إلا أن الغلبة كانت في جانب المسلمين . واهلنا نستطيع أن نتصور شراسة هذه المعركة من طول أيامها إذا قارناها بمعارك الإسلام الكبرى كاليرموك والقادسية .

إن الذي يبدو لي أن لذريق وحيثه كان بطلا وشجاعا كما يصفون . وأنه قاتل وبذل كل جهده وطاقته إلا أن كلمة الله قد سبقت بأن جند الله هم الغالبون .

حرق طارق للسفن :

وهناك أمر يتحدث عنه بعض المؤرخين ويحاول أن يؤيده بما يروى من بعض حوادث التاريخ المماثلة وهو حرق طارق للسفن التي عبر عليها

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ ص ٩٠ .

إلى الأندلس^(١) كي يحمل المسلمين على قطع الأمل في التراجع عن الفتح حيث لا سبيل إلى ذلك إنما هو النصر أو الفناء .

وربما يستشهدون لذلك بما ورد في الخطبة التي قالها طارق أثناء المعركة: أيها الناس ، أين المفر ؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم وليس لكم إلا الصدق والصبر . . . الخ . مع ما يدور حول صحة نسبة هذه الخطبة إلى طارق لعدم استقامة لسانه العربي إلى هذا الحد من البلاغة والتألق في الأسلوب .

ولا أرى أن طارق قد أحرق السفن التي عبر عليها لأنه يعلم أن الجنود الذين عبروا معه ليسوا هم القوة الوحيدة التي يملكها الجيش الإسلامي حيث يضطر إلى قطع أملهم في التقهقر إذا أغرمتهم الظروف إلى ذلك ، بل يعلم أن خلفه رقعة فسيحة مملوءة بجنود الإسلام وهم على أتم الاستعداد للعبور إليه وقت الحاجة أو لمواصلة الجهاد والفتح إذا ما فشلت هذه الحملة ولعل فتح أفريقيا خير دليل على ذلك .

وطارق يعلم أيضا أنه قد اضطر قبل المعركة إلى طلب المدد من موسى بن نصير عندما رأى كثرة جنود القوط فأمدّه موسى بخمسة آلاف جندي عبرت بالسفن إلى الأندلس . ولا شك أنه لو طلب مددا ثانيا وثالثا لأمدّه موسى على فرض صحة ما يروى من إحراق السفن . فكيف كان المدد الذي يرسله إليه موسى يستطيع أن يصل إليه ؟

ثم إن الخطبة البليغة التي تذكر إحراق السفن كانت وقت قيام المعركة التي تبعد كثيرا من الشاطئ فهل حرق السفن بمجرد عبوره ؟ أم بعد فترة

(١) انظر : دراسات للغبادي ص ٢٦ ، مع المسلمين في الأندلس ، حبيبة

ص ٩٨ ، نفع الطيب للقرى - ١ ص ٢٤٢ .

من العبور ووصول النجدة التي طلبها؟ ولو حدث ذلك لما كان له التأثير القوي الذي يهدف إلى أنارته في نفوس جنوده .

ولنا أن نتساءل كيف عبر موسى بجيشه الذي بلغ ثمانية عشر ألفا بعد ذلك بعام واحد؟

هل اضطر إلى بناء أسطول جديد في مدى عام واحد لكي يعبر عليه جيش أكبر من جيش طارق وذلك يكلف موسى الجهد الكثير؟ وإذا افترضنا أن إحراق السفن قد حدث فهل يمر ذلك دون أن يكون محل مساءلة من موسى لطارق؟ خاصة وبعض المؤرخين يشير إلى حدوث سوء تفاهم بين القائدين نتيجة المخالفة أمر صدر من القائد الأعلى بتثبيت أقدام المسلمين فبما يملكون قبل التوسع في الفتح .

وأمر آخر نثيره هنا وهو أن بعض الروايات تذكر أن هذه السفن لم تكن للمسلمين وإنما كانت ليوليان وبعض التجار فكيف يجوز لطارق أن يحرقها وهؤلاء يملكونها وإذا حرقها ألا يثير ذلك عليه يوليان الذي يقال أنه كان مساعدا له وكذلك يثير عليه التجار الذين يملكون هذه السفن التي تعد وسيلة ارتزاقهم .

وإذا كان هدف طارق أن يقطع بحرق السفن التردد لدى جنود المسلمين في العودة إلى أفريقية فإن من الممكن أن يحقق هدفه دون أن يلجأ إلى إحراقها .

وأخيرا فإننا لا نجد أحدا من المؤرخين القدامى كالبلاذري وابن خلدون وابن عذارى وغيرهم يشير إلى حرق السفن . ولم يذكر حرق السفن كما يقول العبادي إلا في كتاب الاكتفاء في أخبار الخلفاء لابن الكردديوس^(١)

(١) عبد الملك بن الكردديوس المؤرخ التونسي الذي عاش في أواخر القرن السادس الهجري .

ونزهة المشتاق للادريسي والروض المعطار للحميري^(١).

وذلك دليل على اختراع هذه القصة أو وضعها مثل الخطبة التي يسند إلى طارق أنه قالها يوم التقائه بلذريق وجيشه .

إتمام فتح الأندلس :

كان انتصار المسلمين على القوط في معركة شذونة قد مكّن المسلمين من وضع أقدامهم بثبات على أرض الأندلس وحصلوا على مغانم كثيرة يجلب تقديرها وقد جمع طارق النبيء وخمسة^(٢) وكتب طارق إلى موسى بن نصير بالفتح وبالغنائم وبقي على المسلمين تكملة المهمة التي أتوا من أجلها باستيلائهم على الأندلس كلها .

ولاشك أن القوط قد ذهلوا لما حل بهم من هزيمة في المعركة التي لم يكونوا يتوقعوها من هذا الجيش الصغير . فكان لهذه المعركة أثر كبير في بث الخوف والهلوع في نفوس القوط ، إلا أن ذلك لم يمنع بعضهم من الدفاع عن مملكتهم وأرضهم مدينة بعد مدينة والمسلمون يصرون على مواصلة الفتح والقوط مصرون على الدفاع .

فقد اجتمع الجيش القوطى عند « استجه » محاولا رد المسلمين ، فتوجه إليهم طارق فهزّمهم وفرق جمعهم ثم وضع خطة ليستولى على المدن والحصون بفرق من الجيش ويتوجه هو إلى العاصمة طليطلة للاستيلاء عليها .

وقد بين ابن عسارى^(٣) تلك الخطة بأن طارقا أرسل من استجه مغيثا

(١) انظر : دراسات للعبادى ص ٢٢ .

(٢) نفتح الطيب ج ١ ص ٢٤٣ .

(٣) البيان المغرب ص ٩ - ١٧ وقد أثرت الخطة المنظمة التي ذكرها ابن

عسارى وهي تختلف ، بمض الأمور بالنسبة لما ذكره المقرئ في نفتح للطيب نقلا

عن الوازى عسى بن أحمد الرازى توفى آخر القرن الرابع الهجرى ٢٤٢ - ٢٤٤ .

الرومي مولى عبد الملك بن مروان في سبعمائة فارس إلى قرطبة فاستولى عليها بعد قتال وحصار دام ثلاثة أشهر ، وبعث جيشا من استجه إلى مالقة ففتحها وجميع أعمال بارية وقد لجأ حكامها إلى جبال رية الشاخنة المنيعة فتحصنوا بها وتمكن الجيش الذي أرسله طارق إلى غرناطة من فتحها بعد حصار قصير ثم توجه الجيش من غرناطة إلى مرسية وكانت تسمى تدمير باسم حاكمها وقاعدتها مدينة أوريوله وقد التقى حاكمها تدمير بجيشه مع المسلمين في قتال شديد هزم فيه وفقى معظم جيشه فاجأ إلى الخيلة حيث أوم المسلمين بكثرة الجند الذين في المدينة (أوريوله) وهم في الحقيقة من النساء . وبذلك تمكن من عقد صلح مع المسلمين حفظ به المدينة من السبي .

وبعد أن وجه طارق هذه البعوث سار بجيشه إلى طليطلة عاصمة القوط فوجد حاكمها قد فر مع أصحابه بأموالهم إلى مدينة خلف الجبل تسمى مدينة المائة ولم يبق بالمدينة سوى اليهود (وقليل من النصارى) فاستولى طارق على المدينة وترك بها بعضا من أصحابه وتبع الفارين إلى مدينة المائة فاستولى عليها وغنم ما فيها ثم عاد إلى طليطلة وبعقب ابن هذاري على ذلك بقوله وهكذا أثر الناس هذا كله على أن طارقا صنعه وقال آخرون : بل أقام طارق حيث كانت الواقعة وجاز إليه موسى وقيل بل وجدته بقرطبة (١) .

وأيا كان الأمر فقد عبر موسى بن نصير إلى الأندلس في رمضان سنة ١١٣ هـ بجيش قوامه ثمانية عشر ألفا لكي يكمل مع طارق فتح الأندلس .

(١) البيان المغرب لابن عذاري ج ٢ ص ١٢٠ .

وقد توجه موسى إلى شدونة فافتتحها عنوة ومنها سار إلى قرمونة المشهورة بحصاتها وصبرها على طول الحصار والقتال فتمكن بالحيلة من فتحها ودخلها المسلمون عنوة وتقدم موسى بد ذلك إلى اشبيلية أعظم قواعد الاندلس ودار ملك روم روما قبل غلبة القوط على الاندلس فحاصرها أشهراً ثم تغلب عليها . ومنها سار إلى ماردة فخرج اليه أهلها فقاتلهم فانسحبوا إلى المدينة بعد أن قتل منهم جماعة في كمين دبره لهم وضرب عليها الحصار أشهراً استخدم المسلمون خلالها دبابة يحتمون بها لنقب أجد أبراج سورها فثار القوط على المسلمين الذين ينقبون السور تحت الدبابة في غفلة منهم فاستشهدوا تحتها وسمى ذلك البرج برج الشهداء . وقد دعا موسى القوم إلى الصلح فاستجابوا له على أن تكون أموال القتلى يوم الكمين في أموال الهاربين إلى جليقية وأموال الكنائس للمسلمين ودخل المسلمون المدينة يوم عيد الفطر سنة ٩٤ هـ واستولوا عليها . وأثناء حصار موسى لماردة ثارت أشبيلية على المسلمين فيها وقتلوا منهم ثمانين رجلاً فلما تم فتح ماردة أرسل اليهم موسى ابنه عبد العزيز بجيش ففتح أشبيلية ثانياً وقتل الثائرين فيها ونهض إلى ليلة ففتحها واستقامت الأمور فيها وفي اشبيلية وعلا شأن الاسلام فيها .

وبعد أن فرغ موسى من أمر ماردة توجه إلى طليطلة ، فاستقبله طارق بوجوه الناس بمقربة من طليطلة معظمها له ومبادراً لطاعته فوخه موسى وغضب عليه . وقيل أنه وضع للقوط على رأسه وقيل أنه ضربه أسواطاً كثيرة وحلق رأسه ثم سار به إلى طليطلة (١) . وغير ذلك من الأمور التي سنناقشها بعد الانتهاء من عرضنا للفتح .

وإذا تجاوزنا ما حدث في هذا اللقاء حسب ما تصوره أقلام بعض

(١) ابن عذاري ج ٢ ص ١٦

المؤرخين فإننا نجد أمرا يناقض وصفهم تماما وذلك أن القائدين بعد لقائهما يضعان خطة لاتمام فتح ماتبقى من الاندلس . فيخرج الجيش الاسلامي من طليطلة وعلى مقدمته طارق ومن خلفه موسى في بقية الجيش متوجهين الى الشمال الشرقي فيفتحان سرقسطة وما حوالها من الحصون والقلاع ثم يوغلان في البلاد ولايمرون ببلد الا فتح عليهم ما وصارت تراغونه وبرشلونه وغيرها من المدن الرئيسية في الشمال في أيديهم ثم وجه موسى طارقا الى جليقية وسار هو الى البرنية فغزا سبتهانيا التي كانت تابعة للقوط واستولى على قرشونة وادبونة وحصن لودون على وادي ردونه . وقد انزعج لذلك ملك الافرنج بالارض الكبيرة (فرنسا) وخرج الى المسلمين في جموع كثيرة لم تتمكن من أن تنال من المسلمين شيئا واضطر ملك الافرنج الى العودة الى بلاده بعد أن أقام حصونا على وادي ردونه مלאها بالمقاتلين وصيرها نفرا بين بلده والمسلمين^(١) . وقد رأى موسى أن من الممكن أن يواصل الفتح في جنوب أوروبا حتى يصل الى مقر الخلافة فاتحا القسطنطينية ولكن الخليفة لم يوافق على هذا المشروع .

عند ذلك رأى موسى أن يوجه الجهد إلى إخضاع الاقسام الجبلية من الاندلس حيث كان المسيحيون يعتصمون بها في دفاع يائس ضد المسلمين .

وقد تمكن الجيش الاسلامي من دخول جليقية والاستيلاء على معظم قلاعها وطارد العدو الذي فر الى جبال اوستراس واعتصم بها فحاول موسى محاصرة العدو وإرغامه على الاستسلام جماعة بعد جماعة حتى لم يبق سوى زعيم يدعى بلاى أو بلايو وقليل من أنصاره .

وبينما كان موسى يشدد عليه الحصار حتى كاد أن يلقى سلاحه اذا بالخليفة

(١) نفتح الطيب ٢/٢٥٦ من ابن حبان .

يرسل أبا نصر متهجلا موسى في العودة إلى دار الخلافة بعد أن استبطأ رجوعه
لأثر وصول رسوله الأول مغيث الرومي . فعاد موسى تاركا ذلك الزعيم ومن
معه معتصما بالجبال واستهان بهم المسلمون بعدهم في الأندلس فاذا بهم ينمون
حتى كونوا المملكة النصرانية في الشمال التي قدر لها أن تتمكن بعد ثمانية
قرون من طرد المسلمين من الأندلس (١) .

وقبل أن يعود موسى إلى المشرق نظم شؤون الحكم لهذه البلاد الشاسعة
فعين ابنه عبد العزيز على إمارة الأندلس وجعل مقره أشبيلية وكانت مقرا
للحكم أيام الرومان وعين ابنه الثاني عبد الله على إفريقية وابنه الثالث عبد الملك
حاكما على المغرب الأقصى وعهد إلى عبد الصالح بقيادة الأسطول وحماية
السواحل وجعل مقره طنجة .

وبعد أن اطمأن موسى إلى ما اتخذته من تدابير لإدارة شؤون المغرب
والأندلس توجه إلى المشرق في شهر ذي الحجة سنة ٩٥ هـ وطارق معه ومعهما
من الغنائم والسبي والجواهر والذخائر ونقيس الأمتعة مالا يقدر قدره حتى
قدم دمشق فيقال أنه وصلها في أواخر أيام الوليد وقدم إليه كل ما غنموه
فجعلها الوليد في بيت المال وهنا يجد بعض المؤرخين مجالا للتخيل فيذكرون
أن سليمان نكب موسى بوحشية عندما أفضت الخلافة إليه لتسرع في القدوم
على الوليد كما يذكرون أن القائدين العظيمين قد وصلا إلى درجة من
الأسفاف في الخصومة أمام الخليفة وموسى يقدم إليه تقريرا عن الفتح وغنائمه .

(١) انظر ابن عذاري ج ٢ ص ١٧٠، ١٦ نصح العلي بن المقري ج ١ ص ٩٥٥ —
٢٥٩ ، عنان : دولة الإسلام قسم ١ ص ٣٨ — ٥٦ ، دراسات في المغرب
والأندلس للعبادي ص ٣٥ — ٤٢ ، حبيبة : مع المسلمين في الأندلس ص ٩٧ — ١٠٠ ،
أرسلان تاريخ فزعات العرب ص ٢٦ — ٤٦ .

٤ — ما يتحدث عنه المؤرخون من أمور وقعت أثناء الفتح :

ونود قبل أن نتحدث عن نتائج الفتح أن نقف وقفة تأمل وتمحيص نستجلي فيها الحقيقة عما يسجله بعض المؤرخين عن :

(١) عبور موسى إلى الأندلس ولقائه طارق .

(ب) ما يذكر عن سبب منع موسى من مواصلة الفتح في أوروبا .

(ج) لقاء موسى بأمر المؤمنين في مقر الخلافة حيث نجد المعجب العجاب .

(أ) فبالنسبة للموضوع الأول : تجد ابن حيان يبين أن سبب عبور

موسى هو الحسد^(١) لطارق ، وعبر ابن خلدون عن سبب العبور بالغيرة من طارق^(٢) ، وذلك أمر قد جانب الحقيقة .

فلا شك أن انتصار المسلمين في معركة شذونة بعد قتال دام ثمانية أيام قد حقق المسلمون فيه النصر إلا أنهم قد فقدوا كذلك كثيرا من الشهداء ولم يذكر المؤرخون تقديرا لهذه الخسائر في كلا الجانبين ومن المؤكد أنها كانت كبيرة .

وفقد المسلمين لبعض الشهداء ثم استيلاؤهم على بعض المدن بعد ذلك وترك بعض الحاميات بها قد أدى إلى نقص كبير في صفوف الجيش المهاجم مما أدى إلى جعل الجيش الإسلامي في حاجة إلى مدد جديد لمواصلة الفتح وتثبيت أقدام المسلمين فيما استولوا عليه وأن موسى بن نصير وهو القائد

(١) نفع العايب للقرى ج ١ ص ٢٥١ .

(٢) تاريخ ابن خلدون ج ٤ ص ١١٧ .

الأعلى والمسحول عن الفتح ونتأجه كان عليه أن يعبر سريعا لتثبيت الفتح ومواصلته خوفا من أن يتمكن القوط من قطع خط الرجعة على طارق خاصة الانتشار الذي قام به . هذا مادفع موسى إلى هذا العبور وليس حسدا لطارق أو غيره منه أو طمعا في المجد ، فموسى قد حاز من المجد الكثير -
وذلك نجد ابن عذارى يذكر أن ابن القبطان قد حدد أسباب عبور موسى إلى الأندلس في واحد من ثلاثة أمور :

وقيل إنما حمله على الجواز إلى الأندلس تعدى طارق ما أمره به ألا يتعدى قرطبة على قول أو موضع هزيمة لذريق على قول ، وقيل أيضا : إنما حمله على ذلك الحسد لطارق على ما أصاب من الفتوح والغنائم ، وقيل أيضا : إنما جاز باستدعاء طارق إياه ،^(١) .

وهو بهذا يذكر الحق مشروبا بالباطل ورد ذكر السبب الحقيقي عند ابن قتيبة في قوله : وكتب طارق إلى مولاه موسى أن الأمم قد تداعت علينا من كل ناحية فالغووث الغوث^(٢) ، فالسبب الحقيقي إذن هو حاجة طارق إلى المدد فلذلك عبر إليه موسى سريعا .

وإننا حين ننظر إلى خريطة الأندلس ونتتبع عليها طريق سير طارق ثم طريق سير موسى من بعده فإننا نلاحظ أن طارقا أثناء توغله ناحية الشمال قد ترك حصونا ومدنا كثيرة وجد موسى نفسه في فتحها والاستيلاء عاينها عناء ومشقة وكان من الممكن أن تقطع على طارق طريق هودنه وهذا يقود موسى في أمره لطارق بالتهقف إلى حين حضوره .

إلا أن بعض المؤرخين أبى بعد ذكر الغيرة والحسد إلا أن يذكر

(١) ابن عذارى ج ٢ ص ١٣ .

(٢) ابن قتيبة : الإمامة والسياسة ج ٢ ص ٧٤ .

ما ترتب على ذلك عند لقاء موسى وطارق فنجد الرواية التي سبق أن ذكرها ابن عذارى عند لقاء موسى وطارق ونجد ابن عبد الحكم يذكر في رواية : أن موسى أخذ طارقا فشده وثاقا وحبسه وهم بقتله . ثم يذكر أن مغيبا الرومي مولى الوليد ذهب إلى الوليد وكلبه في شأن طارق فقدم الكتاب من الوليد بإخلاق سراح طارق^(١) . . . وذهاب الرسول وعودته يقتضى وقتنا طويلا . مع أن المؤرخين يجمعون على أن طارقا كان على مقدمة موسى عندما التقيا وتوجها إلى الفتح شمالا . مما يدل على عدم صحة هذه الرواية وأن الرواية الصحيحة هي ما ذكره ابن عبد الحكم نفسه قبل ذلك بقوله : فتلقاه طارق فترضاه وقال له إنما أنا مولاك وهذا الفتح لك ثم يذكر أن موسى وجه طارقا بعد ذلك إلى طليطلة^(٢) ولذلك نجد البلاذرى^(٣) واليعقوبى^(٤) وابن خلدون^(٥) يتفقون على إنما كان معاتبة على مخالفة طارق لأمر موسى وعندما ترضاه وبين له الأسباب التي دعت إلى مواصلة القتال وتبج القوط الذين تجمعوا له اقتنع موسى بوجهة نظر طارق ورضى عنه^(٦) .

وأخيرا نقول كيف يغار موسى من طارق أو يحقد عليه ويحبسه وقد أرسل إليه المدد أولا عندما طلبه ؟

(١) ابن عبد الحكم فتوح مصر والمغرب ص ٢٨٣ .

(٢) نفس المرجع السابق ص ٢٨٠ .

(٣) فتوح قسم أول ص ٢٧٣ .

(٤) تاريخ ج ٢ ص ٢٨٥ .

(٥) ابن خلدون ج ٤ ص ١١٧ .

(٦) أنظر : أبا طيلىل يجب أن تحمى من التواريخ ، لإبراهيم شويط ؟ دار

للطباعة المحمدية .

وكيف بغار منه أو يحسده وهو الذى أرسله إلى الأندلس وهو قائده الأعلى وأى كسب اطارق إنما هو كسب لموسى ؟ فلا حاجة إلى غيره أو حسد .

(ب) أما الأمر الثانى فهو ما يذكر عن سدب منع موسى من مواصلة الفتح فى أوربا واستدعائه من الأندلس حيث نجد ابن قتيبة يقول : دان الوليد ظن أن موسى يريد أن يخلفه ويقم فيها ويمتنع بها^(١) ، ويؤيد بعض المؤرخين المحدثين هذا الرأى ويقولون أنه أفضل تعليل يقبله النقد الحديث ويرجح^(٢) .

ذلك أن موسى بن نصير عندما وصل إلى حدود بلاد الأفرنج (فرنسا) وأشرف على أوربا رأى أن من الممكن أن يواصل الفتح مخترقا أوربا حتى يصل إلى دار الخلافة ويبدولى أنه وضع خطة لذلك وأرسلها إلى الوليد ولكن الخليفة تردد خوفا على المسلمين أن يغزو بهم أو أن حب الانتصار ونشوة الغلب قد يحملان القائد المنتصر على أن يكاف المسلمين شططا ، ولذلك رأى الخليفة أن يوقف الفتح وأن يستدعى قائدى فتح الأندلس فأرسل فى إحضارهما حفاظا على سلامة المسلمين . وإلى هذا يشير ابن خلدون مبينا خطة موسى ورأى الخلافة فيذكر أن موسى قد جمع أن يأتى المشرق على القسطنطينية ويتجاوز إلى الشام ودروب الأندلس ويخوض ما بينهما من بلاد الأعاجم أمم النصرانية مجاهدا فيهم مسلحا لهم إلى أن يلحق دار الخلافة ونعى الخبر إلى الوليد فاشتد قلقه بمكان المسلمين من إدار الحرب ورأى أن ما هم به موسى غرر بالمسلمين فبعث إليه بالتوصيح

(١) الإمامة والسياسة - ٢ ص ٧٥

(٢) أنظر . عمان دولة الإسلام قسم ١ ص ٥٤ ، حسن إبراهيم حسن تاريخ

والإنصراف (١). وإذا كان موسى قد خطر بذهنه هذا المشروع الكبير لمواصلة الفتح ورأى أن يقوم بتنفيذه فهو يذكرنا بالخطة التي وضعها عقبة بن نافع لفتح الشمال الأفريقي ونفذها واستشهد في نهايتها ولكن تلك الخطة حثت المسلمين وقوادهم من بعدها على أن يتسكروا بها حتى حققوها مع مرور الأيام وربما لو نفذ موسى هذه الخطة وشغلت أوروبا بجيوش المسلمين من الشرق ومن الغرب في وقت واحد، وسهر الخليفة على تنفيذ هذه الخطة لتحقق للمسلمين آنذاك فتح أوربة بسهولة وارتفعت راية الإسلام على ربوعها .

ولا شك أن مواصلة الفتح كانت تستدعي مددًا جديدًا سواء من أفريقية أو من مصر والشام كما حدث في فتح الشمال الأفريقي لأن جهود جيش المسلمين الذي عبر إلى الأندلس وسعة البلاد الشاسعة تحتاج إلى قوة أكثر وكان هذا المدد سيجمع أقدام المسلمين في الأندلس أكثر ثباتًا ويمهد لمواصلة فتح أوربا، دون أي شائبة من الخوف ولم يكن هناك من المقاومة آنذاك في أوربا ما يحيط هذا المشروع ، لعدم وجود أية رابطة بين الأمم التي كانت تفصل موسى عن مقر الخلافة ولم يكن قد ظهر بعد ، ذلك القائد الذي يستطيع أن يوحد القوات المسيحية ويعترض تقدم المسلمين (٢) ،

وإذا كنا نعلم أن موسى قد استشار دار الخلافة قبل فتح الأندلس فلا شك أنه قد أرسل مشروعه لفتح فرنسا ومواصلة الفتح في أوربا إلى الخليفة الوليد فكان رأيه هو التوقف ثم استدعاء القائدين ، ومن المقبول أن يقال أن ذلك قد حدث خوفاً من تعريض المسلمين للخطر . أما أن يقال

(١) تاريخ ابن خلدون ج ٤ ص ١١٧ ، ١١٨

(٢) الامامة والسياسة ج ٢ ص ٨٠ ، ٨١ .

إنه - أي الخليفة - كان يخشى ازدياد نفوذ موسى واستقلاله بتلك البلاد
فذلك أمر لا سبيل إلى تصديقه ، لأن أخلاق موسى التابعي وصلة الناس
بالخليفة وشعورهم بسلاطنتها عليهم كان لا يسمح بمثل هذا الانفصال أو
الاستقلال

ولنا أن نذكر أيضا أن مواصلة الفتح المستمرة في بلاد جديدة ذات
طقس جديد ومختلف وطول خطوط القتال وسعة البلاد دعت المقاتلين
أنفسهم إلى إبداء الرغبة في إيقاف موجة الفتح لفترة ما .

وإلى هذا تشير الرواية الأخرى لأن قتيبة حيث تبين أن موسى عند
ما وصل إلى أرض قرنجمة وكان الجيش قد شعر بالكل واشتد ذلك على
الناس فقام حنش الصنغاني فأخذ بعنانه - أي موسى - ثم قال أيها
الأمير أني سمعتك وأنت تذكر عقبة بن نافع تقول : لقد غرر بنفسه وبعن
معه أما كان معه رجل رشيد؟ وأنا رشيدك اليوم أين تذهب ؟ تريد أن
يخرج من الدنيا . . . أني سمعت من الناس ما لم تسمع وقد ملئوا أيديهم
وأحبوا الدعة . قال فضحك موسى ثم قال : أرشدك الله وكثر في المسلمين
مثلك . ثم انصرف قافلا إلى الأندلس فقال موسى يومئذ : أما والله
لو اتقاهوا إلى لقدتهم إلى روميه ثم يفتحها الله على يدي إن شاء الله (١) .

ج - ونأتي إلى الأمر الأخير وهو ما يذكر عن لقاء موسى بالخليفة
وكيف يصور المؤرخون هذا اللقاء بأن موسى قد لاقى جزاه سنهار ثم
ينحدثون عن المشادة بين موسى وطارق حيث يذكرون أنه عندما قرب
موسى بن نصير من دمشق وكان الوليد مر يضا كتب - أي سليمان - إلى موسى
بأمره التريث رجاء أن يموت الوليد قبل قدوم موسى فيقدم موسى على

سليمان في أول خلافته بتلك الغنائم الكثيرة التي ما رأى ولا سمع مثاها فيهظم بذلك مقام سليمان عند الناس فأبى موسى من ذلك ومنعه دينه وجد في السير حتى قدم والوايد حتى فسلم له الأخماس والمغانم والتحف والذخائر فلم يمكث الوليد إلا يسيرا بعد قدوم موسى وتوفى واستخلف سليمان لحقد عليه وأهانته وأمر باقامته في الشمس حتى كاد يمهلك وأغرمه أموالا عظيمة . . . الخ (١) ويزيد الحجازي في المسبب ، والت حاله - أي موسى - إلى أن كان يظاف به ليسأل من أحياء العرب ما يفتك به نفسه وفي تلك الحال مات وهو من أقر الناس وأذلهم بوادي القرى سائلا من كان نازلا به (٢) .

ويذكر ابن عبد الحكم في إحدى رواياته قدوم موسى على الوليد والمنازعة التي قامت بينه وبين طارق حول المائدة التي غنمت من الأندلس بما يتنافى مع جلال القائدين (٣) . وبغض من الأهداق السامية التي يرمى إليها المسلمون من الفتح حيث يوجهون اهتماما كبيرا إلى الغنائم ولذلك يقوم بينهم خصام وتحاسب عسير من أجل هذه الغنائم .

وأن التحريم الدقيق لروايات المؤرخين يجعلنا لانظمين إلى هذه الدعاوى التي تلتصق بالخلفاء الأمويين في عقاب قادتهم وفي محاسبتهم . وربما نجد من يعمل ذلك بأن أوائل القادة كانوا يريدون الانفصال . أو أنهم كانوا يحتجزون دوسم الأموال . أو أن القواد ومساعدتهم كان يدس بعضهم ضد بعض ويغري بعضهم البعض لدى الخليفة (٤) مما أدى إلى هذه النتيجة المشينة .

(١) نفاح الطيب المقرئ ج ١ ص ٢٦٢

(٢) نفس المرجع ص ٢٦٥

(٣) انظر : د توح مصر والمغرب لابن عبد الحكم ص ٢٨٦ .

(٤) انظر : عنان . دولة الاسلام قسم ١ ص ٥٩ .

إلا أننا نعلم أن الدولة الأموية قد سقطت دون أن يحدث أى انفصال في أجزائها وإنما حدث الانفصال بعد سقوطها بما يدعونا إلى التمسك فيما يسند إلى خلفائها من عقاب قادتها على هذه الصورة المشينة لآسيا إذا علمنا أن من أسباب عقاب القادة وهو الانفصال المزعوم لم يتحقق في ههنا وإذا بطل السبب بطل المسبب وكذلك فإن من حق الخليفة أن يسكون ساهرا على الغنائم باعتبارها حقا لبيت مال المسلمين . إلا أن السهر على تحصيل الغنائم للدولة ولمواردها يجب ألا يصل إلى هذا الوضع المسف الذي يصورونه في معاملة القادة ومحاسبتهم خاصة إذا علمنا أن أولئك القادة ذووا دين قوى وأخلاق قوية تمنعهم من مثل هذا الاسفاف الذي لا يليق بدين أو خلق .

ولنا أن نتساءل هل يليق أن ينتظر سليمان وفاة الوليد وهو يعلم أن الأعمار بيد الله ؟ والغنائم ليست هي الأعمال الخالدة التي يحرص عليها وإنما الفتح هو العمل الخالد وقد تم في عهد الوليد . ومع ذلك فإن هذه الغنائم إنما هي ملك المسلمين وقد وضعت الغنائم بجواهرها وتيجانها في بيت المال (١) .

وأن مما يدل على عدم صحة هذه المحاسبات والمخاصمات هو التردد من المؤرخين في رواياتهم بين قدوم موسى على سليمان مرة وعلى الوليد مرة أخرى وبين الرضا عنه مرة والسخط عليه مرة أخرى .

فإن عبد الحكم يقول مرة : وخرج موسى حتى إذا كان بطبرية أتمته وفاة لوليد فقدم على سليمان تلك الهدايا فسر سليمان بذلك (٢) ومرة أخرى

(١) ابن عسكاري البيان المغرب ج ٢ ص ٢٠

(٢) فتوح مصر والمغرب ص ٢٨٤

يقول : ويقال بل قدم موسى بن بصير على الوليد بن عبد الملك والوليد
سريض فأهدى إليه موسى المائدة فقال طارق أنا أصبتما فكذبه موسى (١)
... الخ . . وابن خلدون يوجز فيقول : « قدم على سليمان فسخطه ونكبه (٢)
وكيف يسخط عليه وقد قدم إليه الغنائم التي قدمها والتي يجعلها المؤرخون
سبب الخصام والمحاسبة ؟

وإن ما يدل على عدم صحة ما يذكره من عقاب سليمان لموسى
ما يرويه ابن عذاري : من مسألة سليمان لموسى عما التقى في حروبه وعن
الأمم التي التقى بها من الروم والبربر وأهل الأندلس والأفرنج في حديث
طويل يقول فيه : إن سليمان قال لموسى : « ما الذي كنت تفرع إليه عند
حروبك ومباشرة عدوك ؟ » قال : « كنت أفزع إلى التضرع والدعاء
والصبر عند اللقاء » قال : « فأى الخيل رأيتها في تلك البلاد أسبق ؟ » قال :
« الشقراء » قال : « فأى الأمم كانوا أشد قتالا ؟ » قال : « هم أكثر من أن
أصفهم » قال : « أخبرني عن الروم ! » قال : « أسد في حصونهم عقبان على خيولهم
نساء في مواكبهم إن رأوا فرصة انتهزوها وإن رأوا غلبة فأوعال تذهب في
الجبال لا يرون الهزيمة طارا » قال : « فأخبرني عن البربر » قال : « هم أشبه
المجم بالعرب لقاء ونجدة وصبرا وفروسية غير أنهم أغدر الناس لا وفاء لهم
ولا عهد قال فأخبرني عن الأندلس قال : « ملوك مترفون وفرسان لا يخيبون .
» قال : « فأخبرني عن الأفرنج » قال : « هناك العدد والعدة والجلد
والشدة والبأس والنجدة » قال فأخبرني كيف كانت الحرب بينك وبينهم :
« كانت لك أو عليك ؟ » فقال : « أما هذا فوالله ما هزمت لي راية قط ولا بدد
جمعي ولا نكبت المسلمون معي منذ اقتحمت الأربعين إلى أن بلغت الثمانين »

(١) المرجع السابق ص ٢٨٥ .

(٢) تاريخ ابن خلدون ج ٤ ص ١١٨ .

فضحكك سليمان وعجب من قوله ثم دعا سليمان بطست من ذهب فجعل يردد بصره فيه فقال له موسى وإني لتعجب من غير عجب والله ما أحسب أن فيه عشرة آلاف دينار والله لقد بعثت إلى أخيك الوليد بتور من زبرجد أخضر كان يصب فيه اللبن فيخضر وترى فيه الشعرة البيضاء ولقد قوم بمائة ألف مثقال وإنه لمن أدنى ما بعثت به إليه ولقد أصبت كذا وأصبت كذا ، وجعل يعدد ما أصاب من الدر والياقوت والزبرجد حتى بهت سليمان من قوله (١) ،

ثم يذكر أن سليمان كان يصحب موسى معه أثناء خروجه للصيد وأنه عندما حج أى سليمان خرج موسى حيث توفى — أى موسى — فى المدينة وصلى عليه مسلمة بن عبد الملك (٢) .

وعلى فرض أن سليمان أرسل إلى موسى بتأخير القدوم . والوليد أرسل إليه بتعجيل القدوم . فاننا نجد خلال هذه الروايات ما يبين حقيقة الروح والخلق الذى كان سائدا وهو ما يجب أن نلاحظه بالنسبة لكل الأطراف : الوليد وسليمان وموسى فإن قتيبة يذكر أن موسى قال حين وصله كتاب بالانبساط فى مسيره : ، خذت والله وغدرت وما وفيت . ، والله لا تربصت ولا تأخرت ولا تعجلت ولا سكتى أسير بسيرى فأن وافيته حيا لم أتخلف عنه وإن عجلت منيته وأمره إلى الله ، (٣) .

كل هذا يدل على الاختراع والتزبد فى الروايات عما يشوه معه حلال

(١) ابن عذراى البيان المغرب ج ٢ ص ٢١ ، ٢٢

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٢١ ، ٢٢ .

(٣) الامامة والسياسة ج ٢ ص ٨٣ .

تاريخنا الاسلامي ويقتضى من الباحثين بذل كل الجهد لتخليص حقائق التاريخ من الزيف الذي لصق بها نتيجة لعدوات في الصدور أو جلبا لمنفعة من لديهم منفعة ترجى بتزييف الروايات التي ترضيهم .

وإذا كنا نعلم أن التاريخ الاسلامي انما دون بعد سقوط الدولة الاموية وقيام الدولة العباسية فان من الواجب أن يتوجه بالفك القوي الى كثير من الروايات المتعددة التي تصوب التهم الى هذه الدولة وخلفائها حتى تعرف الحقيقة خالصة من الزيف والباطل وليس معنى هذا أن كل هذه التهم باطلة أو أنها كلها صحيحة ، وانما هي تهم يختلط فيها الحق بالباطل مما يجب أن يحتمل المؤرخ هلى الحذر واليقظة والتثبت من الروايات ونقدها حتى يظمر الفس من السمين والصادق من الباطل ، فأما الزيد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض .

٥ - نتائج فتح الأندلس :

لقد أدى فتح المسلمين للأندلس إلى تغيير الوضع الذي كان سائدا في الأندلس سياسياً واقتصادياً وعسكرياً وادارياً ودينياً . ونتج عن كل ذلك تغيير اجتماعي كبير شمل جميع أوجه النشاط التي كانت سائدة في الأندلس عندما طرقتها أقدام المسلمين .

(١) الوضع السياسي :

ففي السياسة نجد المسلمين قد كسبوا إقليماً جديداً أضافوه إلى رقعة دولتهم الواسعة وحققوا كسباً جديداً لدعوتهم ورسالتهم ولموارمهم أيضاً وبذلك صار المسلمون هم ساسة البلاد وحكامها والمنصرفون في شئونها العليا وتلك هي عادة المسلمين وسلوكهم مع الاقاليم التي يستولون عليها أما ماعدا وطائف

الدولة العليا فانهم يعركونها لأهل البلاد وخاصة الذين يشقون فيهم وذلك بما يؤدي الى عدم وجود تنافر بين المسلمين وبين أهل البلاد . فاذا كان الفتح عن طريق الصلح فانهم يشترطون في صلحهم النصح للمسلمين والى يكون المصالح (الحاكم الاقليمي) عوناً للاعداء عليهم والى نقض ذلك الصلح ونجد هذا واضحا في صلح تدمير وهو يعطينا نموذجا حيا للوثائق السياسية الاسلامية في عهد الفتوح الاسلامية ونصه د بسم الله الرحمن الرحيم من عبد العزيز الى تدمير ، أنه نزل على الصلح وأنه له عهد الله وذمته أن لا ينزع عنه ملكه ولا أحد من النصارى عن أملاكه وانهم لا يقتلون ولا يسبون أولادهم ولا نسائهم ولا يكرهوا على دينهم ولا تحترق كنائسهم ما تعبد ونصح ، وأن الذى اشترط عليه أنه صلح على سبع مدائن أوربولة وبلقنة واقنت ومولة وبقسرة وأنه ولورقة . وأنه لا يأدى لنا عدوا ، ولا يخون لنا عهدا ولا يكتم خيرا عليه . وأنه عليه وعلى أصحابه دينارا كل سنة وأربعة أمداد قح وأربعة أمداد شعير وأربعة أقساط طلا وأربعة أقساط خل وقسط عسل ، وقسطى زيت وعلى العبد نصف ذلك ، كتب فى أربع من رجب سنة أربع وتسعين من الهجرة ، شهد على ذلك . . الخ ، (١) .

كما نجد أن طارقا عندما يفتح طليطلة يختار لحكمها وادارتها أو باس مطرانها السابق وأخا الملك وتيزا (٢) وقد عين المسلمون موظفين مسيحيين ليجي الضرائب من أبناء طائفهم ولتسوية منازعاتهم وقد فتحت أبواب الوظائف العامة على اختلاف أنواعها ليشغلها الرجل السكفاء سواء كان مسلما أو مسيحيا أو يهوديا (٣) .

(١) انظر : عنان : دولة الاسلام ص ٥٥ .

(٢) نفس المرجع ص ٥٠ .

(٣) سيد أمير على : مختصر تاريخ العرب ص ١١٨ .

وقد منع المسلمون سكان الاندلس حرية الإقامة أو الهجرة عن البلاد. على أن ينزلوا عن جميع أموالهم ووعد من يبقون في البلاد بالمحافظة على أملاكهم وقضاتهم وقوانينهم^(١) وكذلك يذكر المقرئ. وأن أولاد غيطشة قد حازوا ضياع والدهم أجمع واقتسموها على موافقة منهم^(٢) ، وإذا علمنا أن كل من استقر في أرضه ولم يهاجر أو صالح أثناء الحرب فقد بقيت له أملاكه ودفع الجزية فإن لنا أن نقول ان أبناء غيطشة قد سالموا وحصلوا على أملاك أبيهم وليس هناك عامل الحياة الذي يركز عليه كثير من المؤرخين .

وقد كان للوضع السياسي الذي أقامه المسلمون وشعر فيه الناس بالمساواة أثر كبير في القضاء على نظام النبلاء ، والسكنيسة السابق وتبديد نفوذهم السياسي الذي كانوا يتحكمون به بمقدرات الاندلس حسب أهوائهم وشهواتهم .

(ب) الوضع الاقتصادي :

فإذا ما انتقلنا الى الجانب الاقتصادي فإنا نجد المسلمين يخففون من الأعباء الضريبية الثقيلة التي كانت توهن كاهل الطبقات العاملة في الزراعة والصناعة والتجارة فألغيت الضرائب الفادحة وفرضت الجزية على غير المسلمين وهي تختلف حسب طاقة المكاف ويستثنى منها الرهبان والنساء والاطفال والمعزة . وقدر الخراج على الأرض وهو يتوقف على ما تنتجه الأرض فعلا ، ولذلك لم يكن عبئا على الزراعة^(٣) .

وقد صار العمال الزراعيون والعبيد الذين يعملون في الأرض التي انتقلت

(١) تاريخ العرب العام ، سيد يو ، ص ١٦٤ .

(٢) نفع الغايب ص ٢٤٩ .

(٣) مختصر تاريخ العرب ص ١١٧ .

الى أيدي المسلمين أحراراً يستأجرون الأرض أو يعملون فيها ويدفعون جزءاً من غلتها الى أصحابها المسلمين .

وقد نتج عن ذلك الوضع الاقتصادي الذي أقامه المسلمون في الأندلس نمو وازدهار جميع أوجه النشاط الاقتصادي في الزراعة والصناعة والتجارة وعاد على الشعب بالرخاء والرفاهية متمثلاً في عدالة التوزيع على العاملين في حقول الزراعة حسب مجهود كل انسان وطاقته .

(ح) الوضع العسكري :

أما نتيجة الفتح في المجال العسكري فإننا نجد أن قوات المسلمين قد قصت على معظم القوات العسكرية للقوط التي كانت تعضد النظام السياسي المنسلط والاقتصادي الجائر الذي كان يحتفظ للنبلاء والكنيسة بامتيازاتهم وقد أنزلت القوة العسكرية الإسلامية حسب البلاد القادمة منها في مختلف أرجاء الأندلس لتوطد الأمن وسحق أية فتنة أو ثورة تعارض الفتح الإسلامية فكانت فصيحة دمشق في قرطبة وفصيحة حمص في أشبيلية وفصيحة قنسرين في جيان وفصيحة فلسطين في شذونة وفصيحة الأردن في مالقة وفصيحة فارس في شريش وفصيحة اليمن في طليطلة وفصيحة العراق في غرناطة وفصيحة مصر في ماردة ولشبونة ونزلت فصائل البربر في الجهات الوسطى والشمالية .^(١)

(د) الوضع الديني :

وفي المجال الديني نجد أن الفتح الإسلامي قد منح السكان جميعاً حرية العبادة حسب الديانة التي يعتنقها الفرد سواء كان مسلماً أو غير مسلم فلم يظلم

(١) تاريخ ابن خلدون ج ٤ ص ١١٧ ، مختصر تاريخ العرب ص ١٢٠ ، المحمل

شخصا أو أسببت معاملته أو منع من ممارسة شعائر عبادته سواء كان مسيحيا أو يهوديا . وقد منح المسلمون الحرية لكل من يعتنق الإسلام من العبيد فأسرع العبيد جماعات إلى اعتناق الإسلام ليحصلوا على حريتهم ويتخلصوا من الذل الذي كانوا يعانون منه تحت حكم القوط والكنيسة الجائر

وهنا يحق لنا أن نقول بحق إن الإسلام هو محرر العبيد فانظن أن ديننا سوى الإسلام أو أي ثورة إصلاحية أو اجتماعية قد وصلت في المحافظة على كرامة الإنسان والحرص على تحريره إلى هذه الدرجة مع العلم بأن الإسلام بالنسبة لهؤلاء العبيد وغيرهم من الأحرار يسقط عنهم الجزية التي يدفعونها للمسلمين وذلك يؤثر في ضعف مورد من موارد الدولة إلا أن المسلمين يشعرون أن إسلام أي فرد وهدايته إلى الدين الحق هو خير من الجزية التي تؤخذ منه نتيجة لبقائه على دينه السابق . وقد أدى هذا التسامح وتلك المعاملة الطيبة إلى ضعف سلطان الكنيسة المتجبر الذي كان يتحكم في رقاب الضمفاء من أهل الأندلس وحمل الكثير من أبناء الأندلس على اعتناقهم للإسلام عن حب واقتناع خاصة وقد أسرا آثاره في شتى مجالات حياتهم .

كما نتج عن الفتح قيام إدارة حكيمة مكنت كل فرد من الحصول على نتاج كده وعرقه وعلى أن يحصل على المنصب أو العمل الذي يتناسب معه بدون ظلم أو محاباة .

(٥) التقسيم الإداري :

وقد قسمت البلاد إداريا في البداية إلى أربع ولايات كبيرة يعين لكل واحدة حاكم مسترول أمام والي الأندلس عن إدارة شئون ولايته ،

أما الوالى العام للأندلس فكان تعيينه فى البداية من قبل والى أفريقيا .

وتشمل الولاية الأولى : الأراضى الواقعة بين البحر ونهر الوادى الكبير وما بلى هذا النهر إلى وادى بانا وأهم مدنها قرطبة وجيان وأشبيبية ومالطة .

وتشمل الولاية الثانية : أسبانيا الوسطى من البحر المتوسط شرقا إلى حدود لوزيتانيا (البرتغال الحالية) غربا وتمتد حتى نهر دورو فى الشمال وأهم مدنها : طليطلة وتونقا وسيقوبيا ووادى الحجارة وبلانسية ودانية وقرطاجنة ومرسيه ولا رقة .

وتشمل الولاية الثالثة : جليقية ولوزيتانيا (البرتغال القديمة) وأهم مدنها : ماددة ، وباجة ، ولشبونة ، واستورقة ، وسمورة ، وشلمقة ، وغيرها .

وتشمل الولاية الرابعة : المنطقة الممتدة من شاطئ الدورو إلى جبال البرنية على شفتى نهر الأبرو وأهم مدنها : سرقسطة وطرطوشة وتوانغة وبرشلونة وتطيلة وبلد الوليد ، ووشقة وغيرها

وعندما اتسعت الفتوحات الإسلامية أنشئت ولاية خاصة شمال جبال البرنية وتشمل أربونة ، ونيم وقرقشونة وبزيبه وأجدة ولوديف^(١) .

(و) الوضع الاجتماعى :

وإذا اتقلنا من ذلك إلى العلاقات الاجتماعية أو صلات المصاهرة

(١) انظر مختصر تاريخ العرب ص ١١٩ ، ١٢٠ ، دوة الإسلام فى الأندلس

فإننا نجد الفتح الإسلامى الأندلس قد حقق أثرا كبيرا نتيجة لاختلاط الفاتحين بسكان البلاد .

ففى معظم الأحوال : إننا نجد الجيش الغالب أو الفاتح يستعلى على الشعب المغلوب ، وذلك يجعل كلا منهما منكشفا عن الآخر ومتباعدا عنه ، ولكننا إذا عرفنا أن الغرض من الفتح هو نشر الدين والهداية الإسلامية وعرفنا أن من أسس هذا الدين : المساواة بين الناس جميعا :

« الناس سواسية كأسنان المشط » .

« لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى » .

« إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

وضع لنا انعدام التعالى المصطنع من المسلمين على غيرهم من الشعوب التى فتحوها واستولوا عليها ولذلك نجد المسلمين يختلطون بغيرهم من الشعوب التى استولوا عليها بالزواج والمصاهرة . وذلك خير دليل على نفي تعالى المسلمين على غيرهم ، وقد كان ذلك كسبا لهم مكنهم من نشر دينهم ولغتهم ومكن غيرهم من معرفة رسالتهم وهدفهم عن قرب ومخالطة فعلية .

كما كان لذلك أثره فى إزالة النفرة بين الغالبين والمغلوبين وإذا أضفنا إلى ذلك المكاسب الأخرى التى حققها المسلمون للطبقات السكادحة التى كانت مستعبدة أو شبه مستعبدة تبين لنا التغيير الكبير والنتائج العظمى التى أسبغها الفتح الإسلامى على الأندلس . بحيث يحق لنا أن نقول : إنه قد نتج عن هذا الفتح التحول فى الوضع السياسى والاقتصادى والعسكرى والإدارى والدينى والأسرى - وتغيير شامل فى الوضع الاجتماعى جعل الفرد - سواء كان من النبلاء والحكام والقسيس سابقا أو من الصناعات

والتجار وصغار الملاك والعبيد وأشباه العبيد - يشعر بقيمته وبقيمة غيره وبحرته وكرامته فقد أثار الفتح الإسلامى العقول بما يحمل من قيم إسلامية إنسانية وحضارة سامية وفتح العيون بمبادئه التى تشرع حقيقته الحياة (الدنيا والآخرة) ووضع أحقية كل إنسان فى الحصول على جزاء كده وعرقه وفى الحياة الحرة الكريمة .

وبذلك كان الفتح الإسلامى للأندلس بشير خير وبركة عليها وانتشالا لها مما كانت تمردى فيه من الذل والهوان وانتهاك كرامة الإنسان ، وأسنا نحن المسلمين الذين نقول ذلك حتى يقال أننا نتعصب لأنفسنا ، وإنما يقوله المنصفون وأشباه المنصفين من المؤرخين والكتّاب الغربيين .

ولإليك طائفة من أقوالهم .

يقول العلامة المستشرق روزى : ولم يكن حال النصارى فى ظل الحكم الإسلامى مما يدعو إلى كثير من انشكوى بالنسبة لما كانت عليه من قبل . أضيف إلى ذلك أن العرب كانوا يتحلون بكثير من التسامح ولم يرهقوا أحدا فى شئون الدين . ولم تكن الحكومة - إذا لم تكن مغرقة فى الدين - تشجع بإسلام النصارى إذ كانت خزانة الدولة تخسر بإسلامهم كثيرا . ولم يغمط النصارى للعرب هذا الفضل . بل حدودا للفاتحين تسامحهم وعدلهم وآثروا حكمهم على حكم الجرمان والفرنج وانقضى القرن الثامن كله فى سكينته - وقلبا نشيد ثورة ، كذلك لم يبد رجال الدين فى العصور الأولى كثيرا من الذم وإن كانت لديهم أكثر البراهين لذلك . وهذا ما تزيده الرواية اللاتينية التى كتبت سنة ٧٥٤م فى قرطبة والتى تنسب لايذود الباجى فإن كآتهم أرغم كونه من رجال الدين يبدى نحو المسلمين من العطف مالم يبدئه أى كاتب أسباني آخر قبل القرن الرابع عشر . و ثم يقول عن آثار

الفتح الاجتماعية : وكان الفتح العربي من بعض الوجوه نعمة لاسبانيا فقد أحدث فيها ثورة اجتماعية هامة وقضى على كثير من الأدوات التي كانت تعانيها البلاد منذ قرون . وحطمت سيطرة الأشراف والطبقات الممتازة أو كادت تمحى . ووزعت الأرض توزيعا كبيرا فكان ذلك حسنة سابقة وعاملا في ازدهار الزراعة إبان الحكم العربي . ثم كان الفتح عاملا في تحسين أحوال الطبقات المستعبدة إذ كان الإسلام أكثر تعظيما لتحرير الرقيق من النصرانية كما فهمها أحبار المملكة القوطية وكذلك حسنت أحوال أرقاء الضياع إذا غدوا من الزراع تقريبا وتمتعوا بشيء من الاستقلال والحرية (١) .

ويقول الأستاذ ستانلي لين بول : أما التسامح الديني فلم يدع الأاسبانيين سببا للشكوى فقد تركهم يعبدون كما يشاءون من غير أن يضطهدهم أو يلزمهم اعتناق عقيدة خاصة كما كان يفعل القوط باليهود . . . وكان من أثر هذه المعاملة وذلك التسامح أن رضى المسيحيون بالنظام الجديد واعترفوا في صراحة أنهم يؤثرون حكم العرب على حكم الأفرنج أو القوط . . . وأسطع الأدلة على رضا المسيحيين من حكاهم الجدد أن ثورة دينية واحدة لم تحدث خلال القرن الثامن .

أما المستشرق الأاسباني جاينجر من فيقول : ولقد سيطرت في أاسبانيا (الأندلس) أول أشعة لهذه المدنية التي أنثرت ضوءها فيها بعد على جميع الأمم النصرانية وفي مدارس قرطبة وطليطلة العربية جمعت الجذور الأخيرة للعلوم اليونانية بعد أن أشرفت على الانطفاء وحفظت بعناية وإلى حكمة العرب وذكائهم ونشاطهم يرجع الفضل في كثير من أهم المخترعات الحديثة

(١) قصة العرب في أاسبانيا ترجمة على الجارم ص ٣٩ ، ٤٠ .

وأنفها» (١).

ويتحدث المؤرخ الأمريكي سكوت عن عظمة فتح المسلمين الأندلس وصرعته وثنائه وحمايته للناس ويدحض الدهاوى السكاذبة فيقول :

« في أقل من أربعة عشر شهرا قضى على مملكة القوط قضاء تاما وفي عامين فقط وطدت سلطة المسلمين فيما بين البحر الأبيض المتوسط وجبال الـسبـرنية ، ولا يقدم لنا التاريخ مثلا آخر اجتمعت فيه السرعة والكمال والرسوخ بمثل ما اجتمعت في هذا الفتح . وقد كان المظنون في البداية أن الغزو إنما هو أمر مؤقت فقط . ولم يتوقع أحد أن يكون احتلال البلاد دائما فلما استقرت الجماعات المستعمرة . وفتحت الشغور لتجارة الشرق وأقيمت المساجد أدرك القوط الخطب الذي نزل بهم ولكن اعتدال حكمهم الجدد خفف من ألم الهزيمة وكان دفع الجزية يضمن الحماية لأقل الناس وكان يسمح للورع المتعصب أن يزاول شعائره دون تدخل ، كما يسمح للملحد أن يجاهر بأرائه دون خشية المطاردة والأخبار يزاولون نشاطهم في سلام أما أقوال الكتاب النصراني الذين ينسبون فيها للعرب أفضع المثالب فهي محض مبالغة وافتراء» (٢).

أما المستشرق سيمونيت وهو من أشد العلماء الأسبان تحاملا على على المسلمين فيقول : « أنه فيما يتعلق بالقوانين المدنية والسياسية فإن النصراني الأسبان احتفظوا في ظل الحكم الإسلامي بنوع من الحكومة الخاصة ، واحتفظ الناس بأحوالهم القديمة دون تغيير كبير ، وفيما يتعلق بالشريعة فإنهم قد احتفظوا في باب النظم الحكموتية بقوانين الكنييسة الأسبانية القديمة واحتفظوا في الناحية المدنية بالقوانين القوطية أو قانون

(١) مقلا عن دولة الاسلام لعنان ص ٦٣

(٢) المرجع السابق ص ٦٤

التقاضى يخضعون لها في كل ماله علاقة بحكومتهم وهي حكومة المدينة محلية ،
ومالم يكن يتعارض مع القوانين والسياسية الإسلامية^(١)

وذكر العلامة التامبراد أن أغلبية الشعب الأسباني الروماني والقوطي
بقيت في ظل حكم المسلمين محتفظة برؤسائهم وهم الأقطاط ، أو الكونتات ،
وقضائهم وأساقفتهم وكنائسها وبالجملة بقيت محتفظة بما يشبه استقلالها المدني
الكامل . وقنع الولاة بأن يفرضوا على النصارى والمحكومين
الضرائب الشرعية .

ويقول المستشرق كارديناس : « أن العضل يرجع إلى تسامح الولاة
والأمراء الأوائل في أنه خلال العصور الأولى من الحكم الإسلامى كان
الشعبان المسلمون والمستعربون (النصارى) يعيشان جنبا إلى جنب عيشة
حرة ، واستطاع المستعربون في ظل الحكم الإسلامى أن يحتفظوا باستقلالهم
ولغتهم وعاداتهم وقوانينهم وأجيانا بأساقفتهم وكونتاتهم وأن يسهروا
على صيانة الفنون القوطية التي كان العرب أنفسهم يقتبسون من أساليبها^(٢) . »

ويكفي أقوال هؤلاء العلماء في الإبانة عن بعض الجوانب المضئمة التي
نتجت عن الفتح الإسلامى للأندلس والفضل ماشهدت به الأعداء .

(١) المرجع السابق ، ص ٦٥ .

(٢) نفس المرجع السابق والصفحة السابقة .

الفصل الخامس

الأندلس في عهد الولاة

لقد تولى أمانة الأندلس بعد فتحها إلى أن دخلها عيد الرحمن الداخل حوالي عشرين أميرا في فترة قاربت نصف قرن من الزمن وكان أولهم عبد العزيز بن موسى بن نصير وآخرهم يوسف بن عبد الرحمن الفهري . وقد مكث بعضهم في الإمارة عدة أشهر ومكث بعضهم بضع سنوات . وليس المهم هو معرفة أسماء هؤلاء الأمراء ومدة حكمهم وإنما المهم معرفة الأعمال المهمة التي حدثت في عهدهم ، والنتائج التي ترتبت عليها ومدى تأثير هذه الأعمال في ثبات أقدام المسلمين وقوتهم أو في ضعفهم وتمزيق شملهم . ثم إلقاء نظرة على النزاع المستمر بين العرب بعضهم مع بعض وبين العرب والبربر . وأخيرا محاولة التوصل إلى معرفة أسباب وقوف المد الإسلامي في أوربا والنتائج التي ترتبت عليه .

عبد العزيز بن موسى بن نصير :

وكان أول الولاة بعد الفتح عبد العزيز بن موسى بن نصير الذي أسند إليه أمانة ولاية الأندلس قبل توجهه إلى المشرق وجعل أشبيلية مقرا لولايته وقد قام عبد العزيز بأعمال جليلة ثبتت أقدام المسلمين في الأندلس وعبر عنها الرازي بأنه : ضبط سلطاتها وسد ثغورها وافتتح مدائن كثيرة وكان من خير الولاة إلا أن مدته لم تطل لو ثوب الجند عليه وقتلهم له لأشياء نغموها عليه . وقد مكث في ولايته سنة وعشرة أشهر^(١)

والرازي هنا يجعل سبب قتل عبد العزيز أشياء نغمها عليه الجند . بينما

(١) ابن عذاري عن الرازي ص ٢٤ .

يذكر ابن عبد الحكم أن عبد العزيز بعد أن تزوج ابنة لذريق ملك الأندلس الذي قتله طارق طلبت منه أن يعظمه الناس ويسجدون له كما كانوا يفعلون مع أبيها . وعند ذلك جعل نقبا قصيرا في باب الحجرة التي يدخل عليه فيها الناس حتى ينحنوا له أثناء دخولهم وبلغ الناس أنه إنما نقب الباب لهذا الغرض ، وزعم بعض الناس أن امرأته نصرته^(١) فكان سبب قتله . وابن عذاري يروي عن الواقدي أنه قتل لأنه خلع طاعة سليمان بن عبد الملك^(٢) وابن قتيبة الدينوري يورد قصة طويلة عن تدبير الخليفة لأجل اغتيال عبد العزيز بن موسى عندما بلغه أنه هم مخلص سليمان والاستقلال بالبلاد (وأنه انتدب لذلك رجلا من أفريقية وأعطاهم كتابا بالولاية لمن يقتله . الخ^(٣) . وسياق الرواية يدل على أنها موضوعة ، فإن الخليفة لم يصل به الخلق والعجز إلى هذه الدرجة . فقد كان من الممكن أن يطلب إلى عبد العزيز الشخصوص إلى دمشق مثل أبيه من قبل . وله أن يرسل خطابه بعزله فإن أبي كان الطرد والحبس وكان للخليفة حجة قوية في نصرته ، أما ما تذكره هذه الرواية فمشبهة الوضع فيها ظاهرة

وقد يكون السبب في اغتياله أنه أساء التصرف وقسى في المعاملة مع بغض الجند وأن الذين اغتالوه كانوا يريدون الاستيلاء على الإمارة بما جعلهم يغتالونه أثناء صلاة الصبح . وعندما أصبح الناس أعظموا ما حدث وأخرج قتله كتابا بأن سليمان أمرهم بذلك فلم يقبله أهل الأندلس^(٤) لعلمهم أن هذا الكتاب متقول على سليمان لأنه لا يأمر بمثل ذلك .

(١) فتوح مصر والمغرب ص ٢٨٥ ، ٢٨٦ .

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٤

(٣) أنظر الامامة والسياسة ج ٢ ص ٩٥ ، ٩٦ .

(٤) نفس المرجع ص ٩٧

ولذلك يقول صاحب أخبار مجموعة : « أنه لما بلغ الخليفة سليمان قتل عبد العزيز شق ذلك عليه وأمر عبيد الله بن زيد عامله على أفريقية بأن يتشدد في قضية قتل عبد العزيز وأن يقبض على حبيب بن أبي عبيدة وزيادة ابن النابغة اللذين قتلاه وأن يقفلهما إليه مع من شاركهما في قتله من وجوه الناس » (١)

وعما يدل على أن سليمان لم يأمر بقتل عبد العزيز أن الناس لم يرضوا عن قتله كذلك اختارهم لايوب بن حبيب ابن أخت موسى بن نصير واليا على الأندلس فمكث واليا عليها ستة أشهر حيث خلفه الحر بن عبد الرحمن الثقفي واليا عليها من قبل محمد بن يزيد والى أفريقية فقدم الأندلس أواخر سنة ٩٧ هـ في جماعة من وجوه أفريقية فنظم أمورها ونقل عاصمة الإمارة من أشبيلية إلى قرطبة (٢) . . . ويذكر المؤرخ كوندى الأسبانيولى أن الحر الثقفي هو الذي تجاوز حدود الأندلس إلى بلاد الفرنجة ونواحي أربونة وسي وغنم وقفل بالأسارى والغنائم وقد أدى توجيه الجهود إلى بلاد الأفرنج إلى انتعاش حركة المقاومة المسيحية التي يتزعمها بلاى المعتصم في جبال استوريا حيث جمع بقايا حزب المقاومة وثار به في تلك النواحي مما اضطر الحر الثقفي إلى أن يعود أدراجه ايقمع هؤلاء الثائرين (٣) . وبينما هو مشغول بذلك عزله الخليفة عمر بن عبد العزيز وولى على الأندلس السمع بن مالك الخولاني الذي وجه جهوده إلى الاستيلاء على جنوب فرنسا .

(١) أخبار مجموعة نفلا عن تاريخ عزوات العرب لارسلان ص ٤٧

(٢) اس عدارى ح ٢ ص ٣٥ وقيل نفت إلى قرطبة في أيام أيوب

ابن حبيب .

(٣) عن تاريخ عزوات العرب لارسلان ص ٤٨ .

السمح بن مالك الخولاني :

وقبل أن نتحدث عن تحرك المسلمين في تلك الأماكن بزيادة السمع بن مالك الخولاني يجدر بنا أن نعرف الوضع الذي كان سائدا في تلك البلاد حيث نجد أن فرنسا أو الأرض الكبيرة كما يسميها العرب كانت تسمى في التاريخ الروماني ، غاليا أو غاليس ، وبعد أن سقط عنها حكم الدولة الرومانية توزعت فرنسا قوى مختلفة فكانت سبتمانية^(١) تابعة للقوط الغربيين أما أكيثانيا (أكوتين) وهو الجزء الذي يحده نهر اللوار شمالا إلى جبال البرانس جنوبا فكان دوقية مستقلة . وكذلك إقليم بروفانس الواقع شرق إقليم سبتمانيا وإقليم برجنديا الواقع شرقي نهر الرون . فإذا ما نظر إلى شمال نهر اللوار حتى ألمانيا الحالية فإننا نجد مملكة تسمى مملكة الفرنجية (الميروفنجية) ومن ذلك يتبين لنا أن فرنسا لم تكن تحت حكم دولة واحدة ذات سلطة مركزية وإنما كانت مجزأة إلى مقاطعات^(٢) عدة عندما وجه المسلمون نشاطهم نحو الاستيلاء عليها .

وكان القائد الذي وجه جهده إلى مد نشاط المسلمين إلى جنوب فرنسا هو السمع بن مالك الخولاني الذي ولاء عمر بن عبد العزيز على الأندلس وأمره أن يحمل الناس على طريق الحق ولا يعدل بهم عن منهج الرفق وأن يخمس ماغلب عليه من أرضها وعقارها ويكتب إليه بصفة الأندلس وأنهارها^(٣) .

(١) سبتمانيا : تشمل المدن السبع : أريونة ، وقرقشونة ، واجدة ، ديزبيه ، ولوديف ، ونيمة وماجوبيلون .

(٢) أنظر المجلد العسادي ص ٥٥ ، عنان : دولة الإسلام في الأندلس ص

٧٦ - ٧٩ .

(٣) ابن عذاري ج ٢ ص ٢٦

وقد أراد عمر بتولية السمع عليها أن يجعلها ولاية مستقلة تابعة لمقر الخلافة مثل ولاية أفريقية ومصر . وذلك اهتماما بشأنها ولنكي يبذل واليها جهده عندما يشعر بتبعيته مباشرة لمقر الخلافة مما يجعله على بذل الجهد في الاعتراف بولايته اعدم تبعيته لوال آخر يعزله بل يتبع الخليفة رأسا إلا أننا لا نجد هذا الأمر يستمر بعد ذلك بل نجد والى أفريقية هو الذى يسند الإمارة إلى والى الأندلس محتفظا بتبعية الأندلس لوالى أفريقية ما عدا ولاية يحيى بن سلمة السكلى الذى قدم الأندلس واليا من عند أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك فى آخر سنة ١٠٩ هـ (١) .

ويذكر ابن عذارى أن عمر بن عبد العزيز كان رأيه ونقل المسلمين من الأندلس وإخراجهم منها لا تقطعها عن المسلمين وإتصالهم بأعداء الله الكفار ، فقيل له : أن الناس قد كثروا بها وانتشروا فى أقطارها فعبد عن رأيه ذلك ، (٢) ولعله كان يخاف على المسلمين هناك لتصوره أنهم أقلية قد يتمكن الكفار لكثرتهم من التغلب عليهم وطردهم أو قتلهم فلما وضح له كثرة الناس واستقرارهم بها أعرض عن رأيه وأتاك طلب من واليه أن يكتب له بصفة الأندلس وأنها حتى يزيد اطمئنانه إلى وضع المسلمين فيها . وقد يقال غير ذلك من الآراء فى تعليل رأى عمر بن عبد العزيز (٣) فى نقل المسلمين من الأندلس .

وكل ذلك واضح وصريح فى أن عمر يريد نقل المسلمين من الأندلس

(١) ابن عذارى البيان ج ٢ ص ٢٦ ، ٢٧

(٢) نفس المرجع السابق ص ٢٦

(٣) نفس المرجع السابق ، ومع المسلمين فى الأندلس على حبيبية ص

غير أننا نجد الأمير شكيب أرسلان ينقل عن كرينو ، أن عمر بن عبد العزيز كان قد هاله بقاء ذلك العدد الكبير من المسيحيين في تلك البلاد واستشعر من ورائهم خطراً على مستقبل المسلمين ففكر في إجلاء مسيحي أسبانية وجنوبي فرنسا إلى أفريقية حيث لا يكون من وجودهم تهلكة على الدولة إلا أن السماح طمأن مخاوف الخليفة قائلاً له : أن الإسلام ينمو ويتشرب وتمتد شماريحه بسرعة في أسبانية وأنه لا بعد اليوم الذي تصير فيه تلك البلاد بأجمعها تابعة لدين محمد (١) وهذا الرأي في نقل مسيحي أسبانية وجنوبي فرنسا إلى أفريقية لا نجد له أصلاً في المراجع العربية ولسنا ندرى من أن أتى به رينو ؟

ومبلغ علمي أنه لم يسبق في تاريخ المسلمين أن أجلى قوم من ديارهم لكثرة عددهم بالنسبة لعدد المسلمين الفاتحين . وأنه لم يجلى عن دياره سوى اليهود عندما حملوا على ترك الجزيرة العربية لكثرة عددهم وإنما لإثارتهم الفتن والفسائس والفتاقل ضد المسلمين (٢)

قدم السمع بن مالك إلى الأندلس واليا عليها من قبل عمر بن عبد العزيز في رمضان سنة مائة هجرية بعد اختبار عملي له من عمر ثبت فيه صلاحه وفضله (٣) ، فقام بعدة إصلاحات داخلية دلت على حنكته الإدارية

(١) شكيب أرسلان تاريخ غزوات العرب ص ٥٢

(٢) الطبقات لابن سعد ٢ / ٨٣

(٣) يذكر صاحب أخبار مجموعة في ذلك : أن الخلفاء (أي من بني أمية في ذلك الوقت) كانوا إذا جاءتهم جبايات الامصار والآفاق يأتيهم مع كل جباية عشرة رجال من وجوه الناس وأجنادها فلا يدخل بيت المال من الجباية دينار ولا درهم حتى يحلف الوفد بالله الذي لا إله إلا هو ما فيها دينار ولا درهم إلا أخذ بحقه وأنه فضل أعطيات أهل البلد من المقاتلة والذرية بعد أن أحد كل دى حق حقه فأتى وفد أفريقية بخراجها وذلك أنها لم تكن يومئذ مغرا فكان

ودرايته السياسية وتمكن بها من نشر الأمن والنظام في ربوع البلاد فقد قام بإرشاد من الخليفة بإحصاء الأجناس والمذاهب التي كانت تقطن البلاد ، وبمسح لمدن الأندلس وجبالها وأنهارها وبحارها ، مع بيان طبيعة الأرض ومنتجاتها ومواردها بالتفصيل وحدد خراجها بنسبة الخس ، واهتم بإزالة الخلافات والفتن المنتشرة بين الناس ووجه جهدا صادقا لإصلاح الجيش وإدارته وجعله على درجة عالية من الكفاءة لخوض غمار الحروب ، وبث فيه من روحه الممتلئة بالإيمان وحب الجهاد .

ولم يهمل أنسمح الناحية المعمارية فشيّد مسجدا جامعاً في سرقسطة . واعتنى بالعاصمة قرطبة التي تقع على الضفة الشمالية لنهر الوادي الكبير . وفي البطحاء المعروفة بالربض خصص مقبرة للمسلمين ومعظم ذلك بتوجيه من أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز^(١) .

وبعد أن اطمان السمع إلى استقرار الأمور في الأندلس داخلها وإلى استعداد الجيش لخوض غمار الحرب . توجه إلى المناطق الشمالية من الأندلس فهزم عصاة المسيحيين وأجبرهم على اللجوء إلى المعاقل الجبلية في الأسترياس^(٢) . ثم زحف على سبتمانيا محترقا جبال البرنية من الجهة

مافضل بعد أعطيات الجند وفرائض الناس بنقل إلى الخليفة . فلما وفدوا بخراج أفريقيا في زمان سليمان أمروا بأن يملفوا خلف الثمانية ونكل اسماعيل بن عبيد الله مولى نبي مخزوم ونكل بنسكو له السمع بن مالك الخولاني . فأعجب ذلك عمر بن عبد العزيز بن من فعلهما ثم ضمهما إلى نفسه فاختر منهما صلاحا وفضلا . نقلنا عن شكيب أرسلان غزوات العرب ص ٥٦ .

(١) ابن عذارى : البيان ج ٢ ص ٢٦ ، مختصر تاريخ العرب ص ١٣١ ، المجلد

للمبادئ ص ٥٤ ، دولة الاسلام ص ٧٤

(٢) مختصر تاريخ العرب ص ١٣٢

الشرقية وتمسك من استعادة أريونة وقرقشونة ومعظم المدن والحصون
التابعة لاقليم سبتمانيا وقهر جميع القوى التي حاولت مقاومته أو الوقوف في
وجهه ، ولاشك انه فقد بعض جنوده في الاستيلاء على تلك الحصون والمدن
وترك بعضا آخر من الجنود ليدسط الحماية الاسلامية على تلك البقاع ،
وبذكر رينو انه جاء في تواريخ الرهبان الذين شهدوا تلك الوقائع أن العرب
هدموا دير (جوسل) بقرب بيزيه ودير القديس د بوزيل ، « بقرب » منهم ،
ودير صنجيل بقرب « آل » ، والدير المشهور بالديروة المسمى بدير القراتبل
بقرب آغيمورت . . . فدم العرب هذه الأديار كلها بغته منحدرين عليها
انحدار العقبان بحيث لم يقدر الرهبان الذين فيها أن يخلصوا نجيا برقابهم
وبعض ذخائر القديسين التي كانت عندهم .

وما نظن أن ذلك قد حدث الا إذا كان الرهبان وعصابت معهم قد
قاومت المسلمين وقاوتهم فاستولوا على هذه الأديار عنوة . . . ورأى المسلمون
هدمها حتى لا يتخذها الإهالي معاقل لمقاومة المسلمين مرة أخرى ، ولو كان
الرهبان سلموا بدون مقاومة ما حدث لهم ذلك وما استولوا المسلمون على
ذخائرهم أو أملاكهم أو أصابوهم في أرواحهم بسوء . ولذلك نجد رينو يعود
فيعترف بذلك حين يقول « وكان هؤلاء (يعنى المسلمين) لا يسيئون معاملة
الذين يدخلون في طاعتهم بدون مقاومة ويكفونهم القتال . (١) »

وبعد أن انتهى السمع من الاستيلاء على اقليم سبتمانيا الذي كان تابعا
للقوط الغربيين . وبعد أن حصن أريونة عاصمة سبتمانيا وعزز حمايتها
او قوعها على البحر توجه ببقية جنوده إلى الغرب نحو مجرى الجارون باسطا
سلطان المسلمين على كل المدن والحصون التي في طريقه حتى وصل إلى

(١) غزوات العرب في فرنسا لارسلان ص ٧٢ ، ٧٣ .

طولوشه (تولوز) عاصمة إقليم أكويتين ، الذي استقل به الدوق اودو ، وضرب السمع عليها الحصار ولسكن قبل أن يتمكن من فتحها فهدده الدوق اودو بجيش عظيم يبلغ عشرة أمثال الجيش الذي مع السمع فاتق الجمعان بظاهر طولوشه في التاسع من دى الحجة سنة ١٠٢ هـ / ٩ / ونيو سنة ٧٢١ م ودارت معركة رهبة بين جيشين غير متكافئين غير أن المسلمين أظهروا من ضروب الشجاعة والنجدة مثلاً نادرة وصمموا على الانتصار أو الاستشهاد وقد رجحت كفه كل فريق حيناً بعد حين غير أن السمع أصابه رمح في رقبتة حر على أثره صريعاً في أرض المعركة فأثر ذلك في نفوس المسلمين الذين أدهمهم طول النضال مع كثرة جيش عدوهم وحسن استعدادهم فأضطرب جيش المسلمين وأختل نظامه ، ولسكن الجيش الاسلامي أختار عبدالرحمن الخافق لتولى القيادة العامة ، فتمكن عبد الرحمن من الانسحاب بالجيش من المأزق الذي أحاط به بمهارة نادرة منعت عدوه من إلحاق الهزيمة به حتى وصل إلى أربونة التي صارت قاعدة للمسلمين في الشمال فثبت أقدام المسلمين فيها وظل يدير شئون الاندلس إلى أن قدم عنبة بن سحيم الكلبي واليا على الأندلس من قبل بشر بن صفوان والي افريقية ، حيث عادت الاندلس ثانياً تابعة لافريقية في عهد الخليفة يزيد بن الوليد بن عبد الملك . (١)

عنبة بن سحيم الكلبي :

تولى عنبة بن سحيم قيادة الاندلس في صفر سنة ١٠٣ هـ وسار على سنة سلفه في العناية بالأمور الداخلية في الولاية أولاً فنظم الخراج ، وقسم الأراضي بين المسلمين بدون جور على الأراضي التي لها ملاك أصليون من الأهل ، وكان يأخذ العشر من الذين خضعوا للمسلمين بدون قتال والخمس من لم

(١) أنظر : مختصر تاريخ العرب ص ١٣٢ ، المجلد في تاريخ الاندلس ص

يخضعوا الا بالسيف ، وطاف عنيسة في مختلف المقاطعات ينظر في مظالم الناس وينشر العدل بينهم بدون تمييز بين المواطنين مختلفى الأديان وقد انتفض عليه أهالى طرسونه فزحف اليهم وتمسك من احباط ثورتهم ودك حصونهم واقتصر من زعمائهم وبذلك استقرت أحوال البلاد داخليا واستتب فيها الأمن والنظام والعدل ، وقد قضى في سبيل تحقيق ذلك قرابة عامين (١) .

وفي سنة ١٠٥ هـ ولى وجه شطر فرنسا بجيش من خيرة المقاتلين أهل النية في الجهاد والحسبة في الثواب أعده لمناجعة الجهاد فاخترق جبال البرنية واسترد معاقل المسلمين التي فقدوها بعد هزيمة طلوشة واستولى على قرقشونة ونيمة وغيرهما من الأماكن المهمة وخافته جاليات القوط المجاورة فتحالفوا معه وتركوا مخالفة الأفرنج ولذلك يذكر رينو أن انتصارات عنيسة تعود إلى اللباقة وحسن الإدارة أكثرها مما تعود إلى القوة ، كما أن جهوده التي بذلها لاكتساب ثقة الأهلين قد قوت من مركز العرب في جنوب فرنسا (٢) وقد عامل عنيسة الأسرى الذين أسرهم من المدن الفرنسية معاملة حسنة وأرسلهم إلى برشلونة فساعد ذلك على ايجاد روابط الود بين المسلمين وأهالى الأندلس .

وقد تابع عنيسة سيره على الساحل حتى وصل إلى نهر الرون ، وبذلك استولى على إقليم بروفنس ثم تابع السير مع النهر شمالا فاستولى على ليون ووصل إلى أوتون في أعلى نهر الرون ، وغزا مدينة سانس ، وقويت شوكة المسلمين في جنوب فرنسا حتى أن أودودوق أكويتين خشى أن يهاجمه المسلمون مرة أخرى فطلب مفاوضات ومهادنتهم وقد نسب ايزودور الباجي

(١) تاريخ غزوات العرب لارسلان ص ٨٥ .

(٢) انظر- البيان المغرب ج ٢ ص ٢٧ مختصر تاريخ العرب ص ١٤٦ دولة

الإسلام بها الأندلس ص ٨١ .

وهذا النجاح إلى شخصية عنبسة فقال : كان نجاح عنبسة واجعا إلى الجراءة والبراعة أكثر منه إلى القوة والأكثرة ، وكان لينه حسن معاملته للسكان عاملا في تقوية سلطان الإسلام في جنوب فرنسا .

والحقيقة أن هذا هو طبيعة المد الإسلامي وصفة الجيش الإسلامي عند ماجند القائد الملتزم بأحكام الإسلام .

وقد أدى توغل عنبسة في هذه المساحات الشاسعة في فرنسا بما يفوق قوة جيشه الذي تناقص عدده في القتال ويترك بعض الحاميات خلفه ، إلى أن يتعرض أثناء عودته إلى الجنوب مع من بقي من جيشه بمجموع كبيرة من الأعداء . ترصت له وقامت بينه وبينها معركة حامية قاتل المسلمون فيها قتالا شديدا ، إلا أنهم فقدوا قائدهم عنبسة في شعبان سنة ١٠٧ هـ فاضطرب الجيش وانسحبت فلوله إلى أربونة وفقد المسلمون المدن والحصون التي استولوا عليها (١) .

وكما هي عادة المؤرخين الغربيين نجدهم أتركل انتصار المسلمين في أي مكان يحاولون أن يصفوا المسلمين بالقسوة والعنف والهمجية في حروبهم وبارتكاب فظائع يشيب لها الولدان ولا تليق بالإنسانية ولا بالساحة الإسلامية ، وذلك أثناء تغلبهم على الأماكن التي استولوا عليها (٢) .

ولا شك أن هذه الدعاوى الكاذبة لأساس لها من الصحة بالنسبة إلى المسلمين الذين لهم مثلهم العلياء وأهدافهم السامية في حروبهم ودوافعهم النبيلة إلى هذه الفتوح . وإنما يريد المؤرخون الغربيون بذكر هذه الفظائع تطبيع

(١) أنظر ذلك : مختصر تاريخ العرب ص ١٤٦ ، المجلد في تاريخ الأندلس ص

٥٦ ، دولة الإسلام في الأندلس ص ٨١ .

(٢) أنظر تلك الأوصاف في تاريخ غزوات العرب في فرنسا لارسلان ، ص ٧٣-٨٠ .

تاريخ المسلمين وتشويه حقائقه الناصعة . وإذا حدث أن ارتكب واحد من الجنود الذين لم يتمم سلوك الحرب الإسلامية وتعاليمها في نفوسهم شيئا من هذه الفظائع فإنه كان يؤخذ عليه بصرامة حتى يكون ذلك زاجرا لغيره عند ارتكاب مثل هذه الأفعال .

والحقيقة التي لا مرية فيها أن هذه الأعمال الهمجية التي أظن في ذكرها هؤلاء المؤرخون لم تقع من المسلمين وإنما ارتكبها البربر البشنيون الذين كانوا الايزالون غانصين في لجج الوثنية والقادمين من شمال شرق أوروبا ولذلك قال رينو بعد أن أورد الأوصاف البشعة التي ذكرها هؤلاء المؤرخون : « إلا أنه يعترضنا في هذه الروايات كون المؤرخين الذين ذكروها لم يصرحوا بأن أصحاب هذه الغارات من السرازين (١) ، ولا ثمة لفظة تدل على أن الذين فعلوا هذه الأفعال هم مسلمون بدون شك بل كان المؤرخون يشيرون إليهم بقولهم « وندال » ، وطالما كانوا يطلقون هذا الاسم في النصف الأول من القرن العاشر على المجرار عندما جاء هؤلاء إلى ألمانيا ودخلوا إلى فرنسا واكتسحوا « الازاس » ، و « واللورين » ، « فرانش كوتى » ، و « برغونيا » ، و « شبانيا » ، وغيرها (٢) .

ومن العجيب أن يذكر رينو أن المسلمين عندما قدموا إلى فرنسا وتغلغلوا في أحشاء البلاد لم يكن لهم خطة مرسومة معينة في مغازيمهم وصراميمهم وأنهم لم يجدوا في البداية من أهل فرنسا إلا مقاومة واهية وعزما مشمتا . والحقيقة أن المسلمين كانت أهدافهم واضحة وهي بسط سلطانهم على شمال البحر المتوسط مثل ما فعلوا في جنوبه وأن خططهم كانت متتابعة

(١) السرازين : لقب المسلمين عند الأفرنج في ذلك الوقت .

(٢) تاريخ غزوات العرب في فرنسا لارسلان ص ٨٠

الاجارة مرة بعد مرة كما حدث في أفريقيا ولولا الأحداث التي جرت في
في داخل الدولة الاسلامية لتحقيق لهم في شمال البحر المتوسط مثل ما تحقق
لهم في جنوبه .

وكذلك فقد اتى المسلمون في هذه الغزوات المتكررة مقاومة قوية
وتجمعات كبيرة وما حدث انسحاب أو استشهاد لقائد من قواد الفتح
إلا في معركة كان تعداد جيش الفريخ يفوق جيش المسلمين بمرات كثيرة
وإن كان المؤرخون العرب لم يذكروا لنا تعداد جيوش المسلمين أو جيش
أعدائهم ولم يذكروا لنا ما قدم المسلمون من الشهداء في هذه الغزوات
المتتابعة وما فقد أعداؤهم من القتلى والأسرى خلال مقاومتهم لتقدم المسلمين
في أراضيهم .

ومهما يكن من أمر فقد انسحب الجيش الاسلامي بعد استشهاد عنبة
إلى أرونة بقيادة عذرة بن عبدالله الفهرى وتوقفت تلك الغزوات إلى أن
تولى الهيثم بن عبيد السكتاني الأندلس سنة ١١١ هـ فاستأنف الفتح في
فرنسا . وقد تولى الإمارة في الأندلس بعد استشهاد عنبة إلى ولاية الهيثم
ثلاث ولايات : يحيى بن سلمة السكتاني سنة ١٠٧ هـ من قبل أمير المؤمنين هشام
بن عبد الملك وحذيفة بن الأحوص الأشجعي سنة ١١٠ هـ ، وعثمان بن أبي
نسعة الخثعمي سنة ١١٠ هـ ومن قبل والي أفريقيا .

وقد أدى تنابح الولاة مع قصر المدة لكل منهم إلى اضطراب في إدارة
الأندلس وإلى إيقاف الغزو مما شجع الأفرنج على مهاجمة المواقع الشمالية
ويمكن القوط المعتصمين في شمال الأندلس من لم شملهم وتقوية صفوفهم
وتنظيم قواتهم فاشتدت حركتهم داخل المضاب النائية حول قائدهم بلاي
الذي تمكن من وضع أسس اقيام الدولة النصرانية في الشمال .

وعندما تولى الهيثم بن عبيد السكتاني إمارة الأندلس بذل جهدا مشكورا

في بث السكينة والأمن في ربوع البلاد وتمكن من تدمير حصون القويط ومعاقلهم في الشمال . وغزا منوسة^(١) أو أرض مقوسة^(٢) أو أرض مقرشة^(٣) فانتحها . ثم توجه إلى ما وراء البرنية حتى وادي الرون فاستولى على ليون ، وماسون ، وشالون ، وبون وأوتون ، وصالحته بعض المدن الأخرى . وقد حدث خلاف بين قوى الجيش أدى إلى عودة الهيثم إلى الجنوب حيث توفي ولم يحتفظ المسلمون بهذه المدن وضاع الجهد الذي بذلوه سدى .

وتولى أمانة الأندلس بعد موت الهيثم محمد بن عبدالله الأشجعي ، وذلك لمدة شهرين حتى أسندت إلى عبدالرحمن بن عبدالله الغافقي إمامة الأندلس من قبل عبيدة بن عبد الرحمن السلمي وإلى أفريقية^(٤) .

وقبل أن أتحدث عن إمامة الغافقي أحب إلقاء نظرة على ما يذكره المؤرخون الغربيون وبورده سيد أمير على وعنان في كتابيهما عن منوسة ومحاوَلته الاستقلال بالمنطقة الواقعة غرب البرنية ، ثم انشقاغه على المسلمين ومحاربة الهيثم له . فقد تردد للمؤرخون في بيان حقيقته : فمرة يقولون هو حاكم عربي ومرة : هو حاكم بربري وأخرى : هو حاكم نصراني ، ثم يذكر مرة أنه من لامبجيا ابنة أودودوق أكوئين ومرة من أخت بلاجبوس زعيم جليقية القوطي . . . إلخ . وأنه عقد معاهدة دفاع مع أودو وطلب من أمير

(١) رواية ابن عذارى ج ٢ ص ٢٨

(٢) نفتح الطيب ج ١ ص ٢٠

(٣) ابن خلدون ج ٣ ص ١١٩

(٤) البيان المغرب ٢ / ٢٨ ، مختصر تاريخ العرب ١٤٦ ، دولة الإسلام

الأندلس المصادقة عليهم. وكذلك يتحدثون عن أطماعه السياسية في الاستقلال ثم رغبة المصاهرة من فناة بارعة الجمال . ويتخذون ذلك وسيلة لاستقلال الحاكم بما نحت يده فيأني والى الأندلس ويكشف القناع ويقاتله ويقتله ويقضى على لامبجيا ويرسلها إلى دمشق .

ومع مرض صحة ما يذكر فاني أميل إلى أن منوسة لم يسكن عربيا ولا بربريا ، وإنما كان نصرانيا أسد إليه المسلمون إدارة منطقة قرب البرنية ولا مانع من ذلك لأننا رأينا في البداية أن المسلمين أسندوا إدارة بعض المدن إلى النصارى كما حدث في طليطلة ، ومن يدري فلعله أيضا كان حاكما سابقا لتلك المنطقة وصالح المسلمين فتركوا له إدارة البلاد مثل تدمير ، ثم نقض العهد أو أدخل بالشروط فخاربه المسلمون وذلك لأن المصادر العربية لا تذكر سوى أن الهيثم غزا منوسة أو أرض مقوشة

أما قصة الحب والزواج والقبح والجمال التي يوردها المؤرخون الأفرنج فهي من الأمور التي تذكر لحبك القصة التي يراد اختراعها . لأننا لا نصدق انتقاض حاكم مسلم سواء كان عربيا أو بربريا في ذلك الوقت المبكر لأن الظروف كانت ، لا تسمح له بالاستقلال في منطقة مازلت ميدانا للغزو ولم تستقر فيها الأمور بعد . ثم لأن الجنود الذين نحت أمرته لا يوافقوه على ذلك . فهو لا يملك القوة لتنفيذ هذا الاستقلال بالنسبة للمسلمين لا شقاؤه عليهم ، ولا بالنسبة للمسيحيين لأنه لا يضمن واهم له بالمعاهد التي عقدها معهم حسب زعمهم فوضعه مضطرب لا يسهل له عملية الاستقلال أو الانشقاق على المسلمين (١)

(١) انظر مختصر تاريخ العرب ص ١٤٨ ، دولة الاسلام ص ٨٤ - ٨٨ ،

أندلس العرب حبيب جاماني ص ١٤ .

عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي :

تولى عبد الرحمن الغافقي إمارة الأندلس في صفر سنة ١١٢ هـ وكان يتسم بحسن الإدارة وسياسة الأمور بحكمة ، بجانب مهارته في القيادة العسكرية وطموحه وآماله العريضة في أن يأخذ بثأر من استشهد من المسلمين وقوادهم في فرنسا وكان يأمل في تحقيق ما عجزوا عنه بالاستيلاء على فرنسا .

وقد بدأ عبد الرحمن أعماله بالأصلاحات الداخلية في الأندلس : فعمل على نشر العدل ورفع المظالم وقام بجولة في ربوع الأندلس قضى فيها قرابة عامين وطاف خلالها بمعظم مدن الأندلس مستمعاً إلى شكاوى الرعية وناظراً في أمورهم وتحقيقاً لمصالحهم ، فمزل كل من ثبت جورته من الحكام المحليين ومن أهمل أو أخل بواجباته وعين بدلامهم رجالاً اشتهروا بالعدالة والنزاهة وحسن السمعة .

وقد عامل عبد الرحمن المسلمين والمسيحيين واليهود على قدم المساواة بدون تمييز ، فأعاد للمسيحيين الكنائس التي انتزعت منهم وكان لهم الحق فيها وفقاً للعهود ، كما نظم الإدارة المالية وعاقب بشدة من أثار شغباً أو أحدث فتنة أضرت بالرعية وبذلك تمكن من توطيد الأمن ونشر السلام والاستقرار في ربوع البلاد .

ومع اهتمام عبد الرحمن بالأصلاحات الإدارية فقد عنى بأعداد الجيش وحسن اختيار عناصره وقواده وتدريبهم وتنظيمهم وتمرينهم بالمهمة الكبرى التي ستلقى على عاتقهم وأثار فيهم روح التضحية والفداء وأعلن الدعوة إلى الجهاد في سبيل الله فانضم إليه كثير من خيرة المقاتلين في أفريقية والأندلس . وبذلك نجح لديه جيش كبير كان يأمل أن يحقق به ما عجز عن تحقيقه الولاة قبله وأن يبدط سيادة المسلمين على فرنسا .

وفي بداية سنة ١١٦٤م / ٧٣٢م تحرك ذلك الجيش الضخم بقيادة عبد الرحمن مخترقا البرنية عن طريق بنبلونة ودخل فرنسا متوجها شرقا إلى مدينة آدل الواقعة على نهر الرون لامتناعها عن أداء الجزية ودارت على شواطئ الرون معركة شديدة تغلب فيها المسلمون واستولوا على المدينة وزحف عبد الرحمن بعد ذلك نحو الغرب وعبر نهر الجارون منقضا على ولاية أكرتين التي تصدى للدفاع عنها الدوق أود وبجيش كبير فدارت معركة عنيفة بينه وبين المسلمين في مضيق دوردون هزم فيها الدوق ومزق جيشه شرمزق ، وتمسك الدوق من الفرار ببعض رجاله إلى الشمال وبهذا بسط المسلمون سيطرتهم على ولاية أكرتين كلها .

ثم عاد الجيش الاسلامي ثانيا نحو الشرق مخترقا برجونية واستولى على ليون وبيزانصون وصانص التي تبعد قرابة مائة ميل من باريس ، وبذلك تم للمسلمين الاستيلاء على النصف الجنوبي لفرنسا كله من الشرق إلى الغرب ولم يبق إلا الاتجاه نحو عاصمة الفرنج .

وقد تم هذا في أشهر قليلة . وترك عبد الرحمن في المدن التي استولى عليها حاميات قوية من جيشه للاحتفاظ بسلاطنته أن المسلمين فيها . ولكن حرصه على قوة هذه الحاميات مع كثرتها قد أدى إلى ضعف قوة الجيش الذي معه والذي انجحه به نحو عاصمة الفرنج حيث اللقاء مع شارل مارتيل معه والذي في بلاط الشهداء .

موقعة بلاط الشهداء :

عندما هزم الدوق أوردون في مضيق الدوردون وفقد كل أكرتين انجحه إلى شارل مارتيل - الذي كان أمير القصر في دولة الفرنجة وكانت الساطة

الحقيقية لدولة الفرنج في يده - وطلب منه العون والسجدة والوقوف معه في صد هجوم المسلمين ومحاربة استرجاع اكوتين التي استولوا عليها منه فسارع شارل مارتيل إلى إجابته وسار بجيشه حتى التقى بالمسلمين في موقعة بلاط الشهداء في السهل بين تور وبواتيه .

ولاشك أن شارل مارتيل كان يعلم بتحركات المسلمين في جنوب فرنسا ويعلم أنهم سوف يقصدون دولته بعد الاستيلاء على أكوتين فاستعد لذلك اللقاء وجمع جيشا كبيرا من فرنسا ومن القبائل المتوحشة في حدود الدانوب والآل وقفار المانيا ، ولكنه لم يتحرك للقاء المسلمين عندما وطشوا جنوب فرنسا ليلتقيهم في شمبانيا أو اكوتين وإنما ترك الجيش الإسلامي يذهب شرقا وغربا ويفتح المدن ويخوض المعارك وينرك الحاميات هنا وهناك ويفقد بعض الجنود في المعارك المختلفة التي خاضها ضد أودو وكأنه يريد بذلك أن ينهك جيش المسلمين قبل اللقاء به وأن يحدد الزمان والمكان الذي يلتقى فيه بجيش المسلمين وكان يعد لهذا اللقاء في سر وكتمان عجز جواسيس عدد لو حمن عن اكتشافه حتى كان اللقاء الحاسم .

فما نظن أن شارل مارتيل استعد للوقوف في وجه المسلمين عندما استنجد به أودو وإنما كان يستعد لهذا اللقاء من قبل . وبقى يتخير الزمان والمكان المناسبين هذا ما يذكره الحجاجي في المسهب و فاجتمعت الأفرنج إلى مذبحها الأعظم قارلة ، وهذه سمة للمسلم ، فقالت له . ما هذا الخزي الباقي في الأعقاب ؟ كنا نسمع بالعرب ونخافهم من جهة مطلع الشمس حتى أتوا من مغربها واستولوا على بلاد الأندلس وعظيم ما فيها من العدة والعدد يجمعهم القليل وقلة عدتهم وكونهم لادرع لهم . فقال لهم ما معناه : الرأي عندي أن لا نعترضهم في خرجتهم فاهم كالسيل يحمل من يصادفه وهم في إقبال أمرهم ولهم ثبات تغني عن كثرة العدد وقلوب تغني عن حصانة الذروع

ولكن أمهلهم حتى تمتلئ أيديهم من الغنائم ويتخذوا المساكن ويتنافسوا على الرياسة ويستعين بعضهم ببعض حينئذ يتمكنون منهم بأيسر أمر (١) ، وكان ذلك مما أعطى لجيش الفرنجة شيئا من الشك أمام المسلمين وأمر آخر ثبت جيش الفرنجة في وجه المسلمين وهو أنهم يشعرون بالتعب والأرهاق من القتال وطول التطواف قبل هذه المعركة مثل الجيش الإسلامي .

ولم يكن بينهم - أي بين جيش شارل - عبد يحارب في صفوف ساداته الممقوتين بل كانوا اخوانا أبطالا ملتفتين حول رئيس يعدم أقرانا له (٢) فامتازوا بذلك عن جيش لذريرق الذي التقى به المسلمون بقيادة طارق قبل ذلك في موقعة شريش كان هذا هو وضع جيش الفرنجة قبل خوض هذه المعركة الفاصلة .

أما جيش المسلمين فكان قد انتهى من الاستيلاء على مدينتي بواتيه وتور، وعندما أراد عبد الرحمن أن يعبر نهر اللوار كان جيش الفرنجة قد وصل إليه دون أن يشعر المسلمون بقدومه . وهنا رأى عبد الرحمن أن ينسحب بجيشه من شواطيء اللوار واستعد للمعركة في السهل الواقع بين تور وبواتيه . وكان الجيش الإسلامي قد فقد بعض رجاله في المعارك التي خاضها وترك بعضها في الحاميات التي خلفها في المدن ، بالإضافة إلى أنه قد شعر ببعض الأرهاق من الحروب التي خاضها في الأشهر السابقة ومع ذلك ففي يده كثير من الغنائم التي حصل عليها من حروبه السابقة ويحرص بعض الجنود عليها حرصا شديدا أو يرون وجوب المدافعة عنها بعد أن حصلوا عليها . بل كان بعض هؤلاء الجنود يفضلون عدم اللقاء بالعدو والانسحاب بالأسلاب التي في أيديهم .

(١) عن نفتح الطيب ج ١ ص ٥٧ .

(٢) تاريخ العرب الإمام اسبديو ص ١٦٨ .

وقد حاول عبد الرحمن أن يثنى هؤلاء الجنود عن التمسك بالأسلاب حتى لا نعوقهم في خوض المعركة ولكن محاولته لم تحقق النجاح المطلوب فرأى أن يخوض المعركة قبل أن يحدث الانشقاق في جيشه وبذل كل جهده وطاقته لحل الجيش على القتال بصدق وإخلاص . فلما التقى الجمعان وابتدأ المسلمون القتال في أواخر شعبان سنة ١١٤ هـ بمناوشات استمرت ثمانية أيام رجحت فيها كفة المسلمين ، وفي اليوم التاسع خاض الجمعان معركة عنيفة استمرت إلى أن أدرخى الليل سدوله ونحاجز الجمعان ثم استؤنف القتال في اليوم العاشر بشراسة وقسوة وشدد المسلمون حملتهم على الفرنج حتى كادوا أن يقطعوا ثمار النصر غير أن فرقة من الفرنج تمكنت من الوصول إلى المكان الذي فيه الغنائم وأشيع بين صفوف الجيش الإسلامي أن الغنائم سيستولى عليها العدو وهنا ترك بعض الجنود مواقعهم الامامية ليدافعوا عن الأسلاب ، مما أدى إلى خلل في صفوف المسلمين وحاول عبد الرحمن جهده ليعيد النظام إلى صفوفهم وتقدم الصفوف بقودها ويجعل من نفسه سدا منيعا أمام الأعداء وهنا أصابه سهم من الأعداء ، فسقط شهيدا في ميدان القتال واضطرب المسلمون لاستشهاد قائدهم وشدد الفرنج الحيلة واغتنموا هذه الفرصة ، ألا أن المسلمين صمدوا في ميدان القتال وثبتوا لأعدائهم يقاتلوهم حتى حجز الليل بين الجيشين وعاد كل جيش إلى مواقعه دون أن يحقق أحدهما النصر على الآخر وكان ذلك في أوائل رمضان سنة ١١٤ هـ .

كان على المسلمين أن يتدروا موقفهم بعد استشهاد قائدهم عبد الرحمن وهنا اختلف رأى القادة بين مواصلة القتال والأنسحاب ، فواصله القتال قد تأتى بالنصر وقد تأتى بالهزيمة ، والأنسحاب لاهزيمة فيه ولا نصر .

وبعد تداول الآراء استقر الرأي على الانسحاب ، فغادر المسلمون
أماكنهم في ظلام الليل متجهين إلى سمتانيا محلقين خيامهم وجرحاهم الذين
لم يستطيعوا حملهم معهم .

ولاحظ جيش العدو في الفجر الهدوء يسود معسكر المسلمين . فظن
شارل وأود وأن في الأمر خدعة فتقدمت فرق من معسكر الفرنج بحذر
نحو معسكر المسلمين فتبين لهم خلو المعسكر من المقاتلين عدا بعض الجرحى
فأجهزوا عليهم وفرح شارل بذلك ولم يتعقب المسلمين وإنما اكتفى بانسحابهم
وعاد مسرعا بجيشه نحو الشمال . وقد سمي المسلمون المكان الذي دارت فيه
المعركة بلاط الشهداء لكثرة من استشهد فيه من عظام الرجال مع عبدالرحمن .

منزلة هذه المعركة :

وقد أشاد المؤرخون الغربيون بهذه الواقعة وقالوا عنها أنها قد حمت
أوروبا من فتح المسلمين ، وأنها كانت السد المنيع الذي أوقف المد الإسلامي
من أن ينتشر في أوروبا ، وأن جيش المسلمين قد مرق فيها شر ممزق ولذلك
بالغوا في عدد الشهداء من المسلمين حتى وصلوا بهم إلى أضعاف مضاعفة
بالنسبة لعدد الجيش الأصلي . . . الخ .

ولنا أن نقول : إذا كانت الحرب قد ظلت طوال هذه الأيام العشرة
بدون أم تتحقق هزيمة أحد من الجانبين فإن المسلمين مساء اليوم العاشر
الذي استشهد فيه عبد الرحمن — رغم استشهاده عبد الرحمن ورغم انسحاب
عدد كبير من الجند لحماية مغائرتهم — قد تمكنوا من الصمود في المساء
وكان من الممكن لهم أن يحققوا النصر وأن يصمدوا أمام شارل ماد تبيل
إلى أن يقضى الله أمرا كان مفعولا كان من الممكن أن يحدث ذلك إذا حاولوا
أن يستفيدوا من الدرس الذي تلقوه نتيجة لانصراف بعضهم لحماية الغنائم
وذلك بأن يسروا صفوفهم ويسقطوا الدفاع عن الغنائم من حسابهم .

إلا إذا كان ذلك حسب تخطيط حربي ثم يوجهوا كل طاقاتهم إلى قتال شارل وجيشه بعد أن يجمعوا على زعيم آخر يخلف عبدالرحمن ربما لو فعلوا ذلك لكان للمعركة وجه آخر غير هذه النتيجة التي انتهت إليها .

ولكن يبدو أن القائد لم يستشهد وحده إنما استشهد معه عدد من كبار القواد وأدى ذلك إلى عدم الاتفاق على رأى فى اختيار من يخلفه وكان الأرهاق من الحروب التى خاضوها قبل المعركة والجهد الذى بذلوه خلال المعركة بالإضافة إلى حرص بعض الجنود على المغام التى فى قبضتهم وخوفهم من ضياعها . - إذا كانت الدائرة عليهم - من العوامل التى أدت إلى تغليب رأى القائلين بالانسحاب ، وأضطر عند ذلك بقية الجند إلى تفضيل الانسحاب ، من أرض المعركة حتى لا تكون هناك هزيمة محققة ، وحق عليهم القول : فازوا من اللغزيمة بالاياب .

وإذا نظرنا بعين الحقيقة إلى انسحاب المسلمين من معركة بلاط الشهداء لوجدناه مثل انسحابهم من طولوشة منذ اثنتى عشرة سنة . وليس هناك فرق بينهما : فقد انسحب المسلمون عقب قتل القائد فى كلا المعركتين . غير أن الفرجة فى الثانية كانوا أكثر عددا وتجمعوا من أما كن كثيرة فى طولوشة كان المسلمون يقاثلون قائد دوقية أ كوتين وحدها . بينما فى موقعة بلاط الشهداء كانت فرنسا وجيرانها ورئيس دوقية أ كوتين - بالإضافة إلى تأييد باياروما لهم مجتمعين لقتال المسلمين .

أما السبب فى عدم مواصلة المسلمين بعد ذلك للفتح فى فرنسا بجيش كبير مثل الجيش الذى كان تحت أمره عبد الرحمن الغافقى . فالسبب الحقيقى فى رأى يرجع إلى عوامل تتعلق بوضع المسلمين داخلها من شيوع الفرقة بينهم وأنشغال السلطة المركزية بمقاومة الخارجين عليها ثم سقوط الدولة . الأموية بعد ذلك فى دمشق ثم انفصال الأندلس عن السلطة المركزية فى بغداد وأصدق دايل على ذلك الهزائم التى كانت تحمل بالمسلمين أثناء فتح أفريقيا فقد كان بعض هذه الهزائم يستمر بضع سنوات ويسحب المسلمون

من البلاد والمدن التي استولوا عليها ، ثم يعود المسلمون ليستأنفوا القتال ثانيا ، حتى تمكنوا من فتح افریقیة كلها في أكثر من نصف قرن .

ولسكن الوضع في دولة المسلمين كان قد تغير فأدى ذلك إلى عدم استئناف الفتح في فرنسا لاثن الفرنجة أقوى من المسلمين أو لأن المسلمين انسحبوا من موقعة بلاط الشهداء وأما لأن المسلمين قد حدث ضعف فيهم في داخل جماعتهم التي تفرقت وربما حدث أهمال أو تكاسل وعدم جدية في تحقيق أهدافهم تتعلق بهداية البشرية والتي خرج المسلمون لأجلها من جزيرتهم ، فلم يعد نشر الدين وتعريف الناس بمبادئه هدفا لمجموعهم وإنما لقلة منهم ، بينما سبغوا معظمهم إلى الحياة وتمتعهم اغترارهم بأجسادهم العسكرية القربية فألهام ذلك من حسن الاستعداد وأخذ الخيطة عند لقاء عدوهم ، مما أدى إلى تخلخل في معنوياتهم وكان بيديا في إيقاف موجة الفتح الاسلامی في أوربا . (١)

ويرى ابن خلدون ، ويتفق معه المؤرخ الانجليزى الشهير ارنولد تويتى ومن سار على دربهما من المؤرخين ، أن كل فتح - خاصة في تلك العصور حيث الامكانيات العسكرية المتقدمة غير موجودة والامكانيات البشرية محدودة - له مدى ينتهي اليه ولا يمكن أن يتخطاه . ذلك لأن المسلمين بوصولهم إلى جبال البرنيه كانت فتوحاتهم قد بلغت منتهاها جهة الغرب والشمال الغربي كما أن وصولهم إلى نهر السند كان نهاية فتوحاتهم إلى الشرق . ووصولهم إلى ماوراء النهر نهاية فتوحاتهم في الشمال الشرقى . اذ لا يمكن لهذه الاتساع

(١) انظر : اسان المغرب ج٢ ص ٢٨ ، مختصر تاريخ العرب ص ١٤٧ ،

١٥١ ، المحمل للعبادى ص ٥٦ - ٦١ ، دولة الاسلام في الأندلس ص ٨٢ -

١٠٩ ، مع المسالين في الأندلس ص ١٠٧ - ١١٨ ، أندلس العرب ص ١٤ -

١٩ ، تاريخ الاسلام السيامى ج١ ص ٢٢٧ .

الشاسع والبعد عن المقر الرسمي للخلافة (دمشق) مع طول خطوط امداداتهم وتموينهم ، أن يستمر اطرادا لأن ذلك يحتاج إلى امكانيات هائلة لا يمكن لدوله مثل الاموية - والتي كانت تتعرض لفتن واضطرابات داخلية - أن تستمر في الفتح . ذلك لأنه الله تعالى - الحكمة لا يعلمها إلا سبحانه - لم يشأ للمسلمين أن يفتحوا هذه المناطق الأوربية الشمالية الغربية إذ لو شاء . لفتح عليهم مثلما حدث في معاركهم في صدر الاسلام وابان عنفوان الاميين .
عبد الملك بن قطن الفهرى :

كان لاستشهاد عبد الرحمن الغافقي ومن معه وانسحاب المسلمين من بلاط الشهداء دون تحقيق النصر هزة كبيرة في نفوس المسلمين . فأرسل والى افريقية في رمضان سنة ١١٤ هـ عبد الملك بن قطن الفهرى واليا على الأندلس في جيش من خيرة جند افريقية وأمره بالعمل على حماية الأندلس واسترجاع هيبة المسلمين وتثبيتها في جنوب فرنسا .

وكان بعض السكان في المناطق الشمالية في شبه جزيرة الأندلس قد حاولوا أن يستفيدوا من استشهاد عبد الرحمن ومن معه ويتخلصوا من الحكم الاسلامي فوجه اليهم عبد الملك جموده فساد إلى كتالونيا وارغون ونافار (١) وهزم الثوار في عدة معارك وأخبرهم على طلب الصلح والانقياد للمسلمين ثم توجه عبد الملك إلى لانكيدوك فثبت أقدام المسلمين فيها ونظم أمور الدفاع عنها حتى تمكن من الصمود في وجه الافرنج الذين كانوا يكثرون من الاغارة عليها .

(١) كتالونيا وهي بلاد الكتالان التي قاعدتها برشلونة ، وأرغون هي مملكة شمال أسبانية إلى الشرق ، ونافار هي البلاد المجاورة لأرغون والعرب يسمونها نايرا وأحيانا تبرونة : غزوات العرب لإرسلان ص ١٠٣ .

وكان حكام البلاد في مقاطعات سبتمانيا وبروفانس يدع بعضهم شارل مارتيل وبعضهم دوق أكوتين ولكنهم كانوا يميلون إلى التخلص من هذه التبعية والاستقلال ببلادهم . ولذلك نجد بعضهم يحالف حكام المساميين ليتق بأسر ملوك الأفرنج ، ومن هؤلاء موروند ، دوق مرسيليا وفي سنة ١١٦ هـ / ٧٣٤ م اتفق يوسف أمير أدبونة المسلم مع موروند دوق مرسيليا حيث زحف المسلمون بجيش كبير تمكن من الاستيلاء على مدينة آرل ثم تقدموا في مقاطعة البروفانس وحاصروا مدينة فرينا المعروفة بسان ريمي واستولوا عليها ثم توجه المسلمون إلى أفنيو وتمسكوا من الاستيلاء عليها بعد قتال عنيف مع حاميتها وبقى المسلمون يسيطرون على بلاد البروفانس أربع سنوات .

وبعد أن تمكن هبذ الملك بن قطن من استرجاع هيبة المسلمين بهذه الغزوات في أرض فرنسا عاد إلى جبال طبرينة لتأديب العصاة فيها فميت عليه عواصف وأمطار شديدة وهو في جبال وعرة . وقد مكنت هذه الأنواء العصابات الجبلية البسكونية من إلحاق خسارة كبيرة بجيشه فعاد إلى قرطبة دون أن يتمكن من بسط سلطان المسلمين عليهم^(١) .

عقبة بن الحجاج :

وقد عزل ابن قطن عن إمارة الأندلس في رمضان سنة ١١٦ وخلفه في الإمارة عقبة بن الحجاج السلولى الذى دخل الأندلس فى شوال سنة ١١٦ هـ / أواخر سنة ٧٣٤ م . ويعرف عقبة بالشجاعة وحسن الرأى فى

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٨ ؛ نفع الطيب ج ١ ص ٢٢٠ ، غزوات العرب لإرسلان ص ١٠٣ - ١٠٥ دولة الإسلام فى الأندلس ص ١١٠ - ١١١
مختصر تاريخ العرب ص ١٥٢ .

تدبير الأمور والنمساك بالعدل والتقوى ولذلك استبشر المسلمون بولايته وقد حقق عظمة خلال توليه إمارة الأندلس الهدوء والأمن في ربوع البلاد فنشر العدل ورد المظالم وحاسب العمال وعزل من ثبت ظلمه وحقبه وعاقبهم حسب جرمهم وولى مكانهم من اتصف بالعدالة والنزاهة والحرص على مصلحة الرعية وأمر العمال بتجنيد فرق لجباية الأمن والضرب على أيدي العابثين به . واهتم بدور العلم والعبادة فأسس كثيرا من المساجد والمدارس وعين لها من يقوم بشؤونها وتعليم الناس فيها ورصد لهم الأموال للانفاق منها . وكان لا يفرق في المعاملة بين الرعية فلا يحابي أحدا لإسلامه أو قرابته أو يظلمه لمخالفته له في الدين فاطمأن الناس في عهده وفرحوا بولايته .

وقد وجه عقبه جهوده الحربية أولا إلى شمال الأندلس عازما على تثبيت أقدام المسلمين فيها وجعلها سكنا لهم ففتح بنبلونة ومعظم جهات جليقية وغير الصخرة التي اجأ إليها ملك جليقية وكان بها في ثلاثمائة راجل فما زال المسلمون يضيقون عليهم حتى صاروا ثلاثين رجلا وحتى فنيت أزودتهم ولم يتقوتوا إلا بعسل يحدونه في خروق الصخرة واعي المسلمين أمرهم فتركهم ، (١) . ولعلمهم استصغروا شأنهم وظنوا أنهم يهلكون ولا يكون لهم شأن فعاد عقبه ومن معه موجها جهوده تجاه جنوب فرنسا دون أن يتم القضاء عليهم كما يرجع عنهم من قبل موسى بن نصير عندما استدعاه الخليفة . وإذا كنا نلتمس لموسى بن نصير عذرا في رجوعه عن القضاء على بلاى وعصابته المتصمة بالصخور بتليته لأمر الخليفة فإننا لا نجد عذرا يجعل عقبه بن الحجاج ومن معه يرجع عن بلاى ومن معه دون أن يقضى عليه . فقد كان القضاء على بلاى وعصابته خيرا مما قام به من بعد

(١) البيان المغرب ٢/٢٩٩

ذلك من تثبيت سلطان المسلمين في جنوب فرنسا . ذلك أن سلاطين المسلمين سوف ينكش ثم ينسحب من جنوب فرنسا كما سينكش ثم ينسحب من شمال الأندلس ، غير أن الفرنسيين سوف لا يستعابون مقاومة المسلمين في الأندلس بينما سوف يستطيع خلفاء بلاى وعصابتهم مقاومة المسلمين في الأندلس بل سيحملون أحقاد المسلمين بعد ثمانية قرون على مغادرة الأندلس أو البقاء مع ترك عقيدتهم الإسلامية واعتناق المسيحية وزادوا الطين بلة بسلبهم حريتهم فصاروا عبيدا بعد أن كانوا سادة وحكاما .

ومهما كان الأمر فقد وجه هبة جهود المسلمين الحربية بعد توطيد الأمن في شمال الأندلس تجاه جنوب فرنسا فتابع الجهاد خلال فترة ولايته التي استمرت أكثر من خمس سنوات فصارت أربونة موطننا للمسلمين ومكانا لسكنائهم ، أما مواقع القتال والحرب فكانت في الأماكن المكشوفة حتى نهر الرون حيث أقام المجاهدون في المراكز العسكرية والرباط ، من أجل الدفاع والاستشكشاف .

وفي سنة ١١٨ هـ / ٧٣٦ م توجه الجيش الإسلامي للاغارة على إقليم دوفينة (١) فاستولى على سان بول ، ودونزور وفالانس ، ومين وليون وغيرها وانتشرت طلائع الجيش الإسلامي في بوجونية مهددة عاصمة فرنسا ومحارلة استرجاع هيبة المسلمين والأخذ بنأر الجيش الإسلامي الذي استشهد قائده وبعض جنوده في بلاط الشهداء .

وكان شارل مارتيل مشغولا بمقاتلة الوثائقين هاجم في الشمال فأرسل أخاه هلد راند بجيش لصد المسلمين واستنجد بصهره وحليفه لوتيران ملك اللوماردين ، في إيطاليا ايدوا في قتال المسلمين الذين تمسكوا من جبال

(١) دوفينه : مقاطعة في شمال بروفانس وعربي ساهو وشرقي ليون غوروات

دوفينة وبيمونت (١) .

وقد ضرب شلد براند بجيشه الحصار على المسلمين في افينون ولحق به شارل مارتيل بجيش ثان وجاء لتورانده ملك اللومباردين بجيش آخر من إيطاليا حيث تمكنوا من الاستيلاء على افينون بعد حصار طويل وقضوا على حاميتها المسلحة مما اضطر الحاميات الإسلامية المنتشرة في بعض الأربطة أمام هذا الجيش الهائل إلى الإنسحاب والاعتصام في أربونة فتقدم شارل بجيشه الضخم وحاصرا بيونة فصمد له المسلمون فيها وردوا كل هجماته ورأى عقبة لإنجاد المدينة حتى لا تقع في يد شارل مارتيل فأرسل إليها مدداً عن طريق البحر إلا أن شارل شعر به وتمكن من منعه عن الوصول إلى أربونة وأنزل به خسارة فادحة ولم ينج منه سوى عدد قليل لجأ إلى السفن وذلك في سنة ١١١٩هـ / ٧٣٧م ومع عدم تمكن هذه النجدة من الوصول إلى أربونة إلا أن المسلمين في أربونة صمدوا للحصار ودافعوا عن أربونة ببسالة نادرة مما حمل شارل مارتيل إلى أن يرحل عن أربونة ويرفع عنها الحصار وفي أثناء إنسحابه نحو الشمال هدم كثيراً من الحصون والمدن التي كان يحتلها المسلمون فهدم مدينة بيزيه ، وأدج ، وماجلون ، وأحرق مدينة نيمة بآثارها الرومانية الفاخرة وهكذا حول البلاد إلى خراب بلقع بعد أن كانت عامرة مزدهرة أيام المسلمين وذلك ليمنع تقدم المسلمين إلى هذه البلاد وربما يشبه عمله هذا ما قامت به الكاهنة في شمال أفريقية عندما هزمت حسان بن النعمان .

وقد حاول المسلمون بقيادة عقيه بن الحجاج الاسترجاع هذه البلاد ثانية

(١) بيمونت : هي البلاد الواقعة في شمال إيطاليا وتعرف باسم بيمونت

في سنة ١٢٠ ، ١٢١ هـ ولكن الفرنج بقيادة شارل مارتيل تكاثروا عليهم واضطروهم إلى الانسحاب من بروفانس ومعظم مدن سبتيانيا ولم يبق للمسلمين سوى أربونة ورقعة من الأرض بين أربونة والبرنية .

وإذا كان هجوم المسلمين على جنوب فرنسا برأ قد اتى مقاومة عنيفة وصارت أراضي جنوب فرنسا في مد وجزر بين المسلمين والافرنج خلال حياة شارل مارتيل . فإن ذلك لم يمنع المسلمين من أن يتابعوا غزواتهم البحرية على المدن الواقعة على شواطئ فرنسا الجنوبية وعلى الجزر الغربية منها .

فقد أنشأ المسلمون منذ الفتح دور الصناعة لبناء الأساطيل البحرية في كثير من موانئ الأندلس عدا دار الصناعة العظيمة المقامة في تونس . وكان للمسلمين في الأندلس قائد للبحر يسمى أمير الماء وقد حرف بعد ذلك إلى أميرال .

ومع كل هذه الجهود الضخمة فلم يتمكن المسلمون من تحويل جنوب فرنسا إلى أرض إسلامية لأسباب سنتحدث عنها فيما بعد .

وربما — أمام هذا الوضع — وهو عدم تمكن عقبة من الثبات في وجه العدو — ثار أهل الأندلس على عقبة بن الحجاج فعزلوه وولوا مكانه عبد الملك بن قطن للمرة الثانية . وقال ابن القطان : أن عقبة بن الحجاج لما حازت وفاته استخلف عبد الملك بن قطن على الأندلس سنة ١٢٢ هـ (١) .

(١) ابن حمدون ٤٣ ص ١١٩ ، البيان المغرب ج ٢ ص ٢٩ ، ٣٠ نفع الطيب ص ٢٢٠ ، ٢٢١ ، مختصر تاريخ العرب ص ١٥٢ ، ١٥٣ ، غزوات العرب في فرنسا ص ٩١ — ١٠٨ ، دولة الإسلام في الأندلس ص ١١١ — ١١٥ .

ولاية عبد الملك بن قطن الثانية :

وكانت ولاية عبد الملك بن قطن الثانية فترة لقيام الثورات وانتشار الفتن واضطراب الأمور في الأندلس وقد كانت أسباب الاضطراب من خارج الأندلس وداخلها . فن خارج الأندلس نجد أن المغرب الأقصى اضطربت الأمور فيه لانتشار مذهب الخوارج الصفرية وتزعيم ميسرة المدغري ثورة البربر ضد الحكام المسلمين العرب حيث قتلوا حاكم طنجة وحاكم السوس ودعوا لمسيرة بالخلافة وقاتلهم وإلى أفريقية ولكن المسلمين هزموا في معركة الأثراف سنة ١٢٣ هـ بعد أن قدموا كثيراً من الأبطال فولى الخليفة هشام بن عبد الملك على أفريقية كلثوم بن عياض القشيري وأرسل معه جيشاً بقيادة بلج بن بشر القشيري لقتال البربر والقضاء على فتنة الخوارج في أفريقية وانضم إليهم جنود أفريقية وساروا نحو المغرب الأقصى حيث ألقوا بخوارج البربر تحت قيادة خالد بن حميد الزناتي في وادي سبو ودافع بين الفريقين معركة دهيبة انتصر فيها البربر واستشهد كلثوم بن عياض واشتد جموع العرب المسلمين فلحق بعضهم بالقيروان ولجأ بلج بن بشر في عشرة آلاف من أهل الشام إلى سببة فتحصنوا بها فحاصرهم البربر وأشدت عليهم الحصار فطلبوا من عبد الملك بن قطن أن يساعدهم في العبور إلى الأندلس فاعطاهم في البداية خورفا منهم على مركزه وسلطانه .

ولكن أحداث أفريقية التي انتصر فيها البربر في المغرب الأقصى كان لها تأثير في داخل الأندلس بين البربر والعرب فتطاول البربر في الأندلس على العرب في التي يكثر فيها البربر في الشمال في جليقية وغيرها وكانوا العرب وطردهم المناطق وكاد أن يحدث في الأندلس ما حدث في أفريقية . عند ذلك اضطرب عبد الملك ابن قطن أن يسمح لبلج وأصحابه وبعاونهم في العبور إلى الأندلس ليستعين بهم في القضاء على ثورة البربر في الأندلس وشرط عليهم مقام سنة بالأندلس ثم يخرجوا عنها فرضوا بذلك وأخذ منهم رهائن أنزلهم بجزيرة أم حكيم .

وعبر بلج ومن معه إلى الأندلس سنة ١٢٣ هـ وقدم لهم ما يحتاجون إليه من الطعام واللباس واجتمعوا إلى جيش عبد الملك ثم انجموا إلى البربر المجتمعين في شدونة فهزموا البربر وأصاب بلج منهم غنائم كثيرة . ثم اتجهوا إلى قرطبة حيث ردوا جموع البربر عنها بعد قتال عنيف . فاجتمعت جموع كثيرة للبربر قريباً من طليطة فزحف إليهم عبد الملك وبلج بعرب الأندلس وتمسك العرب من هزيمة البربر بوادي سليط وقتلوا منهم عدة آلاف وبذلك قضى على فتنة البربر في الأندلس وأشدت ساعد بلج وأصحابه (١) .

لم يكن القضاء على فتنة البربر بالأندلس بشيراً باستقرار الأمور بالأندلس وإنما أعقب ذلك فتنة بين العرب أنفسهم . فقد طلب عبد الملك بن قطن من بلج وأصحابه الرحيل عن الأندلس حسب الشرط الذي أخذه عليهم فقال بلج أحملنا إلى ساحل البيرة أو ساحل تدمير ففان لهم عبد الملك إيست لنا مرآكب إلا بالجزيرة قال له : إنما تريد أن تردنا إلى البربر (أى المغرب الأقصى) ليقتلونا في بلادهم . فلما ألع عليهم عبد الملك في الخروج من بلج ومن معه من أهل الشام وقبضوا على عبد الملك وقلوه في هلاك أحد الرهائن التي كانت تحت يده وتولى بلج إمارة الأندلس في أول ذي القعدة سنة ١٢٣ هـ (٢) .

ولاية بلج بن بشر ، وثعلبة بن سلامة :

وفي ولاية بلج بدأ الصراع بين العرب أنفسهم فقد حشد أمية وقطن اسي عبد الملك جموعاً كثيرة في سرقسطة لغت أكثر من مائة ألف وانهم إليها عبد الرحمن بن حبيب الفهري وعبد الرحمن بن علقمة النهدي حاكم

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠ ، ٣١ ، دولة الاسلام في الأندلس ص ١٢١ ،

(٢) المرجعان السابقان : الأول ج ٢ ص ٣٢ ، ٣٣ ، والثاني ص ١٢٢ .

أربونة وفارس الأندلس وكل من أنكر قتل عبد الملك بن قطن ، وسارت هذه الجوع إلى قرطبة حيث خرج إليهم بلج في عشرين ألفاً من أنصاره ودارت بين الفريقين معركة شديدة قتل فيها أحد عشر ألفاً وانتصر فيها الشاميون رغم قتلهم إلا أن بلجا أصيب بجراح توفي منها بعد أيام . فولى أهل الشام في شوال سنة ١٢٤ هـ ثعلبة بن سلامة الجندي إمارة الأندلس وقالوا ان ذلك كان بعهد من هشام بن عبد الملك أو من كلثوم بن عياض كما ذكروا ذلك في ولاية بلج^(١) قبل ذلك . وقد حاول ثعلبة إصلاح البلاد ونشر العدل إلا أن سلطة الحكومة المركزية في الأندلس كانت قد ضعفت ، وحاول حكام الولايات الوسطى والشمالية الاستقلال والانفراد بالتفوذ ، ونشبت الحرب مرة ثانية بين الشاميين بتميادة ثعلبة وبين أبناء عبد الملك بن قطن ومن انضم إليهم ودارت بينهما معارك حامية حول ماردة قتل فيها خلق كثير وانجملت الحرب عن انتصار ثعلبة على خصومه وأسر ألفاً منهم عاد بهم إلى قرطبة .

ولاية أبي الخطار الحسام بن ضرار الكلبى :

وفي مطلع سنة ١٢٥ هـ أرسل حنظلة بن صفوان والى أفريقية أبا الخطار الحسام بن ضرار الكلبى واليا على الأندلس فقدم إلى قرطبة وتسلم السلطة من ثعلبة وعنى عن الأسرى الذين كان يريد ثعلبة قتلهم . وقد حاول أبو الخطار أن يعيد الأمن والسكينة إلى البلاد وتمسك بالتسامح والعدل وأحبه الناس وأجتمعت عليه أهل الشام وعرب البلد وانقاد له الحكام الخارجون على سلفه فأحسن إليهم ومن أبى الانقياد له خرج من الأندلس . وقد فرق أبو الخطار جنده الشام وأنزلهم في مدن مختلفة حسب المدن التي قدموا منها وكانه يراعى هنا رابطة البلد والمكان الذى ينتسب إليه لفرد لرابطة القبيلة وأنهى

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٣ .

الحكم الذاتي الذي كانت تتمتع به تدمير (مرسية) بعد وفاة تيودمير لأنه رأى أن تلك المعاهدة التي عقدت معه كانت تتعلق بفترة حياة تيودمير ولا تتجاوز إلى أبنائه من بعده وبذلك ضمت تدمير إلى باقى إمارات الأندلس وبذلك تم للمسلمين بسط سلطانهم الفعلى على جنوب الأندلس كله .

كان شعور المسلمين بالمساواة من أبى الخطار بين جميع القبائل عاملا أدى إلى الرضا عنه وتأيمده وطاعته من الجميع ولكن يذكر المؤرخون أن أما الخطار مال بعد ذلك إلى اليمنيين وحاباهم على حساب المضريين مما أدى إلى اشتعال نار الفتنة بين العرب من جديد .

وابتدأ الشر باسامة أبى الخطار إلى زعيم من زعماء المضرية هو الصميل ابن حاتم بن شمر ذى الجوشن وجده شمر من أهل الكوفة وبمن اشترك فى قتل الحسين بن هلى رضى الله عنه وكان الصميل شجاعا سخيا فالتف حوله المضرية وبعض الناقين على أبى الخطار من اليمنية كجندام ولخم فلما أهانه أبو الخطار بعث الصميل إلى خيار قومه فشكا إليهم ما حل به من هوان فثاروا معه وأيدته اخم وجندام من اليمنية . فقدموا عليهم ثوابة بن سلامة الجندامى واتجهوا نحو قرطبة فخرج إليهم أبو الخطار فمزموه وأسروه واتجه ثوابة ومن معه نحو قرطبة ودخل قصر الإمارة وأعلن اختيار ثوابة وهو يبنى أميرا على الأندلس سنة ١٢٨ هـ بدلا من أبى الخطار ووافق على ذلك والى أفريقية عبد الرحمن بن حبيب الفهري الذى انزع ولاية أفريقية من حنظلة بن صفوان ، وقام ثوابة بضبط الأمور فى الأندلس يماونه الصميل فاجتمع عليه جند الأندلس . وهنا نشير إلى مايقوله معظم المؤرخين من أن العصبية القبلية بين اليمنيين والمضريين كانت هى السبب دائما فى إثارة الخلاف والحرب بين العرب فى الأندلس فإن هذه الدعوى قد تقبل على إطلاقها إذالم نجد شيئا يدحضها : ومن ذلك إسناد الأندلس إلى ثوابة بن سلامة

الجزامى وهو يبنى مع أن معظم المنتصرين كانوا من مضر وفيهم الصميل بن حاتم ومن ذلك قتال جذام وهي يمنية مع الصميل قائد المضرية لأبي الخطار اليمنى والانتصار عليه ، فأسناد إمارة الأندلس إلى ثوابة بن سلامة الجزامى اليمنى بعد أن تحقق الانتصار يبنى أن الثورة سببها العصبية إذ المتوقع حينئذ . أن يتولى الإمارة رجل مضرى ولكن ذلك لم يحدث . وهذه الظاهرة تبين لنا أن هناك أسبابا أخرى كان يدور من أجلها الصراع فى الأندلس فى هذه الفترة الخرجة ، وأن كل فريق أو حزب كان يخوض الحرب لأنه يرى أن يولى الرجل الذى يطمئن إليه ويرتضيه ويحقق مطالبه سواء كانت هذه للمطالب تتعلق بالدين أو بالسياسة أو بالشرف والكرامة وسواء كان الشخص يمنيا أو مضرى .

وقد تمكن أبو الخطار من الفرار من أسره وتمكن من حشد جمع كبير من اليمنية لقتال المضرية واسترجاع الإمارة وقدم إلى قرطبة نخرج إليه ثوابة بمن معه من اليمنيين والمضريين ولكن جند أبى الخطار تفرقوا عنه فانسحب أبو الخطار ولم يلبث ثوابة أن توفى ن أوائل سنة ١٢٩ هـ .

وعندما توفى ثوابة ذر قرن الفتننة وعادت الحرب إلى ما كانت عليه . فقد أراد اليمنيون إعادة أبى الخطار إلى إمارة الأندلس ورفض ذلك المضريون بقيادة الصميل بن حاتم وحدث بين الفريقين صراع وقتال ظلت خلافة الأندلس أربعة أشهر بدون أمير وتولى الأحكام فيها عبد الرحمن بن كثير اللخمي برضاء من الفريقين .

آخر الولاية : يوسف بن عبد الرحمن الفهرى :

ولما تفاقم الأمر واشتد الخلاف خاف الزعماء من تطور الفتننة إلى أسوأ مما كانت عليه فانفقوا على تولية يوسف بن عبد الرحمن الفهرى المضرى .

الإمارة في ربيع الثاني سنة ٢٢٩ لمدة عام يتولى بعده أمير من اليمينية - وهكذا تبادل القبيلتان أو الحزبان بينهما الإمارة فيكون الحكم لكل منهما مدة عام . ولما استقام الأمر ليوسف عزل يحيى بن حريث أحد الحكام اليمينيين فغضب ودعا اليمينيين إلى الثورة معه وكاتب أبا الخطاب فأجابته وحشدت جموع اليمينية التي تؤيدها وزحفوا على قرطبة فخرج إليهما يوسف والصميل في جموع المضربة والتفوا المشقة قريبا من قرطبة سنة ١٣٠ هـ حيث دارت بينهما معركة رهيبه انتهت بهزيمة اليمينية وقتل أبي الخطاب وابن حريث وكثير من زعماء اليمينية واستتب للأمر ليوسف الفهرى بعد شقنقة فرضى عنه جند اليمن والشام ومضر وعلا شأن الصميل فحشى منه يوسف على إمارته فأسند إليه ولاية سرقسطة ليعده عن مقر الأماة التي اضطربت شئونها وزاد في اضطراب الأمور أحداث المشرق وأفريقية وسقوط الخلافة الأموية سنة ١٣٢ هـ وعجز سلطان العباسيين عن الوصول إلى أفريقية والأندلس آنذاك .

وقد وجه يوسف الفهرى جهوده إلى إصلاح شؤون الإمارة بعد هذه الفتن التي مرت بها وأدت إلى ضعف السلطة المركزية لمحاولة استقلال كثير من العمال بولاياتهم ، مما شجع النصارى في الولايات الشمالية إلى السعى لاسترجاع السلطة في أقاليمهم وزاد الطين بلة حلول القحط بالأندلس لفترة زادت على أربع سنوا من ١٣١ -- ١٣٥ هـ مما حمل كثيرا من الناس على ترك الأندلس إلى أفريقية وخاصة من الولايات الشمالية فكان ذلك مشجعا للنصارى في الشمال على الاستقرار في البلاد التي رحلوا عنها .

ولذلك لم نفت في ضد يوسف وأبدي همه عالية قاوم بها الصعاب والمحن وحطاف بالأقاليم ننظر في شئها ويقضى على الفوضى ويرد النظام

وبعزل الحكام الجائرين . وعبد الطرق وأصلح نظام الضرائب فاقترض ثلث الدخل من كل ولاية وأمر بأن تجبي الضرائب عن الأحياء فقط وتسقط عن توهوا وأن تعدل السجلات تبعا لذلك فأحبه كثير من النصارى لهذه الإصلاحات . كما اهتم بالجيش وتدريبه وإصلاحه حتى يثبت سلطان إمارته . وقد وجه يوسف الفهري جيشا إلى جنوب فرنسا بقيادة أحد أبنائه ليسترد هبة المسلمين ولكنه عاد دون أن يحقق الهدف الذي أرسل من أجله . وماظن أن ذلك كان أمرا يمكننا إذا علمنا الثورات التي قامت في وجه يوسف وعمل على إخمادها فقد ثار عليه عبد الرحمن بن علقمة اللخمي حاكم أربونة وأزمع الخروج إليه فلم يلبث إلا يسيرا حتى أمكنه الله منه وثار عليه عروة ابن الوليد بياجة والتف حوله العرب والبربر وتحالف مع النصارى وتمكن من الاستيلاء على أشبيلية واتسع نطاق ثورته فخرج إليه يوسف ودارت بينهما معارك انتصر فيها يوسف وقتل عروة وكثير من أصحابه . وكان أشد الثورات وأخطرها ثورة تزعمها تميم بن معبد وعامر بن عمرو بن وهب العبدي الذي يقال أنه كان خليفة أبا جعفر المنصور وطلب منه مرسوما بأمانة الأندلس حتى يدع له بالأندلس ويحكمها باسمه وانضم إليهما الحجاب ابن رواحة الزهري واجتمع عليهم كثير من المضربة والعينية والبربر واتجهوا إلى سرقسطة حيث كان الصميل بن حاتم وضربا عليه الحصار ودارت معارك بينهما انتهت بانسحاب الصميل من سرقسطة ووقوعها في يد الثوار سنة ١٣٦ هـ / ٧٥٣ م وأعان عامر أنه أمير الأندلس بموافقة ادعى أنها وصلته من أبي جعفر المنصور وبسط سلطانه على ما حول سرقسطة فسار إليه يوسف في سنة ١٣٨ هـ بجيش كبير أعده لذلك وتمكن من حصاره وهزيمته وقتله وبذلك قضى يوسف على كل الثورات التي قامت حده في الأندلس ولكنه لم يكف يفتي من ذلك حتى فوجيء بخطر جد جديد جاءه من المشرق

في غرة ربيع الأول سنة ١٣٨ هـ / ٧٥٥ م وهو الأمير عبد الرحمن بن معلوية بن هشام بن عبد الملك (الملقب بصقر قریش) الذي تمكن من نزع الأمانة منه والاستقلال بالاندلس وكان ذلك في نهاية عهد الولاة .

حالة الأندلس آخر عهد الولاة :

وإذا كان الولاة الأول قد وجهوا جهودهم إلى متابعة الفتح في جنوب فرنسا و قدموا الشهداء وحرصوا على الاحتفاظ بما فتحوه فإن آخر عصر الولاة وماشاع فيه من الفتن والاضطرابات والثورات قد فقد المسلمون فيه تلك المناطق التي رووها بالكثير من دماء شهدائهم الأبرار .

فبينما كان يوسف القمري مشغولاً بالقضاء على هذه الثورات الضارية التي قامت ضده اغتتم الفرنج تلك الفرصة واستولوا على أراضي ومدن سبتمانيا ولا نجدوك ، وكانت مأتزال في أيدي المسلمين فقد سار يمين بن شارل مارتل سنة ١٢٥ هـ / ٧٥١ م ، بجيش إلى لانجمدوك واستولى على نيم وأفت وماغلون وبيزيه وغيرها وخرت مساجدها وهدم مستشفياتها وقتل من وجدته فيها من المسلمين . ولم يجعل المسلمون من هذه البلاد في جنوب فرنسا في سهوة فقد دافعوا عن كل شبر فيها بدمائهم وقدموا الأبطال من شهدائهم .

ورغم عجز حكومة الأندلس آنذاك عن مساعدتهم فقد ظلوا ثلاثة أعوام يقاومون وينسحبون لعجزهم عن الصمود حتى لم يبق في أيديهم سنة ١٣٨ هـ / ٧٥٥ م سوى مدينة أربونة التي وصل إليها بين بجيشه القوي المنتصر و ضرب عليها حصاراً طويلاً صمد له المسلمون طيلة أربعة أعوام ، إذ أن أربونة كانت في حصانة ومنعه وصمم المسلمون على الدفاع عنها حتى آخر جندي وتمسكوا من رد كل هجمات العدو المحاصر لهم مع عدم تمكن الحكومة المركزية من إمدادهم بما يحتاجونه ولم يصلهم سوى بعض المؤن والإمدادات عن طريق البحر .

وأمام تصعيد المدينة، بالأسلحة الباردة، أخذها البيهين وتصميم حمايتها المسلمين على الدفاع عنها، لحأ يمين إلى الخيانة والمكر والخدعة ووجد فرصته في سكان المدينة من القوط المسيحيين الذين أرهقتهم الحصار فاتفقوا معه على الغدر بالمسلمين ومساعدة جيشه على أن يسكنوا مستقلين في بلدتهم وتكون لهم إدارة أم. رم بحسب قوانين القوط وأعطاهم يمين الموائيق على ذلك فوافقوا. وتم ذلك في غفلة من المسلمين وإذا بالثورة تشتعل ضرامها في داخل المدينة وينقض بعض القوط على حراس الأبواب المسلمين فيقتلهم ويفتحوا الأبواب. فيتدفق جيش الفرنج المحاصر للمدينة عليها ويعمل الفرنج سوفهم في رقاب المسلمين رجالا ونساء وأطفالا، ويهدموا مساجدها ومعاهدها ويدكوا معالمها وذلك سنة ١٤٢ هـ / ٧٥٩ م وكان ذلك إعلانا بسقوط كآخر معقل المسلمين فيما وراء جبال البرنية بعد وجود دام قرابة نصف قرن وأبقى الملك بيهين جيشا كبيرا لحراسة البلاد.

وفي ذلك الوقت الذي تمكن فيه بيهين من القضاء على سلطان المسلمين في جنوب فرنسا لانشغال المسلمين بفتحهم وحروبهم الداخلية نجد نصارى الأندلس من القوط الذين ألتفوا حول زعيمهم بلاي في استرقة وجيليقية يتمكنون من إقامة إمارة يسيطرون منها سلطانهم على بلاد المسلمين في الشمال وساعدهم القحط الذي حل بالأندلس في سنة ١٣١ - ١٣٥ هـ وجعل المسلمين يجلون عن تلك البلاد - على التوغل في الأرض الإسلامية فاستولوا على استرقة وغيرها من البلاد ولم ينته عصر الولاة حتى كانت تلك الولاية شوكة قوية تنفص كيان المسلمين ووجودهم في الشمال وأخذت تعمم بشكل ما تملك لطرده المسلمين والاستيلاء على البلاد منهم (١).

(١) انظر: البيان المغرب ج ٢ ص ٣٤ - ٣٨ ، تاريخ ابن خلدون ج ٤ ص ١٢٠ ، نصح الطيب ج ١ ص ٢٢٤ ، مختصر تاريخ العرب ص ١٦٠ - ١٦١ ، غزوات العرب في فرنسا ص ١١٢ - ١١٣ . دولة الاسلام في الأندلس ص ١٢٧ - ١٣٦ ؛ تاريخ الاسلام السياسي ج ١ ص ٢٢٨ ، ٢٢٩ .

وينبغي قبل أن نترك عصر الولاية في الأندلس أن نلقى نظرة عامة على بعض الأحداث فيه المستشف منها مقدمات لتناجح نتيجتها: فإنا نجد أن السموح بن مالك، من أتى بعده من الولاة الذين خاضوا الحرب في فرنسا ربما قد حازهم الصواب في التخطيط لها بدقة ومهارة كما ينبغي. فلم يلتق الجيش الإسلامي بجيش العدو المنجمع لعهد المسلمين والوقوف في وجههم في موقعة من المواقف إلا بعد أن يكون الجيش الإسلامي قد خاض بعض الحروب التي قد أنهكت قواه وترك بعض الحاميات منه في النواحي التي استولى عليها ثم أصبح مشغولا بالغنائم التي حصل عليها، وكل ذلك كان ذا تأثير سيء في القوة التي يتمتع بها الجيش الإسلامي.

ولعل الوضع السليم كان يشمل في أن يعد الجيش لخوض غمار القتال في المعارك الكبيرة مثل الموقعة عند طلوشة وموقعة بلاط الشهداء ثم مرسل للقائد سرايا لفتح البلاد المجاورة والاستيلاء عليها، وأبضا كان يحتاج الأمر إلى قوة احتياطية تكون مستعدة لاجدة أية حملة منها أول جدة الجيش الكبير إذا تورط في وضع ما

وعند ذلك كان يلقي الجيش عدوه وهو في كامل عدته وفي درجة عالية وبروح معنوية على درجة عالية لم تتأثر بارهاق الحروب السابقة أو بالحرص على الغنائم التي حصلوا عليها ثم بالتالي يكون عنده الطاقاة لمواصلة القتال أياما عدة.

ولاشك أن المسلمين كانوا يملكون جيشا احتياطيا كبيرا إذا نظرنا إلى امتداد رقعة بلاد المسلمين من الأندلس إلى دمشق ومن دمشق إلى السند.

وأمر آخر يتعلق بالقيادة وقد أرسى قواعد رسول الله ﷺ قبل خوض تلك المواقف بأكثر من قرن من الزمان. وذلك عندما عين خلفاء

للقائد الأعلى في موقعة مؤنة حتى لا يحصل تقهقر أو انسحاب من ميدان القتال إذا استشهد القائد الأعلى ثم أن ما حدث في مؤنة أيضا بعد استشهاد القواد الثلاثة واختيار ابن الوليد للقيادة كان يجب أن يكون درسا واضحا أمام المسلمين للسير في معاركهم بعد ذلك . ولكن للأسف أننا نجد في المعارك التي قتل فيها القائد الأعلى سواء في أفريقية أو الأندلس لم يبرز القائد الثاني الذي يتولى القيادة ويتصرف بحكمة وهزم سوى في القليل النادر وفي كل الأحوال نجد أنهم ينسحبون فوراً إلى قواعد متأخرة أحيانا بهارة وحذق ومحافظة على قواتهم وأحيانا في صورة انزمام مربع مثل ما حدث في أفريقية .

ومع ذلك فإنني أرى أن العيون أو الجواسيس التي كان يرسلها القائد لتحري أحوال العدو واستطلاع حقيقته ربما قد أخطأت التقدير أو لم تصل إلى الأماكن التي كان يتجمع فيها العدو ويتمكن من معرفة حقيقة وضعه . ولذلك كان أخذ المسلمين على غرة قبل الوصول إلى الدرجة المطلوبة في الاستعداد الذي يتفق مع العدو الذي سياقونه . ولهذا لم تكن النتيجة في صالحهم عند اللقاء وخاصة عند استشهاد القائد الأعلى .

وملاحظة أخرى نراها في محاولة شارل مارتل استرداد أربونة ودفاع المسلمين عنها : فإننا بعد اطلاعنا على هذه الجهود الكبيرة التي بذلها المسلمون لمحاولة التمسك بالأقاليم التي فتحوها في فرنسا ، وتجمع كل أوروبا لمحاولة إيقافهم ومنعهم من التقدم ثم أصرار المسلمين على مواصلة الجهاد رغم هذه الظروف الصعبة من تغيير البيئة وبعد خطوط القتال وتجمع العدو من جهات كثيرة لا يقف تقدمهم - يتبين لنا أنه رغم ما يذكره المؤرخون من خلافات بين العرب أنفسهم وبين العرب والبربر ، فإنهم حساؤلوا الاستمرار والتمسك بما في أيديهم ، إلا أن ظروفهم الداخلية في الولاية

وما انتشر بينهم من خلاف ثم التجمع الكبير الخارجى ادهوهم - يدفعهم
التعصب الشديد لنصرانيتهم - هو الذى قلل من نتيجة هذه الجهود .
ولنا أن نذكر للمسلمين في عهد الولاة أهم حاولوا مرات كثيرة مواصلة
الفتح حتى بعد بلاط الشهداء ، إلا أن الظروف الداخلية والمحلية في الأندلس
وفى ولاية أفريقية القريبة منها وفى مقر السلطة العليا و دمشق بجوار
التجمع الخارجى ، كل ذلك كان عاملا مساعدا لايقاف الفتح عند هذه
الاماكن من بلاد الفرنج .

ولنا أن نذكر أيضا أن الفتح في جنوب المغرب لم يواصل بعد فتح
المغرب بقوة الجيش الفاتح . فصار الوضع في شمال الأندلس وجنوب
فرنسا مثل الوضع في جنوب المغرب وأيضا مثل الوضع في الجبهة الشرقية
في آسيا . فلم يصل الإسلام إلى أندونيسيا والفلبين وجميع جنوب شرق آسيا
بجيش فاتح وإنما وصلت دعوته عن طريق الدعاة والتجار .

وقد تلى وقوف حدود المسلمين في هذه الأماكن سقوط الأمويين
وقيام العباسيين ثم انفصال الأندلس عن جسم الدولة الإسلامية مما أضعف
مركز المسلمين فيها وجعلها عاجزة عن مواصلة الفتح في أوروبا

ولاشك أن انفصال الأندلس عن جسم الدولة الإسلامية كان أكبر
عامل في إيقاف مواصلة الفتح في أوروبا ، وبدل ذلك على استطاعته المسلمين
في أفريقية مواصلة الفتح في البحر المتوسط والاستيلاء على صقلية بعد ذلك
بحوالى قرن من الزمن لأن الغالبية الذين قاموا بذلك تابعين للخلافة وامتدوا
من تبعيتهم لها قوة بخلاف الوضع في الأندلس الذى آل أمره إلى الاشفاق
عن مقر الخلافة في بغداد . فكان يشعر بالضعف إذا ما حاول غزو فرنسا
وإن كان قد بذل جهودا كبيرة في سبيل الاحتفاظ بالأندلس . وأيضا وإن
المسلمين قد استطاعوا أن ينشروا دعوتهم بدون قتال في غرب أفريقية وفى

وسلما وأن يكتسبوا أرضاً جديدة في تدبى بدعوتهم ولم يحدث ذلك في أوروبا لأن أوروبا وقتت من اعتناق الإسلام موقف العداء وإن كانت قد بدأت تقتبس من حضارته وتقدمه .

وهناك أمر آخر تنبه إليه ، وهو أن البعض يظن أن كثرة عدد الولاة في الأندلس في عهد الولاة قد جعل المسلمين لا يذلون جهوداً في مواصلة الفتح . وهذا خطأ جسيم فإن دراستنا اهد الولاة قد بينت لنا الجهود الكبيرة والضخمة التي بذلها المسلمون خلال هذه الفترة . وكثير من المؤرخين يعمرون على هذه الفترة من الكرام وكأها لم يحدث فيها شيء سوى التظاحن بين العرب بعضهم وبعض أو بين العرب والبربر ولم يحققوا شيئاً سوى ذلك ولاكتنا بعد دراستنا للجهود التي بذلوها في حرب أعدائهم واستماتهم في سبيل الانتصار عليهم يظهر لنا أن هناك مبالغة كبيرة فيما يصفه المؤرخون من حدة وشك في وقوع الصراخ والتظاحن بين العرب أنفسهم وبين العرب والبربر .

ويمكننا أن نقول عند ذلك أن هذا التظاحن إنما هو حوادث فردية ولاكنها أكثر حدة وعنفاً من الحوادث الفردية المعصية التي وقعت في عهد الرسول ﷺ ، إلا أنها ليست بهذه الصورة البشعة المنفرة التي يصفها بها المؤرخون . وإن كان قد ترتب عليها آثار سيئة وخطيرة بالنسبة لمستقبل المسلمين في الأندلس .

الفصل السادس

قيام الدولة الأموية في الأندلس

١ - سقوط الدولة الأموية في المشرق :

في سنة ١٣٢ هـ تمكن الجيش العباسي الذي انتصر على ولاية الأمويين في المشرق أن يتقدم نحو الزاب حيث يعسكر آخر خليفة أموي مروان بن محمد وأن ينتصر عليه في ١١ من جمادى الآخرة ١٣٢ هـ ثم ينتبئه إلى الشام ففلسطين فمصر حيث يقضى عليه فيما . وبذلك تنتهي الخلافة الأموية في المشرق وتقوم مقامها الخلافة العباسية التي حاولت أن يتم تقويتها للخلافة الأموية بالقضاء على أفراد تلك الأسرة ، ولذلك تبتعثهم في كل مكان لكي تقضى عليهم ، ولكن واحدا من الأمويين وهو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف^(١) تمكن من أن ينجو منهم ويصل إلى المغرب ليقيم الدولة الأموية فيها

ويورد ابن عذاري رأيا في اتصال دولة بني أمية في المشرق بدولتهم في المغرب إلى سنة ٤٢٤ هـ وأن الدولة لم تقطع وبني ذلك على أن عبد الرحمن ابن حبيب والى أفريقية من قبل بني أمية قد وصل عهد منه إلى يوسف بن عبد الرحمن الفهري المتغلب على الأندلس الذي دخل عبد الرحمن بن معاوية الأندلس وهو أميرها وبعلق على ذلك بأنه نسكتة غريبة وقائدة عجيبة^(٢) .

(١) ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس ص ٤

(٢) ابن عذاري البيان المغرب ج ٢ ص ٢٩

وكان يمكن أن يعتد بذلك وتكون الدولة الأموية في المشرق والمغرب متصلة لو أن يوسف بن عبد الرحمن الفهري انقاد لعبد الرحمن بن معاوية عند وصوله إلى الأندلس وسلم إليه إمارة الأندلس دون أن ينازعه عليها حتى تراق بينهما الدماء ؛ ولكن الحرب التي قامت بينهما تدل على أن الدولة الأموية في المشرق قد انتهت . وأن عبد الرحمن بن معاوية قد استطاع بمجهوده الشاق أن يعيدها في المغرب بعد ست سنوات من انتهائها في المشرق .

ولذلك نجد أن أبا محمد بن حزم يذكر انتهاء الدولة الأموية في المشرق مروان بن محمد ويصفها بأنها كانت دولة عربية لم يتخذ ملوكها قاعدة لأنفسهم وإنما كان سكن كل أمير منهم في داره وضيئته اللتان كانتا له قبل الخلافة وأنهم لم يكثروا من احتجان الأموال ولا بناء القصور ولم يطلبوا مخاطبة الناس لهم بالعبودية والملك ولا تقييل أرض ولا يد ولا رجل ، إنما كان غرضهم الطاعة الصحيحة ، والتواية والعزل في أقصى بلاد الدنيا ، فكانوا يعزلون العمال ويولون غيرهم في السند والهند وفي خراسان وأرمينية ، وفي العراق واليمن وفي المغرب الأدنى والأقصى وبلاد السرس وبلاد الأندلس وبعثوا إليها الجيوش وولوا عليها من ارتضوا من العمال وملكوها أكثر الدنيا فلم يملك أحد من ملوك الدنيا مملكته من الأرض إلى أن تغلب عليهم نثر العباس بالمشرق وانقطع بها ملكهم (١) فابن حزم يذكر انقطاع ملكهم وهو الرأي الذي أميل إليه .

(١) المرجع السابق ج ٢ ص ٣٩

ولكن كيف انتهت الدولة الاموية في المشرق بسرعة وهي تتصف
بهذه الصفات القوية التي ذكرها ابن حزم ؟

وهنا نجد أنها مع تمتعها بهذه الصفات القوية في سلطانها فإن هناك أيضا
عوامل فساد قوية استطاعت أن تهدم هذا السكيان القوي المترامي الأطراف.

فمن ذلك الظروف التي قامت فيها الدولة الاموية والآثار الدينية
والمعنوية التي أثارتها السياسة الاموية في أنحاء الدولة الإسلامية بالحد من
مبدأ مهم من مبادئ الإسلام وهو مبدأ الشورى .

كذلك الصراع الذي قام بين الامويين وبين العلويين وأدى إلى مقتل
الحسين بن علي وكثير من آل بيته في كربلاء سنة ٦١ هـ ثم الحرب التي قامت
بين الامويين وبين عبدالله بن الزبير إستنفدت كثيرا من قوة الدولة وشبابها .

كما كان لثورات الخوارج المتعددة والمنتشرة في أنحاء الخلافة في
المشرق والمغرب أثر كبير في ضعف الدولة وتشتت قواها .

فإذا أضفنا إلى ذلك اضطراب العصبية بين القبائل الغربية ثم شيوع
التنافس بين العرب وبين غيرهم من أبناء البلاد التي دخلت تحت سلطه
الدولة الإسلامية مع البعد في بعض الأحيان عن تحقيق العدالة التي ينشدها
الإسلام بينهم تبين لنا مدى الضعف الذي دب في أرجاء الدولة والعداوة
التي انتشرت بين سكانها .

ثم إن التنافس المعمق على السطة بين أفراد الأسرة الاموية كان من
العوامل الداخلية القوية التي أدت إلى سرعة زوالها .

وقد مكنت كل هذه العوامل السابقة العباسيين من أن يخططوا وينبروا في سر وكتمان وأن يستغلوا بعض هذه العوامل أو كلها ويجمعوا الأعران والأنصار ويحشدوا كل العناصر المعادية للأمويين ليلتقوا بهم في ميادين القتال فيسكون انهيار الدولة الأموية على أيديهم وتقوم الدولة العباسية لتحل محلهم سنة ١٣٢ هـ (١)

٢ - عبد الرحمن بن معاوية ينجو من العباسيين ويتوجه إلى أفريقية :

حاول العباسيون بعد انتصارهم على الأمويين والقضاء على مروان بن محمد آخر خليفة أموي أن يتبعوا بقية أفراد البيت الأموي ويقضوا عليهم حتى لا تقوم لهم قائمة ولا يتحرك أحد منهم ليثير الشغب عليهم فيذكر المؤرخون أنهم أخذوا يقتلون كل من يقع في أيديهم مما حمل أفراد البيت الأموي على التخفي والهرب .

وكان ممن تمكن من الفرار منهم عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان (٢) ومعظم المؤرخين القدامى والمحدثين يذكرون قصة هربه بصورة أسطورية كما يذكرون نبوءات تدور حول أنه سيجدد ملك بني أمية في المغرب وسوف أورد رواية صاحب أخبار مجموعة التي يوردها على لسان عبد الرحمن عن هذا الأمر ثم أعلق عليها بالنسبة لهربه وللتنبؤ بمستقبله يقول : أخبرني من سمع عبد الرحمن بن معاوية يحدث طائفة من

(١) أنظر : محمد عبد الله عنان دولة الاسلام في الأندلس ص ١٧٩

(٢) أول أمراء بني أمية بالأندلس يكنى أبا المطرف مولده بالشام سنة ثلاث

عشرة ومائة وأمه أم ولد اسمها راح هرب لما ظهرت دولة بني العباس ولم يزل مستترا إلى أن دخل الأندلس سنة ثمان وثلاثين ومائة زمن أبي جعفر المنصور

جنوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس للحميدى ص ٩٢٨

بدر حديث هربه قال : لما أمنا وشاء ذلك ركبت متنزها فوقع بهم وأنا غائب فرجعت إلى منزلي فنظرت فيما يصالح أهلي ويصالحني وخرجت حتى صرت في قرية على الفرات ذات شجر وغيابص وأنا والله ما أريد إلا المغرب وكنت قد بلغتني رواية كان والدي رحمه الله قد هلك في زمن جدى رحمه الله وكنت صبيا إذ هلك فأقبل بي وبأخوتي إلى الرصافة إلى جدى ومسلمة بن عبد الملك رحمه الله لم يمض بعد فنحن وقوف ببابه على دوابنا إذ سأل مسلمة عنا فقيل أيتام معاوية فاغرو وركت عيناه بالدمع ثم دعا بنا الإثنين فالثنين فأقبل يدعو بنا حتى قدمت إليه فأخذني وقبلني ثم قال للقيم هاته فأنزاني عن دابتي وجعاني عن أمامه وجعل يقبلني ويبكي بكاء شديدا فلم يدع بعدى من كان أصغر من أخوتي وشغل بي فلم يفارقني فأنا أمامه على سرجه حتى خرج جدى فلما رآه قال ما هذا يا أبا سعيد فقال بنى لاني المغيرة رحمه الله ثم دنا من جدى فقال له تدانى الأمر هو هذا قال أهو ؟ قال : أى والله قد عرفت العلامات والأمارات بوجهه وعنقه . قال ثم دعا القيم فدفعت إليه وأنا ابن عشر سنين يومئذ أو نحوها فكان جدى رحمه الله يؤثرني ويتعاهدني بالصلة والبعثة التي في كل شهر وكنا بكورة قلشرين بيننا وبينه مسيرة يوم حتى مات مسلمة أبو سعيد قبله لسنتين فكانت تلك في نفسى مع أشياء كانت تذكر فإني لجالس في القرية في دار كنا فيها ولم يبلغنا بعد إقبال المسودة فسكنت في ظلمة البيت وأنا أمد شديد الرمذ ومعنى حرقة سوداء أمسح بها فدا عبي والصي سليمان - أى ابنه يلعب وهو ابن أربع سنين أو نحوها إذ دخل من باب البيت فترامى في حجرى فدفعته لما كان إلى ثم ترامى وحمل يقول لي ما يقول الصبيان عند الغزع قال فخرجت فإذا أنا برأيت مطلة فلم يرتنى إلا دخول أحمر فلان فقال يا أخى رأيت المسودة . كنت لما فعل بي الصبي ما فعل قد خرجت فرأيتهم فلم أدرك شيئا أكثر من دنائير تناوانها ثم خرجت

أنا والصبي أحمى وأعلنت أخواني أم الأصمغ وأمة الرحمن بمتوجهم
وأمرتها أن يلحقني غلامى بما يصلحنى أن سلمت فخرحت حتى اندست فى
موضع ناه عن القرية وأقبلوا فأحاطوا بالقرية ثم بالدار فلم يجدوا أثرى
ومضينا حتى لحقنى بدر ثم خرجت حتى أتيت رجلا على شاطئ الفرات
وأمرته أن يتاعلى دواب وما يصلحنى فأنا أرقب ذلك إذ خرج عبده أو
أو مولى فدل علينا العامل فأقبل إلينا فوالله ما راعنا إلا بجلبة الخيل إلينا فى
القرية فخرجنا نشتم على أرجلنا وأبصرتنا الخيل فدخلنا بين أجنة على
الفرات واستدارت الخيل فخرجنا وقد أحاطت بالأجنة فتأدرنا وسبقناها
إلى الفرات فترامينا فيه وأقبلت الخيل فصاحوا علينا . ارجعوا لابس هليكم
فسبحت وسبح الغلام أحمى فلما سرنا ساعة سبقته بالسباحة وقطعت قدر
نصف المرات فالتفت لأرفق وأصبح عليه ليلحقنى فإذا هو والله لما سمع
تأمينهم إياه وعجل خاف الغرق فهرب من للغرق إلى الموت فتأدبته أقبل
ياحبيبي إلى فلم يأذن الله بسماعى فضى ومضيت حتى عبرت الفرات وهم
بعضهم بالتجرد ليسبح فى أرمى ثم بدأ لهم وأخذوا الصبي فضربت رقبته
وأنا أنظر وهو ان ثلاث عشرة سنة رحمه الله ثم مضيت فهذا حديثه
رحمه الله (١) .

تلك هى القصة التى ذكرتها المصادر القديمة ورددتها المراجع الحديثة
للؤرخين المسلمين والمستشرقين (٢) وهم يحرصون على ذلك كل الحرص .

(١) أخبار بجمرة ص ٥١ - ٥٤

(٢) ابن قتيبة الدينورى الامامة والسياسة ج ٢ ص ١٢٦ ابن الأثير الكامل ج ٥
ص ٤٩٤ ابن خلدون العبر ج ٤ ص ١٢١ محمد عبد الله عنان دولة الإسلام فى الاندلس
المصر الاول ص ١٤٨ ، د / عبد العزيز سالم تاريخ المسلمين وآثارهم فى الاندلس
ص ١٤٨ ، دوزى تاريخ مسلمى أسبانيا ص ١٨٤

وهروب عبدالرحمن من الشام إلى المغرب أمر وقع ولا شك فيه وإن كان إحاطة قصة الحرب بطلب خيل العباسيين له وأنهم غنروا عليه فألقى نفسه في الفرات وسبح وأن أخاه كان معه فعندما سمع الأمان المقدم إليه وعجز عن السباحة عاد إليهم فكان نصيبه القتل على مرأى من عبد الرحمن الذي كان قد وصل إلى الضفة الأخرى . فذلك أمر يدعو إلى الشك في الصورة التي حدثت بها الحرب . لأن حرصهم على القبض عليه يدعوهم إلى أن يؤخروا قتل أخيه أمام عينيه حتى يطمئن إليهم ليقضوا عليه كما كان من السهولة بمكان أن يعثر خلف عبد الرحمن من يريد القبض عليه خاصة وهو عاز ولا يحمل سلاحا كما أن اختفائه بعد خروجه من النهر أمر صعب عليه يسمل مهمة القبض عليه ولكن شيئا من ذلك لم يحدث ولم يفكر فيه مما يدعو إلى الشك في حدوث الحرب بهذه الصورة التي يصر المؤرخون عليها ولذلك نجد ابن قتيبة لا يشير إلى شيء من ذلك وإنما يقول : إن عبد الرحمن ولى ذاهبا وخرج لا يدري متى خرج فالحق بالمغرب^(١) أى أن خروجه وهربه كان في سر وكتمان ولم يعلم به أحد ويقول ابن عذارى خرج متخفيا من موضع إلى موضع وهمه الأندلس^(٢)

الأمر الثاني الذي نلاحظ إصرار المؤرخين عليه الإشارة إلى قرب زوال دولة بني أمية والبشارة بأن عبد الرحمن بن معاوية هو محي دولتهم في المغرب . وكأن كل شيء يحدث في الدولة الإسلامية يتعلق بنبوءة من النبوءات ولولا ذلك ما كان هناك تحريك ذاتي وأنه لولا هذه النبوءة ما حرص عبد الرحمن على أن يقرم بما قام به وهو أمر غير مقبول . علينا أن نجد دنايخنا منه لأن العزيمة والإصرار وتحدى المصاعب الذي كان يتحلى

(١) ابن قتيبة الدينوري الامامة والسياسة ج ٢ ص ٤٧

(٢) ابن عذارى البيان المغرب ج ٢ ص ٤٠ ، ٤١

به عبد الرحمن هو الذي سهل له الوصول إلى ما وصل إليه من تأسيس دولة في الأندلس. كذلك لو كانت النبوءة قد حدثت بقرب زوال دولة بني أمية كما يزعمون لكان ذلك داعيا لهم لكي يأخذوا حذرهم وينبئوا أسباب الضعف حتى لا تصل الدولة إلى النتيجة التي وصلت إليها .. ولكن ذلك لم يحدث مما يدعونا إلى الشك في مثل هذه النبوءة عن سقوط الدولة في المشرق وعن قيام عبد الرحمن بإحيائها في المغرب .

تمكن عبد الرحمن بن معاوية أن ينجو من تتبع العباسيين له كي يصل إلى فلسطين فصر حيث لحق به مولاه بدر وسالم مولى شقيقته وكانا يحملان مالا وجوهرا أرسلته إليه أخته أم الأصمغ وقد توجه بعد ذلك إلى بركة وبزل على أخواله من نفزة وهم من بربر طرابلس^(١) ، وكانت أمه بربرية منهم تدعى راح وكان يحكم إفريقية آنذاك عبد الرحمن بن حبيب الفهري الذي سبق أن نحدثنا عنه في ولاية إفريقية وقد ثار الفهري على حفظة بن صفوان حتى رحل عن إفريقية وقدم الفهري طاعته للأمويين ثم للعباسيين عند قيام دولتهم وحاول أن يسكون مستقلا بإفريقية تحت هذه الطاعة الإسمية . ولذلك تراه يتبع الأمويين الذين لجأوا إلى إفريقية هربا من العباسيين فقتل بعضهم وهما ولدا الوليد بن يزيد كما تتبع بقية الأمويين ليقتل عليهم حتى يأمن خطرهم الذي يحذره وهو محاولتهم الشيرة عليه وأخذ إفريقية منه لأنهم أصحاب ملك أخذ منهم سيعملون على إسترجاعه أو إحيائه في منطقة من مناطق دولتهم المسلوقة .

ويذكر المؤرخون^(٢) جرد عبد الرحمن بن حبيب في تقصى أخبار

(١) المقرئ نفع الطيب ١٣ ص ٣٠٧ .

(٢) انظر : ابن عذارى البيان المغرب ٢٣ ص ٤١ ، دوزى تاريخ مسلمي

اسبانيا ص ١٨٧ ، داحم إبراهيم شعراوى الامويين امراء الأندلس ص ٤٥ .

عبد الرحمن بن معاوية ومحاولة القمض عليه ويذكرون مرة أخرى نبوءة يهودى له بأن ابن معاوية سوف يملك إفريقيا وهكذا يحاولون أن يجعلوا أحداث التاريخ الإسلامى قائمة على التنبؤات وذلك بعيد كل البعد عن حقيقة التاريخ الإسلامى الذى يرى أبناءه على أن الغيب لا يعرفه إلا الله سبحانه وتعالى مما يجعلنا نميل إلى أن الروايات التى تتعلق بالتنبؤات روايات ملفقة ومخترعة ولا أساس لها من الصحة .

حارل عبد الرحمن بن معاوية أن يعتمد عن هذا الوالى الذى يتبع الأمويين فأخذ ينتقل من قبيلة إلى أخرى ومن بلد إلى آخر . فيذكرون أنه ذهب إلى موضع يقال له بارى فنزل فى قبيلة مسكناسة وقد نال فيها بعض الضيق^(١) وقيل أنه نزل بقبيلة مغيلة عند شيخ من رؤساء البربر يدعى وانسوس ويكى أبا قرّة ويبدو أن رسل ابن حبيب شعروا باختفاء عبد الرحمن عند وانسوس فعملوا على تفتيش منزله ولكن زوجته تكفأت البربرية عملت على إخفائه عنهم بحيلة ما ولكن ايس بالصورة التى يذكرها المؤرخون من أنها خبأته تحت ثيابها لأن ذلك غير ممكن بالنسبة لرجل جاوز العشرين من عمره . وقد أحسن عبد الرحمن إلى وانسوس وزوجته بعد أن صار أميراً الأندلس ويأبى المقرئ إلا أن يورد طرفة عن الهيئة التى ذكرها لإخفاء عبد الرحمن آنذاك فيذكر أن عبد الرحمن قال لتكفأت مداعياً حين استظلت بظله فى الأندلس بعد أن صار أميراً لقد عدتني بريح إبطيك يا تكفأت على ما كان بي من الخوف وسطعتني بأذن من ريح الجيف فكان جوابها له مسرعة . بل ذلك كان والله يأسىدى منك ، خرج ولم تشعر به من فرط فزعك فاستظرف حوامها وأغضى عن خواجتها بمثل ذلك وهذا

(١) أخبار بجمعة ص ٥٥

من آفات المزاح (١) .

ويذكر ابن الأثير وابن خلدون والمقري أنه عندما اشتد عبدالرحمن عامل إفريقية في طلبه أتى مكناسة فلقى عندهم شدة ثم هرب من عندهم فأتى نفر اوة وهم أخواله وقيل أنى قوما من الزناتيين فأحسنوا قبوله وأطمأن فبهم ثم لحق بميلة وأخذ في تدبير المكاتبه إلى الأمويين من أهل الأندلس (٢) .

تلك هي الأماكن التي تردد عليها خلال فترة إقامته في إفريقية ويخطى .
دوزى ويتمعه دكتور احمد إبراهيم الشعراوي عندما يقول : أنه لاذ حيننا آخر ببلاط بنى رستم ملوك تاهرت لأن الدولة الرستمية لم تكن قد قامت بعد فكيف يلوذ بها (٣)

٣ - عبد الرحمن يتطلع إلى الأندلس .

مسك عبد الرحمن بن معاوية يتنقل في إفريقية خمس سنوات لقى فيها كثيرا من الصعاب والعنت ، ولسكن عبد الرحمن الفهمى حاكم إفريقية الذى كان يطارده لم يستطع أن يقبض عليه ، وقد نزل ابن معاوية أخيراً عند قوم من زناته على شاطئ البحر قرب سبته ، وكان أثناء إقامته في إفريقية يتطلع إلى الأندلس ويدرس أحوالها وأخبارها ويرقب فرص العبور إليها .
كانت الأندلس في ذلك الوقت يسودها الاضطراب بسبب الفسنتين والمصديبات القبلية بين المضربة واليمنية ورأى عبد الرحمن بن معاوية أن

(١) المقري نفع الطيب ح ١ ص ٣١٣ ، عبد العزيز سالم تاريخ المسلمين وآثارهم ص ١٧٨ .

(٢) ابن الأثير ح ٥٥ الكامل ص ٤٩٤ ، ابن خلدون العبر ح ٤ ص ١٢١ المقري ح ١ ص ٣٠٧

(٣) دوزى تاريخ معلمي أسبانيا ص ١٨٨ أحمد إبراهيم الشعراوي الأمويون أمراء الأندلس ص ٤٦

يستغل ١٠٥ الوضع بأن يجذب بعضهم إليه ليؤيدوه حتى يصل إلى تحقيق ما يريد بأن يعيد الدولة الأموية في الأندلس ، فأرسل مولاة بدرأ بكتاب في آخر سنة ١٣٦ هـ إلى موالى بنى أمية في الأندلس فنزل بدر بقرية طرش من ساحل البيرة وكانت منزل جند الشام ويجتمع فيها موالى بنى أمية . وكانت رياستهم إلى أبي عثمان عبيد الله بن عثمان وصهره عبد الله بن خالد فاجتمع بدر بهما وقدم إليهما كتاب عبد الرحمن^(١) يشكو فيه ما ابتلوا به ويعظم عليهم حقه ونزوعه إليهم وما صنع به ابن حبيب ونقومه بإفريقية وبعلمهم أنه إن دخل إلى يوسف لم يأمنه ويعرض أنه إنما يريد الاعتزاز بهم وأن يذمونه وإن تهيأ لهم ما فيه طلب سلطان الأندلس أن يعلموه^(٢) ،

وقد نشط موالى الأمويين لهذا الأمر واستشاروا الصميل زعيم القيسية في معاونة عبد الرحمن وتأيينه ولكن الصميل بعد أن استجاب لنصرة ابن معاوية عاد فأبدى ترددا وفتورا واقترح أن يتزوج عبد الرحمن من ابنة يوسف وأن يزل آمنا في ظله ثم صرفها . وقال : إن عبد الرحمن من نسل قوم لوبال أحدهم في هذه الجزيرة لفرقنا في بوله ولكن خار الله لكما في مولاك كما وعلى ستر ما أودعتهما في قسرت عليهما وانصرفا^(٣) .

عمل موالى بنى أمية بعد أن يذسوا من مساعدة مضر وربيعة على دعوة اليمانية لمناصرة عبد الرحمن بن معاوية فوجد اليمانيون الفرصة لأخذ ثأرهم من المضرية الذين انتصروا عليهم في موقعة شقندة وليستردوا مكانتهم التي فقدوها فرحبوا باستقبال الأمير الأموي وأبدوا استعداد المناصرته . وكان من الزعماء اليمانيين الذين استجابوا لذلك أبو الصباح اليحصبي شيخ اليمانية

(١) ابن عذارى البيان المغرب ٢ ص ٤١ ، ابن خلدون العبر ٤ ص ١٢١

(٢) أخبار مجموعته ص ٦٧

(٣) ابن القوطية تاريخ افتتاح الأندلس ص ٤٧ .

في غرب الأندلس ومسكنه قرية مورة، وعلقمة بن غياث اللخمي وأبا علقمة الجذامي وزيايد بن عمر الجذامي جد بني زياد الشذونية وكانوا رؤساء الشاميين بشذونه ومنهم رؤساء القحطانيين بالبيرة وجيان مثل جد بني أضحى الهمدانيين وجد بني حسان وبني عمر الغسانيين وميسرة وقحطبة الطائيين يجيان كما انضم إليهم الحصين بن الدجن العقيلي للتباعد الذي كان بينه وبين وين الصميل بن حاتم ولم يمل من المضربة إلى عبد الرحمن بن معاوية غيره (١).

عند ذلك طلب موالى الأمويين من بدر أن يجتاز إلى عبد الرحمن لينخبره بذلك ولكن عبد الرحمن أبدى حذره وقال : ليس تطيب نفسي على دخول الأندلس إلا أن يكون معي واحد منهم (٢).

عاد بدر إليهم بجواب عبد الرحمن وكانت الأمور مهيتة لاقدم عبد الرحمن حيث أن يوسف الفهرى خرج إلى سر قسطة لمحاربة عامر القرشي الذي خرج عليه فابتاع موالى الأمويين مركبا ووجهوا فيه أحد عشر رجلا مع بدر (٣) حيث وصل إلى الشاطئ الأفريقي ولقي بدر مولاة وقدم إليه تقريرا سريعا عن ترحيب أنصاره به في الأندلس من موالى الأمويين وقبائل اليبانيين كما قدم إليه الأشخاص الذين قدموا معه ومنهم تمام بن علقمة الذي قال له عبد الرحمن ما اسمك قال تمام قال وما كنتك قال أبو غالب قال سم أمرنا وغلبنا عدونا واتخذنا بعد ذلك حاجبا له (٤).

(١) ابن القوطية تاريخ امتتاح الأندلس ص ٤٥

(٢) المرجع السابق ص ٤٦

(٣) ابن عدي البيان المغرب ج ٢ ص ٤٤

(٤) أخبار مجموعة ص ٧٥

ثم عبد الرحمن بالدخول إلى المركب ولكن العبريون أقبلت إليهم لتمتعهم
من أخذ عبد الرحمن ففقد عليهم تمام بعض المال ثم اتجهوا إلى الأندلس
فنزل في المنكب في غرة ربيع الأول سنة ١٣٨ هـ (١) ٧٥٥ م وعرف بعد
ذلك بعدد الرحمن الداخل لأنه أول من دخل من ملوك بني أمية
الأندلس (٢).

عبد الرحمن الداخل في الأندلس

توجه عبد الرحمن إلى الأندلس مع الركب الذي قدم لصحبته حيث
أرست السفينة التي أوقته في المنكب من شاطئ الأندلس وكان في استقباله
أبو عثمان وعبد الله بن خالد اللذان رجبا به وصحبا إلى الفنتين منزل عبدالله
بن خالد ثم توجهوا إلى مدينة طرش من كورة البيرة منزل أبي عثمان (٣) وفيها
يكثر موالي بني أمية الذين أقبلوا إليه يعلنون تأييده ومناصرتة وقد أعد
الأمير ما يصلحه من المركب والمنزل الملبس (٤) فحافظ أمر ابن معاوية وأقبل
الناس من كل مكان إليه وازداد أمر قوة بعد أن أخذ وصف بن بخت البيعة
له من جند الأردن ، وأخذها تمام بن عاقمة من جند فلسطين ، وعبد الله
بن خالد من جند حمص

وكانت رياسة العرب بكورة رية إلى حدار بن عمرو القيسي جد بني عقيل
فذهب إليه أبو عثمان وعبد الله بن خالد وأعلماه بقدم عبد الرحمن الداخل

(١) ابن عذاري البيان المغرب ج ٢ ص ٤٤ ويدكر صاحب أخبار مجموعة أنه

نزل في آخر ربيع الأول سنة ١٣٨ هـ ص ٧٥

(٢) ابن خلدون للمد ج ٤ ص ١٢٢

(٣) ابن الفوطيه تاريخ افتتاح الأندلس ص ٤٧

(٤) ابن عذاري البيان المغرب ج ٢ ص ٤٤

فقال لهما : توافوني به مصلى أرجوزة يوم الفطر وترون ما يكون في إن شاء الله .

فلما توافوا وأن الخطيب قام إليه جدار فقال له : اخاخ يوسف بن عبدالرحمن وأخطب ليد الرحمن بن معاوية بن هشام فهو أميرنا وابن أميرنا ثم قال : يا أهل ربة ما تقولون ؟ فقالوا : نقول ما تقول فخطب وبأبعوه عند انقضاء الصلاة^(١) . وهكذا ابتدأت بيعة عبد الرحمن الداخل أميراً في كودة ربة في يوم الفطر سنة ١٣٨ هـ ثم أتى عبد الرحمن شدونه فبايعه غياث بن علقمة اللخمي ثم أتى مورور فبايعه إبراهيم بن شجرة عاملها ثم أتى أشبيلية فبايعه أبو الصباح يحيى بن يحيى^(٢) .

ويعصور ابن عذارى بدأ تكوين الجيش المؤيد لعبد الرحمن بأن تمام بن علقمة قال دخلنا ربة في ستائة فارس فخرجنا منها في ألفي فارس وخرجنا من أشبيلية إلى قرطبة في ثلاثة آلاف فارس^(٣) وعندما نزل عبد الرحمن بن معاوية الأندلس كان يوسف بن عبد الرحمن المتغلب على الأندلس قد انتصر على الثائرين عليه في سرقسطة وبدأ يتخلص من خصومه الذين يعارضون بعض تصرفاته حتى تمكن الأندلس خالصة له ولولده من بعده ولسكنه فوجى . بقدم عبد الرحمن بن معاوية إلى الأندلس وتأيد موالى الأمويين والقبائل اليمينية له وكان عليه أن يضع الخطط للتخلص منه وقد شاور الصميل بن حاتم في أمره فأشار عليه بأن يتوجه إليه قبل أن يشتد ساعده

(١) ابن القوطية تاريخ افتتاح الأندلس ص ٤٧

(٢) ابن الأثير تاريخ الكامل ص ٥٥٤ وفي نفح الطيب يسمى غياث

عتاب ج ١ ص ٣٠٧

(٣) ابن عذارى البيان المغرب ج ٢ ص ٤٦

بكثرة المناصرين له ولسكن جيشه الذين كان قد فرغ من التغلب على الثأرين في سرقسطة رفض أن يتابع التقدم نحو عبد الرحمن الداخل مما اضطر يوسف إلى أن يذهب إلى قرطبة وينتظر انتهاء فصل الشتاء الذي قد بدأ ورأى يوسف الفهرى أن يرسل إلى موالى الأمويين يحذروهم ويخوفهم من متاصرة عبد الرحمن الداخل والخروج عليه فأجابوه بأن عبد الرحمن الداخل إنما أتبل إليهم يريد الذي كان لجده هشام وليس فيما يظن الأمير من الخروج عليه وقدموا إليه اعتذارهم ولم يخبروه بحقيقة بيعتهم لعبد الرحمن أميراً عليهم (١) .

كما أرسل يوسف إلى عبد الرحمن بن معاوية كتاباً يحذره فيه من أتباعه الذين انضموا إليه وأنهم أهل غدر ونقض للإيمان المؤكدة ويعرض عليه المال وسعة السلطان والحماية وأنه لا يغرر به ومن نصوص هذا الكتاب :
« أما بعد فقد انتهى إلينا نزولك بساحل المنسكب وتأبش من تأبش إليك ونزع بحوك من السراق وأهل الختر والغدر ونقض الأيمان المؤكدة التي كذبوا الله فيها وكذبونا وبه - جل وعلا - نستعين عليهم ولقد كانوا معنا في ذرى كنف ورفاهية عيش حتى غمضوا ذلك واستبدلوا بالأمن خوفاً وجنحوا إلى النقض والله من ورائهم محيط فإن كنت تريد المال وسعة الجناب فأنا أولى لك بمن لجأت إليه أكنفك وأصل رحمتك أنزلت معي إن أردت وبجيت تريد ، تم لك عهد وخدمته في ألا أغدر بك ولا أمكن منك ابن عمي صاحب إفريقيه ولا غيره (٢) » .

وإذا تأملنا هاتين الرسالتين وجدنا أن يوسف يحذر في الرسالة الأولى

(١) المرجع السابق ص ٤٤

(٢) ابن عذاري البيان المغرب ج ٢ ص ٤٥ ، ٤٦

أتباع عبد الرحمن من الانسياق خلفه وتأيبه وفي الرسالة الثانية يحذر عبد الرحمن من أتباعه ويخبره منهم وأنهم سينقضون عهده لأنهم أهل غدر ونقض للإيمان وأنه أولى من لجأ إليهم . وهو هذا يحذر بعضهم من بعض ويريد أن يبذر بذور الشقاق بينهم .

وعندما لم يفلح هذا التحذير لعبد الرحمن والدؤدين له في إرجاعهم عما عزموا عليه أرسل إليه كتاباً آخر يعرض عليه فيه أن يزوجه ابنته ويسكنه في أي الجنتين شاء من دمشق أو الأردن أو يسكن بينهما ويصير إليه أمر الكورتين وبعث إليه بكسوتين ومطبتين وخمسمائة دينار ووجه إليه كاتبه خالد بن يزيد وقال له : « أعرف أمره وأي جند عنده وتأمل أخباره وأخبار من معه » فخرج في الليل مع أصحابه وأصبحوا على ابن معاوية بالمال والكسرة والمطبتين ووجه أيضاً إلى بدر فرساً ومائة دينار وكسرة فقبل ابن معاوية الهدية وكره التزويج فتكلم خالد بكلام غليظ لابن معاوية إذ أبي التزويج فأمر به فضم إلى وثاق ورد غيره إلى يوسف ولم يرد عليه جواباً^(١) .

ومن هذه الرواية التي يذكرها ابن عذاري نجد أن عبد الرحمن رفض التزوج من ابنة يوسف مما دعا خالد بن يزيد رسول يوسف أن يتكلم بكلام غير مقبول أدى إلى فشل مهمته . وإن كان صاحب أخبار مجموعة يذكر أن خالد بن يزيد عندما قدم الكتاب إلى عبد الرحمن دفعه عبد الرحمن إلى أبي هشمان وقال : اقرأه وأجب فيه بما تعلم من رأينا ويذكر أنهم كانوا واقفين على ما عرضه يوسف إلا أن أبا هشمان عندما تمياً ليرد على الخطاب قال له خالد بن يزيد : يا أبا هشمان لتعرفن إبطاك قبل أن تحبر فيه جواباً فضرب أبو هشمان بالكتاب وجه خالد وقال له . لا تعرفن لي فيه إبط ولا أجد فيه جواباً ثم قال خذوه فأخذوه وكبل من ساعته وقالوا : لعبد الرحمن هذا أول

(١) ابن عذاري البيان المغرب ج ٢ ص ٤٥٥

الفتح هذا سلطان يوسف كله (١).

وأميل إلى رواية ابن عذارى لأنه يذكر قبل ذلك أنه عندما أتاه كتاب الفهرى بما فيه المال والمطية وتزججه بئته أشار عليه كل من أتاه من العرب والأميرين ألا يقبل ذلك منه إلا أن يعتزل له عن الملك ويبايعه وإلا حاكمه إلى الله وقالوا له : إنما بمكر بك ولا ينبغي لك بشيء لأن وزيره ومالك أمره الصليل وهو غير مأمون (٢).

وهذا يدل على رفض أنصاره لعروض يوسف وأهم مصممون على أن يتنازل له يوسف عن الملك وإلا حاكمه إلى الله وهم يقصدون بذلك القتال وهكذا فشلت المحاولات التي أبدتها يوسف لخدمة عبد الرحمن ولم يبق إلا المواجهة في مبادي القتال .

٥ - موقعة المصارة والاستيلاء على قرطبة :

بدأ كل من الفريقين يستعد للقتال عندما انتهى فصل الشتاء وفشلت محاولات الصلح بينهما وكان عبد الرحمن عندما وصل إلى إشبيلية قد بلغ تعداد جنده ثلاثة آلاف فارس وأقبلت عليه المتطوعة من كل صوب من المضربة واليمانية وجند الشام (٣) فعظم جنده وبدأ في تنظيمه وإعداده للمعركة الفاصلة وكان يتسكون من جند فلسطين وجند الأردن وجند حمص وكلها يمنية وانضم إليه من القيسية جماعة على رأسهم جابر بن العلاء بن شهاب وأبو بكر بن هلال العبدى والحصين بن الرجن . ولم يكن لعبد الرحمن لواء يبيها كانت الاجناد قد خرجت بألويتها فلما وصل إلى قرية قلنيرة بين إقليم طسانه من كورة اشبيلية قال شيه خ الاجناد وإمام اللواء له خطأ في

(١) اخبار بمجوعة ص ٨١

(٢) ابن عذارى ج ٢ ص ٤٦ البيان المغرب ج ٢ ص ٤٦ .

(٣) الفهرى ومع الملبب المجدد الأول ص ٣٠٨

الرأى وعزموا على العقد له فأقبل أبو الصباح يحيى اليحصبي بقناة وعمامة
وهما الرجل من حضرموت ودعوا رجلا من الأنصار تفالوا باسمه وعقدوا
اللواء لعبد الرحمن بن معاوية بهذه القرية بين شجرتي زيتون وشهد ذلك
أبو الفتح الصدقورى العابد المجاهد كما شهده فرقد السرقطسى (٢) أننا ذلك
كان يوسف الفهرى قد جمع جيشه ومعظمه من القيسية والفهرية ثم صار
بغذاء الوادى الكبير لمقابلة عبد الرحمن فى طشانة فى أول ذى الحجة سنة
١٣٨ هـ فتناوشا والنهر بينهما وكان ماء النهر زائدا ففتمهما من عبوره ، وقيل
لعبد الرحمن أن عامة من فى قرطبة من موالى بنى أمية وهم يؤيدونه فرأى
أن يسبق يوسف إليها وحاول إيهام يوسف بالبقاء فأرقد نادأ فى معسكره
ثم رحل من جوف الليل وبينه وبين قرطبة خمسة وأربعون ميلا فلم يسر
ميلا واحدا حتى أتى يوسف من يعلبه بما أراد من مخالفته إلى قرطبة فأصبحا
كفرسى رهان والنهر بينهما . حتى نزل يوسف فى المصاراة ونزل عبد الرحمن
ببأبش ، وكان جند عبد الرحمن فى ضيق من العيش حتى أصبحوا يتقوتون
بالقول الأخضر ، بينما جند يوسف فى رفاهية من العيش ، ومع ذلك فقد
انضم إلى عبد الرحمن كل من استطاع اللحاق به من اليمنيين وبنى أمية من
أهل قرطبة (١) .

وقد نقص ماء النهر يوم الخميس ٩ ذى الحجة سنة ١٣٨ يوم عرفه فقال
عبد الرحمن لجنده : فى أى يوم نحن ؟ فقيل له : يوم الخميس وهو يوم
عرفه فقال: يوم عرفه وغدا الأضحى والجمعة وأمرى مع فهرى أرجو أنها
أخت مرج راهط (٢) .

(٢) ابن القوطية تاريخ افتتاح الأندلس ص ٤٩ أخبار مجموعة ص ٨٤

(١) أخبار مجموعة ص ٨٦ ، ذهب العزيز سالم تاريخ المسلمين وآثارهم فى

الأندلس ص ١٨٨ ، ١٨٩ .

(٢) ابن القوطية تاريخ افتتاح الأندلس ص ٤٩ : وكانت الوقعة يوم مرج =

ويبدو أن يوسف حاول عرض الصلح على عبد الرحمن حقتنا لدماء المسلمين فدعا عبد الرحمن قواد جنده وقال لهم : إنا لم نجيء للمقام وقد دعانا هذا الرجل إلى ما علمتم وعرض ما سمعتم ورأى رأيكم تبع فإن كان عندكم صبر وجلد وحب للمساكنة فأعدوني وإن يكن فيكم جنوح إلى السلم والصلح فأعدوني فأصفت اليمن كلها بأسرها على الحرب ورات ذلك موالي بني أمية . وعندما وثق عبد الرحمن من معرفة عزم جيشه على الحرب تظاهر برغبته في مفاوضة يوسف وميله إلى الصلح والمسالمة مما جعل يوسف يتخددع بما أبداه عبد الرحمن من رغبته في الصلح فلم يتعرض لجيشه عندما عبر النهر وعسكر بجواره في المصارة .

كان عبد الرحمن قد نظم جيشه سرا قبل العبور فجعل على خيل أهل الشام عبد الرحمن بن نعيم الكلابي وعلى رجالة اليمن بلوثة اللخمي من جند فلسطين ، وعلى رجالة بني أمية ومن جاءهم من البربر عاصم بن عاصم العريان وعلى خيل بني أمية حبيب بن عبد الملك القرشي وعلى خيل من صحبه من البربر إبراهيم بن شجرة الأودي وناول أبا عثمان اللواء ونزل جماعة بني أمية فحفوا به .

راسل يوسف عبد الرحمن في الصلح عشية الخميس وبات عبد الرحمن يتظاهر بحرصه على الصلح وعبر يوسف عن رغبته بذبح البقر والغنم وإعداد الطعام للمسكرين مما جعل عسكر يوسف لا يشك أن الصلح قد تم . وفي الصباح من يوم الجمعة يوم الأضحى أفصح عبد الرحمن عن نيته

== راطط بين مروان بن الحكم والضحاك بن قيس الفهري قائد عبد الله بن الزبير في يوم جمعة ويوم اضحى سنة ٦٤ ودارت الدائرة لمروان على الفهري وقتل معه سبعون ألفاً من قيس وقبائلهم .

بني الحرب وأنه لا يقبل المفاوضة إلا على أساس اعتراف يوسف له بالإمارة باعتبارها ورثاً لبني أمية على الأندلس وهـ. كذا أفصح عبد الرحمن عن حقيقة مطالبه وما يسعى إلى تحقيقه وعند ذلك اشتبك الجيشان في قتال ضار عنيف وكان على خيل يوسف من أهل الشام ومضر عبيد بن علي وعلى الرجال كنانة بن كنانة السكناني وجوش بن الصميل وعبد الله بن يوسف الفهري وعلى خيل غلمانة وصنائعه من البربر خالد سردي .

أشدت القتال بين الفريقين وكثر القتل وكان عبد الرحمن يركب فرسا أشقر ويده قوسه وحوله مواليه فقال لبعض رجال جيشه : غلام حدث فما يؤمننا أن يطير على هذا الفرس فنهلك فبلغه ذلك فنادى أبا الصباح فأقبل إليه فقال ليس في عسكرينا بغل أوفق من بغلك وإن هذا الفرس يلقى تحق فلا أقدر على ما أريد من الرمي من قوس فتخذ فرسي وهات بغلك وإن أحب أن تكون تحتي دابة تعرف إن حال الناس فتبادلا الدابتين واطمأنت قلوب الخائفين واشتد القتال بين الجيشين حتى انتهى بهزيمة يوسف والصميل هزيمة شنعاء وقتل واداهما وقتل عبيد الله بن علي وكنانة بن كنانة وغيرهما من وجوه القيسية والفهرية وفر يوسف إلى طليطنة وفر الصميل صوب جيان واستولى عبد الرحمن على عسكري يوسف وأكلوا الطعام الذي كان قد أعده ثم دخل قرطبة منتصراً ولم يقاومه أحد وحاول حمل جنوده ما استطاع على الاعتدال والقناعة كما عمل على حمايته أمر خصومه وحرّمهم وأموالهم من السلب والنهب مما حمل بعض اليمينية على الغضب منه ورموه بأنه تعصب لقومه وقد صلى عبد الرحمن الجمعة بالناس في المسجد الجامع وخطبهم لأول مرة ووعدهم بالعدل والاحسان وبويع في الحال بالإمارة ثم نزل قصر الإمارة وذلك في يوم الأضحى العاشر من ذي الحجة سنة ١٣٨هـ

ويعتبر ذلك بداية قيام الدولة الأموية في الأندلس^(١) وقد دعا عبد الرحمن في بداية أمارته للمنصور عشرة أشهر ثم قطع الخطبة للمنصور وحمله على قطعها عبد الملك بن عمر المرواني الذي قال له: تقطع الخطبة وإلا قلت نفسي فقطعها^(٢).

ولاشك أن الانتصار في تلك الموقعة يدل على عبقرية عبد الرحمن ودهائه وحسن سياسته ومعرفته لنفسية رجاله الذين اتقى بهم في الأندلس وتمكن من أن يجذبهم إلى صفه بمشاورته ضم وبعث الطمأنينة في نفوسهم حتى يثقوا به ويعتمدوا عليه. وقد أحكم خطة التمويه في خداعه ليوسف حتى أعتقد أنه يميل إلى الصلح بينما هو يخطط ويدبر للحرب حتى تمكن من التغلب على يوسف وجيشه مع ما كان يتمتع به جيش يوسف من تناسق وآلاف ووفرة في العدة والعتاد والطعام والشراب.

وإذا كان يوم المصارة فاتحة الانتصار فقد كان فاتحة الكفاح لعبد الرحمن حيث كانت الأندلس آنذاك تموج بالفتن والعصبيات فلم تكن الخصومة قاصرة على المضربة واليمنية بل أصبحت كل قبيلة وكل بطن تلتف حول زعاماتها ومصالحها الخاصة وكانت تلك القوى المتفرقة المستقلة برأيها وهواها تتمسك بإستقلالها المحلي وتأبى الخضوع لأية سلطة عامة، كما كان البربر يحرسون على الاحتفاظ بما انتزعوه خلال الفتنة من المواحي والضياغ، وكان هناك ما هو أشد خطراً من ذلك على المسلمين في الأندلس وهي المملكة النصرانية

(١) أخبار مجموعة ص ٨٦ ، ٩٠ ابن عداري البيان المغرب ح ٣ ص ٤٧ ،
د / عبد العزيز سالم تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ص ١٨٩ ، ١٩٠ ، ٤٤٠ عبد الله
عنان دولة الاسلام في الأندلس ص ١٥٢ د أحمد شعراوى الامويون أمراء
الأندلس ص ٨١ ، ٨٤ .

(٢) ابن الأثير تاريخ الكامل ح ٦ ص ١٠ ابن خلدون اليسر ح ٤ ص ١٢٢ ،

في الشمال والتي استطاعت أن تتخطى بسرعة مرحلة الهزيمة والفوضى وكذلك مملكة الفرنجة التي تمكنت أثناء الفتنة من انزاع الأراضي الإسلامية فيما وراء البرنية ، وقد حاول نصارى الشمال والفرنج الذين يرغبون بالمسلمين في الأندلس أن يستغلوا فرصة الفرقة والضعف ليتصلوا ببعض الزعماء الخارجين عن الإمارة لتحقيق مشاريعهم في تمزيق الأندلس وانتزاع أطرافها .

كان علي عبدالرحمن المنتصر في المصاردة والذي لم يتجاوز السادسة والعشرين من عمره أن يواجه هذه الخطوب ويقارعها ف قضى بقية عمره في كفاح مستمر يحرص المعارك ويقمع انتورات ويسحق الخارجين عليه وصمد لذلك بعزم وثبات وجلد وصبر حتى قبض على مصابير الأندلس بيده القوية وازدهرت الحياة في ظل الإمارة الأموية وقدمكنه من ذلك تفرق خصومه فالتقى هم في الميدان ورادى فأخذ ثورتهم وحطم قراهم حتى قضى عليهم جميعاً وازداد هو قوة ومنعة وخبرة وحنكة .

٦ - عقبات واجهت عبد الرحمن وتغلب عليها .

١ - يوسف الفهرى والصميل وكيف قضى عليهما .

لم يسكن انتشار عبد الرحمن في موقعة المصاردة ودخوله قرطبة وبيعة الناس له إيداناً بأن الأمور قد نمت له ، وإنما كان عليه تتبع يوسف ومعارنه الصميل حتى يقضى عليهما خاصة وأن يوسف قد توجه إلى طليطلة وحشد فيها ما استطاع من أنصاره وساعده في ذلك عامله عليها هشام بن عروة الفهرى ، كما توجه الصميل إلى جيان وجمع فيها أنصاره والمؤيدين له ثم اجتمعت القوتان وتوجهت إلى البيرة وكانت خبطة يوسف والصميل أن أن يعملوا على جذب عبد الرحمن بن معاوية من قرطبة لقتالهما في جيان ثم يذهب عبد الرحمن بن يوسف الفهرى ليحتل قصر الإمارة في قرطبة .

وعندما علم عبدالرحمن بن معاوية بنزول يوسف والصميل في البيرة جمع جنده وترجع إليهما سنة ١٣٩ هـ بعد أن ترك قوة صغيرة لحماية قرطبة بقيادة أبي عثمان ، ولكنه لم يبعد كثيرا حتى ما حم عبد الرحمن بن يوسف الفهري الذي كان مقيما في ماردة - قرطبة واحتل قصر الإمارة وتمكن من القبض على أبي عثمان نائب عبد الرحمن في قرطبة وكبله بالأغلال . وصل ما حل بقرطبة إلى عبد الرحمن فعاد مسرعا إلى قرطبة ففر ابن يوسف الفهري إلى أبيه في البيرة ومعه أبو عثمان عند ذلك عين عبد الرحمن على قرطبة عامر بن علي وكانت له صولة وسيادة عند اليمينية ثم عاد لمواجهة يوسف والصميل بالبيرة وحاصرهما فيها فلما شعرا بعدم قدرتهما على الصمود في وجه عبد الرحمن فإوضاه في الصلح وأن يعترف بإمارته ولا ينازعه فيها على أن يؤمنهما في النفس والمال والأهل وأن يؤمن حلفاءهما وأعوانهما ويسمح لهما بسكن قرطبة تحت رعايته ورقابته فقبل عبد الرحمن هذه الشروط على أن يقدم يوسف ولديه عبد الرحمن ومحمد أبا الأسود رهينة لديه يعقلهما في قصر قرطبة حبسا جميلا - أي اعتقالا سياسيا - حتى تطمئن النفوس وتستقر الأمور ، وأن يفرج عبد الرحمن عن خالد بن زيد في مقابل أن يفرج يوسف عن أبي عثمان وتم عقد الصلح بين الفريقين في سنة ١٤٠ هـ (١)

وقفل يوسف والصميل مع عبد الرحمن إلى قرطبة وانفض جندهما ونزل يوسف بشرقي قرطبة في قصر الحر الثقي ونزل الصميل بداره بالربض وعمل عبد الرحمن على إكراههما وتقدير مكانتهما (٢) وأقام يوسف

(١) ابن عذاري البيان المغرب ويذكر عبدالله عنان دولة الاسلام في الاندلس

ص ١٥٦ أنه في صفر سنة ١٣٩

(٢) أخبار مجموعة ص ٩٢ - ٩٤ ابن عذاري البيان المغرب ج ٢ ص ٤٨ ،

عبد العزيز سالم تاريخ المسلمين آثارهم في الاندلس ص ١٩١ - ١٩٣ ، محمد عبد الله

عنان دولة الإسلام ص ١٥٥ - ١٥٦ ، د أحمد الشعراوي الامويون أمراء

الاندلس ص ٦٢ - ٦٣ .

والصميل على أحسن حال يختلفان إلى عبد الرحمن ويحضرهما الرأى مرة بعد مرة ، ودخل يوسف الفهرى فى عسكر الأمير كأحد رجاله فأنزله على ماله وأطلق له عياله (١) .

كان لسلك عبد الرحمن مع يوسف والصميل وعفوه عنهما وتسامحه معها ومحاولته إزالة الأحقاد من النفوس أثر فى حب أهل الأندلس له وإقبال كثير من المشاركة عليه وأقبل من المشرق فى سنة ١٤٠ هـ كثير من بنى أمية ومواليهم فاستقبلهم الأمير استقبالا حسنا وأكرمهم وأحسن جوائزهم وأسند إلى كثير منهم بعض المناصب والولايات .

مضى عام حاول فيه أنصار يوسف السابقون حملة على الثورة على عبد الرحمن الذى أزال عنهم ما كانوا يتمتعون به من رفعة ومنزلة وما زالوا به يغرونه بالثورة على عبد الرحمن حتى كاتب الناس فأما أهل الأجناد فقالوا : لا والله ما نرجع إلى الحرب بعد السلم وكره الصميل وقيس ذلك وقالوا : حسبنا قد قضينا الذمام ، لا والله لا نخلعه (٢) فلما يئس منهم كاتب أهل البلد (٣) وأهل ماردة ولقنت فأجابوه وكتبوا إليه بدعوته إلى أنفسهم فهرب إليهم سنة ١٤١ هـ ناكثا لهده ناقضا الأيمان بعد توكيدها فاجتمع إليه الناس وبلغ جمعه عشرين ألفا ولما علم عبد الرحمن يهربه اتبعه الخيل وقبص على ابنته واعتقل الصميل فاحتج أنه لا ذنب له ولو أنه أذنب هرب معه فلم يأخذ عبد الرحمن باحتجابه وسجنه .

(١) أخبار مجموعة ص ٩٥ ، ابن عذارى البيان المغرب ج ٢ ص ٤٨

(٢) أخبار مجموعة ص ٩٥ ، ٩٦

(٣) البلديون هم العرب والبربر الذين قدموا إلى الأندلس أثناء الفتح

والشائبيون هم الذين قدموا الأندلس مع بلج من بشر

تقدم يوسف بجيشه نحو إشبيلية وحاصرها وكان والدها عبد الملك بن
عمر المرواني الذي طلب من ابنه والي مورور نجدته . وكان عبد الرحمن
يستعد للملاقاة يوسف ففك يوسف الحصار عن إشبيلية ليتوجه إلى عبد الرحمن
ووصل والي مورور إلى أبيه في أشبيلية وكثر جمعهما فزحفا خلف يوسف
الذي رأى أن يتخلص منهما أولا حتى لا يقع بين جيشهما وبين جيش
عبد الرحمن . ودارت الحرب بين يوسف وبين عبد الملك وبدأت الحرب
بالمبارزة فقتل مبارز يوسف . ثم حمل عبد الملك ومن معه حملة رجل
واحد فانهزم يوسف من ساعته وتفرق من معه وسار يوسف إلى طليطلة
ليحتمي بها عند ابن عروة والي طليطلة فأدركه عبدالله بن عمر الأنصاري
قبل طليطلة بأربعة أميال فقتله وأراح الناس من شره وحملت رأسه إلى
عبد الرحمن فأمر بقتل ابن يوسف عبد الرحمن المعتقل لديه كما خنق
الصميل في سجنه وبذلك تخلى عبد الرحمن عن يوسف والصميل وهي
أولى العقبات في سبيل استقرار إمارته وحكمه (١) . واستوثقت الأمور له
وأضى عبد الرحمن بن عقبة على ولاية أربونة وما اتصل بها إلى طرطوسة
وولي طليطلة رجلا من ولد سعد بن عبادة الأنصاري كان ساكنا بها (٢)

(ب) نوار من العرب والبربر والأقارب .

لم تستقر الأمور لعبد الرحمن بعد القضاء على يوسف والصميل وإنما
قامت عليه خلال عهده ثورات متعددة هي ثورة رزق بن النعمان الغساني

(١) أخبار مجموعة ص ٩٥ - ١٠٠ ؛ ابن عذاري البيان المغرب ج ٢ ص ٤٩ ،
عنات دولة الاسلام في الأندلس ص ١٥٦ ، ١٥٧ ، عبد العزيز سالم تاريخ
المسلمين وآثارهم في الأندلس ص ١٩٥ ، ١٩٦
(٢) ابن القوطية تاريخ افتتاح الأندلس ص ٥٢

وثورة هشام بن عروة الفهري بطليطة وثورة عبد الخافر اليماني باشبيلية
وثورة العلاء بن مغيث اليحصي باجة وثورة سعيد اليحصي المعروف
بالمطري بلبلة ، وثورة الصباح باشبيلية ، وثورة الفاطمي بماردة ، وثورة
حيوة بين ملامس في أشبيلية ، وثورة أهل بيته عليه ، وثورة عبد الرحمن
بن حبيب الفهري بتدمير ، وثورة الرماحس بن عبد العزيز الكناني في
الجزيرة ، وثورة سليمان بن يقطان الأعرابي والي برشلونة ، وثورة الحسين
بن يحيى في سرقطة ، وثورة محمد بن يوسف الفهري في طليطة ، وثورة
قاسم بن عبد الرحمن الفهري (١) .

وهذه الثورات والمؤامرات ضد الأمير عبد الرحمن الداخل (٢) تدل
على حالة الفوضى المنتشرة في أنحاء الأندلس ومدى التنافس بين القبائل المختلفة،
والأحقاد المتأصلة بين زعماء تلك القبائل وحكام المدن والثغور ، وأن نزعة
الانفصال كانت تهدد وحدة الأندلس، مما أتاح لأعداء المسلمين في الأندلس خاصة
الممالك المسيحية في الشمال أن تحتل بعض المدن الشمالية وتهدد أمن المسلمين ،
وسهل التدخل الخارجي سواء من جانب الفرنج أو العباسيين ولولا يقظة
وحكمة عبد الرحمن وحزمه وسرعة مجابهة هذه الثورات والقضاء عليها
والعمل على تقوية الدولة والعمل على وحدتها لتفتت الأندلس وسقط
لقمة سائفة في يد أعدائه وسرى أن هذا الجهد والكفاح الدائب الذي
قام به عبد الرحمن قد جمع شتات القبائل ووحد فيما بينها وجعل حكمه بداية
عهد جديد في الأندلس سار عليه أبناؤه من بعده لتشييد ضريح الدولة الإسلامية
في الأندلس (٣) .

(١) أخبار مجموعة ص ١٠١-١١٢ ، ابن عذاري البيان المغرب ج ٢ ص ٥٠-٥٨

(٢) سمي الداخل لأنه أول من دخل الأندلس من بني مروان

(٣) أنظر د / أحمد الشمر اوى الامويون امراء الأندلس الاول ص ١٠٦ ، ١٠٧

ولا تريد هنا أن نتبع هذه الثورات واحدة بعد أخرى وإنما سنعرض
بعض هـ هذه الثورات وكيف قضى عليها عبد الرحمن حتى حقق وحدة
الأندلس وقوته .

١ - فقد ثار في طليطلة هشام بن عروة الفهري وهو قيسي من أتباع
يوسف الفهري فسار إليه عبد الرحمن وشدد عليه الحصار حتى اضطر إلى
طلب الصلح وقدم ابنة رهيئة فقبل عبد الرحمن إذعانه ورجع عنه . فعاد
هشام إلى نقض العهد فغزاه الأمير في السنة الثانية وشدد عليه الحصار ودعاه
إلى الرجوع فلم يذعن له فلما يئس منه أمر بأبنة الرهيئة فضربت عنقه
وقذف الرأس بالمنجنيق في المدينة ورجع عنه لانشغاله بثورة العلاء بن مغيث
اليحصبي وبعد أن قضى عليها . بعث مولاة بدرا وتمام بن عاقمة سنة ١٤٧ هـ
في جيش كثيف إلى طليطلة فحاصروا هشام بن عروة حصارا شديدا منعا فيه
الاقوات عن طليطلة حتى مل أهل المدينة الحصار واستنقلوا الحرب وكاتبوا
تماما وبذرا وسألوهما الأمان على أن يسلبوا لهما ابن عروة وهشام بن حمزة بن
عبيد الله بن عمر بن الخطاب وحيوة بن الوليد التجيبي وكانوا بدأ واحدة
فتم ذلك وحملوا إلى قرطبة وفي الطريق حلفت رؤسهم والحامم والبسوا
جيبا صوفية وحملوا على الحمر ودخلوا قرطبة على هذه الحال وأمر عبد الرحمن
بقتلهم وكتب إلى البلدان بفتح طليطلة^(١) .

٢ - وفي سنة ١٤٦ هـ ثار العلاء بن مغيث اليحصبي بباجة وكان من
وجوهها وله بها رئاسة وعصبة وكان أبو جعفر المنصور قد بعث إليه بسجل

(١) أخبار مجموعة ص ١٠١ ، ١٠٤ ابن عذاري البيان ج ٢ ص ٥٣ ،
عبد العزيز سالم تاريخ المسلمين وأثارهم في الأندلس ص ١٩٧ ، ١٩٩ عبدالله عمان
دولة الاسلام في الأندلس ص ١٥٩ ، ١٦١

ولواء وقال له : إن كان فيك محل المناهضة عبد الرحمن وإلا فأبعث إليك
بمن يعينك (١) . وبذلك استطاع العلاء أن يسبغ على ثورته لونا من الشرعية
بتبعيةها للحلافة العباسية فسعا إلى طاعة أبي جعفر المنصور ونشر الأعلام السود
فتبعه خاق كثير ونطلع أكثر أهل الأندلس إلى خلع عبد الرحمن ولا سيما
القهرية واليمينية وجند مصر وانضم إليه أمية بن قطن وأصحابه ، وأقبل
إليه غياث بن علقمة اللخمي من شدونه مداهم .

فخرج عبد الرحمن من قرطبة في جميع قواته وبعث بدرا مولاه ببعض
القوات إلى شدونة فحاصرها فأذعن غياث لطلب الصلح ، وسار عبد الرحمن
إلى قرمونه فتحصن بها ومعه ثقات مواليه وخاصته ، فسار إليه العلاء
بجموعه وهاجم قرمونه مرارا وحاصره بها قريبا من شهرين فلما طال مقامهم
انخزل عن العلاء أكثر من كان معه ووهنت روح قواته المعنوية ، وأدرك
عبد الرحمن ذلك وكان في سبعمائة من أشداء الرجال ومشاهير الأبطال .
فأمر بنار فأوقدت عند الباب المعروف بباب أشبيلية ثم أمر بأجفان سيوفهم
فطرحت فيها ثم قال لهم : أخرجوا معي لهذه الجوع خروج من لا يحدث
نفسه بالرجوع ، وتقدم الصفوف وخلفه رجاله فانقضوا على جيش العلاء
ابن مغيث فمزقه شرمزق وقتل العلاء مع ستة آلاف من أتباعه (٢) وأمر
عبد الرحمن بحز رأس العلاء ودهس أشراف أصحابه ووضعت فيها
صكوك بأسمائهم وحمل بعضها إلى القيروان فطرح في الليل في الأسواق
وحمل البعض الآخر إلى مكة مع بعض التجار النقاة وفيه رأس العلاء
ومعه السجل واللواء الذي أرسله إليه المنصور فوضعه أمام سرادق المنصور

(١) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ج ٤

(٢) ابن عذارى ج ٢ ص ٥٢ والمقرئ في نفخ الطيب يذكر أنهم سبعة آلاف

الذى كان يحج ذلك العام سنة ١٤٧ هـ فلما نظر إليه المنصور قال : دانا
لله عرضنا بهذا المسكين للقتل الحمد لله الذى جعل البحر بيننا وبين هذا
الشيطان . .

وبهذه الشجاعة النادرة التى أبدأها عيد الرحمن وأنصاره استطاع أن
يقضى على هذه الثورة الخطيرة التى كانت تدعمها الخلافة العباسية معنويا
وتضيق عليها ، الصبغة الشرعية وجمعت كثيرا من خصوم عيد الرحمن تحت
لواء واحد (١) .

٣ - وفى سنة ١٥٣ هـ قامت ثورة من البربر فى شمال شرق الأندلس
وكان زعيمها داعية بربرى خطر يدعى شقنا بن عبد الواحد من بربر مكناسة
وكان فقيها يعلم الصبيان وزعم أنه من ولد الحسن بن على رضى الله عنه وكانت
أمه تسمى فاطمة فادعى أنه فاطمى وتسمى بعبد الله بن محمد فذاعت دعوته
بين البربر فى تلك المنطقة وكانوا أكثرية ، وكانوا على استعداد لحمل السلاح
إذا مادعاهم إلى ذلك أحد من بنى جنسهم فاستطاع بهم أن يستولى على شنت
بريه وجعلها مركزه العام ثم استولى على ماردة وقرربة ومدلين فعظم خطره
وهزم الكتائب التى أرسلها إليها حاكم طليطلة . فزاد ذلك فى سلطانة وبغية
فسار إليه عبد الرحمن بنفسه وإقنحم منطقة الثورة ونشبت بينه وبين البربر
وقائع عديدة وامتنع الثائر بالجبال فرجع عبد الرحمن عن مطاردته إلى قرطبة
وأرسل مولاة بدرًا يتابع القتال مع الثائر البربرى فاستمر الفاطمى متنما
بصحبه فى الجبال لا يريد لقاء الجيش المهاجم .

(١) ابن القوطية افتتاح الأندلس ص ٥٤ . ٥٥ أخبار مجموعة ص ١٠٢ - ١٠٣
ابن عذارى البيان ص ٣٠ - ٥١ - ٥٢ عنان دواة الإسلام ص ١٦٠ - ١٦١ عبد العزيز
سالم تاريخ المسلمين وأثارهم فى الأندلس ص ١٩٧ - ١٩٨ ، أحمد الشعراوى
الامويون امراء الأندلس الاول ص ٩٧ - ٩٩ .

وقد فشلت الحملات المتوالية في القضاء على التأثير البربري في تلك المنطقة الوعرة فعاد عبد الرحمن سنة ١٥٥ هـ بجيش إلى شنت برية وقدم عليه هلال المديوني كبير البربر في شرق الأندلس فكتب له عهدا على قومه وأقره على موضعه وعهد إليه بولاية الأنحاء التي غلب عليها الفاطمي وفوض إليه أمر استخلاصها منه وكان لذلك أثره في بث الخلاف بين البربر ، فانفض عن الفاطمي كثير من انصاره واضطر أن ينسحب من شنت برية ليعتصم بالجبال في الشمال مرة أخرى وكانت مشاكل عبد الرحمن تدفعه إلى ترك هذا التأثير والعودة إلى قرطبة للبت في أمر دولته مما جعل هذه الثورة تظل مشتعلة قرابة عشر سنوات كما كان للأسلوب الذي يتبعه الفاطمي من تجنب المعارك والفرار إلى قمم الجبال إذا شعر بالخطر من عوامل بقائها كذلك ، ولم يتمكن عبد الرحمن من القضاء عليه إلا بمؤامرة دبرها له اثنان من أصحابه بمساعدة الزعيم البربري الآخر هلال المديوني فقتلاه وأخذ رأسه وحملها إلى عبد الرحمن في قرطبة، وبذلك انفضت جموعه وخبت ثورته بعد أن مكثت عشر سنوات تحمل الدمار وتسفك الدماء في شرق الأندلس وتمدد سلطان عبد الرحمن، وحققت الخيانة في لحظة واحدة مالم تحققه الحيل والبعوث المتعاوية في أعوام طويلة وكان مصرع الفاطمي وانتهاء ثورته في سنة ١٦٠ هـ (١)

٤ - مؤامرات اشتركت فيها القوى الداخلية والخارجية :

بينما كان عبد الرحمن يواجه هذه الثورات المتلاحقة التي يقوم بها الثوار

(١) أخبار مجموعة ص ١٠٧ ، ابن عذارى البيان المغرب ٢ ص ٥٤ ، ٥٥ .
ابن خلدون العبر ٢ ص ١٢٢ . عبد الله عنان دولة الاسلام ص ١٦٢ - ١٦٥ ،
أحمد شعراوي الامويون امراء الأندلس ص ١٠٠ - ١٠٢ عبد العزيز سالم تاريخ
المسلمين وآثارهم في الأندلس ص ٢٠٠ .

بالداخل ويقضى عليها واحدة تلو الأخرى ويثبت دعائم إمارته ويقوى أركانها إذا بيعض الثوار يتحكم الحقد فيهم ويملا السخط نفوسهم فلا يهتمهم إلا تحقيق أهوائهم ومصالحهم الشخصية فيتصلون بقوى خارجية من أجل القضاء على الإمارة الأموية .

فقد استعان عبد الرحمن بن حبيب الفهرى المعروف بالصقلبي - لطوله وزرقته وشقرته - بالبربر في إفريقية وعمر إلى تدمير وثار فيها ودعا للعباسيين وكان سليمان بن يقطان الكلبي (الأعرابي) وكان برشلونة ودعا إلى للدخول في أمره فأجابته : بأنه لا يدع عونه ولكن ذلك لم يرق للفهرى وتوجه لغزوه ، ولكن الأعرابي تمكن من هزيمته فعاد الفهرى إلى تدمير (١) ، وواصل الثورة فيها فخرج إليه الأمير عبد الرحمن واشتد في قتاله فلجأ إلى الجبال يحتوى بها فبسط عبد الرحمن سلطانه في كوزة تدمير وتقدم إلى كورة بلنسية بعد أن أحرق المراكب بساحل البحر حتى لا يمكنه من الهرب ودس عبد الرحمن على الصقلبي مشكارا البربري فتمكن من اغتيال ابن حبيب الصقلبي وحمل رأسه إلى عبد الرحمن وبذلك انهارت دعوته وثورته سنة ١٦٢، ١٦٣ هـ (٢) .

أما الثورة الثانية فقد قام بها سليمان بن يقطان الكلبي الأعرابي حاكم برشلونة ، والحسين بن يحيى بن سعيد بن عبادة الأنصاري والي سرقطة ونحالفا على قتال عبد الرحمن وخطمه فأرسل إليهم عبد الرحمن جيشا بقيادة ثعلبة ابن عبيد الجزامي فهزمه سليمان وأمر قائد الجيش واتسعت الثورة في الشمال ولكن سليمان لم يظلمن إلى هذا النصر خوفا من عبد الرحمن ورأى الاستعانة

(١) أخبار مجموعة ص ١١٠ .

(٢) ابن عذارى البيان ص ٢٠٦ ابن الأثير الكامل ص ٦٣ ص ٥٤

بملك الفرنج شارلمان فأرسل إليه يستقدمه إلى شمال الأندلس واعداء إياه
بتسليم برشلونة أو سرقسطة إليه وبعث إليه بالقائد المأسور ثعلبة بن عبيد،
أغتم شارلمان الفرصة فعبر جبال اليرانس بجيش كبير واستولى على نبلونة
من البشكنس وكان يهتفوا إلى أن يسيطر على شمال الأندلس . وقد استقبله
سليمان وسار معه إلى سرقسطة وهما يعتقدان أنها ستفتح أبوابها لشارلمان .
ولكن حاكمها الحسين بن يحيى الأنصاري خشي عاقبة مخالفة الأفرنج كما أن
أهل سرقسطة صمموا على السمود والقتال وقدموا الشهداء دفاعا عن مدينتهم
عما جعل شارلمان يفكر في العودة بعد عجزه عن الاستيلاء على سرقسطة
وقد شك في نية سليمان وموقفه فقبض عليه .

وأثناء عودته تعرضت مؤخرة جيشه لهجمات المسلمين بقيادة ابني سليمان
والبشكنس في جبال اليرنية فخلصوا الأسرى منهم ، كما فتكوا بمؤخرة
الجيش وقتلوا كثيرا من كبار القواد .

عاد سليمان إلى سرقسطة وبعد فترة قتله الحسين الأنصاري الذي ظل
ثائرا ضد الأمير عبد الرحمن الذي خرج إليه في جيش كبير وحاصره
حصارا شديدا اضطر الحسين إلى طلب الصلح وأرسل ابنه رهينة فقبل منه
عبد الرحمن ذلك وفك الحصار عن سرقسطة ولكنه عاد وغدر في عهده
فعاد الأمير إلى حصاره ونصب على المدينة ستة وثلاثين منجنيقا من كل
جانب وضاق أهلها بالحصار فاتصلوا بعبد الرحمن وسلبوا إليه الحسين بن
يحيى الثائر فقتله وانتهت بذلك ثورته (١) .

(١) ابن عذاري البيان المغرب ج٢ ص ٥٦، ٥٧ أخبار مجموعة ص ١١٢-١١٤
د عبد العزيز سالم تاريخ المسلمين وآثارهم ص ٢٠٢ — ٢٠٥ عنان دولة
الاسلام ص ١٦٦ — ١٨١ ، أحمد الشعراوي الأهويون امراء الأندلس
ص ١٠٢ — ١٠٦ .

وقد حاول دوزى^(١) وتبعه عبد الرحمن سالم، أحمد الشعراوى أن يوجدوا ترابطا وتحالفا بين ثورة سليمان بن يقظان وثورة عبد الرحمن الصقابي وبرطوا كذلك بين العباسيين وشارلمان في هذا التحالف من أجل القضاء على عبد الرحمن الداخل في الأندلس لمصلحة كل منهما في القضاء عليه .

ولا ميل إلى الأخذ بهذا الرأي الذى يطعن في الخلافة العباسية ويتهمها بالتحالف مع الفرنجة للقضاء على عبد الرحمن الداخل في الأندلس حيث لم تشر إلى ذلك المصادر العربية من قريب أو بعيد ، ولن يحمل العداة بين العباسيين وللمأمويين في الأندلس العباسيين على التحالف مع الأفرنج حتى يهضموا على الأمويين في الأندلس لأن قضاء الأفرنج عليهم لن يسفر عن ضم الأندلس إلى الدولة العباسية .

٧ - منزلة عبد الرحمن وإصلاحاته :

بعد عمر قارب الستين عاما توفي عبد الرحمن بن معاوية الأموى يوم الثلاثاء لست بقين من ربيع الآخر سنة ١٧٢ هـ^(٢) بعد أن حكم الأندلس ثلاثة وثلاثين عاما قضاها في حركة دائبة أقام فيها الإمارة الأموية في الأندلس وأرسي دعائمها وحافظ عليها ضد الخارجين عليها حتى ثبتت أركانها وعلا بنيانها وعاونه وأبده خلال رحلته بناء إمارته أنصاره من موالى بنى أمية واليمانية وبعض القيسيين وأهل البلاد الأصليين

وكان عبد الرحمن راجع الحلم فاسح العلم ثاقب الفهم كثير الحزم ناهض العزم بريئا من العجز سريع الممضه في طلب الخارجين عليه متصل الحركة لا يخلد إلى راحة ولا يسكن إلى دعة ولا يكل الأمور إلى غيره ثم لا ينفرد

(١) دوزى تاريخ مسلمى أسبانيا ص ٢٢٨ : ٢٢٣

(٢) ابن عذارى البيان ص ٢٣٥ ص ٥٨٠

في إبرامها برأيه شجاعا مقداما بعيد الغور شديد الحذر قليل الطامأنينة بليغاً مفوها شاعرا محسننا سمحا سخيا طلق اللسان (١).

ولاشك أن هذه الصفات الحميدة التي وصف بها ابن حبان عبد الرحمن قد استمدتها من سلوك عبد الرحمن وتصرفاته أثناء أمارته وتغلبه على المصاعب والأهوال خلال فترة حياته حتى حقق ما يصبوا إليه من إماراة قوية واسعة . وقد حملت صفات عبد الرحمن وأفعاله أبا جعفر المنصور العباسي على وصفه بصقر قريش فقد قال المنصور يوما لبعض جلسائه : أخبروني : من صقر قريش من الملوك ؟ قالوا : ذلك أمير المؤمنين الذي راض الملوك وسكن الزلازل وأباد الأعداء وحسم الأدواء . قال : ما قلتم شيئا ! قالوا : معاوية ؟ قالوا : لا قالوا فمبدا الملك بن مروان ؟ قال : ما قلتم شيئا . قالوا : يا أمير المؤمنين ! فمن هو ؟ قال : صقر قريش عبد الرحمن ابن معاوية الذي عبر البحر وقطع القفر ودخل بلدا أعجميا منفردا بنفسه فصر الأمصار وجند الأجناد ودون الدواوين وأقام ملكا عظيما بعد انقطاعه بحسن تدبيره وشدة شكيمته إن معاوية نهض بمركب حمله عليه عمر وعثمان وذلاله صعبه وعبد الملك ببيعة أبرم عقدها وأمير المؤمنين بطلب عترته واجتماع شيعته وعبد الرحمن منفرد بنفسه مؤيد برأيه مستصحب لعزمه وطد الخلافة بالأندلس وافتتح الثغور وقتل المارقين وأذل الجبابرة للناشرين (٢).

وهي شهادة من خصم قارن فيها أبو جعفر بينه هو ومعاوية وعبد الملك وبين عبد الرحمن وحكم لعبد الرحمن بأنه الجدير بلقب صقر قريش لما اتصف به من صفات وقام به من أعمال .

(١) نقله المقري في نزهة العليب عن ابن حبان ج ٢ ص ٦٧ كما ذكره عنان دولة الاسلام ص ١٩٢

(٢) ابن عذارى ص ٢٠٥٩ ، ٦٠٠

وقد عمل عبد الرحمن على تغيير مفهوم الحكم بحيث يكون الانقياد والخضوع للدولة وليس للعصبية أو القبيلة وقد بذل في سبيل ذلك جهدا كبيرا منذ دخوله قرطبة منتصرا ، كما عمل على تنظيم الجهاز الحكومي فأنشأ منصب الحجابة وأسندها إلى تمام بن علقمة ثم ولاها يوسف بن بخت ثم عبد الكريم بن مهران ثم عبد الحميد بن مغيث ثم منصور فتاه الذي ظل فيها حتى وفاته . وكان يختص بمشورته ومعاونته في شئون الحكم أربعة يطلق عليهم ابن عذارى لقب وزراء (١) وهم عبدالله بن عثمان ، وعبدالله بن خالد ، ويوسف بن بخت ، وحسان بن مالك . وقد تولى قيادة عسكره مولاة بدر ، وتام بن علقمة ، وعبد الملك المرواني وثعابة بن عبيد وغيرهم وقد كان عبد الرحمن يتولى بنفسه قيادة الجيش في معظم الوقائع والحروب التي قامت بينه وبين خصومه . كما أسند الولاية على المدن والأقاليم والشعور إلى من يثق فيهم من مؤيديه وذوي رحمه الوافدين عليه . وسار على سياسة الاعتدال والمهادنة بالنسبة للنصارى (المستعربين) وعين رئيسا عاما لهم باسم القمص (القومس) يقيم إلى جواره في قرطبة ويستشيره في كثير من الأمور (٢) .

كما اهتم عبدالرحمن بالجيش وحشد له المتطوعة والمرتزة من كل صوب . وقد بلغت قواته نحو مائة ألف مقاتل عدا حرسه الخاص من الموالى والبربر والريقيق ويبلغ قرابة أربعين ألفا واهتم في أواخر عهده بالقوات البحرية فأنشأ عدة قواعد لبناء السفن في طركونة وطرطوشة ، وقرطاجنة وأشبيلية .

(١) المرجع السابق ص ٤٨

(٢) ابن القوطية تاريخ افتتاح الأندلس ص ٥٨ ، أحمد بدر دراسات في

تاريخ الأندلس حضارتها ص ٩٧

وغيرها (١).

ووجه عبد الرحمن عنايته لفشر العدل بين الرعية وفضر الخصومات بينها
وقلد القضاء في عهده يحيى بن يحيى النجيبى، ومعاوية بن صالح، وعبد الرحمن
بن طريف وعمر بن تراجيل، والمصعب بن عمران وكان له قاض خامس
في صررائمه يسمى جدار بن مسلمة بن عمرو المزحجيبى (٢).

ومع كثرة الأعباء التي ألقيت على كاهل عبد الرحمن لم يغفل الناحية
المعمارية فاهتم بقرطبة عاصمة أمارته فخصنها بسور وجعلها وأنشأ في شمالها
قصرًا ضخمًا تحيط به الحدائق وسمى تلك الضاحية بالرصافة تخليداً للذكرى
الرصافة التي أنشأها جده هشام بالشام. وقد جعلها عبد الرحمن مقاما
ومنتزها ومركزا للإمارة.

وأنشأ في قرطبة وبقية المدن مساجد كثيرة وفي سنة ١٧٠ هـ بدأ بإنشاء
المسجد الأموي الجامع بقرطبة وكان موضعه كنيسة قوطية قديمة، وجلب إليه
العمدة الفخمة والرخام المنقوش بالذهب واللازورد وقد توفي عبد الرحمن
قبل إتمامه فأتمه ابنه هشام وزاد فيه ولاية بني أمية من بعده حتى صار أعظم
مساجد الأندلس وقد انفق عليه عبد الرحمن في عهده مائة ألف دينار،
كما أنشأ عبد الرحمن في قرطبة دارا للسكة تضرب فيها النقود حسب
ما كانت تضرب في دمشق أيام بني أمية وزنا ونقشاً (٣).

وحسبي في النهاية أن أورد ما ذكره ابن حيان عنه : بأنه دون الدواوين

(١) المقرئ نفتح الطيب ج ٢ ص ٦٧ ، ٧٤ نقلا عن عثمان دولة الاسلام

ص ١٩٦ ، ١٩٧

(٢) ابن عذاري البيان ج ٢ ص ٤٨

(٣) أنظر عثمان دولة الاسلام ص ١٩٧ ، ١٩٨

ورفع الأوادين ، وفرض الأعطية ، وعقد الألوية ، وجند الأجناد ، ورفع العباد ، وأوثق الأوتاد فأقام الملك آله . وأخذ للسلطان عدته ، فاعترف له بذلك أكبر الملوك وحذروا جانبه ، وتحاموا حوزته ، ولم يلبث أن دانت له البلاد واستقل له الأثر فيها ^(١) ، وقول أبي جعفر المنصور عنه بأنه « فقى قریش الأحوذى ^(٢) الفذ فى جميع شئونه ، وعدمه لأهله ونسبه ، وتسليمه عن جميع ذلك ببعده مرقى همته ومضاء عزيمته ، حتى قذف نفسه فى لجج المهالك لا يبتناء مجده فاقتهجم جزيرة شاسعة المحل نائمة المطمع عصبية الجند ، ضرب بين جندها بخصوصيته وقمع بعضهم ببعض بقوة حيلته ، واستمال قلوب رعيتها بقضية سياسية حتى انقاد له عهدهم وذل له أبيهم فاستولى فيها على أريكته ملكا على قطيعته ، فأهرا لأعداته ، حاميا لدماره ، مانعا لحوزته ، خالطا الرغبة إليه بالرهبة منه إن ذلك لمو الفقى كل الفقى . لا يكذب مادحه .

وكان الداخل جم التواضع يقعد للعامه ويسمع منهم وينظر بنفسه فيما بينهم ويتوصل إليه من اراده من الناس ، فيصل الضعيف منهم إلى ورفع ظلامته إليه دون مشقة ، وكان من عادته أن يأكل معه من أصحابه من أدرك وقت طعامه ومن وافق ذلك من طلاب الخوانج أكل معه ^(٤) .

واختم حديثى عن مؤسس الدولة شمره العذب الرقيق الذى بصور رقة نفسه وشدة حنينه إلى موطنه فى الشام :

-
- (١) نقل عن نفح الطيب ج ١ ص ٣١٠
(٢) الأحوذى : السريع فى كل ما أخذ به .
(٣) نقل عن نفح الطيب ج ١ ص ٣١٠
(٤) نفح الطيب للمقرئ ج ١ ص ٣١٠ ، ٣١١

أيها الراك الميمم أرضى
أفر من بعضى السلام لبعضى
إن جسمى كما تراه بأرض
وفؤادى ومالكية بأرض
تقدر البين بننا فافترقنا
وطوى البين عن جفونى غمضى
تقد قضى الله بالبعاد علينا
فسمى باقترابنا سوف يقضى (١)

الفصل السابع

امراء بني أمية في الأندلس بعد عبد الرحمن الداخل

١ - هشام بن عبد الرحمن^(١) ١٧٢ - ١٨٠ هـ ٧٨٨ - ٧٩٦ م

تولى إمارة الأندلس بعد عبد الرحمن الداخل ابنه هشام بعهد منه وكان لعبد الرحمن أحد عشر ولدا فأثر هشاما بولاية العهد لاقتناعه بأنه الجدير بولاية العهد من بين أبنائه . ويتفق على إسناد ولاية العهد إليه ابن الأثير^(٢) وابن خلدون^(٣) والمقرئ^(٤) وكان هشام حين وفاة أبيه مقبلا بماردة مقر ولايته ، وكان أخوه عبدالله المعروف باليلنسى حاضرا بقرطبة لدى والده وكان أكبر إخوته سليمان بمدينة طليطلة واليا عليها . فلما توفى عبد الرحمن جدد عبدالله البيعة لأخيه هشام بعد أن صلى على والده وكتب إلى أخيه هشام يعرفه بموت والده والبيعة له فتوجه هشام إلى قرطبة فدخلها بعد ستة أيام وتولى مقاليد الإمارة وبإمته الخاصة والعامة .

هذا ما ميل إليه بالنسبة لإسناد ولاية العهد إلى هشام ولا تأخذ بما يذكره ابن عذارى بقوله : وقيل إن عبد الرحمن بن معاوية لما حضرته الوفاة وابنه هشام بماردة وابنه الآخر سليمان بطليطلة وكل ابنه عبدالله المعروف باليلنسى وقال له : ه من سبق إليك من أخوتك فارم إليه بالخاتم والأمر وإن سبق هشام فله فضل دينه وعفافه واجتماع الحكمة عليه وإن سبق إليك سليمان

(١) ولد بمدينة قرطبة في شوال سنة ١٣٩ هـ وأمه أم ولد تسمى حبل وقيل جمال وتوفى في صفر سنة ١٨٠ هـ وكان عمره أربعين سنة .

(٢) الكامل ج ٦ ص ١١٢

(٣) المبرج ج ٤ ص ١٢٤

(٤) نفح الطيب ج ١ ص ٣١٣

فله فضل سنة ونجدة وحب الشاميين إليه^(١) ، لأن ذلك ينافي طائفة عليه
ابن الأثير وابن خلدون ، ثم إن المعروف عن عبد الرحمن البت في الأمور
فهو لا يترك أمر الإمارة يتحكم فيه من سبق إلى قرطبة ، ثم إن هذا الوضع
يشير الفتنة بين الأخوة ويجعل المتأخر منهما في الوصول إلى قرطبة يطالب
السابق لإيها بحقه وهذا يؤيد أن ولاية العهد كانت لهشام وحده .

الثورات الداخلية في عهده :

عندما تمت البيعة لهشام وتولى مقاليد الامارة في قرطبة ثار عليه أخوه
الأكبر سليمان وكان واليا على طليطلة فدعا لنفسه فيها وفيما جارها ثم لحق
به أخوه عبد الله البلنسى في طليطلة مما حمل هشاما على أن يذهب بجيش
لحصارهما في طليطلة ولكن سليمان خرج مستخفيا إلى قرطبة ليتولى الأمور
فيها وقد فشل في ذلك لأن هشاما أرسل إليه ابنه عبد الملك في جيش لمطارده
ففر إلى ماردة فطارده عامل هشام فلجأ إلى تدمير (مرسية) وبعد حصار
دام شهرين لطليطلة عاد هشام إلى قرطبة وشعر عبد الله بفشل الثورة فقدم
إلى هشام في قرطبة يلتمس صفحة فغفا عنه وأكرم متوا ، وأرسل هشام
جيشا بقيادة ابنه معاوية إلى تدمير لقب أخيه سليمان وضيق عليه الخناق
حتى طلب الأمان فوافق هشام على طلبه على أن يعبر بأهله وولده إلى
المغرب وأعطاه ستين ألف دينار مصالحة على تركه أبيه عبد الرحمن ، وسار
معه أخوه عبد الله وأقاما بعدوة المغرب وانتهت بذلك ثورة الأخوين
سنة ١٧٤ هـ^(٢) .

(١) ابن عذاري البيان المغرب ٢ - ٦١

(٢) ابن الأثير الكامل ٦ ص ١١٦ ، ١١٧ ، ابن عذاري البيان ٢ ص ٦٢

٦٣ ابن خلدون ٤ ص ١٢٤ عنان دولة الإسلام ص ٢٣١ ، ٢٢٢ .

وقد حاول بعض الموتودين من عبد الرحمن الثورة على ابنه هشام فقد ثار سعيد بن الحسين الأنصاري بطرطوشة وكان قد التجأ إليها حين قتل أبوه والتفت حوله اليمانية وأخرج عامل هشام يوسف العبسي فعارضه موسى بن فراتون في المضربة داعيا لهشام حتى تمكن منه وقتله^(١) ، كما ثار عليه مطروح بن سليمان بن يقظان بمدينة رشلونة وكثر جمعه فاستولى على سرقسطة ووشقه فبعث إليه هشام جيشا بقيادة عبيد الله بن عثمان فضيق الحصار على سرقسطة حتى ضاق أهلها ذرعا بالحصار. فخرج مطروح في بعض الأيام متصيذا فاغتاله صاحباه عمرو بن يوسف وابن صلتان واحتزا رأسه وقدماه إلى ابن عثمان الذي تقدم إلى سرقسطة فدخاها وبعث الرأس إلى هشام سنة ١٧٥ هـ وانتهت بذلك الثورة في الشمال .

وهناك ثورة أخرى قام بها البربر في منطقة رندة المعروفة بإقليم تاكرنا سنة ١٧٨ هـ حيث خلع البربر الطاعة وأظهروا الفساد فدعاهم هشام إلى الطاعة فلم يمتثلوا فسيرا إليهم جيشا كبيرا بقيادة عبد القادر بن أبان مولى معاوية بن أبي سفيان فشنت جموع البربر وقتل كثيرا منهم وخرب ديارهم حتى صارت بلقعا سبع سنين وبالقضاء على تلك الثورة استقرت الأمور الداخلية في البلاد^(٢) .

الحروب الخارجية :

كانت الثورات الداخلية التي قامت في الأندلس أيام عبد الرحمن وهشام دافعا للدول والإمارات المسيحية في الشمال لكي يغيروا على حدود الأندلس

(١) ابن الأثير الكامل ج ٦ ص ١١٧ : ١١٨

(٢) ابن الأثير الكامل ج ٦ ص ١٤٤ ، ابن عذاري البيان ج ٢ ص ٦٤

ويقتطعوا منها الأجزاء كما كان لبعض هذه الدول أصابع في تحريك بعض هذه الثورات وتشجيعها على مواصلة الفتنة . لذلك كان على هشام بعد أن استقرت أموره الداخلية أن يتوجه بجيوشه إلى تلك الدول التي تعمل على إثارة الفتن الداخلية وتعمل على إضعاف المسلمين والاستيلاء على أراضيهم .

ففي سنة ١٧٥ هـ سير هشام إلى الشمال جيشا كبيرا بقيادة عبيدالله بن عثمان فوصل إلى ألبة والقلاع حيث اصطدم بالنصارى فهزمهم وشتت جمعهم وقتل منهم تسعة آلاف ، كما سير في نفس العام جيشا آخر بقيادة يوسف بن نخت فتوجه إلى جليقية حيث التقى بملكها برمود الكبير ملك استوريش حيث دارت معركة عنيفة انتصر فيها المسلمون وقتلوا من عدوهم عشرة آلاف وغنموا منهم غنائم كثيرة .

وفي سنة ١٧٧ هـ أعد هشام جيشا كبيرا بقيادة حاجبه عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث فتوجه إلى الشمال حيث وصل إلى جرندة وكان بها حامية الفرنج فقتل رجالها وهدم أسوارها وأبراجها وفتحها ثم استولى على عدد من المعاقل والحصون ونفذ إلى سبتانيا زحف على أربونة قاعدة الثغر الاسلامي القديم فاستولى عليها وبقى الجيش شهورا يحوس خلال بلادهم يخرب الحصون ويحرق ويغنم وفر العدو ومن أمامه ثم عاد الجيش إلى قرطبة ظافرا محملا بالغنائم التي بلغ خمس السبي فيها خمسة وأربعين ألفا من الذهب وتعد هذه الغزوة من أشهر مغازي المسلمين بالأندلس وأرغم أمرى النصارى على حمل وجر أحجار من سور أربونة حتى قرطبة حيث بنى منها جزء في جامع قرطبة تخليدا لتلك الغزوة الشهيرة (١) .

وفي سنة ١٧٩ هـ أرسل هشام جيشا كثيفا إلى جليقية بقيادة عبد الكريم

(١) ان الاثير الكامل ج ٦ ص ١٣٥ ، ان عنارى البيان ج ٢ ص ٦٤ ، ابن خلدون

العبر ج ٤ ص ١٢٥ ، ان دولة الإسلام ص ٢٢٤

من عبدالواحد بن مغيث^(١) فتوغل في جليقية حتى بلغ استرقة وكان أذفونش ملك جليقية قد استعد للقاء المسلمين واستعان بحفائه من البشكنس وأهل تلك النواحي وأمر سكان السهل بانصهروا إلى الجبال ووضع كائن ضخمة من حرساه في قمم الجبال حتى تأخذ المسلمين على غرة ولسكن قائد المسلمين أدرك خطة العدو فقدم قائده فرج بن كنانة في أربعة آلاف فارس وسار على أثره فالتقوا بكين الجلالة وتمكنوا من هزيمته وبثوا الخيل في القرى ثم تقدموا إلى وادي كوتية فالتقوا بكين آخر من ثلاثة آلاف فارس بقيادة غندماره فانتصر المسلمون عليهم وأسروا قائدهم ثم اتبعوا أذفونش ملك جليقية حتى وصل إلى عاصمة ملكه فتبعه فرج بن كنانة في عشرة آلاف فارس فلما قرب منه انهزم وأسلم جميع عدته ودخاره فغنمها المسلمون ثم عادوا إلى قرطبة بعد أن مزقت قرى الجلالة وقد حقت هذه الغزوة الغرض بيث الذعر في نفوس الجلالة فسكنوا إلى حين وساد الأمن في الولايات الشمالية^(٢)

الإصلاحات في عهده:

في عهده قضى على الفتن الداخلية فساد الأمن والاستقرار في ربوع الأندلس وحسب حدود الدولة ورفع راية الجهاد ووجه الحملات المتتالية إلى أعدائه في الشمال فارتفعت راية الإسلام عزيزة قوية وهامة جبراته حتى أن رجلا مات في أيامه فأوصى أن يفك أسير من المسلمين من تركته فطلب ذلك فلم يوجد في دار الكفار أسير يشترى ويفك لضعف العدو وقوة

(١) ابن الأثير الكامل - ١٤٦٦ ، وابن خلدون العبر - ٤ ص ١٢٥ يذكّر أن

أن اسم القائد هو أحوه الحاجب عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث

(٢) ابن عذارى البيان - ٢ ص ٦٤ ، ٦٥ ابن الأثير الكامل - ١٤٦٦ ص ١٤٦ ابن خلدون

المسلمين (١) ولم يستشهد في عهد هشام أحد من جنده في شيء من ثغوره أو جيوشه إلا الحق بلده في ديوان أرزاقه وخصص رزقا لاسرته (٢).

وقد اهتم هشام بالعمارة فأتم مسجد قرطبة الجامع الذي بدأ أبوه بإنشائه وتوفي قبل إتمامه كما أنشأ عدة مساجد أخرى وزين قرطبة بعدد من الأبنية والحدائق الفخمة ووجد قنطرة قرطبة وانفق في بنائها أموالا عظيمة وأشرف على بنائها بنفسه وعندما قال الناس: إنما بناها لتصدده ونزهرته حلف حين بلغه ذلك ألا يجوز عليها إلا لغزو أو مصلحة وفي عهده جعلت اللغة العربية لغة التدريس ومعاهد النصارى واليهود وكان لذلك أثر عميق في التقريب بين أصحاب المذاهب المختلفة وبت روح التفاهم والوئام بينها ولاسيما بين المسلمين والنصارى مما جعل كثيرا من النصارى يعتنقون الإسلام بعد أن وقفوا على أصوله وتفصيله وقربت مسافة الخلاف بينهم وبين الفاتحين (٣).

وقد عمل هشام على نشر العدل في أنحاء البلاد متحررا بالحكم بالسنة والكتاب فقبض الزكوات من طرقها ووضعها في حقها لم يأخذ في الله لوم ولا تعلق به ظلم، وكان يبعث إلى السكور قوما عدولا يسألون الناس عن سير العمال حتى ينتشر العدل وبما يدل على انتشار العدل في عهده أنه كان لبعض رجال هشام خصومة في دار عند القاضي مصعب بن عمران فسجل عليه القاضي فيها وأخرجه منها فنهض الرجل إلى هشام وقال له: إن القاضي سجل على في داري التي كنت أسكنها وأخرجني منها. فقال له هشام: وماذا تريد مني؟ والله لو سجل على القاضي في مقعدى هذا لخرجت عنه انقيادا منه للحق (٤).

وفي عهده ذاع مذهب الإمام مالك الذي كان معاصرا له، وكان هشام

(١) ابن الأثير الكامل ٦ ص ١٤٨ (٢) أخبار مجموعة ص ١٢٠

(٣) عبد الله عنان دولة الإسلام ص ٢٢٦.

(٤) ابن عذارى البيان ٣ ص ٦٦.

كثير الإحلال لمالك ومذهبه فانتشر مذهب مالك في الأندلس وكانوا قبل ذلك يعلون بذهب الأوزاعي إمام أهل الشام . وقد قرب الققهاء ورجال الدين وأسند لإيهم كثير امن المناصب وكان صاحب شرطته . عبد الغافر بن أبي عبيدة ووزراؤه ثمانية و كتابه اثنتان : فطيس بن عيسى وخطاب بن زيد . وقاضيه المصعب بن عمران (١) .

وتوفي هشام في صفر سنة ١٨٠ هـ وعمره أربعون سنة وأربعة أشهر وأربعة أيام ، وكان متصفا بالرأى والشجاعة والعدل وحب أهل الخير والصلاح ، والشدة على الأعداء والرغبة في الجهاد (٢) ،

٢ - الحكم بن (٣) هشام : ١٨٠ - ٢٠٦ - ٧٩٦ هـ - ٨٢٢ م

تولى إمارة الأندلس بعد هشام ابنه الحكم بعهد منه في صفر سنة ١٨٠ هـ وعمره ست وعشرون سنة وهو ثاك أمراء بني أمية بالأندلس وقد عمل على حماية الدولة ونشر الأمن فيها فحارب الثوار في الداخل ودافع المهاجمين من الخارج بجيش قوى أعده لذلك وحرص على العدل والإنصاف بين الرعية حتى أذعننت له الأندلس كلها بالطاعة ولم يختلف عليه فيها مختلف ولذلك خاطب ابنه عبد الرحمن ولي عهده في أواخر عهده بقوله :

فماك سلامى إننى قد تركتها

مهادا ولم أترك عليها منازعا

(١) المرجع السابق ص ٦١

(٢) ابن عذارى البيان ص ٢٥ ، ٦٦ ابن الأثير السكامل ص ٦٤ ص ١٤٨

ابن خلدون ص ٤ ص ١٢٥ عنان دولة الإسلام ٢٢٣ - ٢٢٤ .

(٣) كنيته أبو العاصم أمه زخرف ولد سنة ١٥٤ وبويع وعمره ست

وعشرون سنة وتوفي سنة ٥٢٠ هـ بعد أن حكم ستا وعشرين سنة وأحد عشر شهرا .

انثورات الداخلية في عهده

كانت أولى الثورات التي واجهها الحكم عقب توليه الإمارة ثورة عميه سليمان وعبيد الله الذين كانا قد نفيا إلى المغرب في عهد أبيه هشام. وعقب تولي الحكم الإمارة عبر عبد الله إلى الأندلس قاصدا الشجر الأعلى^(١) الذي يكن أهله كراهية الأمير الجديد فنزل سرقة سطة عند ملول ابن مرزوق الثائر على الأمير الحكم سنة ١٨١ هـ ولكنه لم يجد هناك من يريد له مبايعته وعزل الحكم فبر جبال البرنية إلى بلاد الفرنج طالبا عون شارلمان أما سليمان فقد عبر إلى الأندلس سنة ١٨٢ هـ واستطاع أن يجمع جيشا ليهاجم به قرطبة ولكن الحكم تمكن من التغلب عليه ، فعاود سليمان القتال والتقى مع الحكم في بنجبطه فهزم سليمان ولكنه مع ذلك عاود القتال للمرة الثالثة وجمع جيشا من البربر سنة ١٨٣ هـ وتوجه إلى استجة فسار إليه الحكم ودرات بينهم حروب شديدة لعدة أيام ثم انهزم سليمان بمن كان معه ولكنه عاود القتال في العام نفسه فهزم أيضاً ، وفي سنة ١٨٤ هـ حشد سليمان جيشا من شرق الأندلس واستولى به على جيان ثم البيرة وانضم إليه جماعة من سكانها فقصد الحكم بجيشه ودار القتال بينهما عدة أيام كادت الهزيمة أن تحل خلالها بالحكم إلا أنه تغلب في النهاية على سليمان الذي فر من المعركة بعد أن ترك على أرض المعركة عددا كبيرا من أنصاره ، وبعث الحكم في أثره أصبح بن عبد الله بن وانسوس فاحقه بحمة ماردة وقبض عليه وأتى به إلى الحكم فأمر بقتله سنة ١٨٤ هـ وطيف

(١) الشجر الأعلى يشمل عدا سرقة سطة ، لاردة وتطيلة وونقة وطرطوشة وطركرنة وغيرها وتقابل أرجوان من ولايات اسبانيا الحديثة، وسميت تطيلة وأعمالها بالشجر الأوسط لجوارتها لمملكة ليون النصرانية (جليقية) عنان دولة الإسلام ص ٢٨٨ .

برأسه في قرطبة ثم أمر الحكم بدفن عمه سليمان في مدافن الأسرة في قرطبة، أما عبد الله بن عبد الرحمن فبعد عودته من بلاد الفرنجة توجه إلى بلنسية حيث أیده أهلها فأقام بها شبه مستقل بعد أن عفا عنه الحكم وصالحه سنة ١٨٦ هـ على أن يقيم بقية عمره في بلنسية وتجرى عليه أرزائه وقد ظل بها حتى عرف بعبد الله البلنسى وبعث عبد الله إلى الحكم بإبنته عميد الله فزوجه الحكم أخته وولاه قيادة جيوشه فعرف بصاحب الصوافف ، وتخلص الحكم بذلك من أولى الثورات المعارضة لحكمه والتي أثارها الأحمق المائل للبطرانة على الحكم .^(١)

وفي سنة ١٩٠ هـ قامت ضد الحكم ثورة في ماردة بقيادة أصمغ بن عبد الله بن وانسوس بسبب وشاية قام بها أحد أعداء أصمغ بين الحكم وبينه وخاف أصمغ وتوقع العقوبة والسطوة من الحكم فدخل ماردة وثار بها والتف حوله العرب ، فخرج إليه الحكم وحاصره ولكنه اضطر لفك الحصار عنه والعودة إلى قرطبة لفتنة قامت فيها ثم تابع الحكم الحملات إلى ماردة سبع سنين وأخيرا استمال جماعة من أهل ماردة وبعض ثقاته أصمغ فالتوا إلى الحكم وفارقوا أصمغ مما دناه إلى طلب الأمان من الحكم فأمنه وخرج من ماردة وأقام عند الحكم في قرطبة^(٢) .

وفي سنة ١٩١ هـ تمكن الحكم من الإيقاع بأهل ضابطلة التي كانت

(١) ابن عذارى ج ٢ ص ٧٠ ابن خلدون العبر ج ٤ ص ١٢٥ ، عنان دولة الإسلام في الأندلس ص ٢٢٠ ، احمد الشعراوى الامويون امراء الأندلس ص ٢٢٩ ، ٢٣٠ .

(٢) ابن الأثير ج ٦ ص ٢٠١ ، ابن عذارى البيان ج ٢ ص ٧٠ ، عنان دولة الإسلام ص ٢٣٤ .

مركزاً للثورة وملاجئ لكل خارج على الدولة منذ قيام الإمارة الأموية نظراً لخصائتها وكثرة المولدين والنصارى المعادين فيها وكان أهلها يمتزجون بكثرتهم وثروتهم وحصانة مدينتهم وأنها كانت دار ملك القوط مما يدعوهم إلى التمرد والخروج المستمر على حكومة قرطبة وقد ثار فيها سنة ١٨١ هـ عبدة بن حميد وتمكن عمرو بن يوسف حاكم طليطلة وه، من المولدين من القضاء عليه بطريق الغيلة بعد وقائع عدة خاضها ضده فسكنت الشره فيها ، ولكن إلى حين ، مما دعا الحكيم إلى إعمال الخيلة في الظفر بهم ، واستعان بعمروس ابن يوسف من أهل وشقة الذي ظهر في الثغر الأعلى وأعلن انقياده للحكم وتأيدته امدعاه الحكيم إليه وبالغ في إكرامه وأطلعته على عزمه في الإيقاع بأهل طليطلة فراطاه على التدبير عليهم فولاه طليطلة وكتب إلى أهلها بقول: «إني قد اخترت لكم فلاناً وهو منكم لتطمئن قلوبكم إليه وأعفيتكم عن تكرهون من عمالنا ومواليينا ولتعرفوا جميل رأينا فيكم»^(١) ، فغشى إليهم عمروس ودخل طليطلة وأنس به أهلها وأطمأنوا إليه وأحسن عشرتهم وتظاهر أمامهم ببغض بني أمية وبمرافقتهم على خلع طاعتهم قالوا إليه ووثقوا به ، فأنشأ بمرافقتهم قلعة حصينة في ظاهر طليطلة لإيواء الجند والموظفين فيها بعيداً عن أهل المدينة وحرصاً على راحتهم ، ثم ضمير الحكيم جيشاً بقيادة ولده عبد الرحمن لقتال نصارى الشمال في الظاهر ثم عرج هذا الجيش أثناء العودة على طليطلة وخرج عمروس ومعه أعيان المدينة للقاء قائد الجيش فأكرمهم عبد الرحمن وأحسن إليهم ، ثم أقام عمروس وليمة عظيمة في القلعة الجديدة دعا إليها الوفا من أعيان وكبراء طليطلة وقرر أن يدخلوا من باب ويخرجوا من باب آخر ليقل الزحام فأتى الناس أفواجا وكان المستقبلون يقتادون المدعوين إلى غرف الطعام فوجأ فوجاً وكلما دخل

(١) ابن الأثير ٦ ص ١٩٩ .

فوج أخذ إلى ناحية معينة في القلعة فضربت أعناقهم وألقيت - منهم في حفرة كبيرة أعدت لذلك . وأصوات الطبل والمزامير تحول دون سماع استغاثتهم ، فلما تعالى النهار أتى بعضهم فلم ير أحدا فقال أين الناس فقبل إنهم يدخلون من هذا الباب ويخرجون من الباب الآخر فقال ما القيني منهم أحد وعلم بالمكيدة فأعلم الناس هلاك أصحابهم فنجى من بقى منهم . وهلك في تلك المذبحة التى عرفت بواقعة الحفرة سنة ١٩١ هـ عدد كبير من وجوه طليطلة وأعيانها يقدره ابن عذارى بسبعمائتين وابن القوطية وابن الأثير بخمسة آلاف وكانت طعنة قوية للمدينة الثائرة قضت على زعمائها واضعفت شأنها فحسنت طاعتهم بقية أيام الحكم وأيام ولده عبد الرحمن (١) .

وثالث الثورات التى كادت تطيح بالحكم هى الثورة التى عرفت بشورة الربض (٢) وكان بدايتها سنة ١٨٩ هـ عندما درت مؤامرة الإطاحة بالحكم وكان من ورثتها الفقهاء الذين سخطوا على الحكم ورموه من فوق المنار بانفسوق والخروج على أحكام الدين وبعض الأعيان الذين ينقمون على الحكم صرامته وشدته واتفقوا على خلع الحكم وبيعة محمد بن القاسم القرشى المروانى ولكنه أفضى سرهم للحكم وعندما استوثق الحكم من صحة المؤامرة قبض على اثنين وسبعين منهم وصلبهم على شاطئ النهر تجاه القصر فأثار ذلك ارتياح الناس وملا قلوبهم الخاصة والمامة بالقبض للحكم بأحمله على تحصين قرطبة وتزيم سورها وحفر خندقها .

وبعد ثلاثة عشر عاما كانت الثورة الخطيرة فى الربض فى رمضان

(١) ابن القوطية تربيخ افتتاح الأندلس ص ٦٥ ، ٦٧ ابن عذارى البيان المغرب ص ٢٣ ص ٦٩ ، ٧٤ ابن الأثير الكامل ص ٦٥ ص ١٩٩ - ٢٠١ ابن خلدون المعبر ص ٤ ص ١٢٦ عنان دولة الإسلام ص ٢٣٦ - ٢٣٧ .
(٢) لربض صاحبة من ضواحي قرطبة على ضفة النهر الأخرى مقابل قرطبة

سنة ٥٢٠ هـ ويشير ابن الأثير إلى أن سببها يرجع إلى تشاغل الحكيم باللهو والصيد والشرب وقتل جماعة من أعيان قرطبة فكرهه أهلها وصاروا يتعرضون لجنده ما لذى والس حتى باغ الأمر بالغوغاء أنهم كانوا ينادون عند انقضاء الأذان الصلاة يا مخمور الصلاة وشافهم بعضهم بالقول وصفقوا عليه بالأكف ثم فرخه ضريبة العشر على المواد الغذائية كل سنة من غير خرص فسكره الناس ذلك (١) وابن عذارى يشير إلى اختلاف الروايات بسبب ثورة الربض والسكنه لا يذكر تلك الروايات سوى رواية يقول فيها : إن ذلك الهيج كان أصله الأشتر والبطر إذ لم تسكن ثم ضرورة من إجحاف في مال ، ولا انتهاك لحرمة ، ولا تعسف في ملكة ، والحال تدل على صحة ذلك : فإنه لم يكن على الناس وظائف ولا مغارم ، ولا سخر ، ولا شيء يسكون سبباً لخروجهم على السلطان بل كان ذلك أشراً وبطراً وملا للعاوية وطبعاً جافياً ، وعقلاً غيباً وسعيّاً في هلاك أنفسهم . أعادنا الله من الضلال والخذلان وأسباب البور والخسران (٢) .

وهذا يدل على تطاول العامة والغوغاء للاتقاص من سلطة الأمير والغض من مكائنه فشرع في تحصين قرطبة وعمارة أسوارها وارتبط الخيل على بابه واستكثر من المماليك ورتب جمعاً لا يفارقون باب قصره بالسلاح فزاد ذلك من حقد أهل قرطبة وبغضهم له .

وقامت الثورة عندما ذهب أحد ممالك الحكم إلى صيقل (حداد) وأعطاه سيفه ليصقله فاطله الصيقل وتشاجراً فقتل المملوك الصيقل ، فثار العامة واجتمع أهل الأرباض بالسلاح وكان أشدهم هياجاً أهل الربض الجنوني في الضفة الأخرى من النهر وهي ضاحية قرطبة "جويية المسماة شقندة

(١) ابن الأثير الكامل ٦ ص ١٩٨ ، ١٩٩ .

(٢) ابن عذارى البيان المغرب ٢ ص ٧٦ .

وزحف الشوار إلى قصر الأمانة من كل ناحية ، واجتمع الجند والأمويون .
والعبيد بالقصر وفرق الحكم الخيل والأسلحة وجعل أصحابه كتاب ووقع .
القتال بين الطائفتين فغلبهم أهل الربض فنزل الحكم من أعلى القصر ولبس
سلاحه وركب وحرص الناس فقاتلوا بين يديه قتالا شديدا .

عند ذلك لجأ الأمير إلى الحيلة فأرسل عبيد الله بن عبد الله البائسي
المعروف بصاحب الصوائف وإسحاق بن المنذر القرشي فثلم في السور ثلثة
وخرج منها ومعه قوة من الجيش وأتوا الربض فأشعلوا النار فيه وما كادت
السنة النار تظهر حتى هرع الكثير من أهل الربض إلى داره لحماية أهله
ومنزله فأخذتهم السيوف من أمامهم وخلفهم وقتلوا قتلا ذريعا وطاردهم
في كل مكان ونهبت دورهم وأسروا منهم عدد كبير انتقى منهم الحكم ثلثمائة
من وجوههم فقتلهم وصلبهم منسكين صفا واحدا من المرج إلى المصاراة
أرهاها لأهل قرطبة . وقد استمر القتل والنهب والحريق في أرباض قرطبة
ثلاثة أيام . ثم كفف الجند عنهم ونودي بالأمان على أن يرحلوا عن قرطبة
ومن بقى بعد ثلاثة أيام قتل وصلب فتفرق أهل الربض في جميع أقطار
الأندلس وعمر جماعة إلى المغرب فأقاموا عدوة الأندلس في مدينة فاس ،
وتوجهت جماعة كبيرة منهم قوامها خمسة عشر ألفا في عدد من السفن إلى
المشرق ورسست في مياه الاسكندرية ، واستقروا فيها وبعد عشر سنوات
غادروا الاسكندرية إلى جزيرة أفریطس وأسسوا دولة استمرت زهاء قرن
وثلاث حتى استعاد البيزنطيون الجزيرة من المسلمين سنة ٥٣٥ .

هذا قضى الحكم على الثورة التي كادت أن تطيح بحكمة وتعصف به وقد
تبين له أن حكمه لا يمكن أن يقوم على القوة العسكرية وحدها وإنما عليه
أن يصمم إلى ذلك تأييد رجال الدين ليستعيد أهليته للحكم في نظر رعيته

وذلك عفا الحكم بعد ذلك عن رجال الدين الذين فروا بين موقعة الربص
وقربهم إليه وأخذ يستشيرهم في أمور دولته (١)

الحروب الخارجية :

ابتدأ الحكم عمده سنة ١٨٠ هـ بتوجيه حاجبه عبد الكريم بن عبد
الواحد بن مغيث غازيا بالصائفة إلى ألبة والقلاع بجيش عظيم قسمه إلى ثلاثة
أقسام وقدم على كل قسم قائدا وأمر كل واحد بالإغارة على الناحية التي
تصددها ووجه إليها فانطلقوا إلا ما وجهوا إليه واتخذوا في البلاد ورجعوا
غنائم ظافرين . ثم عادوا ثانية إلى الإغارة لجاوزوا خليجا من البحر كان
الماء قد جزر عنه وكان الفرنج قد جعلوا أموالهم وأهليهم وراء ذلك الخليج
ظنا منهم أن أحدا لا يقدر أن يعبر إليهم فجاءهم مالم يكن في حسابهم فغم
المسلمون جميع مالم وأسروا الرجال وسبوا الحرير وعادوا سالمين (٢) .

وفي سنة ١٩٢ هـ تجهز الفرنج بقيادة لويس بن شلمان (٣) للإغارة على
الشجر الأعلى وحصار طرطوشة فبعث الحكم جيشا كثيرا بقيادة ابنه عبد
الرحمن وانضم إليه عمرو بن عبدون عاملي الشجر ومعه أهل الشجر وتبعهم
كثير من المنتظرعين فالتقوا مع الفرنج في أطراف بلادهم قبل أن ينالوا

(١) ابن عذاري البيان ٢ ص ٧٦، ٧٧، ابن الأثير الكامل ٦ ص ٢٢٩-٣٠٠
عنان دولة الإسلام ص ٢٤٠ - ٢٤٢ عبد العزيز سالم تاريخ المسلمين وآثارهم في
الأندلس ص ٢٢٤-٢٢٥ أحمد الشعراوي الأمويون أمراء الأندلس ص ٢٣٨-٢٥٢ .
(٢) ابن الأثير الكامل ٦ ص ١٤٩ ، ١٥٠ ابن عذاري البيان ٢ ص ٦٩ .
(٣) يسميه ابن الأثير لذريق ٦ ص ٢٠٢ وابن عذاري رزريق ٢ ص ٧٢
ويذكر عبد الله عنان دولة الإسلام أنه لويس بن شلمان ص ٢٣٧ .

من بلاد المسلمين شيئا ودارت بينهم حروب شديدة ثبت الله فيها أقدام المسلمين وأنزل نصره عليهم فاهزم الفرنج وكثر القتل فيهم والأسر واستولوا على أموالهم وعتادهم وعاد المسلمون ظافرين غامبين (١) ، ونلاحظ هنا معرفة المسلمين بتجهيز الفرنج في بلادهم وإرسال الجيش لقتالهم قبل أن يظرفوا أرض المسلمين مما يدل على أنه كان لدى المسلمين جهاز مخبرات لمعرفة تحركات العدو وإفادتهم بها :

وفي أثناء إنشغال الحكم بالقضاء على ثورة ماردة تحرك ملك جليقية الفونس الثاني بحملات متوالية على أراضي المسلمين وعك فيها قتلا ونهبيا وسبيا وكانت حملاته موجهة إلى الشجر الأدنى بين نهري دوبرة والتاجه وعانى المسلمون في هذه الانهاء من غزوات النصارى المتتالية وصاحت امرأة في وادى الحجارة تقول : د واغوثاه يا حكمم قد ضيعتنا واسلمتنا واشتغلت عنا حتى استأسد العدو علينا ، وسمع عباس بن ناصح الشاعر صراخ في المرأة فصاغه في شعر قدمه إلى الحكمم يقول فيه :

تملت في وادى الحجارة مستندا (٢)

أراعى نجوما ما يرون تغيرا
إليك أبا العاصى نضيت مطبى
تسير بهم ساربا ومهجرا
تدارك نساء العالمين بنصرة
فإنك أحرى أن تغيث وتنهرا

(١) ابن الأثير الكامل ج ٦ ص ٢٠٢ ابن عذارى البيان ج ٢ ص ٧٢ ، ابن خلدون

١٢٧ - ٤٣

(٢) مستندا : اسم فاعل من الاساد وهو سير الميل كله وهو أيضا السير السريع .

لجمع الحكم جنوده وسار بنفسه إلى أراضى جليقية سنة ١١٩٦هـ (١) ، وأرغل في بلادهم وافتتح الحصون وهدم المنازل وحرب البلاد ونهبها وقتل الرجال وسبي الحرير وقصد أهل الناحية التي كانت المرأة وقدم لهم كثيرا من الغنائم التي استولى عليها وقال للمرأة وسكان تلك الناحية : هل أغائتكم الحكم ؟ فقالوا : شفا والله الصدور ونسكى في العدو وما غفل عنا إذ بلغه أمرنا فأغائت الله وأعز نصره (٢) . فسر الحكم وقال :

لم تر يا عماس أنى أحببتنا على البعد أفناد الخيس المظفرا
فأدركت أوطارا وبردت غلة ونفست مكرها وأغنيت معسرا

وفي سنة ١١٩٩هـ أرسل الحكم جيشا إلى برشلونة في الثغر الأعلى بقيادة عمه عبد الله البانسي وكان الفرنج قد استولوا عليها فدارت بينهم معارك شديدة انتصر فيها المسلمون وقتلوا منهم عددا كبيرا (٣) .

وكان آخر غزوة قام بها المسلمون إلى الشمال في عهد الحكم سنة ٢٠٠هـ إذ أرسل الحكم حاجبه عبد الكريم بن مغيث إلى جليقية في جيش ضخم فتوغل فيها وأهلك معانئها ومرافقها وحطم زروعها وهدم منازلها وحصونها إنتقاما لما أنزلوه بالمسلمين وقد تجمع الجلائقة وحلفائهم البشكنس ونزلت بعدوة نهر أرون وصار النهر حاجزا بينهم وبين المسلمين فلما أصبح نهض عبد الكريم من معه إلى مخاض الوادي ونهض أعداء الله إليهم فقاتلوهم

(١) ابن الأثير وابن خلدون والمقرئ يحملون تاريخها سنة ١١٩٦هـ وابن عذاري يذكرها سنة ١١٩٤هـ .

(٢) أخبار مجموعة ص ١٢٩ ، ابن عذاري البيان ص ٣٠ ص ٧٣ ، ابن الأثير الكامل ص ٦ ص ٢٢٦ أحمد الشعراوي الذمويون أمراء الأندلس ص ٢٦٢ .

(٣) ابن عذاري البيان ص ٢ ص ٧٤ .

على كل مخاضة منها لجلدهم المسلمون عليها مجالدة الصابرين المحتسبين واقتحم
أعداء الله النهر إليهم فاقتتلوا على مخاضته ثم حمل المسلمون عليهم حملة صادقة
في المضابق وأدخلوهم على غير طريق فأخذتهم السيوف والطنن بالرماح
والغرق في المياه فقتل من المشركين عدد عظيم لا يحصى كثرة ومات أكثرهم
بالتردى ودرس بعضهم بعضاً وصاروا بعد المطاعة والمجالدة بالرماح والسيوف
إلى القذف بالحجارة (١) ، وأسر المسلمون جماعة من ملوكهم وقاصصهم
وعاد الفرج بزعمون جانب النهر ينعنون المسلمين من جوازهم ومكثوا على
ذلك ثلاثة عشر يوماً ما يقتتلون كل يوم ثم كثرت الأمطار ومد النهر وبعذر
جوازهم فعاد عبد الكريم بالجيش ظافراً إلى قرطبة سابع ذي الحجة
سنة ٢٠٠هـ (٢) .

الإصلاحات في عهده :

نظراً للثورات الداخلية والحروب الخارجية التي كانت تحيط بالدولة وجه
الحكم عناية فائقة نحو الجيش والاهتمام به فهو أول من حشد بالاندلس
الأجناد والمرتزة وجمع الأسلحة والعدد واستكثر من الحشم والخواشي
وارتبط الخيول على بابها (٣) واتخذ المماليك وكان يسميهم الخرس اعجمتهم
وبلغت عدتهم خمسة آلاف وكان يباشر الأمور بنفسه وكانت له عيون

(١) ابن عذارى البيان ج ٢ ص ٧٥ .

(٢) ابن الأثير الكامل ج ٦ ص ٣١٨ ابن خلدون العبر ج ٤ ص ١٢٧ .

(٣) ذكر ابن عذارى ج ٢ ص ٧٩ أنه كان للحكم ألف فرس مرتبطة بباب

قصره على جانب النهر عليها عشرة من العرفاء تحت يد كل عريف مائة فرس فإذا
بلغه عن ثائر ثار في أطرافه عاجله مثل احتكام أمره فلا يشمر حتى يحاط به .

يظالمونه بأحوال الناس وكان يقرب الفقهاء والعلماء والصالحين وهو الذى وطأ الملك لعقبة بالأندلس^(١). ولا شك أن ذلك يدل على اهتمامه بشئون رعيته وحمايتهم ومعرفة أحوالها حتى يمكن قضاء مطالبها ونشر الأمن بينها .

وقد اهتم الحكيم بنشر العدل وسيادة الإنصاف بين الرعية وكان يقول :
« ما تحلى الخلفاء بمثل العدل ، وكان يسلط قضائه وحكامه على نفسه فضلا عن ولده وخاصته^(٢) » وسنذكر حادثتين تدلان على واقعية هذه الصفات فقد ذكر صاحب أخبار مجموعة : أن رجلا من أهل كورة جيان اغتصبه بعض عمال الحكيم جارية له . فلما عزل العامل قدم الجارية إلى الحكيم فلما صارت عنده واتصل بالرجل المنصوب حال القاضى فى أحكامه واستخراج الحقوق للربعة من يدى الحكيم وأهل خاصته أتى الرجل إلى القاضى وهو مصعب بن عمران ، وشرح له خبره فدعاه إلى إقامة البينة فشهد له من قبل علمه على المعرفة بما قال به وتظلم منه ، وعلى معرفة عين الجارية فأوجبت السنة أن تحضر الجارية . فاستأذن القاضى للدخول على الحكيم فلما صار عنده قال . أيها الأمير إنه لا يتم عدل فى العامة دون إقامته فى الخاصة وحكى أمر الجارية وخيره فى إخراجها وإبرازها للسنة أو عزله عن القضاء فقال : أو خير من ذلك تباع من صاحبها بأنفس ثمنها وأبلغ ما يسأله فيهما قال : إن الشهود قد شخصوا من كورة جيان يطلبون الحق فى مظانه فلما صاروا بفنائك تصرفهم دون إنفاذ الحق لأهله فلعل قائلنا أن يقول : باع مالم يملك بيع متفسر على نفسه ولا بد من إبراز الجارية أو نصير أمرك إلى من أحببت .

(١) ابن خلدون العبر ٤ ص ١٢٧ المقرئ نفع الطيب ١ ص ٣٢٠ .

(٢) ابن عذارى البيان ٢ ص ٧٩ .

فلما رأى عزمه أمر بإخراجها من قصره وقد كانت وقعت من نفسه موقفاً
فشهد على عيبتها وقضى بها لصاحبها . ثم قال له . إياك وبيتها ألا في بلدك
لتقوى بذلك الرعية على طلباتهم ، ويمنهم على استخراج حقوقهم (١) .
هذه حادثة وقعت مع الحكيم ونفذ القاضى حكمه عليه وكان القاضى
صريحاً في أن يقيم العدل أريتمزل القضاء واستجاب الحكيم لما حكم به القاضى
أما الحادثة الثانية فيذكرها صاحب أخبار مجموعة فيقول : كان عباس بن
عبد الله بن مروان القرشى من الخاصة بالأمير الحكيم والمنزلة عنده بحيث
لم يدانه أحد في زمانه . فقام عليه رجل في ضيعة كانت له تحت يده فأثبتها
عند محمد بن بشر القاضى . فلما علم القرشى بأن القاضى هزم على أن يوجه
الحكم عليه عاذ بالأمير الحكيم واشتكى إليه ما ناله من القاضى وسأله صرقة
إلى غيره وجعل يتوبغه ويقع فيه . فقال له الحكيم : إن كان حقاً ما تقول
فامض بنفسك إليه في داره وهو غير قاعد للحكم فإن أخلك نفسه وأدخلك
عليه فقد صدقتك وعزائنا فقال : أفعل فوكل به الأمير الحكيم بعض
فتياه لينتحن ما يسكون من القاضى . فخرج القرشى والأزفة تفض بموكبه
حتى أتى باب القاضى فترجع الباب فخرجت إليه عجوز فأعلمها بنفسه وأمرها
أن تسأذن له عليه . فلما علم به نهر العجوز وقال لها : قولى له إن كانت
له حاجة فتسكن في المسجد مع طلاب العرائج حتى أخرج إليك . فليس إلى
إدخالك من سبيل ، فتردد عليه وألحف . فلم يأذن له . فرجع الفقى إلى
الحكم فأعلمه بما كان من القاضى فطار به سروراً .

هاتان الحادتان تكفيان لتوضيح حرص الحكيم على سيادة العدل بين
الرعية ، وأن الحاكم والمحكوم أمام العدل سواء .

(١) أخبار مجموعة ص ١٢٥ ، ١٢٦ .

وعندما وقعت المجاعة الشديدة بالأندلس سنة ١٩٩ هـ وعانى المسلمون منها
ضروب الحرمان والمؤس ومات كثير من الناس جهداً ينادى بالحكم إلى تخفيف
ويلائها عنهم ففرق عليهم الأموال الكثيرة حتى انكشفت غمها وعادت
للحياة لى طبيعتها (١).

وكان يتولى الحجابة للحكم : عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث
ووزراؤه وقواده خمسة اسحاق بن المنذر، والعباس بن عبدالله وعبد الكريم
بن عبد الواحد بن مغيث وفطيس بن سليمان ، وسعيد بن حسان وكتابه
ثلاثة : فطيس وخطاب بن زيد وحجاج بن العقيل وقضائه : مصعب بن
عمران ومحمد بن بشير ، والفرج بن كنانة وبشر بن قطن ، وعبيد الله بن موسى ،
ومحمد بن تليد وحامد بن محمد بن يحيى (٢).

وفي سنة ٢٠٦ هـ اشتد مرض الحكم بن هشام فأخذ البيعة لابنه عبد الرحمن
ثم للمغيرة من بعده وكان ذلك في الحادى عشر من ذى الحجة سنة ٢٠٦ هـ
وتوفي الحكم يوم الخميس ٢٦ ذى الحجة سنة ٢٠٦ هـ وعمره اثنتان وخمسون
سنة ووصلى عليه ابنه عبد الرحمن ودفن في مقبرة القصر المعروفة بالروضة (٣)
بعد حياة حافلة وكفاح مستمر دعم به الدولة في الداخل وحامها من أعدائها
في الخارج

٣ - عبد الرحمن بن الحكم ٢٠٦ - ٢٣٨ هـ ٨٢٢ - ٨٥٢ م

رابع أمراء بني أمية في الأندلس وقد ولد في طليطلة سنة ١٧٦ هـ عندما
كان والده والياً عليها ويسمى بعبد الرحمن الثانى وعبد الرحمن الأوسط

(١) ابن عذارى البيان - ٢ ص ٧٣ ، نفع الطيب - ١ ص ٣١٩ .

(٢) ابن عذارى البيان - ٢ ص ٦٨ .

(٣) ابن عذارى البيان - ٢ ص ٧٧ ، عنان دولة الاسلام - ٢٤٤ .

والأول هو جده عبد الرحمن الداخل والثالث هو عبد الرحمن الناصر وقد بويغ له في اليوم التالي لوفاته والده في أواخر ذي الحجة سنة ٢٠٦ هـ وقد عنى أبوه بتربيته والاهتمام به وإعداده للاضطلاع بالمهمة التي ستلقى على كاهله فكان يسند إليه أعمال الحكم المختلفة ويبيبه عنه أثناء غيابه أو مرضه ، وقد أكسبه ذلك خبرة بشؤون الحكم والإدارة . فأحسن اختيار الرجال لمعاونته من البوراء والولاء ، والقادة والقضاة . وقد استمر في الحكم قرابة اثنين وثلاثين عاماً حافظ فيها على الدولة الإسلامية في الأندلس وقضى على الثورات والفتن الداخلية ، وتم في عهده كثير من الإصلاحات والمنشآت وانتشر الأمن وساد الرخاء وازدهرت الحياة . ونمت الحضارة بشقي مظاهرها المادية والمعنوية (١) :

الثورات والفتن الداخلية :

في أوائل ٥٠٤ هـ خرج عليه عم أبيه عبدالله البلنسي وسار إلى تدمير والزم حربه جمع أراد التوجه به إلى قرطبة فتجهز له عبد الرحمن فلما بلغ ذلك عبدالله خاف وضعت نفسه فرجع إلى بلنسية ومات أثر ذلك ونقل عبد الرحمن أه لاده وأهله إليه بقرطبة وخلصت الإمارة بالأندلس لولد هشام بن عبد الرحمن (٢)

وفي سنة ٢٠٧ هـ قامت في تدمير فتنة بين المضربة والبنية بسبب نزل بني مصرى أخذورقة دالية من جنان البني فاستفحل الشر بينهما وكانت بينهم موقعة بلورقة تعرف بيوم المصارة قتل منهم فيها ثلاثة آلاف رجل ، ووجه

(١) أنظر ابن الأثير الكامل ٦ ص ٣٧٨ ابن عذاري البيان ٢ ص ٨٠

ابن خلدون العبر ٤ ص ١٢٧ عن دولة الاسلام ص ٢٥١

(٢) ابن الأثير الكامل ٦ ص ٣٧٦ ابن خلدون العبر ٤ ص ١٢٧

إليهم عبد الرحمن قائده يحيى بن عبدالله بن خلف في جيش فكانوا إذا أحسوا بقرب يحيى تفرقوا وتركوا القتال وإذا عاد عنهم رجعوا إلى الفتنة والقتال وقد تزعم اليمانية أبو الشياخ واستمرت الفتنة سبع سنين وكانت الدائرة تدور على اليمانية والقتلى منهم حتى فنى من المسلمين خلق كثير ولم تبدأ الفتنة إلا في سنة ٢١٣ هـ عندما أرسل الأمير قائده أمية بن معاوية بن هشام فتغلب عليهم وخضع أبو الشياخ وغيره من الزعماء وطلبوا الأمان وعادوا إلى الطاعة وصار أبو الشياخ من ولاء الأمير عبد الرحمن وثقاته وقد أمر الأمير بهدم إلة حاضرة تدمير التي انبعثت منها إلى الفتنة وصارت مرسية مقر الوالى تدمير^(١)

وفي سنة ٢١٣ هـ ثار أهل ماردة على عاملهم وقتلوه — بقيادة محمود بن عبد الجبار البربري وسليمان بن مرتين من المواليين — وعاثوا في الأرض وسادا فسير إليهم عبد الرحمن جيشا فحصرهم وأفسد زرعهم وأشجارهم فعادوا إلى الطاعة وأخذت منهم رهائن لضيان طاعتهم وخرب سور المدينة كي لا يعودوا إلى العصية ثم طلب عبد الرحمن أن تنقل حجارة السود إلى النهر حتى لا يطعم أهلها في عمارة السور فلما رأوا ذلك عادوا إلى العصيان وأسروا العامل عليهم وجددوا بناء السور واتقنوه فسار إليهم عبد الرحمن بجيوشه سنة ٢١٤ هـ ومعه رهائن أهلها فافتك العامل ومن أسر معه برهائهم ثم حاصرهم فامتنعوا عليه فرجع عنهم ثم تابع إرسال الجيوش إليهم حتى كانت سنة ٢٢٠ هـ فسار إليهم عبد الرحمن وشدد الحصار عليهم ودارت بينهم حرب انتصر فيها عبد الرحمن وافتتح ماردة وقتل كثيرا من الثائرين

(١) ابن الأثير الكامل ٦ ص ٣٨٤ ابن عذاري البيان ٢ ص ٨٢، ٨٣ ابن خلدون

٤ ص ١٢٧، أحمد شعراوي الأمويون امراء الأندلس ص ٣٠٦

وتمكن محمود بن عبد الجبار وبعض الثائرين معه من الفرار فتبعتها قوات عبد الرحمن ولاكنه دخل جايةية واستولى على حصن فيها ومكث فيه خمسة أعوام ثم حصره ملك الجلائفة أذفونس وافتتح الحصن وقتل محموداً وجميع أصحابه سنة ٥٢٥هـ (١).

وبينما كان عبد الرحمن مشغولاً بثورة ماردة قامت في طليطلة سنة ٢١٤هـ ثورة تزعمها هاشم الضراب الذي كان في طليطلة عندما أوقع الحكم بأهلها وأخذ هاشمياً إلى قرطبة من بين الرهائن فعمل حدادا وعرف بالضراب ثم رحل من قرطبة إلى طليطلة فاجتمع عليه أهل الشر والفساد وأثار فيهم روح الثورة فكثرت جمعه واشتدت شوكته وصار يغير بهم على العرب والبربر وتسامع أهل الشربة فهرعوا إليه حتى اجتمع له منهم عدد كبير وقد أوقع بالبربر بشت بربة وانتصر عليهم في عدة وقائع ، وقد بعث عبد الرحمن إليه قائده محمد بن رستم عامل الثغر الأدنى بجيش فدارت بينهما عدة وقائع غير حاسمة مما أدى إلى تغلب هاشم على جانب من الثغر وتغلب على عدة مواقع وفي سنة ست عشرة ومائتين بعث عبد الرحمن جيشا كثيفا إلى عامله بالثغر محمد بن رستم فزحف إلى الثوار والتقى بهم بالقرب من حصن سمسطا بمجاورة رورية ودارت بينهم معركة استمرت عدة أيام هزم الثوار فيها وقتل هاشم الضراب وكثير من أنصاره أهل الشر وبعث الفتنة

وقد استمر أهل طليطلة خارجين على الأمير غير مذعنين لطاعته وأرسل إليهم سنة ٢١٠هـ جيشا بقيادة أخيه أمية بن الحكم فحاصر طليطلة وقطع زرعها

(١) ابن القوطية افتتاح في لانداس ص ٨٣ ابن الأثير الكامل ج ٦ ص ٤١٠ ،

٤١١ ابن عذامى البيان ج ٢ ص ٨٣ ، ٨٤ ابن خلدون العبر ج ٤ ص ١٢٨ .

عناق ص ١١١ لآلام ص ٢٠٤

وأتلف ثمارها ولكن المدينة صمدت ولم تذعن له بالطاعة فرحل عنها وترك
بعض الجنود في قلعة رباح بقيادة ميسرة الفتي المعروف بفتى أبي أيوب فلما أبعاد
الجيش خرج جمع كثير من أهل طليطلة لهم بمجدون فرصة وغفلة من ميسرة
فبتغلبوا عليه وعلم ميسرة بالخبر فجعل لهم كائن في مواضع عدة وعندما وصل أهل
طليطلة إلى القلعة للغارة عليها خرجت عليهم السكبان ووضع فيهم السيف فقتل
كثير منهم وفر الباقون إلى طليطلة فاعتصموا بها وفي العام الثاني خرج
عبد الرحمن بجيش إلى طليطلة فصمدت المدينة في وجهه فترك جندا في قلعة
رباح وذهب للقضاء على ثورة ماردة، وفي سنة ٢٢١ هـ خرج جماعة من
طليطلة إلى قلعة رباح وانضموا إلى جيش عبد الرحمن واجتمعوا على حصار
طليطلة وشددوا عليها الحصار وقطعوا عنها مرافقها حتى ضاق أهلها ونفذ
صبرهم فسير إليهم عبد الرحمن حملة أخرى سنة ٢٢٢ هـ بقيادة أخيه الوليد
ابن الحسين فواصل الحصار العاصم حولها حتى بلغ الجهد بأهلها كل مبلغ
وضعفوا عن القتال فهاجم المدينة واقتحم أسوارها وتم فتحها يوم السبت
٨ من رجب سنة ٢٢٢ هـ وقام الوليد بتجديد القصر الذي كان بناه عمرو بن
أبام الحارث على باب الجسر وأقام بها إلى آخر شعبان سنة ٢٢٣ هـ حتى
استقرت بها الأمور وعاد أهلها إلى الهدوء والطاعة (١).

وفي أواخر عهد عبد الرحمن قامت في قرطبة فتنة لم تشر إليها المراجع العربية
ولمّا أشار إليها دوزي وسيد أمير علي وغيرهما وذلك أن المجتمع في قرطبة
كان يتكون من المسلمين من العرب والبربر والمسلمين الأسيان الذين يعرفون
بالمولدين - أي الذين نشأوا من نزوج المسلمين بالأسبانياات ويكون أبناؤهم.

(١) انظر ابن الأثير الكامل ٦ ص ٤١٥ ، ٤٤٤ ، ٤٧٤ ابن عذاري البيان
٢ ص ٨٣ ، ٨٤ ابن خلدون العبر ٣ ص ٤ ص ١٢٨ عنان دولة الاسلام.

مسلمين ثم من المستعربين وهم الاسبان الذين ظلموا على دينهم ولكنهم تكلموا العربية وتثقفوا بها وبعضهم بلغ فيها شأوا بعيدا دفع المتعصبين وخاصة من القسس إلى حل الشبَاب على كراهية الثقافة العربية ثم تحول ذلك إلى حملهم على مهاجمة الإسلام والطعن فيه والطعن في نبيه عليه الصلاة والسلام ولم يكن هناك ما يدعو إلى ذلك حيث يسمح للمسيحيين بإقامة شعائرهم الدينية بحرية تامة كما كان يشغل بعضهم أعلى المناصب المدنية والعسكرية وغيرها من الوظائف الإدارية .

وقد بدأت الفتنة بحوار دار بين قسيس في قرطبة يسمى برفدكنو مع بعض المسلمين حول فضائل عيسى ومحمد وحيت المناقشة فتحوط إلى جدال عنيف أدى إلى طعن القسيس في الإسلام ورسوله فقبض عليه وحركم حسب القانون الإسلامي وحكم عليه بالإعدام واستغل ذلك بعض القسس المتعصبين وخاصة أبولوخييو وأتباعه الذين قاموا بدعايات ضد الإسلام والمسلمين بما حمل بعض الشباب والشابات إلى الطعن في الإسلام ونبيه بل اقتحم بعضهم المساجد وجاهر أمام المسلمين بذلك مما أدى إلى إعدام كثير منهم لإصراره على الطعن أمام القاضى وعدم رجوعه عن الطعن في الإسلام ونبيه .

وقد أخذت هذه الموجة في الانتشار مما حمل المعتدلين من المسيحيين أن يحلفوا استنكارهم للحركة التي تزعمها أبولوخييو وعميل عبد الرحمن على التصدى لها . فعقد مجلسا من القسس من جميع أرجاء الإمارة وأصدر الأمانة قرارا بتحريم المجاهرة بسب بنى الإسلام وأن تذفى الإسلام عمدا جبا للقتل ونيل الشهادة هو مخالف لروح الأنجيل . وقد اعتقلت الحكومة أبولوخييو وأتباعه من زعماء الحركة وأودعهم السجن ولكن ذلك لم يحل دون استمرار الفتنة إلى أن توفي الأمير عبد الرحمن ثم أفرج عن أبولوخييو وعين أسقفا لمدينة طليطلة فبدأت الفتنة قليلا ولكنه عاد إلى

قرطبة ليواصل فتنته وعند ذلك أمر خليفة عبد الرحمن ابنه محمد بالقبض على أبولوخيو وقتله وبهذا أخذت الفتنة تضعف شيئا فشيئا حتى زالت من تلقاء نفسها (١).

الحروب الخارجية في عهده :

إذا كان من الواجب على المسلمين أن يحموا جبهتهم الداخلية فيقتضوا على الثورات الداخلية فإن من الواجب عليهم أن يحموا حدودهم الخارجية ويردوا كيد المغيرين أو المترصين بهم الدوائر تأميناً لحدود الدولة ودفع اللطاميين عن حدودها ، وقد قام المسلمون بمواصلة الغزوات الخارجية في عهد عبد الرحمن الثاني إلى جهات متعددة كما بذلوا الجهد في رد المغيرين عليها .

ففي منطقة ألبة والقلاع سير عبد الرحمن إليها جيشاً سنة ٧٠٨ هـ بقيادة عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث تمكن من التوغل فيها وحاصروا عدة من الحصون ففتحوا بعضها وصالحهم بعضها على الجزية واطلاق أسرى المسلمين وقد غنموا أموالاً كثيرة واستنقذوا من أسارى المسلمين وسبهم عدداً كبيراً وأظهروا هيبة المسلمين في تلك المناطق ثم عادوا سالمين .

وفي سنة ٢٢٤ هـ أرسل عبد الرحمن إلى ألبة والقلاع جيشاً بقيادة عبيد الله البلنسى فخرج إليه العدو في جمع كبير ودارت بينهم حرب شديدة انتصر فيها المسلمون وقتلوا وأسروا أعداداً كثيرة من العدو وقد خرج

(١) انظر سيد أمير على مختصر تاريخ العرب ص ٤٠١ ، ٤٠٢ ، شكيب أرسلان تاريخ غزوات العرب ص ١٥٧ ، ١٥٨ ، أحمد شعراوي الأمويون أمراء الأندلس ٣٠٩ - ٣١٢ عن دولة الإسلام في الأندلس ص ٢٦٣ - ٢١٧ .

لندريق ملك الجلائقة في عسكره وأغار على مدينة سالم فسار إليه موسى بن فرتون في عسكر كبير فلقيه وقانله وهزمه وسار فرتون إلى الحصن الذي بناه أهل إليه بالغر فكاتبه للمسلمين فأفتحه وهدمه. وفي سنة ٢٢٩ هـ أرسل عبد الرحمن ابنه محمد بالجيش إلى ينبلونة وأوقع بالمشركين عندها وقتل غرسية صاحبها وهو من أكبر ملوك النصارى (١).

وفي منطقة الشمال الشرقي التابعة للفرنجة أرسل عبد الرحمن إليها في سنة ٢٢٦ هـ جيشاً بقيادة عبيد الله اللبفسى فلما كانوا بين أربونة وشرطانية جمعت الروم عليهم فقاتلوهم الليل كله وفي الصباح أزل الله نصره على المسلمين فتمكنوا من هزيمة عدوهم ، ثم أرسل عبد الرحمن جيشاً إلى رشلونة فمات في نواحيها وأجاز الدروب التي تسمى البرت إلى بلاد الفرنجة فقتل وأسرى له وحاصر مدينتها لمعظمي جرنده وعات في نواحيها وقتل سالمًا (٢).

أما في منطقة جليقية فقد سار عبد الرحمن إليها سنة ٢٢٥ هـ بجيش كبير ففتح حصونها وجال في أرضها يخرب ويغرم ويقتل ويسبي وطال مقامه في هذه الغزوة ثم عاد إلى قرطبة وفي العام التالي وجه عبد الرحمن ابنه مطرف إليها بجيش ومعه القائد عبد الواحد بن يزيد الاسكندراني فوغل في بلاد جليقية وبسط هيبة المسلمين فيها وفي سنة ٢٣١ هـ أرسل عبد الرحمن إليها جيشاً بقيادة ابنه محمد فقتلوا وأسروا وغنموا ووصلوا إلى مدينة لبون

(١) ابن الأثير الكامل ٦٤ ص ٢٨٧ ، ٥٠٧ ، ابن عدارى البيان ٢ ص ٨١ - ٨٤ ابن خلدون العبر ٤ ص ١٢٨ ، ١٢٩ ، المقري نفح الطيب ١ ص ٢٢٢
(٢) ابن الأثير الكامل ٦٤ ص ٢٥٩ ، ابن خلدون العبر ٤ ص ١٢٩
المقري نفح الطيب ١ ص ٢٢٤ :

فحصروها ورموها بالمجانيق فتركها أهلها وخرجوا هاربين إلى الجبال
فغص المسلمون منهم ما أرادوا وأحرقوا الباقي وأرادوا هدم سورها فوجدوا
سبع عشرة ذراعا فملأوا فيه ثلما كبيرا وتركوه وعادوا سالمين بعد أن
حفظوا هيبة المسلمين في تلك المناطق (١).

لم يكتف عبد الرحمن بإرسال القوات البرية لحماية دولته وإنما في سنة
٢٢٤ هـ أرسل قوة بحرية كبيرة إلى جزيرتي ميورقة ومنورقة وهما أكبر الجزائر
الشرقية (جزر البليار) لغزوها والنكاية بسكانهما لجأرتهم بنقضهم العهد
وإضرارهم بمن يمر عليهم من سفن المسلمين، فتمكن المسلمون من إخضاعهم
وفتح أكثر جزائرهم وأسر ذراريهم والأستيلاء على أموالهم، وقد بعث
أهلها إلى الأمير في العام التالي يطلبون الأمان ودفع الجزية فأجابهم الأمير
سكتاب يقول فيه: «أما بعد فقد بلغنا كتابكم تذكرون فيه أمركم وإغارة
المسلمين الذين وجهناهم إليكم لجهادكم، وإصابتهم ما أصابوا منكم من
ذراريكم وأموالكم، والمبلغ الذي بلغوه منكم، وما شفيعتم عليه من الهلاك
وسأتم التدارك لأمركم وقبول الجزية منكم وتجديد عهدكم على الملازمة
للطاعة والنصيحة للمسلمين والكف عن مكرهم، والوفاء بما تحملونه عن
أنفسكم، ورجونا أن يكون ما عوقبتم به صلاحكم، وقمعكم عن العود
إلى مثل الذي كنتم عليه، وقد أعطيناكم عهد الله وذمته (٢)».

ونختم حديثنا عن الحروب والغزوات في عهد عبد الرحمن الأوسط
بذكر غارات البرمان على الأندلس وتصدى المسلمين لها، وهم الفيكينج،

(١) ابن الأثير الكامل ٦ ص ٥١٦ - ٧ ص ٢٤ ابن عذاري البيان ٢ ص ٨٥،

٢٨٦، ابن خلدون المعبر ٤ ص ١٢٩.

(٢) ابن عذاري البيان ٢ ص ٨٩ عن دولة الاسلام ص ٢٦٢، ٢٦٣

أو النرمانيون ووطنهم الأصلي هو اسكندنافيا وربما دانيكاركة وشواطئها .
ألمانيا الشمالية ولذا عرفوا بالنرمانيين أي أهل الشمال ويسمى بهم المؤرخون
المسلمون بالمجوس .

فقد قام النرمان في سنة ٢٢٠ هـ بأسطول مكون من ثمانين سفينة
وهاجموا أشبونة فتصدى لهم المسلمون بقيادة واليهم وهب الله بن حزم
وقامت بينهم معارك ضارية استمرت ثلاثة عشر يوماً ثم سار النرمان إلى
قادس ثم إلى شذونة فكان بينهم وبين المسلمين دقاتع عدة ثم اخترقوا النهر
الكبير إلى أشبيلية ونزلوا على اثنين عشر فرسخاً منها فخرج إليهم كثير من
المسلمين وتصدوا لقتالهم ودارت بينهم معارك رهبة انتصر في نهايتها
النرمان على أهل أشبيلية فأكثروا القتل والأسر والنهب فيهم ومكثوا فيها
سبعة أيام يشيعون الخراب والدمار فيها ثم انسحبوا إلى قرية طليطلة الواقعة
غرب أشبيلية ، وعندما اتصل الخبر بالأمير عبدالرحمن بعث قوات من الخيل
على عجل لنجدة أشبيلية بقيادة عبد الله بن كليب ومحمد بن رستم وغيرهما
تحت قيادة حاجبه عيسى بن شهيد وكتب إلى عمال الكور في استنفار الناس
فحلوا بقرطبة ونفروهم نصر الفتي ، وتاق النرمانيون مددا في سفن جديدة
قدمت عليهم ودارت بين الفريقين معارك ضارية تفوق فيها النرمان وعندما
تجمعت القوات التي أرسلها الأمير عبد الرحمن إليهم دافعواهم ونصبوا المجانيق
عليهم فانزح النرمان وقتل منهم نحو من خمسمائة رجل وأصيبت لهم أربعة
مراكب بما فيها فأمر ابن رستم بإحراقها وبيع ما فيها ، ثم كانت الموقعة
الفاصلة معهم في ٢٥ من صفر سنة ٢٣٠ هـ بقرية طليطلة فهزم المسلمون
النرمان بعد قتال عنيف وقتلوا منهم ألفاً وأسروا أكثر من أربعمائة وأحرقوا
لهم ثلاثين سفينة وكان قائدهم بين القتلى وارتد النرمان إلى سفنهم وتحصنوا

بها وقتل المسلمون أسراهم أمام أعينهم . عاقروهم في جذوع النخل . وأقلعت
سفن النرمان مفسحة والمسلمون من ورأهم يطاردونهم ويفتدون أسرى
المسلمين منهم بمختلف السلع وقد حاولوا الانتقام لأنفسهم أثناء انسحابهم
فأغاروا على ليلة وناجحة ثم انتقلوا إلى أشبونة حيث غادروا شواطئ الأندلس
مع باقى سفنهم بعد أن مكثوا اثنتين وأربعين يوما أشاعوا خلالها الرعب
والفرع بين المسلمين وعاقى المسلمون منهم عناء شديدا وعند انقشاع الغمة
أرسل الأمير عبد الرحمن بالسكتب إلى جميع الآفاق معلنة انتصار المسلمين
على العدو المخير وأرسل إلى من بطليجة من صنهاجة يعلمهم بما كان من صنع
الله في الجوس وبما أنزل فيهم من النعمة والمهلكة وبعث إليهم برأس أميرهم
وما تين من رؤوس أكابر النرمانيين القتلى .

وقد أدت غزوة النرمانيين إلى الاهتمام بالأسطول والتحصينات البحرية
فابنى عبد الرحمن حوان أشبيلية سورا ضخما وأنشأ بها دار صناعة واهتم
بإقامة السفن الحربية وحشد لها المقاتلة المدربين من سائر أنحاء الأندلس حتى
نمى الأسطول الأندلسى وعظمت قواته البحرية (١) .

الإصلاحات فى عهدہ :

وقد تم فى عهد عبد الرحمن كثير من الإصلاحات الإدارية والمعمارية
والصناعة الزراعية فهو أول من رتب اختلاف الوزراء إلى القصر وإبداء
آرائهم فيما تعرض عليهم من الأعمال ، ورفع من شأن الوظائف العامة
وأحاطها بالهيبة والمسؤولية وجعل أحكام السوق منسبا مستقلا عن ولاية

(١) ابن الأثير الكامل ج ٧ ص ١٦ ، ١٧ ابن عذارى البيان ج ٢ ص ٨٧ ، ٨٨ ابن
خلدون العبر ج ٤ ص ١٢٩ المقرئ نفع للطيب ج ١ ص ٣٢٣ عنان درلة الاسلام
ص ٢٦٠ أحمد شمرأوى الأعويين فى الأندلس ص ٣١٥ - ٣٢٣

المدينة ، وقد زادت أموال الجباية في عهده فبلغت ألف ألف دينار في السنة .
وأشأ دارا لسك النقود في قرطبة وجعلها أندلسية مستقلة بقيم وأوزان
جديدة .

وقد اهتم بالناحية المعمارية فأشأ القصور والمتنزهات وجلب إليها المياه
من الجبال وجعل لقصره حوضا يجتمع فيه ماء المطر وأقام الجسور وعبد
الطرق وبني كثيرا من المساجد الجامعة في أنحاء الأندلس وزاد في جامع
قرطبة رواقين وهو أول من جلب الماء العذب إلى قرطبة وأدخله إليها
وجعل له حوضا كبيرا يرده الناس ليستقوا منه ، وأقام دار صناعة باشبيلية
وأشأ المراكب لتكوير أسطول بحري لحماية سواحل الأندلس وأمدته
بالآلات والنفط . كما كان له خمسة آلاف مملوك من الموالي والصفالبة ثلاثة
آلاف فارس يرابطون بإزاء القصر فوق الرصيف وألفا رجل على أبواب
القصر وكانوا يسمون الخرس لعجمتهم .

وكانت معظم أيامه أيام هدوء وسكون وأمن ورخاء فتقدمت الزراعة
والصناعة والتجارة وجلب إلى الأندلس كثيرا من الأمتعة والسمع الفاخرة
وكل نفيس غريب من جواهر ومتاع من بغداد وغيرها من البلاد . فزخرت
الأسواق بالهضائع وزاد الدخل زيادة كبيرة .

وقد عمل على إحقاق الحق ونشر العدل والأنقياد له ويذكر لنا ابن
القرطبية حادثة تدل على ذلك فقد غناه زهاب - الذي وفد على الأندلس
في عهده - يوما سموتا استحسنه . فقال : يؤمر الخزان أن يدفعوا إليه
ثلاثين ألف دينار . فأتاهم صاحب الرسائل بالعهود . وكان الخزان يومئذ
يتناقسون على الحجابة ، فظفر الخزان بعضهم إلى بعض فقال لهم موسى بن
جدير وكان شيعتهم قولوا فقال له أصحابه : مالنا قول مع قولك . فقال لصاحب

الرسائل : نحن وإن كما خزان الأمير أبقاه الله فمحن خزان المسلمين نجى أموالهم وبنفقها في مصالحهم ولا والله ما ينفذ هذا ، ولا مئامن يرضى أن يرى هذا في صحيفته غدا ، أن تأخذ ثلاثين ألفا من أموال المسلمين وتدفعها إلى مغن في صوت غناه يدفع إليه الأمير أبقاه الله ذلك بما عنده .

فانصرف صاحب الرسائل الخارج بالصك وقال للخليفة : نافق الخزان ثم دخل الخليفة وقال مثل ذلك للأمير . فقال زرياب ما هذه طاعة فقال عبد الرحمن بن الحكم : هذه هي الطاعة ولأولئهم الوزارة على هذا الأمر وصدقوا فيما قالوا . ثم أمر بدفعه إلى زرياب بما عنده .

وقد ارتفع شأن الأمانة الأموية في عهده وأصبحت الدول تخطب ودهاو تقيم معها علاقات سياسية ففي سنة ٢٢٥ هـ أرسل قيصر القسطنطينية ثيو فيلوس سفيرا يدعى قرطوس إلى الأمير عبد الرحمن ومعه كتاب وهدية ويطلب مواصلة فاستقبله عبد الرحمن استقبالا حافلا ورد عبد الرحمن على السفارة بإيفاد كاتبه الشاعر يحيى الغزال ويحيى بن حبيب إلى القسطنطينية بكتاب وهدية إلى الأمراطور وتدور السفارة حول العداوة القائمة بين القسطنطينية والعباسيين وبين العباسيين والأمويين ومحاولة إيجاد تعاون بينهما

ويقال إن الفرمان بعد غزوهم الأندلس وهزيمتهم ومطاردتهم بهت ملكهم رسله إلى عبد الرحمن بن الحكم يطلب المهادنة والصلح فأجابه عبد الرحمن إلى طلبه وبهت الغزال مع الرسل إلى ملكهم يرد السفارة ويعلمنه بقبول الصلح وتبين لنا هذه السفارات الميكانة التي وصلت إليها الإمارة الأموية في الأندلس في عهد عبد الرحمن الأوسط .

وقد تولى الحجابة لعبد الرحمن عبد الكريم بن عبد الواحد وتولى الوزارة تسعة رزق كل واحد ثلاثمائة دينار وتولى الكتابة ثلاثة عبد الكريم المذكور وسفيان بن عبد ربه وعيسى بن شهيد وقضائه أحد عشر منهم يحيى بن معمر ومرور بن محمد بن بشير وغيرهما والسبب في كثرة القضاء تدخل يحيى بن يحيى الأبي في توليتهم وعزلهم .

وفي ربيع الآخر سنة ٢٣٨ هـ توفي عبد الرحمن الأوسط بعد واحد وثلاثين عاماً من أمارته قضاهما في السهر على حياية الدولة ورد المغيرين والقضاء على الفتن والنوادر والقيام بكثير من الإصلاحات التي أدت إلى تقدم الدولة وأزدهارها (١)

٤ - محمد^(٢) بن عبد الرحمن بن الحكم ٢٣٨ - ٢٧٣ هـ ٨٥٢ - ٨٨٦ م

كان عبد الرحمن بن الحكم قد أظهر تفضيله لابنة محمد علي بقرية أبنائه باستخلافه بقصر الإمارة في سنة ٢٢٦ هـ ثم ولاء ثغر سرقة فأحسن إدارته كما أسند إليه قيادة ميمنه جيشه في حملته المظفرة إلى بنبلونة وأثنى عليه والده

(١) ابن القروية افتتاح الأندلس ص ٧٨ ، ٨٢ ، ٨٤ ابن الأثير الكامل ج ٧ ص ٦٩ ، ٧٠ بن عذاري البيان ج ٢ ، ٨٠ ، ٨٩ - ٩٣ ابن خلدون العبر ج ٤ ص ١٣٠ المقرئ فتح الطيب ج ١ ٣٢٤ - ٣٢٥ عمان دولة الإسلام ص ٢٧٠ - ٢٨٢ ، أحمد شعراوي الامويون أمراء الأندلس ص ٣٢٤ - ٣٢٧ ، كارل بروكلمان تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٢٩١ .

(٢) ولد في ذي القعدة سنة ٢٠٧ هـ كنيته أبو عبد الله وأمه تسمى زهير وتوفى في آخر صفر سنة ٢٧٣ هـ وعمره خمس وستين سنة وأربعة أشهر وولايته أربعة وثلاثون سنة وعشرة أشهر وعشرين يوماً .

في كتاب الفتح تنويها بشأنه وتمهيد الولاية عهده وأظهر للكبار رجال دولته بانه ولي عهده وأمرهم مع القاضى ورجال الشورى بالركوب إليه وغشيان مجلسه أيام الجمع في المسجد الجامع ، ولكنه مع ذلك لم يصدر مرسوما بولايته العهد لأن زوجته طروبا الأثيرة لديه كانت تريد تولية ابنها عبد الله ولذلك دارت بعد موت عبد الرحمن مناقشات عنيفة بين الفتيان الصقابة على من يولى الأمانة . ثم استقر الأمر على تولية محمد فأحضره وبايعوه ، وحضر أخوته وعمومته وأهل بيته فبايعوه ثم بايعه العامة في ربيع الآخر سنة ٢٣٨ هـ (١) .

وهنا نلاحظ تدخل الصقابة الذين يسمون بالفتيان في اختيار الأمير وترجيح من كان يميل إليه عبد الرحمن . وكان من الممكن أن يحدث صراع بين من يؤيد ابنه محمدا ومن يؤيد ابنه عبد الله لأن عبد الرحمن لم يحقد ولأية العهد لمحمد صراحة ، وهذا خطر عدم النص على من يولى العهد .

وقد وجه محمد عناية كبيرة للاهتمام بأمور الدولة الداخلية والخارجية حفاظا عليها من الثائرين في الداخل والمغربين المتربصين بهامن الخارج وقضى وقت حكمه الطويل في غزوات متعاقبة وحملات مستمرة للتأديب انشوار فى الداخل وحماهم على الطاعة ورد كيد الإمارات النصرانية المجاورة حماية لشعور المسلمين واهتماما بصالحهم . كما اهتم بالاصلاحات الداخلية خلال عهده .

(١) ابن القوطية تاريخ افتتاح الأندلس ص ٩٢-٩٥ ، عنان دولة الاسلام

التوارث الداخلية :

قامت في عهد الأمير محمد ثوارث كثيرة ففي سنة ٢٣٨ هـ ثورة أهل طليطلة وفي سنة ٢٥٤ هـ ثورة ماردة وفي سنة ٢٥٥ هـ خروج سليمان بن عبدوس في مدينة سرية وفي سنة ٢٥٦ هـ غدر عمروس بعامل وشقة وفي سنة ٢٥٨ هـ وقعت ثورات في الثغر قام بها مطرف واسماعيل ابني اب ويونس ابن زباط فقبضوا على عامل تطيلة وعامل سرقسطة وفي سنة ٢٦١ هـ ثورة بني موسى في سرقسطة وتطيلة وفي سنة ٢٦٥ هـ فتنة كورة رية والجزيرة وتاكرنا وفي سنة ٢٦٧ هـ فتنة ابن حفصون في رية التي استمرت إلى عهد عبد الرحمن الناصر وفي سنة ٢٧٣ هـ خروج حارث بن حمدون من بني رفاعة في مدينة الحامة (١).

وسيطول الحديث بنا لو تتبعنا هذه الثوارث واحدة بعد أخرى وكيف قضى الأمير عليها ولكن سنتحدث عن ثورتين من هذه الثورات هي ثورة طليطلة وثورة ماردة .

ففي بداية عهده سنة ٢٣٨ هـ ثار عليه أهل طليطلة وقبضوا على عاملها عليها حارث بن بزيع ورفضوا إطلاق سراحه حتى اطلقت رها عنهم من قرطبة فأطلقوه ، استمروا في فسادهم فخرّبوا سور قلعة زباح وقتلوا كثيرا من أهلها حتى افقرت وفر أهلها خوفا منهم فأرسل الأمير إليهم سنة ٢٣٩ هـ أخاه الحكم بن عبد الرحمن في جند الصائفة إلى قلعة زباح فأصلح سورها وما خربوه فيها وأعاد إليها من فارقها من أهلها وتقدم الحكم إلى طليطلة لمنازاتها وأرسل محمد في نفس العام إلى شندلة قائديه فاسم بن العباس وتمام

(١) أنظر ابن عسدي البيان المغرب ج ٢ ص ٩٤ - ١٠٦ .

ابن أبي العتاف صاحب الخيل ومعهما الحشم فلما حلا بأندوجر خرجت عليهم
كائن أهل طليطلة ودارت بينهم معركة عنيفة هزم فيها جند الأمير وأصيب
أكثر من فيه في شوال سنة ٢٣٩ هـ وشجع ذلك أهل طليطلة على مواصلة
العصيان . فسار إليهم الأمير محمد بنفسه في المحرم سنة ٢٤٠ هـ على رأس
قوة كبيرة حتى يخدم أجيح الثورة في طليطلة التي يقطنها أكثر الموالدين
والنصارى فلما علم أهلها بخروج الأمير إليهم ، استمدوا ملك حليقية وملك
البشكنس فأمداهم بقوة كبيرة . وعلم الأمير بذلك فلجأ إلى الحملة والسكيد
لهم فعبأ الجيوش ووضع السكان بناحية وادي سليط وطلع عليهم في مقدمة
العسكر في قلة من العدد فلما شاهد ذلك أهل طليطلة رأوها فرصة بغتتموها
من الأمير فحركواهم وحلفاءهم النصارى وهم مؤملون في الظفر والغنيمة
والتقى الجمان فخرجت السكان عن يمن وشمال وأطبقت الخيل على الثوار
وحلفائهم من كل جانب فأخذتهم السيوف والرماح ومزقوا شرا بمنزق وبلغ
عدد القتلى عشرين ألفاً أثنى عشر ألفاً من الثوار وثمانية آلاف من حلفائهم
وبعث الأمير محمد بأكثر رؤوس النصارى إلى قرطبة وإلى سواحل
البحر والعدوه .

وقد تابع الأمير إرسال حملاته إلى طليطلة ففي سنة ٢٤١ هـ شعن قلعة
رباح وطلبيرة بالحشم ورتب فيها الفرسان ليقتفوا على تحرك أهل طليطلة
وفي سنة ٢٤٢ هـ وجه الأمير ابنه المنذر بالجيوش إلى طليطلة فحاصرها وأقام
عليها يسنف معائشها ولم يجرؤ الثوار على مغادرة مدينتهم هذه المرة ، وفي
العام التالي خرج الثوار إلى طلبيرة لاجتماعهم فخرج إليهم قائدها مسعود بن
عبد الله العريف وقتل وضع لهم كائن فتخاب عليهم وأكثرت القتل فيهم وبعث
إلى قرطبة بسبعمائة رأس من رؤوس أكابريهم .

وفي سنة ٥٢٤٤ هـ خرج الأمير محمد بن نفسه إلى طليطلة لما اقتنعهم على تحريرهم على أهل طليطلة وحاصرهم فتأهب أهلها لقتله رغم ما حل بهم من هزائم سابقة ورأوا قتاله على القنطرة فجمع محمد العرفاء من السائين والمهندسين وأمرهم بهدم قوائم القنطرة مع تركها قائمة ثم انسحب مجنوده عنها فخرج أهل طليطلة لقتاله فلما اجتمعوا عليها اندقت بهم وتهدمت وسقطت عن كان عليها من الخماة والسكاة ففرقوا عن آخرهم فعمل الأمير على ذلك حصون المدينة وتبع الثأرين فيها بالقتل والتشريد حتى طلبوا الأمان في العام التالي فعقد لهم .

ومكثا انتصر الأمير على ثورة طليطلة وأطاعت طليطلة الإمارة الأموية في قرطبة بعد ثورة طال مداها ولكنهم عادوا بعد أكثر من عشر سنوات فتاروا ثانيا سنة ٢٥٩ هـ وخرج الأمير إليهم نفسه وأرغمهم على العودة إلى الطاعة وعقد معهم أمانا ثانيا وأخذ فيه رهائهم وفرض عليهم قطيعاً من العثمور يؤدونه كل عام وهذا أهل طليطلة ولكن اختلفت أهواؤهم عندما اراد الأمير توليه أخيه مطرف بن عبدالرحمن فطلب بعضهم توليه طربيشه بن ماسويه فولى الأمير كل واحد منها حانبا من طليطلة وأقالها ثم تنازع الواليان وأراد كل منها الإنفراد بالولاية ورجحت كفه المؤيدن لطربيشه فولاه الأمير المدينة^(١) .

أما الثورة الثانية فهي ثورة ماردة في سنة ٢٥٤ هـ وكان أهلها قد تاروا في عهد عبد الرحمن الأوسط ثم قضى على ثورتهم وتفرق كثير من

(١) ابن الأثير الكامل ٧ ص ٨٢ ، ٢٦٥ ، ٢٧١ ابن عداري البيان ٢ ص ٩٤ ، ٩٦ ، ١٠١ ، ابن حلدون المعبر ٤ ص ١٣١ ، عمان دولة الاسلام ص ٢٨٧ - ٢٩١ عبد العزيز سالم تاريخ المسلمين وآثارهم ص ٢٤٥ - ٢٤٦ .

أهلها في البلاد . ثم تجمع أهلها تحت قيادة عبد الرحمن بن مروان الجليقي (وهو من المولدين) وثاروا فخرج إليهم الأمير محمد وتمسك من الوصول إلى ماردة دون أن يشعر أهلها وحصرهم وضيق عليهم ثم قاتلهم حتى أذعنوا إلى التسليم والطاعة فقبل منهم على أن يخرج فرسانهم وهم عبد الرحمن بن مروان وابن شاكر ومسكحول وغيرهم إلى قرطبة بعبألمهم وذرايمهم وولى عليها سعيد بن عباس القرشي وأمر بهدم سور المدينة ولم يبق إلا قصبتها مقراً للوالى .

وقد ظل ابن مروان فى قرطبة إلى سنة ٢٦١ هـ حيث تمسك مع بعض مؤيديه من رجال ماردة من الحرب حيث استقروا بقلعة الخنث على بعد نحو ٢٠ كيلو مترا جنوب شرق ماردة وتحصن بها وعاش فيها حولها فسادا فخرج إليه الأمير محمد وحاصره وضيق عليه ثلاثة أشهر حتى أكل الدواب وقطع عنه الماء ورماه بالمجانيق حتى أذعن وطلب الأمان فأمنه محمد وطلب منه ابن مروان الانتقال إلى بطليوس والإقامة فيها فأذن له الأمير ، فابتى بطليوس وجعلها موطننا وحصنا أدخل فيه أهل ماردة وغيرهم من أهل الشر والفساد وأعلن الثورة ثانية فأرسل إليه الأمير ابنه المنذر ٢٦٢ هـ ومعه القائد هاشم بن عبد العزيز فخاف ابن مروان وانتقل من بطليوس إلى حصن كركر واستعان بزميله سعدون السرنباقي الذى استمد ملك جليقية فأمده بقوة توجه بها لمساعدة ابن مروان فخرج إليه هاشم بن عبد العزيز والتقى معه فى معركة حامية كثر فيها القتل وأسرف فيها هاشم وهزمت قوات الأمير وكان المنذر محاصرا لابن مروان فشدد عليه الحصار أياما ثم عاد ببقية الجيش إلى قرطبة وأرسل هاشم إلى ملك جليقية فسكث عامين أسيرا ثم افتداه الأمير سنة ٢٦٤ هـ بمائة وخمسين ألف دينار . وقد علا شأن ابن مروان وصار رئيس المولدين فى الغرب وحصار السرنباقي تابعا له وقد عاث فى الأراض .

فسادا فبلغ إلى كورة اشبيلية وتوسط أعمالها وغنم حصن طليطة من فيه ثم تقدم إلى ابله ، دخل إلى أكشونية وضبط بها جبلا يقال له منت شافر (١) وقد حدث بعد ذلك أن اختلف معه بعض أصحابه وتركوه إلى بلدهم ماردة بعد أن حصلوا على أمان من الأمير وسير إليه الأمير سنة ٢٦٣ هـ ابنه المنذر في جيش كبير توجه إلى ماردة فلما علم ابن مروان بذلك ترك بطليوس فنزل بها قائد المنذر الوليد بن غانم فخرب ديارها وأسوارها واجأ ابن مروان إلى ملك جليقية فكث عنده ثمانى سنوات ثم دب الخلاف بينهما وعاد ابن مروان إلى منطقته بطليوس سنة ٢٧١ هـ وأستأنف غاراته وفساده في النواحي المجاورة فسير إليه الأمير ابنه المنذر في قوة كبيرة زحفت على بطليوس ففر منها ابن مروان ولجأ إلى جبل أشير غره ، فتحصن به فأحرق المنذر بطليوس ودمر حصونها وفي العام التالي أرسل إليه الأمير حملة أخرى ولاكنها لم تحقق الهدف المقصود وانتهى الأمر إلى قبول شروط ابن مروان في الاستقلال بحكم بطليوس وماجاورها وأن يعنى من المغارم والفروض (٢)

الحروب الخارجية :

كما قام الأمير محمد بتوجيه الحملات إلى الثورات المتعددة التي وقعت في عهده في كافة أرجاء الإمارة نجد أن المسلمين قاموا خلال عهده الطويل بحملات وغزوات متعددة إلى الدول والإمارات المجاورة لهم لرد عدوانهم ، وحماهم على احترام الحدود الإسلامية وسنشير إلى تلك الحملات المتعددة ثم نتبع جهة من الجهات التي توجهت إليها بعض هذه الحملات .

(١) ابن القوطية تاريخ افتتاح الاندلس ص ١٠١ - ١٠٢ .

(٢) ابن القوطية تاريخ افتتاح الاندلس ص ١٠٢ ، ابن الاثير الكامل ص ٧٠

ص ٢٨٨ ، ٣١٠ ، ٤١٦ ، ابن عسار البيان ص ٢٠٢ - ١٠٥ ، ابن

خلدون الهبر ص ٤٠ ، عنان دولة الإسلام ص ٢٩٩ - ٣١٢ ، عبدالمعز

سالم تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس ص ٢٤٦ - ٢٤٨ .

ففي سنة ٢٤١ هـ خرجت حملة إلى ألبة والقلاع وفي سنة ٢٤٢ هـ غزا
برشلونة وفتح حصن طراجة وفي سنة ٢٤٥ هـ تصدى لرد حملات النورمان
وفي سنة ٢٤٦ هـ غزا أرض بنبلونه ومسك جيشه فيها اثنتين وثلاثين به ما
يجوس خلالها ويفتح حصونها ، وفي سنة ٢٤٧ هـ غزا برشلونة وملسكو
أرضها ورجين من أبراج المدينة وفي سنة ٢٤٩ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ غزا ألبة
والقلاع ، وفي سنة ٢٥٣ خرج الحكيم بن محمد إلى حصن جرنيق ففتحه وفي
سنة ٢٥٩ هـ خرج الأمير محمد إلى برشلونة فوطى أرضها وفي سنة ٢٦٠ هـ
خرج المنذر إلى بنبلونه فجاء في أرضها وفي سنة ٢٦٤ هـ دخل البراء بن مالك
إلى جليقية وأذعب نعيمهم وفي سنة ٢٦٨ خرج المنذر ففتح حصونا كثيرة
في ألبة والقلاع (١) .

وهكذا نجد أنه خلال حكم الأمير محمد شعر جيرانه بقوة حكم المسلمين.
وأنه رد عاديتهم وسوف نتحدث بالتفصيل عن الحملات التي توجهت إلى ألبة
والقلاع ثم تصدى المسلمين لهجوم البرمان .

وفي سنة ٢٤١ هـ حشد الأمير محمد حشودا كثيرة وانضم إليه موسى بن
موسى وأهل الثغور فتوجه إلى ألبة والقلاع فهات في أرجائها وافتتح كثيرا
من حصونها .

وفي سنة ٢٤٩ هـ توجه عبد الرحمن بن الأمير محمد بجيش كبير إلى
إلى حصون ألبة والقلاع وكان القائد عبد الملك ابن العباس فافتتحها وقتل
الرجال وهدم البيتان وأهلك زروعها فأرسل ملكها أردون أخاه بجيش
كبير من البصارى ليقطع على المسلمين مضيق الفج فقاتلهم المسلمون قتالا

(١) ابن عذارى البيان > ٢ ص ٩٥ - ١٠٥ .

عنيفا حتى انتصروا عليهم وقتلوا منهم عددا كبيرا منه تسعة عشر قوساً من كبار قريادم .

وفي سنة ٢٥١ هـ^(١) خرج عبد الرحمن بن محمد بجيش وتقدم حتى حل على نهر دويوة ورتب عساكره فاحتل هج برداش واستولى على حصونه الأربعة وخرها ولم يبق رذريق صاحب القلاع ولا لردمير صاحب توفة ولا لغند شلب صاحب برحية ولا لغومس صاحب مانقة حصن من حصونهم إلا وعمه الخراب ثم قصد الملاحه ، وكانت من أجل أعماك رذريق الخطم ماحوا اليها وغنا آثارها . وقد جمع رذريق جيشا كبيرا واستعدده للقاء المسلمين عند عودتهم في فج يسمى وفج المركوين ، قرب نهر ذبرة وحصن بجواره خندقا لإعاقة عودة المسلمين فعبا كل من المسلمين والمشركين قواتهما ودرت بينهما معركة عنيفة صدق المسلمون فيها اللقاء فنجحهم الله النصر وشتوا شمل أعدائهم ومزقوهم شرمزق وكثر فيهم القتل والأسر والغرق في النهر ثم سوى المسلمون الخندق حتى اجتازوه بسهولة ويسر وقد قتل من الأعداء أكثر من عشرين ألفا وفي العام التالي خرج إليهم عبد الرحمن بن محمد في جيش فحاربهم وأفسد زروعهم حتى ضعف أهل ألبه والقلاع وامتنعوا عن التجمع والإحتشاد للإقاع بالمسلمين وفي سنة ٢٦٨ هـ تقدم المنذر بن الأمير محمد والقائد هاشم بن العزيز إلى ألبه والقلاع ففتحوا حصونا كثيرة وأرهبوا العدو حتى لا يتجمع لمهاجمة المسلمين في تلك البقاع^(٢)

(١) اختلف في قائد هذه الغزوة ابن الأثير يذكر المنذر بن محمد > ١ ص ١٦٢ وابن حديد بن يدكر الأمير نفسه > ٤ ص ١٣١ أما ابن عذارى فيذكر عبد الرحمن بن محمد وقد أجدنا برأى بن عذارى لأنه هو قائد الحملة السابقة .

(٢) ابن الأثير الكامل > ٧ ص ٨٠ ، ١٢٥ ، ١٦٢ ابن عذارى البيان > ٢ ص ٩٥ - ١٠٥ ابن خلدون العبر > ٤ ص ١٣١ عنان دولة الإسلام ص ٢٩٣

أما الحرب ضد النورمان فقد وقعت في سنة ١٠٤٥ هـ عندما قدم إلى سواحل الأندلس الغربية المجوس (النورمان) في اثنين وستين مركبا وكان المسلمون منذ حملة النورمان السابقة في أيام عبد الرحمن الأوسط قد أخذوا حذرهم وحرسوا شواطئهم وصارت سفنهم تحرس شواطئهم باستمرار ولذلك تصدت سفن المسلمين لسفن النورمان تجاه مدبته باجة فاستطاع المسلمون الاستيلاء على مركبين من مركب النورمان بما فيها من الذهب والفضة والسبي والعدة . وسارت سفن النورمان نحو الجنوب حتى انتهت إلى مصب نهر إشبيلية وقد تحركت جيوش المسلمين لقتالهم ونفر الناس سراعا من كل جهة تحت قيادة عيسى بن الحسن الحاجب ودارت بين المسلمين وبين النورمان معارك ربة وبحرية رد النورمان فيها عن إشبيلية ، ثم نشبت بينهما معركة بحرية شديدة تجاه شاطئ شذونة أسر فيها المسلمون مركبين آخرين غير أن الأسطول النورمانى تغلب على أحد جناحي الأسطول الإسلامى وقتل قائده ثم تقدم النورمان نحو الجزيرة الخضراء فتغلبوا عليها وأحرقوا المسجد الجامع بها وأكثروا فيها الفساد ، ثم جازوا إلى عدوة المغرب وعاثروا فيه فسادا ، وانتقلوا منه إلى شاطئ الأندلس الجنوبي وتوجهوا إلى ساحل تدير حتى وصلوا إلى حصن أريولة ودارت بينهم وبين المسلمين معارك شديدة ربة وبحرية ثم تقدموا إلى إفرنجة فشتوا بها وأصابوا بها الذرارى والأموال وتغلبوا على مدينة سبكنوها وقد مضت قوة من النورمان خلال نهر إبرة حتى وصلوا إلى بلبونة وأسروا صاحبها غرسيه وافتدى نفسه منهم بتسعين ألف دينار ثم انصرفوا إلى الأندلس وقد ذهب من مركبهم أكثر من أربعين مركبا فلقبهم أسطول المسلمين بريف شذونة فأحرقوا لهم مركبين وأخذوا مركبين آخرين وغنموا ما فيها من الأميار الكثيرة ومضت بقية مراكب النورمان مفسحة من حيث أتت

بدون أن تحقق ما نصبوا إليه، من نهب ديار المسلمين وذلك لحذر المسلمين
حمايتهم لشراطتهم^(١).

الاصلاحات في عهده :

بعد هذا العرض للشورات الداخلية والحروب الخارجية يتبين لنا مدى
الاهتمام بفتح الأمن والهدوء في الداخل وحماية الدولة من الأعداء في الخارج
والاهتمام بشئون الرعية والبحث عما يفيدها يقول الوزير هاشم بن عبد
العزیز : كان الأمير محمد يستشيرنا فنحن نأخذ ونقول ونحصل فإن أصبنا أمض
ذلك ، وإن كافي الرأي خلل قام فيه بالحجة^(٢) وهذا بين مدى اهتمامه
بالشورى ويقول عنه ابن عذارى : كان مهتبا بأمر رعيته مراقبا لمصالحها ،
ووضع عن أهل قرطبة ضريبة الخشود والبعوث ، واكتفى بدعوتهم إلى
التطوع والجهاد في سبيل الله فأقبلوا على تأييده وتمنيده^(٣) . وقد ابتعدت
الدولة في عهده عن المورخ والترفى ومالت إلى الاعتدال في الإنفاق وخصف
نفوذ الجوارى والصقالبة في القصر مما يدل على حزم الأمير وبصافته وكان
يسير الدولة الجهاز الإدارى الذى كان فى عهد آباءه من الحجاب والوزراء
والقواد والسكران والقضاة ، وقد بلغ وزاؤه وقواده : اثنا عشر وحجابه
أثنا : ابن شهيد وابن أبى عبده وكتابه ثلاثة : عبس الملك بن أمية وحامد بن

(١) ابن الأثير الكامل ج ٧ ص ٩٠ ابن عذارى البيان ج ٢ ص ٩٦ ، ٩٧
عنان دولة الإسلام ص ٢٩٢ ، ٢٩٣ .

(٢) ابن عذارى البيان ج ٢ ص ١٠٧ .

(٣) ابن عذارى البيان ج ٢ ص ١٠٩ .

محمد الزجالي وموسى بن أبان وقصائله : أحمد بن زياد ثم عمرو بن عبد الله ثم سليمان بن أسود الغافقي . وقد اهتم بأمر الجيش والأسطول وأمر بإنشاء المراكب بمر قرطبة وحملها إلى البحر المحيط وكان لها دور كبير في حماية الشواطئ من التورمان^(١) .

ويذكر ابن أبي دينار أن جيش المسلمين في عهده بلغ مائة ألف فارس منهم عشرون ألفاً بدروع الفضة وأنشأ في البحر سبع مائة غراب^(٢) . ويذكر ابن عذارى عن ابن حيان عدد الفرسان المستنفرين لغزو الصائفة المجردة إلى جليقية في مدة الأمير محمد مع عبد الرحمن ابنه على النحو التالي : كوره البيرة : ألفان وتسعمائة ، جيان : ألفان ومئتان ، فبرة : ألف وثمانمائة ، باغة : تسعمائة ، تاكرنا : مئتان وتسعة وتسعون ، الجزيرة : مئتان وتسعون ، استجة : ألف ومئتان ، قرموية : مائة وخمسة وثلاثون ، شدونة : ستة آلاف وسبع مائة وتسعون ، ربة : ألفان وست مائة ، فحيس البلوط : أربع مائة ، مورور : ألف وأربع مائة ، تدمير : مائة وستة وخمسون ، رينة : مائة وستة ، قلعة رباح وأوريط : ثلاثمائة وسبعة وثلاثون فيكون مجموعهم ٢١٥٣٢ فارساً وتفر من قرطبة عدد لم يوقف على قدره وذلك بعد أن رفعت الضريبة التي كانت على أهل قرطبة وأقاليمها وغيرها من البلاد وقطع عنهم الخشود التي كانوا يؤخوذون بتجديدها في كل سنة للصوائف الغازية لدار الحرب وأسقطها عنهم ووكلهم إلى اختيار أنفسهم في الطواعية للجهاد من غير نعت وقد قد حسن موقع ذلك منهم وتضاعف حمدهم له وشكرهم واعتناهم بدوائمه^(٣) .

(١) ابن الأثير الكامل ج ٧ ص ٣٣٤ ابن عذارى البيان ج ٢ ص ١٠٣ ابن

جلدون العبر ج ٤ ص ١٣١ .

(٢) ابن أبي دينار المؤسس في أخبار إفريقية وتونس ص ١٠١ ، ١٠٢ .

(٣) ابن عذارى البيان ج ٢ ص ١٠٩ .

وقد وجه اهتمامه إلى حماية المدن والثغور فبنيت حصون في كورة رية ونواحي الجزيرة سنة ٢٦٦ هـ^(١). كما بنى حصن شنت إشتين لحماية مدينة سالم وبني حصن طلمنكة وحصن مجريط بمنطقة وادي الحجارة للدفاع عن طلميلة كما عني بمعرفة أخبار الثغور والبحث في مصالحهم^(٢).

ومع كثرة الأعباء التي ألقيت على كاهل المسلمين للقضاء على الفتن الداخلية والغزوات الخارجية في عهد الأمير محمد فقد اهتموا بالمشآت المعمارية ففي سنة ٢٤١ هـ جددت طرز الجامع بقرطبة وأُتقن نقشه وفي سنة ٢٤٣ هـ إجريت زيادة في المسجد الجامع بسرقسطة الذي أسسه ووضع محرابه حنش الصنعاني من التابعين وفي سنة ٢٠٠ هـ كملت مقصورة المسجد الجامع بقرطبة وبني فيها الأمير بنيانا كثيرا في القصر الكبير والمنى الخارجة عنه امتازت بالجمال والأناقة كما عني بتجديد منية الرصافة التي أنشأها عبد الرحمن الداخل واهتم بمحدثاتها ومنتزهاتها وزودها بالأشجار النادرة وجعلها منتدي برهه وأسماها^(٣). وقد شجع العلماء والشعراء والفقهاء الذين كان لهم في عهده نفوذ كبير في بلاط قرطبة^(٤).

هذا النشاط الجهم الذي تم في عهد الأمير محمد جعله محبوبا في جميع البلدان وكان محمد بن أفلح أمير تاهرت لا يقدم ولا يؤخر في أموره ومعضلاته إلا عن رأيه وأمره وكذلك بتومدرار أمراء سجلماسة ، وكان هو شديد الاهتمام بهم وأخبارهم وأحوالهم ، وكان شارل الأصلع ملك

(١) المرجع السابق ص ١٠٣

(٢) عمان دولة الإسلام ص ٣٠٧ .

(٣) ابن عذاري البيان ص ٢ ص ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٨ عمان دولة الإسلام ص ٣١٠ .

(٤) عمان دولة الإسلام ص ٣١١ .

فرنسا (أفرنجية) يقدر خلاله ويتودد إليه . يقدم له الترحف والهدايا وكانت تربطه علاقة مودة بنى قسى سادة الشجر الأعلى الذين كانت لهم جهود طيبة فيما وراء جبال البرنية^(١) .

وقد ظل الأمير محمد يدير شئون المسلمين في الأندلس بحكمة وحزم حتى أدركته الوفاة في ٢٩ من صفر سنة ٢٧٣ هـ بعد حياة حافلة بالكفاح والنضال وعمره خمس وستون سنة وأربعة أشهر ومدة إمارته أربع وثلاثون سنة وعشرة أشهر وعشرين يوماً^(٢) .

٥ - المنذر بن محمد^(٣) ٢٧٣ - ٢٧٥ هـ ٨٨٦ - ٨٨٨ م

كان المنذر المساعد الأيمن في حماية الدولة أثناء أماره أبيه محمد وقد وجهه أبوه كثير المقاتلة الخارجين على الدولة ومدافعة المهاجرين لها . ولذلك خصه أبوه بولاية العهد وقد توفي أبوه والمنذر يقاتل ابن حفصون أخطر الثائرين على الدولة فعاد المنذر إلى قرطبة حيث تمت بيعته في الثامن من ربيع الأول سنة ٢٧٣ هـ وكان متصفا بالشجاعة والعزم والحزم والصرامة مما جعل أبطال الرجال وأنجادهم من أهل الفتنه يذعنون إليه ويرسلون إليه بالطاعة قبل أن يظلمها ولو امتد به العمر لقضى على كل الثائرين ووطد الأمن في كل أرجاء الدولة وحى المسلمين شر الفتنة .

وفي أول عهده فرق العطاء في الجند وتودد إلى الرعية بإسقاط عشر العام عنهم وما يلزمهم من جميع المغارم . وقد ذكر الرازي أن المنذر أرسل

(١) ابن عذارى البيان > ٢ ص ١٠٨ عنان دولة الإسلام ص ٣٠٩ .

(٢) ابن عذارى البيان > ٢٣ ص ٩٤ .

(٣) مولده بقرطبة سنة ٢٢٩ هـ وأمه تسمى أثل وتوفي في صفر سنة ٢٧٥ هـ

محمد بن لب في بداية ولايته إلى ألبة والقلاع ومعه جموع المسلمين ففتح الله
للمسلمين وقتلوا من المشركين جمعا كثيرا .

وقد شمر المنذر عد ساعد الجند لمقاتلة الثائرين وكانت حصون رية قد
حصلت في طوع ابن حفصون فبعث إليها الجند وأعادها إلى الطاعة وقد
استغل ابن حفصون وهو من المولدين موت الأمير محمد فسطط سلطانه على
الحصون التي بينه وبين الساحل كلها وكان يدعو الناس إلى الثورة وتأنفهم
ويقول : « طال ما أنف عليكم السلطان وانزع أموالكم وحملكم فوق
طاقتم وأذاتكم العرب واستعبدتم وإنما أريد أن أقوم بشأركم وأخرجكم من
عبوديتكم (١) ولذلك فقد انضم إليه عدد كبير من أهل الحصون وكان أكثر
أتباعه شطار الناس وشرارهم وكان يمنهم بفتح البلاد وغنائم الأموال وقد
امتد شر ابن حفصون إلى قبرة وقربة الجمالية وعلى أحواز جيان وأسر عبدالله
بن سماة عامل باغنه واستولى أتباعه عن حصن آشمن حوزرية (٢) .

وقد أرسل الأمير المنذر أصبغ بن فطيس في خيل كشيفة إلى حصن آشمن
ففتحته وقتلت من كان فيه من أتباع ابن حفصون كما أرسل المنذر عبدالله بن
محمد بن مضر وأيدون الفتي بخيل إلى ناحية لجانة من قبرة وكان بها مسلحة
لابن حفصون فنازلوهم وقتلوهم عن آخرهم . وقد ثار أهل طابطة وانضم
إليهم كثير من الثربر المنفيين من ترقية فأرسل إليهم قوة هزمت الشوار
 وقتلت منهم ألوفا (٣) .

وقب يخرج الأمير المنذر بجيوشه إلى ابن حفصون في سنة ٢٧٤ هـ .

(١) ابن عذاري البيان ٢٠ ص ١١٤ .

(٢) المرجع السابق ص ١١٥ .

(٣) المرجع السابق ص ٣١٤ .

فاستولى على حصونه برية وقهرة ثم توجه إلى ابن حفصون في بيشتر
حاضرتة فحاصره وضيق عليه وأفسد ما حواله ثم انتقل الأمير إلى أرشدونه
فحاصرها وضيق عليها حتى استولى عليها وقبض على عيشون التابع لابن
حفصون وفتح حصون بني مطروح في باغة وأرسل عيشون وبني مطروح
حرب وعون وطالوت إلى قرطبة فقتلوا هناك وكانوا اثنين وعشرين
رجلاً (١)

وقد خرج المنذر إليه مرة أخرى وعزم على حصاره في قلعة بيشتر
حتى يقضى عليه أو يستسلم وضيق عليه الخناق من كل جانب حتى ينس ابن
حفصون من شدة الحصار فليجأ إلى الحيلة بأن أظم الخضوع والطاعة على
أن يكون من خاصة جند الأمير ويسكن قرطبة بأهله وولده وأن يلحق أبناءه
في الموالى فقبل الأمير ذلك وأغدق عليهم العطايا وكتب له عهد الأمان
وطلب ابن حفصون من الأمير مائة بغل ليحمل عليها متاعه فأرسلها الأمير
إليه ورفع الحصار عنه وقفل راجعاً بجيشه إلى قرطبة وعند ذلك عاد
ابن حفصون إلى بيشتر وتحصن بها وقد قويت نفسه بما حصل عليه من
الأمداد وقد غضب المنذر لتلك الخيانة وهاد مسرعاً إلى بيشتر ليضرب
عليها الحصار مقسماً ألا يبرحها حتى يقبض على الثائر حياً وميتاً واستمر
الحصار ثلاثة وأربعين يوماً مرضى في نهايتها المنذر فأرسل إلى أخيه عبداً
لينوب عنه في متابعة الحصار وفي منتصف صفر سنة ٢٧٥ هـ لفظ المنذر
أنفاسه تحت أسوار بيشتر وهو محاصر لأن حفصون بعد قرابة عامين
من إمارته وحمل على جبل إلى قرطبة فدفن مع أجداده هناك (٢).

(١) ابن عذاري البيان ص ١١٧ .

(٢) ابن عذاري البيان ص ١١٨ ، ١١٩ .

وكان وزيراً المنذر أحد عشر وكتابه اثنتان : سعيد بن مبشر ، وعبد الملك بن عبد الله ابن أمية بن شميم وحاجبه عبد الرحمن بن أمية بن شهيد وقواده سبعة وقاضيه : أبو معاوية عامر بن معاوية النخعي^(١) ، وقد قال عنه الشيوخ : أنه لو عاش المنذر عاماً واحداً آخر لم يبق بركة منافق ولتتمكن من القضاء على ابن حفصون وغيره من الثائرين ولأمنت الأندلس شر تفاقها بعد ذلك ، هذا يدل على مكانته ومنزاته^(٢) .

٦ - عبد الله^(٣) بن محمد بن عبد الرحمن ٤٧٥ - ٣٠٠ هـ ٨٨٨ - ٩١٤ م .
تولى إمارة الأندلس بعد المنذر أخوه عبد الله بن محمد وقد تولى في اليوم الذي توفي فيه أخاه في المحلة على يشتري يوم السبت في النصف من شهر صفر سنة ٢٧٥ هـ وقد عاد إلى قرطبة ومعه جثمان أخيه المنذر فدفن مع آبائه في مقبرة القصر المعروفة بالروضة وتمت البيعة لمحمد في قرطبة ولم يعارضه أحد من إخوته .

وكانت الأندلس عند ولاية محمد تخرج بالفن وكثر فيها الخسوارج والمتغلبون فصار في كل جهة متغلب ولم تزل كذلك طول ولايته^(٤) وقد تألب على المسلمين أهل الشرك ومن ضاهاهم من أهل الفتنة الذين جردوا سيوفهم على المسلمين فصاروا بين قتيل ومحروب ومحصور وانقطع الحرث

(١) المرجع السابق ص ١١٣ .

(٢) المرجع السابق ص ١٢٠ عنان دولة الإسلام ص ٣١٧ .

(٣) ولد في النصف من ربيع الآخر سنة ٢٢٩ هـ وأمه تسمى بهار وقيل عشار وتولى الإمارة وعمره ستة وأربعون سنة وتولى سنة ٣٠٠ هـ ومدة إمارته خمس وعشرون سنة وخمسة عشر يوماً .

(٤) ابن الأثير الكامل - ٧ - ص ٤٣٥ .

وكاد ينقطع الفسل ؛ وقد ناضل الأمير عبد الله بكل جهده وطاقته ليحافظ على المسلمين من أعدائهم وندر خروج المجاهدين إلى دار الحرب وصارت بلاد الاسلام بالأندلس هي الشجر المخوف (١) . وكان خراج الأندلس قبله ثلاثمائة ألف دينار مائة ألف منها للجيوش ومائة ألف للنفقة في النواصب وما يعرض ومائة ألف ذخيرة ووفر فأنفقوا الوفر في تلك السنين وقل الخراج (٢) .

ولم تقتصر الثورات على المناطق الجبلية بل امتدت إلى السهول والمدن الكبيرة مثل أشبيلية وبطليوس وجيان ولورقة ومرسية وغيرها وشارك فيها المولدون وبعض زعماء القبائل العربية والبربرية وقامت معارك بين العرب والمولدين وبين العرب والبربر وبين العرب أنفسهم. واستقل زعماء المولدون بالشجر الأعلى وبطليوس وباجة وجيان ومرسية، وغدت أشبيلية مسرحاً للصراع الدموي بين العرب البربر ، واستولى ابن حفصون على معظم الجهات الجنوبية الغربية من الأندلس وهكذا عمت الفتن معظم جهات الأندلس (٣) .

وقد بذل الأمير عبد الله قصارى جهده للقضاء على هذه الثورات وظل يكافح طوال مدة حكمه دون هوادة لئلا تقاذ الدولة من خطر الإنهيار محاولاً القضاء على الفتن وتوجيه الغزوات وخوض المعارك المستمرة التي استنفدت قوى الدولة ومواردها . وإذا كان لم يتمكن من القضاء على الثورات في جميع النواحي فقد وفق في تمزيق شمل كثير من الثوار واستهال بعض زعمائهم الخطرين إليه وبسط سلطان الدولة من الناحية الإسمية على الأقل على بعض

(١) ابن عذارى البيان ج ٢ ص ١٢١ .

(٢) ابن خلدون العبر ج ٤ ص ١٣٣ .

(٣) عنان دولة الإسلام ص ٣١٩ .

القواعد الهامة مثل اشبيلية وسرقسطة ، وكان لذلك أثره في تمهيد الطريق
لتمسكين خلفه عبد الرحمن الناصر من القضاء على عناصر الثورة والخلاف
وتوطيد سلطان الدولة (١) .

وقد بين الوزير المؤرخ ابن الخطيب أسباب انتشار الثورة في الأندلس
في عهد عبد الله بقوله : « والسبب في كثرة الثوار بالأندلس يومئذ ثلاثة وجوه :
الأول . منعة البلاد وحصانة المعامل وبأس أهلها بمقاربتهم عدو الدين فهم
شوكة وحد بخلاف سواهم . والثاني . علو الهمم ، وشموخ الأنوف ، وقلة
الاحتمال لتقل الطاعة ، إذ كان من يحصل بالأندلس من العرب والبرابرة
أشراف بأنف بعضهم من الإذعان لبعض ، والثالث : الاستناد عند الضيقة
والاضطرار إلى الجبل الأشم ، والمعقل الأعظم من ملك النصارى الحرص
على ضرب المسلمين بعضهم ببعض فكان الأمراء من بني أمية يرون أن
الللحاج في أمورهم يؤدي إلى الأضلولة وفيها فساد الأموال ، وتعدر الجباية
وتعربض الجيوش إلى الانتكاب ، وأولياء الدولة إلى القتل ولا يقوم السرور
بنغية الثائر بما يوازيه من ترحة هذه الأمور (٢) .

الثورات في عهده :

وقد تحدث ابن مغازي بالتفصيل عن جملة الثورات في الأندلس في عهد
الأمير عبد الله وسنشير إليهم بإيجاز ليتضح مدى خطورة هذه الثورات
وانتشارها ثم نلقى ضوءاً على ثورة ابن حفصون التي تعتبر من أخطر
الثورات في عهده .

(١) المرجع السابق ٣٣٩، ٣٤٠ .

(٢) أعمال الأعلام ص ٣٩ نقلاً عن عنان دولة الإسلام ص ٣٤٠ .

فقد ثار سوار بن حمدون بحصن منت شافر ، وثار سعيد بن جودي في سنة ٢٧٦ هـ بالعرب في البيرة ، وثار العرب بإشبيلية ، وتغلب إبراهيم بن حجاج على اشبيلية، وثار ديسم بن اسحاق وغاب على مدينتي لورقة ومرسية، وثار سعيد الله بن أمية وملاك كورة جيان، وعبد الرحمن بن مروان ببعلبيوس وماردة ، وعبد الملك بن أبي الجواد بمدينة باجة ، وثار منذر بن إبراهيم ابن السليم بمدينة ابن السليم في شنونة ، ومحمد بن عبد الكريم بن إلياس بقلعة ورد من كورة شنونة ، وثار خير بن شاكر بحصن شوذر من كورة جيان ، وعمر بن مضم المزولي فاستولى على قصبه هزول ، وسعيد ابن هنديل بحصن المنتلون من كورة جيان، وسعيد بن مستنة بكورة باغة ، وثار بنو هابل الأربعة بيمض حصون جيان ، وثار اسحاق بن إبراهيم العقيلي بحصن منتيشة ، وسعيد بن سليمان بن جودي أمرته عرب غرناطة والبيرة ، وثار محمد بن أضحي الهمداني من أكابر أبناء العرب بسكورة البيرة ، وثار بسكر بن يحيى بن بسكر بمدينة شنت مرية من كورة أكشونية، وثار ابنا مهلب من وجوه العرب بسكورة البيرة ، وثار سليمان بن محمد الشذوفي بشريش شنونة ، وثار ابنا جرح بحصن بسكور ، وثار أبو يحيى التجيبي المعروف بالأنقر بمدينة مرقسطة (١) .

ثورة ابن حفصون (٢) :

تعتبر ثورة ابن حفصون من أقوى الثورات التي قامت ضد الإمارة

(١) ابن عذارى البيان - ٢ ص ١٢٣ - ١٢٧ .

(٢) هو عمر بن حفصون بن عمر بن جعفر بن دميان بن فرغلوش بن أذهوش القس ثار بالأندلس وفارق الجماعة أيام محمد بن عبد الرحمن سنة ٢٧٠ هـ فخرج يحمل يدهم من ناحية رية ومالقة وانضم إليه الكثير من جند الأندلس من في قلبه =

الأموية في الأندلس وقد قاومها الأمير محمد وابنه المنذر الذي توفي وهو محاصر لابن حفصون في قلعته وعندما تولى عبد الله الأمارة بعث إلى ابن حفصون إبراهيم بن خمير لأخذ بيعته وبيعة أتباعه فتظاهر ابن حفصون بالقبول وأرسل ولده حفصاً وبعض أتباعه إلى الأمير ، فأخذت البيعة عليهم وردهم الأمير رداً جميلاً ومنحهم الهبات والعطايا ، واشترك مع ابن حفصون في ولاية رية عبد الوهاب عبد الرؤف واليامن قبله لإدارة شئون الولاية ولكن ذلك لم يدم سوى عدة شهور ثم انتفض ابن حفصون وطرد عبد الوهاب عامل الأمير وعاث في الأرض فساداً . فخرج إليه الأمير عبد الله في سنة ٢٧٦ هـ واجتاح منطقة بيشتر وحصون رية وخرّبها ثم عاد إلى قرطبة فخرج ابن حفصون في أثره وكثر المفسدون حوله فاحتلوا استجة فبعث إليهم الأمير جيشاً تغلب عليهم ونزل ابن حفصون واعترف بذنبيه فمقدله الأمير أماناً ولكنه عاد فنقضه وقصد بيانه فخارب أهلها ثم أعطاهم أماناً فلما نزلوا إليه غددهم وقتلهم (١) . وعندما ثار ابن شاكر بجيان أرسل إليه عبد الله الجند بقيادة أحمد بن أبي عبدة فحاصره وقتل جماعة من أصحابه وخرّب معظم دور جيان ثم عاد دون أخضاعه فأرسل ابن حفصون جماعة من أصحابه بحجة مساعدة ابن شاكر ولكنهم فتكوا به وحلوا رأسه إلى ابن حفصون فبعث بها إلى الأمير عبد الله مصانعة له ولكن الأمير لم يخضع بذلك (٢) .

مرض في الطاعة وابتنى قلعته المعروفة به هنا لك واستولى على عرب الأندلس إلى رندة وعلى السواحل من المتجه إلى البيرة وظل ثائراً إلى أن هلك سنة ٣٠٦ هـ فحلفه أبناؤه من بعده إلى أن قضى على ثورته سنة ٣١٥ هـ ابن حلدون العبر ٤ ص ١٣٤ - ١٣٥ .

(١) ابن عذاري البيان ٢ ص ١٢٢ .

(٢) المرجع السابق ص ١٢٣ وعنان دولة الإسلام ص ٣٢٠ .

وقد انتشر شر ابن حفصون في كثير من الجهات حتى بلغ أحواز قرطبة وحاول فرسانه إحراق مخيم الأمير في ضاحية شقندة قرب قرطبة فخرج إليه الأمير في صفر سنة ٢٧٨ هـ في جيش بلغ تعدده ثمانية عشر ألفا وكان معه د جيش ابن حفصون ثلاثين ألفا ودارت بين الفريقين معركة عنيفة على نهر الفوشكة قريبا من حصن بلاى فهزم ابن حفصون وقتل كثير من جنده وفر الباقيون وحاول ابن حفصون اللجوء إلى حصن بلاى ولكن لم يفتده ذلك فارتد ابن حفصون إلى الجبال الجنوبية ودخل المسلمون حصن بلاى واستولوا على ما فيه من ذخائر ولهم يطارد الأمير الثائر جنوبا ولكنه توجه إلى استجة التي كانت تابعة لابن حفصون فحاصرها حتى سلمت له وطلب أهلها العفو فمأعهم .

توجه الأمير بعد ذلك إلى ابن حفصون في بيشتر قاعدته الرئيسية التي لجأ إليها عقب الهزيمة وجمع كثيرا من أنصاره وأتباعه فيها ولكنه لم يخرج للملاقاة الأمير فعات الأمير في تلك المنطقة وحين عودة الجيش إلى قرطبة اشتبك ابن حفصون مع مؤخرة الجيش في معركة هزم فيها ابن حفصون ورد على أعقابها في ربيع سنة ٢٧٨ هـ وقد اضعفت موقعة بلاى من قوة ابن حفصون وقللت من طغيانه ولكنه عاد وجمع أتباعه وخرج إلى البيرة فتغلب عليها فأخرج إليه الأمير جيشا بقيادة ابن أبي عبدة فتغلب على ابن حفصون وهزمه واضطر إلى طلب السلم فوافق الأمير على طلبه ولكنه سرعان ما نقض العهد فأرسل إليه الأمير سنة ٢٨٠ هـ ابنه مطرف بالجيش فحاصر ابن حفصون في بيشتر ودمر عمارتها وعات في أنحائها وقد اعتصم ابن حفصون بمغله ولكنه اضطر إلى الخروج للقاء المطرف في موقعة هزم فيها وقتل اشجع

قواد ابن حفصون حفص بن المرة (١).

وفي سنة ٢٨٤ هـ جمع ابن حفصون أتباعه واستولى على استجة للمرة الثانية فجمع الأمير جنوده ورجعهم إليه في سنة ٢٨٥ هـ بقيادة ابنه أبيان ومعه القائد أحمد بن أبي عبدة فدارت بينهم وبين قوات ابن حفصون عدة معارك ثم عاد الجيش إلى قِطبة دون أن تسفر هذه المعارك عن نتيجة حاسمة .

وفي سنة ٢٨٦ هـ أظهر ابن حفصون ما كان يخفي من اعتناقه للتصرانية وتسمى صمويل وقد حمل ذلك كثيرا من أتباعه من المولدين الذين استقر الإسلام في قلوبهم إلى الإنصراف عنه ومنابدته وعتوا بطاعتهم إلى الأمير عبد الله . وقد اشتد السخط على ابن حفصون في أنحاء الأندلس وجد المسلمون في قتاله ورأوا أن حربه جهاد وقد حاول ابن حفصون أن يقوى مركزه واستخدم شتى الطرق فعمد صداقات ومحالفات . مع الفونس الثالث ملك ليون وبني قسي ، وكان ابن الأغاب صاحب إفريقية وهاداه وأظهر دعوة العباسية بالأندلس وبعث ابن حفصون بطاعته للشيعمة عندما تغلبوا على القيروان من يد الأغالية وأظهر بالأندلس دعوة عبید الله المهدي (٢) .

وقد تابع الأمير عبد الله إرسال الحملات المتتابعة في كل عام بقيادة أبنائه وقواده إلى ابن حفصون ليحاصروا ببشتر مقرة وغيرها من الحصون والمدن التابعة له وحققوا الهزائم المتتابعة عليه وعلى أتباعه وأنصاره وقتلوا

(١) ابن عذارى البيان ٢ ص ١٢٤ ، عنان دولة الإسلام ص ٣٣٢ عبد الوهيد

- الم تاريخ المسلمين وآثارهم ص ٢٦٢ .

(٢) ابن عذارى البيان ٣ ص ١٣٩ ، ابن خلدون الأمير ح ص ١٣٥ عنان

دولة الإسلام ٣٣٣ .

خلالها كثيرا من جنده وعائرا في المناطق التي كان يستولى عليها فسادا واستمر ذلك إلى نهاية عهد الأمير عبدالله سنة ٣٠٠ هـ ومع استمرار الدولة في عهد عبد الله على قنال ابن حفصون وانهاك قواه فإنها لم تنجح في القضاء عليه وإخماد ثورته التي استطاع أن يحمل لواها بقوة ووجد وعزم لا مثيل له ولم يقضى على ثورته إلا في عهد حفيده الذي تولى بعده عبد الرحمن الناصر سنة ٣١٥ هـ (١).

وقد وقعت مجاعة شديدة في عهد الأمير عبدالله في سنة ٢٨٥ هـ قاسى الناس منها كثيرا من المصاعب والأهوال .

حروب خارجية :

شغل المسلمون خلال عهد عبدالله بالقضاء على الفتن الداخلية في الأندلس ومحاربة الثائرين فيها ضد دولة الأمويين في الأندلس . ولكنهم مع ذلك بذلوا جهودهم لحماية حدودهم الخارجية وغزوا جيرانهم بحملات قليلة واستولوا على بعض الجزر وقد اضطلع بذلك بعض الولادة الذين كانوا يتولون الأطراف دون أن يصل إليهم مدد من مقر الدولة في قرطبة .

ففي سنة ٢٨٤ هـ غزا عباس بن عبد العزيز إلى حصن كركي وجبل البرانس وقتل ابن يامين وابن موجول وأخذ حصونهما وتقدم لب بن محمد من بني قسي الذي أقره الأمير عبدالله على حكم تطيلة وطرسونة وما حولها من تطيلة إلى حيز جيان - ونازل حصن قسطلونة وكان فيها نصارى يحاربون عبيد الله بن أمية المعروف بابن الشالية فأخذ الحصن وقتل العجم (٢).

(١) ابن عذاري البيان ٢ ص ١٣٩-١٤٩ ، ابن خلدون العبر ٤ ص ١٣٥
عنان دولة الإسلام ص ٣٢٣ ، ٣٣٤ عند العزيز سالم تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ص ٢٥٩ - ٢٦٥ .

(٢) ابن عذاري البيان ٢ ص ١٣٨ ، ١٣٩ .

وفي سنة ٢٩٠ هـ غزى الب بن محمد أرض إيون واستولى على بعض حصونها وهزم الفونس الثالث في معركة نشبت بينهما^(١) وفي سنة ٢٩١ هـ خرج لب بن محمد إلى بايش من أحواز ألبة ففتح حصون إيلاص وقشتيل سنت ومولة وقتل بهذه الحصون نحو سبعمائة عالج وسبي نحو ألف سبية، وفي العام التالي خرج لب محاصرة سرقة وردد الخندق المجاور لسورها وشرع في البنيان عليها فلما تم له ذلك رحل عنه وترك فيه بعض رجاله^(٢)، وفي سنة ٢٩٤ هـ غزى الب بن محمد نافار وخرج إلى ناحية بنيلونة وشرع في البنيان بحصن هريز فحشد سائشر (شائجة) ملك نافار جميع أهل بلده ووضع أه السكائن وقد تغلب لب على بعض هذه السكائن وفي النهاية أحدقت به السكائن وتمكنت من التغلب عليه وقتله في الثاني عشر من ذي الحجة وهو ابن ثمان وثلاثين سنة وكان لب زعيما مقداما وافر الجرأة والشجاعة. وخلفه في حكم تطيلة أخوة عبد الله بن محمد بن لب مطيعا للإمارة في قرطبة وتابع الإغاثة على أرض النصارى^(٣). وقد ظهر في هذه السنة محمد بن عبد الملك بن شبرط المعروف بالطويل لطوله الفائق وهو من أكار أسر المولدين بالانغر وكان منزلهم بوشقة وبربشتر وقد استولى على حصن بربشتر والقصر وبرطانية وفي العام التالي سنة ٢٩٥ هـ دخل الطويل حصن منشون بمدينة لاردة في المحرم ثم خرج إلى برطانية وافتتح حصونا جمعة وسبى سبيبا كثيرا وقد استمر الطويل بعد ذلك في الإغاثة على أراضي النصارى المجاورة في العام التالي سنة ٢٩٦ هـ خرج الطويل إلى منطقة بيارش في شهر رمضان فمات فيها وقتل كثيرا من النصارى ووهب عليه رسل حصن روطة يرغبون في الصلح

(١) عنان دولة الإسلام ص ٣٣٧ .

(٢) ابن عذارى البيان ص ٢٥ ص ١٤١ ، ١٤٢ .

(٣) المرجع السابق ص ١٤٣ عنان دولة الإسلام ص ٣٣٧ .

ويسمعون بالرهائن والجزية فلم يجيبهم فخرجوا هاربين من الحصن وأخلوه فتقدم اليه وهدمه ثم استولى على حصن منبج بطروش وهو المعروف بجبل الحجارة وفي العام التالي سنة ٢٩٧ هـ خرج الطويل إلى منطقة بليارش ففتح حصون أوريولة ، وغاتير والغيران وهدمها وقتل كثيرا من المشركين وسبي نساءهم وبلغ الغنى في هذه الغزوة ثلاثة عشر ألفا (١) .

وفي سنة ٢٩٨ هـ خرج الطويل وقد اتفق مع عبدالله بن لب إلى ارغون (نافار) للزحف على عاصمتها بنبلونة وسار كل منهما في طريق وأغار الطويل على بعض الحصون وحرقها وهدم الكنائس ولسكنته انسحب عندما علم بأن شانجه يسير لقتاله وعندما علم ابن لب بإنسحاب ابن الطويل أعرض عن ملاقات شانجه ونزل على حصن لوازة من حصون شانجه فقتل جماعة منهم وكر راجعاً فالتقى ببعض خيل شانجه فقتل منهم وسبي وفي العام التالي سنة ٢٩٩ هـ غزا الطويل وادي برشلونة وأغار على وادي طراجة ونشبت بينه وبين حاكمها السكونت شنير معركة هزم فيها السكونت وقتل كثيراً من أصحابه (٢) .

وفي سنة ٢٨٠ هـ استولى الفونس الثالث ملك ليون على مدينة سمورة وأسكنها النصارى وصار يغير منها على الأراضى الإسلامية المجاورة وقد خرج في سنة ٢٨٨ هـ أحمد بن معاوية من ولد هشام بن عبد الرحمن ويعرف بابن القط ودعا لنفسه في أحواز طليطلة وطلبيرة ثم أعلن الجهاد وتوجه إلى سمورة لافتتاحها فقابله الفونس بقواته فهزم النصارى أولاً ولسكنهم تمكنوا من التغلب على ابن معاوية وقتله بعد أن قال ببسالة وشجاعة وبذلك

(١) ابن عدارى البيان ٣ ص ١٤٤ - ١٤٦ .

(٢) المرجع السابق ص ١٤٨ ، ١٤٩ ، عنوان دولة الإسلام ص ٣٢٩ .

انهارت حركته ووطد الفونس سلطانه في تلك الانحما^(١).

وفي سنة ٢٩٠ هـ أرسل الأمير عبد الله عصام الخولاني بأسطول بحري من المجاهدين إلى الجزائر الشرقية (جزر البليار) ميورقة وغيرها فحاصرها أياماً ثم تمكن من فتحها حصناً حصناً إلى أن تم فتحها وولاه الأمير عليها وصارت تابعة للمسلمين وبنى فيها المساجد والفنادق والحمامات^(٢).

الإصلاحات في عهده :

حكمت الأمير عبد الله في الحكم خمسة وعشرين عاماً قضاها في مقاومة الفتن والقضاء عليها ، ومحاربة الثوار وقتالهم ، وحاول جهد طاقته المحافظة على حدود الدولة وقد تولى حجابته عبد الرحمن بن شهيد وسعيد بن السليم ثم عزله ولم يول الحجابة أحداً . ووزراؤه سنة وعشرون ، وكتابة ثلاثة وكان يعاونه من يتولى القضاء ومن يتولى الشرطة ويتولى قيادة الخيل وولاية المدينة ، وولاية السوق .

وكان عبد الله يجالس وزراءه وكبار رجال دولته أكثر أيامه لمناقشتهم في أمور الدولة واتخاذ الخطط للقضاء على الفتنة ، وعمل عبد الله على نشر العدل ورمع الظلم والبغى وفتح باب حديد مشرجاً في القصر سماه باب العدل يقعد فيه للناس يوماً معلوماً من كل جمعة ليباشر أحوال الناس بنفسه ولا يحمل بينه وبين المظلوم ستراً ، فلا يتعذر على ضعيف إيصال بطاقة بيده إليه ولا إنهاء مظلمة على لسانه وكان أهل المكنات وذوى المنازل والأقارب يتحفظون من كل أمر يوجب الشكوى منهم ولا يتعاملون على من دونهم ويهابون عقابه ويتحرون موافقة مذاهم . وكان الأمير عبد الله مقتصدًا في ملبسه ومظاهر

(١) ابن عسار البيان ٢٣ ص ٢٣٤ ، ١٤٠ عنان دولة الإسلام ص ٣٤٠ ، ٣٤١

(٢) ابن خلدون ص ٤٠ ص ١٦٤ عنان دولة الإسلام ص ٣٤١ ، ٣٤٢ .

حياته وجميع أحواله محنشا في حياته الخاصة . ورعا محبا للخير وأهله كثير التواضع منكر للسرف وأهله كثير البر على الفقراء والمحتاجين وخصص لهم سهما من الحبايات وكان حافظا للقرآن كثير التلاوة له دائم الخشوع والذكر لله بصيرا باللغات حافظا لأشعار العرب وأيامها وسير الخلفاء فكانت اللذات من أيامه مهجورة وكان لذلك أثر كبير في تقويم الأخلاق ودعم الفضيلة والإقتصاد في الليل والملاذ في عصر كثرت فيه الخطوب والمحن .

ولكثرة الثورات والفتن وانشغال الدولة بالقضاء عليهم لم يقم في عهده أعمال إنشائية سوى د الساباط ، الموصل بين القصر والمسجد الجامع وهو عم مسقوف مبنى فوق عقد كبير يفضى من القصر إلى الجامع ويتصل به على مقربة من المحراب . كما استقر جماعة من البحرانيين في بجانة وبنوا سورها فأما الناس من كل مكان وأقبلوا يسكنونها فرارا من الفتنة في الأندلس وفي سنة ٢٧٥ هـ كتب البحرانيون الذين اختطروا مدينة بجانة إلى الأمير عبد الله يسألونه إقرار واليهم عليهم وإعفاءهم من غيره وإباحتهم البنيان حول قصبة بجانة والتوسع في عمرانها ومرافقها لتكثر الناس في المدينة فأجابهم إلى ذلك . فتوسعوا في الاختطاط بأرض بجانة في بداية عهده وأقاموا حولها عشرين حصنا منها وادي بجانة والحامة والحباية ، وبني طارق في الغرب وحصن ناشر في الشرق وحصن برشانة في الشهاب بجوار جبال الرخام وحصن عالية .

وفي ليلة الخميس مستهل ربيع الأول سنة ٣٠٠ هـ توفي الأمير عبد الله بن محمد ، دفن بالقصر مع آبائه وأجداده وهو ابن اثنتين وسبعين سنة بعد حكم استمر خمسا وعشرين سنة قضاها مكافحا مناضلا للقضاء على الفتن ، المحافظة على حدود الدولة بقول ابن عذارى وكانوا يعدونه من أصحاب خلفاء بني

أمية بالاندلس وأمثالهم طرقتهم معرفة وأمتهم ديانة إلا أنه كان منغص الحاك بدوام الفتنة وتضييق نطاق الخطة ونقصان مقدار التزكية ، حتى كان يتخاله الرباء تحت قناع تقواه والبخل يطوقه طبيعة ليست له تحط من هواه وغمص دينه لما كان من هوان الدماء عليه بسبب الفتن الطارئة حتى من ولديه .

وقال عنه الفقيه محمد بن حزم : « لأنه كان قتالاتهون عليه الدماء مع كثرة إقباله على الخيرات وإعراجه عن المنكرات » . ثم يتهمة بقتل أخيه المنذر وقتل ولديه محمد والمطرف وقتل أخوين له هشاما والقاسم ويعلق ابن هذاري على ذلك بقوله والله أعلم بحقيقة أمره (١) .

والذي يبدو لي أنه قد بذل جهدا كبيرا في مقاومة الفتن والمحافظة على الدولة ومقاومة الخارجين عليها ولم يتوان في ذلك بل بذل كل جهده وطاقته حفاظا على الدولة وحماية لها حتى تولاه حفيده عبد الرحمن الناصر الذي أعاد للدولة وحدتها وقوتها وتقدمها وازدهارها وذلك ما سنتحدث عنه في الجزء الثاني إن شاء الله .

(١) ابن عدي ص ٣٠٢ ، ١٥٦ ، عنان دولة الإسلام ص ٣٤٢ - ٣٤٧

عبد العزيز سالم تاريخ المسلمين وأثارهم ص ٢٧٤ - ٢٧٥ .

ثبت ببعض المصادر والمراجع

- ابن الأبار : أبو عبدالله محمد بن عبدالله (ت ٦٥٨ هـ - ١٢٦٠ م)
الحلة السراء : جزءان : نشر حسين مونس (القاهرة ١٩٦٣ م)
إبراهيم شعوط دكتور :
أباطيل يجب أن تمحى من التاريخ دار الطباعة المحمدية ١٩٦٥ م
إبراهيم العدوى دكتور :
— موسى بن نصير أعلام العرب عدد أغسطس سنة ١٩٦٧ م
ابن الأثير أبو الحسن علي بن محمد الجزري (ت ٦٢٠ هـ / ١٢٢٣ م)
— أسد الغابة في معرفة الصحابة ١٥ نشر مطابع الجمعية التماونية
— الكامل في التاريخ دار صادر بيروت ١٩٦٥
أحمد إبراهيم الشعراوى دكتور :
— الأمريون أمراء الأندلس الأول دار النهضة العربية ١٩٦٩ .
أحمد بدر دكتور :
— دراسات في تاريخ الأندلس وحضارتها مطابع ألف باء الأديب
دمشق سنة ١٩٦٩ م
أرسلان الأمير شكيب أرسلان
— تاريخ غزوات العرب في فرنسا سويسرا وإيطاليا وجزر البحر المتوسط
مطبعة الحلبي
الاصطنخري أبو اسحق إبراهيم بن محمد الفارسي توفي في النصف الأول من القرن
الرابع الهجري
— المسالك والممالك تحقيق محمد جابر عبد المال نشر دار القلم سنة ١٩٦١ م
الباجي : أبو عبدالله محمد الباجي المسعودي :
— الخلاصة النقية في أمراء أفريقية مطبعة الدولة التونسية بتونس سنة

ابن بشكوال : أبو القاسم خلف بن عبد الملك
— الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلماهم ومحدثهم وفقهاهم وأدباهم
١ ، ٢ ، طبع في مجريط روكس سنة ١٨٨٢ م
البلاذري أحمد بن جابر ت ٢٧٩ هـ

— فتوح البلدان نشر د . صلاح المنجد مكتبة النهضة

ابن حرم أبو محمد علي بن سعيد ت ٤٥٦ هـ
— جهرة أنساب العرب تحقيق ليفي بروفنسال دار المعارف مصر

حسن إبراهيم حسن دكتور

— تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي مكتبة النهضة ١٩٧٤

— تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر وسورية وبلاد العرب مكتبة

النهضة المصرية سنة ١٩٦٤

حسن حسنى عبد الوهاب

— خلاصة تاريخ تونس الطبعة الثانية

حسن سليمان محمود

— ليبيا بين الماضي والحاضر

حسين مؤنس دكتور :

فتح العرب للمغرب الناشر مكتبة الآداب بالجاميز

الحبيدي . أبو عبد الله محمد بن أبي نصر الأزدي ت ٤٨٨ هـ

.. جذوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس المكتبة الأندلسية الدار

المصرية للتأليف والترجمة سنة ١٩٦٦ م

ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد بن خلدون المغربي

— العبر ودوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم

من ذوى السلطان الأكبر مؤسسة الإعلبي بيروت سنة ١٩٧١ م

ابن خلكان شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد الشافعي
— وفيات الأعيان تحقيق الشيخ محي الدين عبد الحميد مكتبة النهضة المصرية

سنة ١٩٤٨ م

الدباغ عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الأنصاري
— معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان مكتبة الخانجي سنة ١٩٦٨
دبوز : محمد علي دبوز

— تاريخ المغرب ٢ طبع دار أحياء الكتب العربية ١٩٦٣

ابن أبي دينار محمد بن أبي القاسم بن عمر القيرواني ت ١١١٠ هـ
— المؤنس في تاريخ أفريقيا وتونس تحقيق محمد شهاب المكتبة العتيقة بتونس

الديوي : أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة ت ٢٧٦ هـ

— الإمامة والسياسة

الرفيق القيرواني أبو اسحق إبراهيم بن القاسم ت في القرن الخامس الهجري
— تاريخ افريقية والمغرب تحقيق المنجي الكعبي مطبعة الوسط بتونس

ابن سعد محمد سعد كاتب الواقدي

— الطبقات الكبرى دار التحرير للطبع والنشر

السلامي . أحمد بن خالد الناصري

— الاستقصا لاخبار دول المغرب الأقصى المطبعة البهية بالقاهرة ١٣١٢ هـ

سيد أمير علي

— مختصر تاريخ العرب ترجمة عفيفي البعلبكي دار اللبلايين سنة ١٩٦٧

السيد عبد العزيز سالم دكتور

— المغرب الكبير ٢ الدار القومية للطباعة والنشر سنة ١٩٦٦ م

— تاريخ المسالين وآثارهم في الأندلس دار المعارف بيروت سنة ١٩٦٢ م

شكري فيصل دكتور

— حركة الفتح الإسلامى فى القرن الاول دار العلم للملايين سنة ١٩٥٢ م

الطاهر أحمد الزاوى الطرابلس

— تاريخ الفتح العربى فى ليبيا دار المعارف سنة ١٩٦٣

الطبرى ابو جعفر محمد بن جرير الطبرى ت ٣١٠ هـ

— تاريخ الامم والملوك دار المعارف سنة ١٩٧٢

ابن عبد الحكم ابو القاسم عبدالرحمن بن عبدالله بن عبد الحكم القرشى المصرى ت ٥٢٥٧

— فتوح مصر وأخبارها طبع ليدن بمطبعة بريل سنة ١٩٣٠ م

العبادى : عبد الحميد العبادى

— المجلد فى تاريخ الاندلس مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٨ م

العبادى : احمد مختار العبادى

— دراسات فى تاريخ المغرب والاندلس مطبعة المصرى اسكندرية ١٩٦٨ م

على حبيبة دكتور

— مع المسلمين فى الاندلس مكتبة الشباب سنة ١٩٧٢ م

على حمودة دكتور

— تاريخ الاندلس السياسى والعمرانى والاجتماعى

عنان : محمد عبدالله عنان

— دولة الإسلام فى الاندلس مطبعة الخانجى ١٩٦٠ م

ابن عدارى ابو عبدالله محمد المراكشى

— نابان المغرب فى اخبار الاندلس والمغرب تحقيق لىنى بروفانسال الدار

التونسية للنشر سنة ١٩٦٨

أبو العرب تميم محمد بن أحمد التميمي القيرواني ت ٣٢٣ هـ
— طبقات علماء إفريقية وتونس تحقيق علي الشاذلي ونعيم حسن اليافي الدار
التونسية للنشر سنة ١٩٦٨

غستاف لوبون

— حضارة العرب - ترجمة عادل زعيتر دار أحياء الكتب العربية القاهرة
١٩٥٦ م

ابن القوطية أبو بكر محمد بن عمر ت ٣٦٧ هـ
— تاريخ افتتاح الأندلس تحقيق إبراهيم الإبياري مطبعة نهضة مصر
القاهرة ١٩٨١

ابن الفرض أبو الوليد عبدالله بن محمد الأزدي
— تاريخ علماء الأندلس المكتبة الأندلسية الدار المصرية للتأليف والترجمة
سنة ١٩٦٦ -

كارل بروكلان

— تاريخ الشعوب الإسلامية دار العلم للدلايين بيروت ١٩٦٠ م

السكندي أبو هرير محمد بن يوسف بن يعقوب

— كتاب الولاية والقضاة مطبعة الآباء اليسوعيين بيروت سنة ١٩٠٨ م

الماسكي أبو بكر عبدالله بن أبي عبدالله الماسكي

— رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية نشر حسين مؤنس

مكتبة النهضة المصرية ١٩٥١ م

مبارك محمد الهلالي الميلي

— تاريخ الجزائر في القديم والحديث مكتبة النهضة الجزائرية

أبو المحاسن جمال الدين يوسف بن تغري بردي الأنايكي

— النجوم الزاهرة في ملوك القاهرة دار الكتب المصرية ١٩٢٩

محمد الفاضلي

— التعريف بالمغرب طبع معهد الدراسات العربية سنة ١٩٦١ م

محمود شيت خطاب

— قادة فتح المغرب العربي دار الفتح للطباعة والنشر بيروت ١٩٦٦ م

المرا كشي يحيى الدين أبو محمد عبد الواحد بن علي التميمي

— المعجب في تلخيص أخبار المغرب تحقيق محمد المريان مطبعة الاستقامة

القاهرة ١٩٤٩ م

المقدمي شمس الدين أبو عبد الله محمد الشافعي المعروف بالبشاري

— أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم مطبعة بريل بلندن ١٩٠٦ م

الوافدي أبو عبد الله محمد بن عمر الواقدي ت ٢٠٧

— فتوح الشام مطبعة الحلبي سنة ١٩٥٤ م

ياقوت شهاب الدين أبو عبد الله الحموي الرومي البغدادي

— معجم البلدان مطبعة السعادة

اليقوي أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح

— تاريخ اليعقوبي دار صادر بيروت ١٩٦٠ م

الفهرس

الصفحة	الموضوع
٣	المقدمة
٥	تمهيد في معنى انظر إفريقيا والمغرب وحدودهما
٦١ - ٨	الفصل الأول الفتح الإسلامي في إفريقيا
٧	فتح رقبة
١٠	فتح طرابلس
١٤	فتح إفريقية
١٤	غزوة عبد الله بن سعد بن أبي السرح
٢٣	غزوة معاوية بن حديج
٢٦	عقبة بن نافع في إفريقية
٢٩	أبو المهاجر دينار
٣٢	عقبة بن نافع في إفريقية ثانياً
٤١	زهير بن قيس البلوي يسترد القيروان
٤٨	حسان بن النعمان الغساني يثبت أقدام المسلمين في إفريقية ويقضى على مقاومة الروم والبربر
	الفصل الثاني
٨٢ - ٦٢	الحالة السياسية في إفريقية بعد أن تم فتحها
٦٢	عصر الولاية من بني أمية وبني العباس
٦٢	ولاية موسى بن نصير
٦٤	ولاية محمد بن يزيد وإسماعيل بن عبيد الله
٦٥	ولاية يزيد بن أبي مسلم وبشر بن صفوان السكلي
٦٦	ولاية عبيدة بن عبد الرحمن الساسي

الصفحة	الموضوع
٦٧	ولاية عبيد الله بن الحبحاب
٦٩	ولاية كلثوم بن عياض القشيري
٧٠	ولاية حنظلة بن صنوان الكلبي
٧٢	ولاية عبد الرحمن بن حبيب الفهري
٧٤	ولاية محمد بن الأشعث الخزاعي
٧٥	ولاية الاغلب بن سالم التميمي
٧٦	ولاية عمر بن حفص
٧٧	ولاية يزيد بن حاتم
٧٨	ولاية روح بن حاتم ونصر بن حبيب المهدي
٧٩	ولاية الفضل بن روح وهرثمة بن أعين
٨٠	ولاية محمد بن مقاتل السعدي

الفصل الثالث

عصر الاغالبة

٨٣ - ١٤٨	قيام دولة الاغالبة
٨٣	إبراهيم بن الاغلب يثبت أركان دولته
٩٤	أمراء دولة الاغالبة
٩٩	زيادة ملته الأول
١٠٠	محمد الأول
١٠٣	أحمد بن محمد وزيادة الله الأصغر ومحمد بن أحمد
١٠٤	إبراهيم بن أحمد
١٠٥	فتوحات دولة الاغالبة
١١١	أهمية موقع صقلية
١١٢	حالة المجتمع الصقلية
١١٣	محاولة المساميين غزو صقلية وما حولها
١١٥	أسباب فتح صقلية
١١٦	

الصفحة	الموضوع
١١٩	حملة الفتح
١٢٣	استمرار الجهاد
١٢٨	من قصر يانة إلى سقوط سرقوسة
١٣٢	نتائج فتح صقلية
١٣٥	علاقاتها بجيرانها وسقواطها
١٣٥	جيرانها من الغرب والشمال
١٣٧	جيرانها من الشرق
١٤٠	الاسباب الداخلية لسقوط الدولة
١٤٣	الاسباب الخارجية لسقوط الدولة
١٤٦	استيلاء أبي عبد الله الشيعي على رقادة والقيروان
	الفصل الرابع
١٤٩ - ١٩٠	فتح الأندلس
١٤٩	حالة الأندلس قبل الفتح الإسلامي
١٥٤	المسلمون يفتحون الأندلس
١٥٤	أسباب فتح الأندلس
١٥٦	العوامل المساعدة والممهدة للفتح
١٥٧	كيف تم فتح الأندلس
١٦٢	حرق طارق للسفن
١٦٥	إتمام فتح الأندلس
١٧٠	ما يتحدث عنه المؤرخون من أمور وقعت أثناء الفتح
١٨٠	نتائج فتح الأندلس
١٨٠	الوضع السياسي
١٨٢	الوضع الاقتصادي
١٨٣	الوضع العسكري والوضع الديني
١٧٤	التقسيم الإداري

الصفحة	الموضوع
١٨٥	الوضع الاجتماعي
	الفصل الخامس
١٩١ - ٢٢٢	الآنندلس في عهد الولاة
١٩١	عبد العزيز بن موسى بن نصير
١٩٤	السمون بن مالك الخولاني
١٩٩	عنبسة بن سجين الكلابي
٢٠٦	عبد الرحمن بن عبد الله الخافقي
٢٠٧	موقعة بلاط الشهداء
٢١٠	منزلة هذه المعركة
٢١٤	عبد الملك بن قطن الفهري
٢١٥	عقبة بن الحجاج
٢٢٠	ولاية عبد الملك بن قطن الثانية
٢٢١	ولاية بلج بن بشر و ثعلبة بن سلامة
٢٢٢	ولاية أبي الخطار الحسام بن ضرار الكلابي
٢٢٤	آخر الولاة يوسف بن عبد الرحمن الفهري
٢٢٧	حاله الآنندلس آخر عهد الولاة
	الفصل السادس
١٣٣ - ٢٧٠	قيام الدولة الاموية في الآنندلس
٢٣٣	سقوط الدولة الاموية في المشرق
٢٣٦	عبد الرحمن بن معاوية ينجو من العباسيين ويتوجه إلى إفريقيا
٢٤٢	عبد الرحمن يتطالع إلى الآنندلس
٢٤٥	عبد الرحمن الداخل في الآنندلس
٢٤٩	موقعة المصارع والاستيلاء على قرطبة
٢٥٤	عقبات واجهت عبد الرحمن وتغاب عليها
٢٦٥	منزلة عبد الرحمن وإصلاحاته

الفصل السابع

أمرأة بنى أمية في الأندلس بعد عبد الرحمن الداخل - ٢٧١ -

٢٧١	هشام بن عبد الرحمن
٢٧٢	الثورات الداخلية في عهده
٢٧٣	الحروب الخارجية
٢٧٥	الإصلاحات في عهده
٢٧٧	الحكم بن هشام
٢٧٨	الثورات الداخلية في عهده
٢٨٤	الحروب الخارجية
٢٨٧	الإصلاحات في عهده
٢٩٠	عبد الرحمن بن الحكم
٢٩١	الثورات والفتن الداخلية
٢٩٦	الحروب الخارجية في عهده
٣٠٠	الإصلاحات في عهده
٣٠٣	محمد بن عبد الرحمن بن الحكم
٣٠٥	الثورات الداخلية
٣٠٩	الحروب الخارجية
٣١٣	الإصلاحات في عهده
٣١٦	المنذر بن محمد
٣١٩	عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن
٣٢١	الثورات في عهده
٣٢٢	ثورة ابن حفصون
٣٢٦	حروب خارجية
٣٢٩	الإصلاحات في عهده
٣٣٢	المصادر والمراجع
٣٤٣	التراجم

خريطة المغرب وخريطة الأندلس

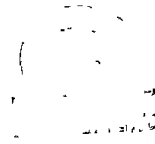
للمؤلف

- ١ - المسلمون في الفلبين جهادهم ومشكلاتهم - دار الوفاء للطباعة
سنة ١٩٨٢ م
- ٢ - أضواء من سيرة محمد ﷺ بالاشتراك مع الدكتور عبد العزيز غنيم
دار الوفاء للطباعة ، الطبعة الثانية سنة ١٩٨٢ .
- ٣ - الخلفاء الراشدون بالاشتراك مع الدكتور عبد العزيز غنيم ، دار الوفاء
للطباعة سنة ١٩٨١ .
- ٤ - تاريخ الدولة العباسية وحضارتها مطابع دار الهلال الرياض ١٩٧٨ .
- ٥ - دراسات في تاريخ مصر الإسلامية دار الوفاء ١٩٨٣
- ٦ - مشكلة مسلمي الفلبين منذ الاحتلال الاسباني حتى الوقت الحاضر (بحث
قدم إلى المؤتمر الجغرافي الإسلامي الأول الذي عقد في جامعة الإمام محمد بن
سعود بالرياض سنة ١٩٨٩)
- ٧ - العلاقات الثقافية بين القيروان وبين مراكز الفكر في الشرق حتى
منتصف القرن الرابع الهجري (مجلة كلية العلوم الاجتماعية جامعة الإمام محمد
بن سعود بالرياض العدد الأول ١٩٧٧) من ص ٣٦٧ إلى ص ٣٨٣
- ٨ - تحايل تاريخي لما يذكره المؤرخون عن موسى بن نصير في فتح الأندلس
(مجلة كلية العلوم الاجتماعية - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض العدد
الثاني سنة ١٩٧٨ من ص ٣٥٠ إلى ص ٣٦٨)
- ٩ - العلاقات الثقافية بين القيروان وبين المراكز الفكرية في المغرب حتى
منتصف القرن الرابع الهجري (مجلة كلية العلوم الاجتماعية جامعة الإمام محمد بن
سعود الإسلامية بالرياض العدد الثالث سنة ١٩٧٩) من ص ١٩١ إلى ٢٠٦

- ١٠ - الفتح الاسلامى للاندراس دراسة وتحليل (مجلة كلية العلوم الاجتماعية جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية بالرياض العدد الرابع سنة ١٩٨٠) من ص ٣٠٣ إلى ٣٣٢ .
- ١١ - عائد من الفلبين مجلة الأزهر عدد أبريل وأغسطس سنة ١٩٦٦ ، ١٩٦٧
- ١٢ - مع بمته الفقهاء إلى شمال إفريقيا مجلة الهدى الاسلامى ليبيا سنة ١٩٧٠
- ١٣ - المسلمون في المغرب والاندراس الجزء الأول دار الوفاء للطباعة
- ١٤ - موقف المجتمع المكي من الدعوة دار الوفاء للطباعة
- ١٥ - تأثير الأزهر في الخارج بين الماضي والحاضر ، مجلة الأزهر رمضان ١٤٠٣ هـ
- ١٦ - الحياة الفكرية في القيروان بين التأثر والتأثير حوالة كلية اللغة العربية سنة ١٩٨٣ .

تحت الطبع :

- الجانب الحضارى لرحلة ابن بطوطه في جزيرة العرب .
- مواقف مشرقة لعلماء القيروان .



المركز القومي للدراسات والبحوث
والإعلام (CIC) - الرياض
National Center for Studies and Research
and Information (CIC) - Riyadh

رقم الإيداع بدار المكتب ٨٣/٤٢٥٦

To: www.al-mostafa.com